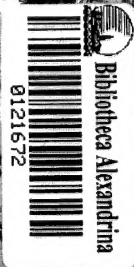


مطبوعات

كتابخانہ

مصطفى أمين

من واعد احسنه



مطبوعات

كتاب اليوم

امتسه

مصطفى أمين وعلى أمين

سلسلة الشوامخ

رئيس مجلس الإدارة

سعيد سنبل

العدد ذوالقعدة ١٤١٠ هـ

٣١٠ ١٥ يونيو ١٩٩٠ م

حزيران

الصحافة ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط

تلكس دولي ٩٢٢١٥ - محلي ٩٢٢٨٢

● الغلاف : محمود الهندي

● الرسوم الداخلية والمالكيت : محمد عفت

الطبعة الأولى ١٩٧٧ صدرت عن المكتب المصرى الحديث
 الطبعة الثانية ١٩٨١ صدرت عن المكتب المصرى الحديث
 الطبعة الثالثة - كتاب اليوم ، يوليو ١٩٩٠

عمري .. قصة حب !

كيف احسب عمري ؟ بالصحف التي اصدرتها او اشتركت في تحريرها ؟

بعدد تلاميذي ام بعدد قرائي ؟

بالانتصارات التي حققتها ؟ ام بالهزائم التي منيت بها ؟
بالمرات التي خفق فيها قلبي ؟ ام بالصدقات الحلوة التي تمتعت بها ؟
احسب ان العمر هو كل هذا ، ولو كانت هذه القاعدة الحسابية صحيحة
فلا بد انني عشت الالف السنين !

وقديما قالوا ان عمر الانسان يحسب بالايام السعيدة التي عاشها ، وبهذا
اكون قد عشت كل يوم من ايام حياتي الصحفية التي بدأتها في طفولتي ، فان
كل كلمة كتبتها اسعدتني ، حتى لو كلفتني حريتي وحياتي بعد ذلك ، فانا
اشعر وانا امسك قلمي انني اعانق اجمل امرأة في العالم ، ولهذا عشت قصة
حب طويلة ، ولا اتصور انني اعيش يوما في حياتي بغير قلم ، فلقد كان هذا
القلم دائما صديقي وحبيبي ، اعطيته واعطاني ، وعشقتة واخلص لي ،
وعندما اموت ارجو ان يضعوه بجواري في قبري ، فقد احتاج اليه اذا كتبت
تحقيقا صحفيا عن يوم القيامة !

ولقد سألت نفسي اليوم لو كنت اختار لنفسى فترة عمري في التاريخ ، فاي
فترة اختارها ؟ ووجدتني اختار نفس الفترة التي عشت فيها ، فلقد عشت
ثورتين كبيرتين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ وكان من حسن حظي اني كنت قريبا
من قائد الثورة الاولى سعد زغلول بحكم مولدى ومن قائد الثورة الثانية جمال
عبدالنصر بحكم عملى ، وشهدت حريين عالميتين ، ورأيت نتائج الحزب
العالمية الاولى ونتائج الحرب العالمية الثانية ، التي غيرت حياة البشر
وتفكيرهم .

وعاصرت وصادقت وحاربت رجالا كبارا امثال الملك عبدالعزيز بن سعود
وغاندى وشكري القوتلى ورياض الصلح وسعد الله الجابري والدكتور احمد
ماهر ومحمود فهمى النقراشى واسماعيل صدقى ومحمد محمود وعلى ماهر
واحمد حسنين وطلعت حرب ولطفى السيد وعباس محمود العقاد وطه حسين
وعدها من عباقرة الشرق وساسته وكتابه ونجومه وابرز من فيه .

وعشت صراع الشعوب المستعبدة ، وهى تحطم قيودها وتكسر أغلالها وتنقض على مستعبديةها ، ورايت بلدى يتحول عدة مرات من مستعمرة إلى دولة مستقلة ، الشعب فيها أصبح صاحب الجلالة وصاحب السمو وصاحب الدولة وصاحب السعادة وصاحب العزة . ورايت فلاحا مصرية يجلس فى مقعد رئاسة الجمهورية ، وعاملا مصرية يصبح وزيرا ، وامرأة مصرية تجلس فى كرسى الوزارة ، وراقبت اعلام الدول الكبرى وهى تنزل من ساريات كل الدول العربية ، وترتفع بدلا منها الاعلام العربية معلنة ان الشعب العربى خرج من القفص الذى سجنه الاستعمار فيه .

وسمعت ام كلثوم وهى تغنى ، ورايت نجيب الريحانى وهو يمثل ، وجلست مع محمد عبدالوهاب وهو يلحن ، وحضرت امير الشعراء احمد شوقى وهو ينظم شعره الخالد !

واجتمعت بعدد من عباقرة العالم الكبرى مثل نهرو وتشيرشل وفرانكلين روزفلت واينشتاين وشارلى شابلين ..

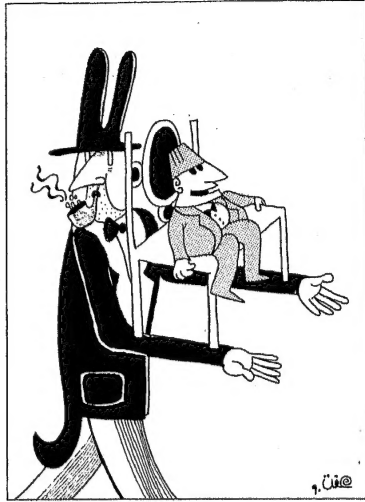
وشاركت فى صنع صحافة عظيمة فى بلادى ..

واليوم احاول ان اكتب السنوات العشر الاولى من حياتى ..

إنها ليست قصتى .. إنها قصة مصر التى عشتها !

وإلى اللقاء فى « من ١١ إلى ٢٠ » !





● الفصل الأول ●

جلست الأسرة إلى المائدة استعداداً لتناول الغذاء .
 بقى المقعد في راس المائدة الطويلة شاغراً . إنه مقعد
 عميد الأسرة . لا يجلس فيه أحد سواه . لا أحد يجزؤ
 على الجلوس في هذا المقعد الخالي حتى لو سافر عميد
 الأسرة أو تخيب عن القاهرة . الساعة اقتربت من
 الثالثة بعد الظهر ولم يحضر عميد الأسرة . لقد تأخر
 عن الحضور على غير عادته . ولا تستطيع الأسرة أن تبدأ في تناول طعامها قبل
 أن يجيء عميدها . إن الطعام يصبح بغير طعم إذا لم يذقه قبلهم . ان كل
 واحد منهم يحس بشرف كبير لأنه سيجلس مع عميد الأسرة لتناول الطعام .

فليس الذّ واشهى ما على المائدة اطعمتها ، وإنما الشهى اللذيذ فيها هو حديث عميد الأسرة على المائدة . فالغداء يطول عادة ساعة والعشاء يطول ساعتين . وتناول الطعام لا يستغرق إلا بضعة دقائق . أما الوقت الباقي فيمضونه في الحديث يستمعون لعميد الأسرة وهو يحدثهم حديثا شائقا لذيذا فيه أخبار وفيه أسرار- وفيه طرائف وفيه مداعبات ، وعميد الأسرة لا يعطيها من وقته إلا هذه الساعات القليلة . وإن كانوا في كثير من الأحيان لا يستأثرون بها ، فيشاركونهم في الطعام زوار لا ينقطعون لا في الغداء ولا في العشاء . وعندئذ تختفى النساء من المائدة ولا يبقى إلا الرجال . فقد كانت التقاليد في تلك الأيام ألا تجالس السيدات الرجال ، بل أن بعض الأزواج لم يكونوا يسمحون لزوجاتهم بالجلوس معهم أثناء تناول الطعام ، فتقف الزوجة وراء زوجها وهو يأكل ، وتتولى خدمته . تحمل الأطعمة إليه ، تغير له الأطباق ، وتحمل الدورق ، وتسكب الماء على يديه وهو يغسلهما بالصابون ، وبعد أن يترك الزوج المائدة ، تجلس الزوجة لتتناول طعامها وحدها ، أو تشاركها الخادما

فيه !

ولكن عميد هذه الأسرة كان يسمح لأسرته بأن تتناول الغداء معه ، وكانت الأسرة تعتبر هذا التكريم شرفا ما بعده شرف ، وثورة على تقاليد الفلاحين التي يحرص عليها عميد الأسرة ، وميزة لا تتمتع بها باقي الأسر التي تحرص على عادات الفلاحين .

كان عميد الأسرة فلاحا بنشأته وتربيته وتفكيره ومزاجه ، سافر إلى أوروبا وعاد منها فلاحا . نال شهادة ليسانس الحقوق من باريس وعاد منها فلاحا . تزوج ابنة رئيس وزراء مصر ولا يزال فلاحا . الفلاح فيه أبرز صفاته ، وأقوى خصائصه .. فيه كل ما في الفلاح المصري من مزايا ومن عيوب . فيه طيبة الفلاح ودهاؤه . فيه تواضع الفلاح وكبرياؤه ، فيه سخرية الفلاح وإيمانه . فيه صبره وإصراره . فيه تعصبه وسماحته . فيه جراءة في حذر ، وحلم في غضب ، يتأرجح ويتردد ثم ينقض ، يتقهقر ليهاجم . يغمض عينيه ولا ينام . يحنى رأسه للطغاة وهو يلعنهم ، يحسبه القوى مستكبرا وهو يستعد للانقضاض . يتظاهر بالهدوء وهو يتنمر ليتحول إلى عاصفة .

وعميد الأسرة في بيته هو هذا الفلاح . جاء باخلاق الفلاحين في أكوأخهم إلى هذا القصر الذي بناه في مدينة القاهرة . لم تصبه حمى الدببة وتقاليد الحضارة الأوروبية . ولم تطبعه المدنية بطابعها التركي الذي حملته إليها نساء الشراكسة اللاتي تزوجن الكبراء والأثرياء . ورغم أن عميد الأسرة عكف على كتب الغرب يلتهمها ، وطاف بعواصم أوروبا ، ومغانياها ، وأحبته إحدى الأميرات ، وقد لهث في حبه ، وحاولت ، عبثا أن تتزوجه ، وصاحب

الوزراء والكبراء وغشى نواديهم وصالوناتهم برغم كل هذا فقد ظل فلاحا مصريا ، او كما يقول لأسرته دائما إنه يرتدى الجاكته والبنتلون فوق جلابية الفلاح الزرقاء !

وقد خضعت الأسرة كلها لارادة هذا الفلاح ، فقد كانت تعتبره إلهها الصغير . وكانت زوجته تروى عنه انه قال عندما خطبها انه لا يجب ان تضع زوجته طلاء على وجهها . وانها خضعت لارادته فلم تضع بودرة على وجهها او مساحيق في فرجها او ليلة زفافها ، فكانت العروس الوحيدة في تلك الايام التي لم تتزين يوم زفافها ، وبقيت كذلك لا تضع على وجهها ذرة واحدة من البودرة الى آخر يوم في حياتها !

وقالت الزوجة انه في ليلة زفافها قالت لها امها ان العريس سوف يصحبها في عربية حانطور من بيت أبيها إلى بيته في حي الظاهر ، وعندما تقف العربية أمام بيت العريس ، سينزل العريس ويقول لها : تفضلي ! فتمتنع عن النزول . فيقول لها للمرة الثانية : تفضلي ! فتمتنع . ثم يقول لها للمرة الثالثة : تفضلي ! وعندئذ تنزل من العربية وتتبع العريس الى داره .. وإن هذه هي التقاليد التي تتبع في العائلات الارستقراطية الكبيرة !

واطاعت العروس الصغيرة تعليمات امها . فما ان وقفت العربية ونزل منها العريس وقال بصوت أمر : تفضلي حتى انكشيت العروس الصغيرة في زاوية العربية الحانطور وتمنعت ولم تنزل من العربية كما قالت لها امها وكما تقضى التقاليد !

وفوجئت العروس بالعريس يتركها ويمشى في طريقه الى داره ، وعندها وجدت نفسها تقفز من العربية وتعدو وراءه !!

وكانت الزوجة تروى هذه القصة دائما وهي تقول :
— ومنذ تلك اللحظة أصبحت أجرى وراءه دائما !

وهكذا لم تشعر هذه العروس الصغيرة إلا ان هذا الرجل سيدها وإلهها الصغير . لا تتحرك إلا بإذنه . ولا تتكلم إلا همسا . نسيت منذ تلك اللحظة انها ابنة رئيس وزراء مصر الذي تولى حكم مصر ١٤ سنة بغير انقطاع . ونسيت انها ولدت وابوها وزير ، وانها كانت طفلة أبيها المدللة . وانها عاشت طفولتها في قصر أبيها الحاكم بين الحوارى والاغوات . وقد كان لديها في قصر أبيها اغا اسمه فيروز ، حملها وهي طفلة فلما تزوجت اهدتها امها هذا الاغا ، وإذا بعريسها يرفض هذه الهدية ويقول انه يرفض ان يعيش في بيته اغا . لأن خصى الرجل وحرمانه من رجولته وبيعه كالرقيق عمل غير انساني . وهو لا يقبل ان تعيش في بيته جريمة تمشى على قدمين ! وهكذا كان في بيت

أختها اغا خاص بها ، وفي بيت أختها الثانية اغا خاص بها ، وهى وحدها التى ليس فى بيتها احد من الاغوات .

وفوجئت العروس بهذه الآراء الغريبة تسمعها لأول مرة فى حياتها . لقد كان عمرها وقتئذ ١٧ عاما ، وعمر عريسها ٣٥ سنة ، وقد أحست بجواره انه قوى وهى ضعيفة . انه شخصية وهى طفلة . انه استاذ وهى تلميذة . فأسلمته من يومها الاول إرادتها وقلبها وعقلها ووجدت نفسها مع الأيام تفكر كما يفكر ، وتتصرف كما يتصرف ، وأحست انها هى الأخرى أصبحت فلاحا ! ورضيت بان تكون زوجة رجل يفخر بأنه يرتدى ملابس التشريفية الموشاة بالقصب والذهب والنياشين وتحتها جلابية الفلاح المصرى الزرقاء . وبعد سنوات من إقامتها فى حى الظاهر بنى عميد الأسرة بيتا فى حى الانشا . بناه بطريقته ، وبخياله ، وبعقليته . فكان هو وحده الذى وضع تصميم هذا البيت الغريب . وكان الذى يدخل هذا البيت لا يصدق انه بيت فلاح . او بيت رجل كان فلاحا .

كان البيت مصمما على طراز قصور الأثرياء فى فرنسا . فقد كان عميد الأسرة كثير التردد على عواصم أوروبا فى أوائل القرن التاسع عشر ، وحرص على ان يكون البيت الذى يبنيه فى القاهرة على طراز هذه القصور الكبيرة . واشترى بعض أثاثه من فرنسا وبعضه من فيينا ، وبعضه من ألمانيا . وكانت تحيط بالبيت حديقة واسعة ، ذات أسوار عالية ، يتوسطها باب حديدى ضخم ، وعلى يمين الداخل من الباب سلالم رخامية موصلة الى سلامك فيه صالون كبير ، ثم مكتب لسكرتير ، ثم غرفة مكتب صغيرة ، ثم غرفة مكتب كبيرة ، وأمام هذه الغرف شرفة كبيرة توصل الى باب غرفة المائدة ، بحيث اذا دخل الرجال لتناول الطعام ، لم يمروا بالقاعة التى تجلس فيها السيدات . وكان تحت السلامك سلم آخر يوصل الى خمس غرف كبيرة . وكان المفروض أن هذا البدروم مخصص للخدم من الرجال . ولكن عميد الأسرة لم يكن لديه قط هذا العدد الضخم من الرجال الذين يشغلون كل هذه الغرف ، وخاصة ان عم آدم البواب كانت له غرفة كبيرة على يسار باب الحديقة تكفى لأن ينام فيها خمسة من الخدم . وكان عم آدم ينام فيها مع حسن السفرجى . أما الحاج أحمد خدام عميد الأسرة الخاص ، فكان يبيت فى داره خارج المنزل . ولم يكن لعميد الأسرة سكرتير ليشغل غرفة السكرتير الخالية .

وكان فى مواجهة الباب الحديدى للدار سلم رخامى عريض يصعد نحو باب خشبى له نوافذ زجاجية ، وكان هذا الباب يسمى « باب الحريم » وهو يوصل الى صالة ضخمة تتسع لثلاثمائة شخص . وكان على يمين الداخل غرفة

للطعام تسع ستة وثلاثين ضيفا . ثم غرفة لأدوات المائدة « أوفيس » لإعداد الطعام ، يليها حمام ضخم . ثم صالة توصل الى سلم حجرى يصعد إلى الدور العلوى ثم السطح ، وهو يبدأ من البدروم حيث توجد حوالى عشر غرف خصصت للمطبخ والغسيل والمكوى والكرار الخاص بحفظ و تخزين الاطعمة . ولم يكن لدى عميد الأسرة هذا العدد الضخم من الخدم الذين يملأون هذا العدد الكبير من الغرف . كان لديه طاه واحد هو الاوسطى أحمد بدران وخادمة واحدة هي مدام مارى .

وفي مواجهة قاعة المائدة فى الطابق الاول يقع صالون صغير ، ثم صالون كبير ، تليه غرفة يقيم فيها سعيد ابن اخت عميد الأسرة ، وولده بالتبني ، ولها سلم خاص يوصلها الى حديقة البيت .

وفي نهاية الصالة الضخمة سلم رخامى كبير يوصل إلى الدور العلوى ، وإلى اليمين غرفة لزينة عميد الأسرة وليس له ، تتصل بغرفة واسعة ، ويفصل بينهما باب ، كان فيها فراشان كبيران لرب الأسرة وزوجته كما تتصل بغرفة أخرى خاصة بزوجة عميد الأسرة لاستعمالها الشخصى . وإلى يسارها صالة واسعة فى نهايتها حديقة شتوية . وإمام غرفة النوم غرفة واسعة مخصصة لرتيبة ابنة شقيقة عميد الأسرة وطفليها . ولها شرفة واسعة جدا أشبه بالحديقة يلعب فيها الطفلان . ولهذه الغرفة حمام كبير وآخر صغير ، وإمامها صالة طويلة تؤدي الى سلم حجرى .. يوصل إلى السطح حيث توجد غرفة مخصصة للخدم من النساء .

وخلف الدار تقع حديقة صغيرة ، فى نهايتها اسطبل كبير فيه عربة حائظور وزوج من الخيل الاستراي .

ولا يعلم احد لماذا فكر عميد الأسرة فى إقامة مثل هذا البيت الضخم . وفى حى الانشا فى القاهرة .

كانت أسرته يومئذ مؤلفة من أربعة أفراد ، هم : زوجته وولده بالتبني : رتيبة وسعيد . وعندما بنى هذا البيت لم يكن يتصور انه سيرزق اولادا وبنات يملأون هذا البيت الكبير . كان قد مضى على زواجه إذ ذاك أكثر من عشر سنوات . وكان قد ينس من الانجاب ، بعد أن زار مع زوجته عواصم اوربا وعرضها على عدد من الأطباء ، فاجمعوا على أنها إن تنجب . إكان يفكر وهو يبني هذا البيت الضخم انه سيحتاج فى يوم من الأيام إلى كل غرفة فيه ؟ .. وأن كل غرفة من هذه الغرف حتى غرف البدروم سوف تشترك فى صنع تاريخ مصر ؟ هل كان يتصور أن هذا البيت سوف يتحول يوما إلى قلعة ؟ وأن هذه الحديقة سوف تتحول إلى ساحة حرب ؟ .. وأن الشارع الذى يقع فيه البيت سوف يصبح ميدان قتال .. تسير فيه الجيوش ، وتقع المعارك ، وتسيل

الدماء ، وينهال الرصاص وتدوى القنابل ، وتمشى فيه الملايين ؟ ! هل كانت أحلامه هي التي ملأت البيت ، أم أن البيت هو الذى صنع هذه الأحلام وملأت جنباته ؟ !

عندما أقام هذا البيت الكبير لم يكن يشغل بالسياسة .. كان يومئذ مستشارا فى محكمة الاستئناف . فلماذا بنى شرفات تصلح لالقاء الخطب ، وشرفات تصلح لاستعراض الجماهير ، وحدائق واسعة تكثف بالجماهير ، وأبوابا متعددة لتضليل البوليس . وعشرات الغرف لتكون مراكز للاجتماعات السرية ، وبدروما تحت الأرض كان للجهاز السرى بمثابة مخبأ يأوى إليه من مطاردة البوليس ، هل فكر ، وهو يبني هذا البيت ، فى أنه يضع تصميمًا لمركز قيادة ثورة .. أم بيتًا للسكن والاسترخاء ؟

كان هذا البيت هو بيت سعد زغلول

الذى كانت تنتظره أسرته على المائدة لتناول طعام الغداء !

وجلس زوجته صفية زغلول فى مقعد على يمين المقعد الخالى ، وبجواره ابنتها المتبناه رتيبة زغلول ، ثم ابنها بالتبني سعيد زغلول ، وعلى مقعدين عالين على يسار المقعد المخصص لسعد زغلول جلس الطفلان التوامن على ومصطفى ..

وأحس أحد الطفلين الصغيرين بالجوع ، فانتهز انشغال ربة البيت فى الحديث مع أمه ، ومد يده بسرعة إلى طبق البلور فى وسط المائدة ، وأراد أن يأخذ قطعة صغيرة من الجبن .

ولمحت أمه فقطبت جبينها وقالت له وهي تبعد طبق البلور :

— عيب ! يجب أن تنتظر جدك حتى يجيء !

وكان كل من الطفلين ينادى سعد زغلول « يا جدى » وينادى صفية زغلول

« يا ستى » !

وسحب الطفل الصغير يده الصغيرة فى خجل واستحياء وقد انهمرت من بينه الدموع .

ولاحظت صفية زغلول دموع الطفل الصغير ، فقربت نحوه طبق الجبن ، وهى تقول لأمه فى نظرة لوم :

— حرام ! إن الولد جاع .. إن خالك تأخر اليوم عن موعد غدائه . وقالت الأم فى حزم :

— يجب أن يتعلم أن يصبر وأن ينتظر .. مادام يصبر على الجلوس مع الكبار على المائدة فيجب أن يتصرف كما يتصرفون . ثم التفتت الأم إلى الطفل وقالت :

— إذا كنت جائعا فإذهب إلى « الأوفيس » وتناول طعامك هناك .. أما غرفة الطعام فلها أدايبها !

وهز الطفل رأسه بشدة رافضا أن يغادر غرفة الطعام الخاصة بالكبار ، ومسح دموعه ، وفضل أن ينتظر برغم جوعه !
وهنا سمع الجالسون صوت خيول عربية حانطور تقترب من الباب ، وتتوقف ، فعرفوا أن عربية سعد زغلول قد وصلت ثم سمعوا جرس الباب الأمامي وعم آدم يده إعلانا بوصول الباشا ، ثم سمعوا وقع خطواته وهو يصعد السلم الرخامي . ودخل سعد زغلول إلى غرفة المائدة فبه الجالسون جميعا واقفين ، ولم يتجه سعد زغلول إليهم ويقبلهم واحدا واحدا كما كان يفعل دائما ، بل اتجه إلى مقعده في رأس المائدة وجلس دون أن يوجه إليهم تحية .

كان وجهه مقطباً . عيناه حانقتين . حاجباه اشبعثين . شفته العليا الغليظة التي تختفى تحت شاربيه الأبيض تضغط على شفته السفلى ..
وارتفع الجالسون في مقاعدهم عندما رأوا الكابة التي تغلو وجه رب الأسرة . سد غرفة الطعام صمت رهيب . وأحس كل واحد منهم بأنه ارتكب ذنبا يستحق عقابا . كانهم يرون في وجه عميدهم غمامة تنذر ببرق ورعد وعواصف .

وجاء السفرجى يحمل الطعام ، وتقدم به أولا إلى سعد زغلول ، فالنظام في البيوت الغربية أن يبدأ بتقديم الطعام للسيدات ، ولكن في بيت الفلاح المصرى جرت التقاليد على أن الرجل هو الذى يأكل أولا ..
ولكن سعد زغلول يشير بإصبعه إلى زوجته كأنه يقول للسفرجى أن يقدم لها هى الطعام أولا ..

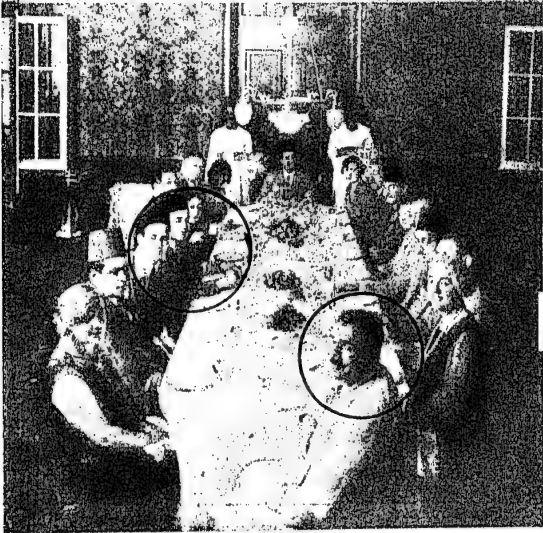
وتجزع صفية . أنها لم تتعود أن تاكل قبل زوجها . فلا تمد يدها إلى الطعام وتنتجه إلى سعد زغلول وتقول له بحنان :
— مالك يا سعد ؟ هل أنت مريض .

وبجيب سعد بجفاء أنه لا يريد أن يأكل ، لأنه لا يحس يشبهية للطعام ..
وترفض صفية أن تاكل . وترفض رتيبة أن تاكل . ويرفض سعيد أن يأكل .. ولم يفهم الطفلان أن واجبهما الا يأكلا أيضا تضامنا مع عيد الأسرة الغاضب ، فتجاهلا نظرات أمهما المجذرة ومدا أيديهما يتناولان الطعام .
وابتسم سعد وقال لأمهما :

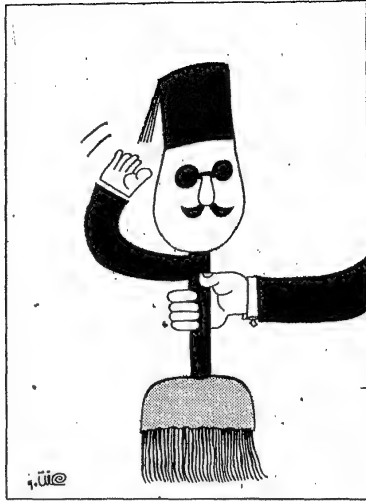
— سأكلم من الطعام .. حتى لا تضربيهما !
وتقدم السفرجى إلى سعد زغلول ، فوضع سعد في طبقه كمية قليلة من الطعام وبدأ يأكل .

وعندئذ بدأت الاسرة كلها تاكل في صمت
وتجرات صفيية وقالت في صوت متضرع :
— ماذا حدث ياسعد ؟

وصمت سعد زغلول لحظة ، ثم مد يده إلى زجاجة الدواء الموضوعه امامه
على المائدة ، وفتحها ، وسكب جرعة منها في ملعقة فضية ، ثم افرغها في
جوفه ، واعد الملعقة إلى الطبق في هدوء ثم قال :
— حدثت مصيبة ! مصيبة .. كارثة !
وتسمر الجالسون في مقاعدهم ، وتضاعف رعبهم وفزعهم .



●● علي أمين ومصطفى أمين على اليسار بجوار
بعض .. وفي مقدمة الصورة والدهما الأستاذ أمين يوسف .



• الفصل الثاني •

قال سعد زغلول في حزن لأفراد أسرته أن الكارثة التي حدثت هي أن الانجليز رشحوا الأمير أحمد فؤاد سلطاناً على مصر .

وبدا اثر النبا الفاجع على وجه صافية زغلول ورتيبة زغلول وسعيد زغلول . انهم يعرفون ان عميد أسرتهم يكره هذا الأمير ويؤذره ، وكثيراً ما روى لهم انباء مواقفهم المزرية وتصرفاته الشائنة . كان سعد زغلول قد روى لهم أن الأمير المفلس كان يستدين من كل أعضاء نادي محمد علي . ولا يسدد ديونه ، وأنه رأس مجلس ادارة الجامعة المصرية التي كان سعد أول من دعا إلى انشائها ، فكان يبذل أموالها على ملذاته ورحلاته في أوروبا وعلى مغامراته

الغرامية ، وانه اصطدم مع سعد عندما أصبح وزيرا للمعارف . فقد حاول سعد أن يكون وزيرا بمعنى الكلمة ، لا « طرطورا » كالوزراء الطرايطر في عهد الحماية البريطانية الذين تركوا أمور وزاراتهم في أيدي المستشارين البريطانيين . وبدأ سعد عهده في وزارة المعارف بأن جمع السلطات في يده وانتزعها من مستر دنلوب المستشار البريطاني الذي كان الحاكم بأمرة في شئون وزارة المعارف في تلك الأيام . ثم إذا بسعد زغلول يفاجأ بأن الأمير أحمد فؤاد رئيس مجلس إدارة الجامعة المصرية يتجاهل الوزير المصري ولا يعترف إلا بالمستشار البريطاني ، فإذا تقدم الأمير بطلب يختص بالجامعة تقدم به إلى مستر دنلوب وأبى أن يتقدم به إلى سعد زغلول . فما كان من سعد إلا أن رفض كل طلب يجيء إليه من الأمير فؤاد عن طريق المستشار البريطاني ، وحدث أن التقى الأمير أحمد فؤاد بسعد زغلول في مكتب شقيقه الأمير حسين كامل ، ورفض سعد زغلول وزير المعارف أن يصادف الأمير أحمد فؤاد .. وهاج الأمير أحمد فؤاد وشكا للخديو عباس أن أحد الوزراء المصريين أهانه ورفض أن يصادفه ، وأن في هذا التصرف من الوزير الفلاح اهانة لكل الأمراء ! وسال الخديو سعد زغلول وزير المعارف لماذا رفض أن يصادف الأمير أحمد فؤاد ؟

فقال سعد زغلول : أن الأمير رفض أن يعترف بوجودي كوزير مصري ومن حقي أن أرفض الاعتراف بوجوده على قيد الحياة !
وجمع الأمير حسين كامل بين شقيقه الأمير أحمد فؤاد والوزير سعد زغلول صالهما ، ولكن ظلت علاقتهما سيئة ، فقد كان سعد شديد الاعتزاز بكرامته ، وكان يعتقد أن الأمير أحمد فؤاد لا يحس بانه مصري ، ولا يحترم المصريين ، وأن من حق المصريين أن يحتقروه إلى أن يتعلم الأدب ! ولهذا ما كادت صفيّة زغلول تعلم أن الأمير أحمد فؤاد سوف يصبح سلطانا على مصر حتى علت وجهها التعاسة والمرارة وقالت : إنه آخر أمير في الأسرة يصلح سلطانا !

قالت رتيبة وقد بدا عليها الحزن لغضب خالها : انه غضب من الله على هذا البلد !

قال سعد زغلول في عصبية ظاهرة :

— اننى سوف اذهب الآن وأقدم استقالتى من منصبى كتشريفاتى في القصر السلطانى . لا يمكن أن أواصل العمل في خدمة هذا الأفاق النصاب ! لقد كان يجيء لمقابلة شقيقه السلطان حسين ، وكنت أنا الذى أبلغه بأن السلطان يامر بطرده من القصر ، وانه لا يريد أن يرى وجهه . فكيف أجىء اليوم وأنحنى له ! كيف أنحنى لرجل أحتقره وأكرهه وأزدريه .

قال سعد :

— انتظر حتى يعين سلطانا ، وسوف يتولى هو طردك ! إنه لن يطيق ان يرى ابن أخت سعد زغلول يعمل فى القصر .
قال سعد معترضا :

— ولماذا انتظر حتى يطردنى ! لماذا اعطيه شرف طردى ؟ يجب ان يعلم اننى انا الذى ارفض ان اعمل فى خدمته . ثم إننى لا أطيق عمل فى القصر . اننى قبلت هذه الوظيفة بناء على امرك بعد إلحاح السلطان حسين . إننى تشريفاتى فى القصر . اى خادم نظيف . وأنا لا أطيق هذه الحياة ! كان السلطان حسين يعاملنى كأبنة . ولهذا تحملت . ولكنى لا أقبل ان اعمل خادما لسلطان اكرهه واحتقره !
قال سعد :

— انت على حق ! اننى لو كنت مكانك لاستقلت أيضا . ان الأمير فؤاد سوف يتصور اننى انا الذى طلبت أن تستقيل وترفض العمل فى خدمته . وسوف يعتبر هذا التصرف إعلانا من أسرة زغلول بالحرب عليه . وهذا امر لا يخيفنى ، انه يعرف اننى اكرهه . وأنا اعرف انه يمقتنى .. واستقالته هى تسمية الأشياء بأسمائها !

ووقف سعد زغلول ، وتقدم إلى خاله وقبل يده وهو يقول :
— اشكر يا خالى ! إن موافقتك على استقالتي من القصر هى أشبه بقرار صدره بإطلاق سراحى من السجن الذى عشت فيه !
وقبله سعد زغلول فى جبينه وهو يقول :

لعل الله يمد يده إلى البلد لينقذه من الأمير فؤاد . ربما لا يموت السلطان حسين ، وقد يقبل أبنة الأمير كمال الدين حسين تولى العرش . وقد يعدل الانجليز عن تعيين الأمير فؤاد عندما يعرفون مدى سخط الشعب على هذا التعيين . وربما يقبل الانجليز اقتراحى بأن تجتمع الجمعية التشريعية وتنتخب السلطان الجديد ، باعتبارها البرلمان الذى يمثل الشعب ، وفى هذه الحالة لن يحصل الأمير أحمد فؤاد على صوت واحد من أصوات أعضاء الجمعية التشريعية ..
ولكن الله لم يمد يده !

كان السلطان حسين على فراش الموت ، وقد ينس الأطباء من شفائه . اصبحوا يعتقدون انه لن يعيش إلا بضعة أيام . أصيب بحالة جنون فى اواخر ايامه . ثم أصيب بالشلل . وقرر الانجليز أن يخلفه ولى عهده الأمير كمال الدين . وفوجيء السلطان بالأمير كمال الدين يكتب إليه خطابا يعلن

فيه رفضه تولى العرش وتنازله عن كل حقوقه في ولاية العرش . وشاع يومها أن الأمير كمال الدين شاب وطني ، وأنه يرفض تولى العرش في ظل الحماية البريطانية ، وذهب سعد زغلول لزيارة الأمير ، ليسأله عن سر رفضه قبول العرش فلم يفهم شيئاً من الأمير الشاب ، ولم يشعر بأنه أمام بطل وطني كما صورته الإشاعات ، ولم يعرف سعد يومها أن الأمير رفض العرش لأنه كان يحب فتاة فرنسية تقيم في باريس ، وكان يخشى لو تولى العرش ، أن يحرم من التردد على باريس والاقامة بين ذراعيها ، وكتب لها الأمير يقول أن قبلة من شفتيها أهم لديه من عرش مصر كله !

ونادى سعد زغلول في ذلك الوقت أن ليس من حق الانجليز تعيين سلطان مصر ، وأن الشعب هو الذى ينتخب السلطان ، وأن الجمعية التشريعية التى هى البرلمان الذى انتخبه الشعب ، هى صاحبة الحق في انتخاب السلطان .

وكان سعد زغلول يومها هو رئيس الجمعية التشريعية بالنيابة . وذهب سعد زغلول الى صديقه حسين رشدى باشا رئيس الوزراء وعدى يكن باشا وزير المعارف واقترح عليهما أن يقرر مجلس الوزراء دعوة الجمعية التشريعية لانتخاب السلطان الجديد ..

وذهل الوزيران لهذا الاقتراح الغريب ! وقال حسين رشدى باشا رئيس الوزراء ان الانجليز طلبوا تأجيل اجتماعات الجمعية التشريعية لمناسبة الحرب ، ولا يمكن دعوتها ، وأنه من غير المعقول أن توافق دار الحماية على دعوة الجمعية للاجتماع ، لهذا أجلت اجتماعاتها خشية أن تعترض على اعلان الحماية على مصر ، وعلى عزل الخديو عباس حلمي من عرش مصر . — وسال عدلى يكن سعد زغلول :

— من تتصور أن الجمعية التشريعية سوف تنتخبه سلطانا على مصر .. قال سعد :

— اننى لم افكر في هذا الموضوع . ولكن رأى الشخصى أن تنتخب مصريا ليكون سلطانا على مصر ..

فسأله عدلى يكن :

— مصرياً ... مثل من ؟ ! من أمراء محمد على :

قال سعد زغلول :

— لا .. اننى لا اجد واحدا من هؤلاء الأمراء يصلح لأن يكون ملكا أو سلطانا .. ان رأى أن محمود سليمان باشا يمكن أن ينتخب سلطانا .. — وفوجئ حسين رشدى باشا وعدلى يكن باشا بهذا الاقتراح وفتح فيهما

دهشة لقد كان عدلى يكن أحد أصهار أسرة محمد على . وكلمة « يكن » هى كلمة تركية معناها صهر الوالى . وكان حسين رشدى باشا من أسرة طبوزادة التركية ، ولم يخطر ببالهما فى يوم من الأيام أن يتولى مصرى حكم مصر . وكان محمود سليمان باشا فلاحا ثريا من اعيان الصعيد ، وكان رجلا مسنا محبوبا من الفلاحين ، وكان والد محمد محمود باشا صديق سعد زغلول الحميم فى تلك الأيام ..

وقال رئيس الوزراء حسين رشدى باشا : اننى سابلغ الانجليز رايك . ولكنى لا اعدك بأن اوافق عليه . وساقول لهم انه رايك الشخصى .. قال سعد زغلول :

— انه ليس رأى الشخصى .. انه رأى باعتبارى رئيس الجمعية التشريعية الممثلة للشعب المصرى .

وعندما عرض رئيس الوزراء اقتراح سعد زغلول على المعتمد البريطانى قابله بسخرية واستهزاء ورفضه بشدة ، وقال ان تعيين سلطان مصر هو حق من حقوق وزير الخارجية البريطانية ، باعتبار أن مصر تحت الحماية البريطانية ، وان تعيين السلطان سيصدر بقرار وزارى من وزير خارجية بريطانيا !

وكان بعض الانجليز المحليين فى القاهرة يشعرون بكراهية المصريين للأمير فؤاد ، فاراد بعضهم أن يجد حلا وسطا بين اقتراح سعد زغلول وبين تمسك الانجليز بأن يكون تعيين سلطان مصر بقرار منهم ، ففكروا فى أن تعيين الحكومة البريطانية محمود باشا سليمان سلطانا على مصر . وذهب بعض الانجليز الى عوامة محمود باشا سليمان الراسية فى النيل ، وعرضوا عليه هذه الفكرة ، فرفض وقال : اننى مستعد لأن اصبح سلطانا لمصر ينتخبه المصريون ، ولست مستعدا لأن اكون سلطانا يعينه الانجليز كما يعينون خادما فى وزارة الخارجية البريطانية .

وهكذا فشلت محاولة سعد زغلول فى أن يكون من حق شعب مصر أن يختار حاكمه ، وصدر قرار فى اكتوبر سنة ١٩١٧ من وزير خارجية بريطانيا بتعيين الأمير احمد فؤاد سلطانا على مصر !

وقع هذا القرار على بيت سعد زغلول وقع الصاعقة .

وعلق سعد زغلول على هذا التعيين بقوله :

— الانجليز عينوا السلطان حسين سلطانا على مصر ولكنه كان طوال

الوقت يشعر بالخجل والعار لأن الانجليز هم الذين عينوه . أما الأمير فؤاد فهو يشعر بالشفرف والفخر لأن تعيينه جاء عن طريقهم ، وكان سيسخر بالخجل لو أن المصريين هم الذين انتخبوه . ان السلطان حسين والسلطان فؤاد أخوان من أب واحد . ولكنهما مختلفان . السلطان حسين طيب ومجنون . والسلطان فؤاد عاقل وشرير . حسين كان يبيع أملاكه ليشتري رضا المصريين ، وفؤاد سيبيع المصريين أنفسهم ليشتري رضا الانجليز . حسين ضرب أحد الوزراء المصريين بالشلول لأنه ارتكب جريمة زنى مع ابنة أحد زملائه الوزراء . وفؤاد سيدوس بقدميه على شعب مصر كله لكي يحقق مآربه الشخصية . حسين يحب المصريين ويخاف منهم . وفؤاد يكره المصريين ويحتقرهم . حسين أحمق وفؤاد غادر .. حسين ينفجر فى خصومه غضبا ، وفؤاد يعانق أعداءه ويغمرهم بالقبلات وهو يغمد الخنجر فى ظهورهم . حسين يشعر بأن أسرة محمد على ضيفة على مصر . ويحاول أن يستميل اصحاب البيت حتى لا يطردوه من البيت . وفؤاد يعتقد ان مصر ضبعة لأسرة محمد على . هم السادة والشعب هو العبيد .

رما كاد السلطان أحمد فؤاد يتولى عرش مصر حتى اصطدم بأسرة سعد زغلول .. فعندما تسلم خطاب سعيد زغلول بك ، الذى يطلب فيه نقله من القصر الى أى وظيفة أخرى خارج القصر ، هاج السلطان وماج ، واعتبر هذا الطلب وقاحة وقلّة ذوق من الموظف الصغير ..

وارسل السلطان فؤاد الى سعيد زغلول يبلغه أن يختار بين أن يبقى فى وظيفته فى القصر بمرتبه الحال وقدره أربعون جنيها فى الشهر أو ينقله الى وظيفة صغيرة بوزارة الحقانية بمرتب قدره خمسة عشر جنيها فى الشهر .. وفوجيء السلطان بالشاب الصغير يقول انه يفضل وظيفة خارج القصر بمرتب خمسة عشر جنيها أى بأقل خمسة وعشرين جنيها من المرتب الذى كان يتقاضاه فى تلك الأيام ..

وأعجب سعد زغلول بموقف ابن اخته وقال له :

اننى سعيد أن ابنى صفع السلطان على وجهه !

واحس الشاب سعيد زغلول بنشوة وهو يسمع اعجاب خاله سعد زغلول بالموقف الذى وقفه فى مواجهة السلطان فؤاد ، وتمنى أن يرى الفتاة التى أحبها لينقل اليها كلمات، الاعجاب التى سمعها بانه هو الذى صفع السلطان على وجهه .

وكان سعيد الصغير قد أحب الفتاة الصغيرة نازلى وملأت قلبه وفكره وحواسه وأحلامه . كانت طويلة القامة ، رشيقة القد ، بشرتها بيضاء كاللبن ، وشعرها الأسود الطويل ينسدل الى ما تحت ظهرها . عيناها سوداوان واسعتان ضاحكتان . كانهما اثنتان مليئتان برحيق الآلهة . وكان وجهها مشربا باحمرار فى لون ورد الربيع . ولقد كان سعيد يشعر بان شيئا مجهولا يجمعهما . انها كانت يتيمة مثله . ماتت ، امها كما ماتت امه . وقالت امها وهى على فراش الموت لصفية زغلول : اوصيك بنازلى ... اعتبريها ابنتك ! وعاملتها صفية كأنها ابنتها ، كما تعامل سعيد كانه ابنها . وكانت صفية ترسل باستمرار العربية الجانطور الى بيت نازلى فى الجزيرة ، فتحضرها وتمضى اليوم كله مع رتيبة وسعيد ووهيبة ابنة شقيقة صفية . وكانوا يمضون يومهم فى لعب « لعبة الشايب » . وكان سعيد دائما يكسب للعبة ويصبح الملك الذى يصدر احكامه على اللاعبين الخاسر . وكانت ورقة « الشايب » تقع غالبا فى يد نازلى فيصدر الملك سعيد حكمه على المتهمة نازلى . وكانت احكامه على نازلى دائما احكاما خفيفة سهلة ليست بقسوة احكامه إذا ما وقع الشايب فى يد شقيقته رتيبة او صديقتها ووهيبة . وهكذا بدا بين الولد الصغير والبنات الصغيرة تفاهم وصداقة تطورت مع الأيام الى حب . وكان الحب فى تلك الأيام جريمة لا تغتفر . ولكن كانت علاقة العاشقين الصغيرين هى نظرات يتبادلانها فى الخفاء . وبسمات يسرقانها من خلف ظهر شقيقته الكبرى رتيبة وصديقتها ووهيبة ، وقد كانتا متمسكتين تمسكا شديدا بالاصول والتقاليد . وهكذا عاش العاشقان سنوات وعناقهما هو النظرات وقبلاتهما هى البسمات ، واحاديث الهوى بينهما هى أنفاس وزفرات وتنهدات لا تصل الى آذان الرقباء . وذات يوم قطع سعيد ورده من حديقة بيت سعد زغلول وأهداها لنازلى ، فأسرعت وأخفتها فى صدرها ، وأحس سعيد بسعادة لا حد لها وكأنه شعر بان نازلى ضمته هو الى صدرها .

ولم يكن هوأهما البرىء سهلا . فقد كان الاثنان يرتجفان من صفية زغلول ، فإذا جاءت وجلست معهما تشاركهما فى العابهما تعمد سعيد أن يتجه بعينه الى الأرض حتى لا تلتقى عيناه بعيني نازلى ، وتعمدت نازلى ألا توجه إليه أى حديث وكان سعيد يحدث نازلى عن كراهيته للعمل فى القصر ، وضيقة بالحياة فى داخل بدلة التشريفية ، وعن رغبته فى أن يترك عمله فى السراى ليتححر من قيودها ، فكانت نازلى تشجعه على أن يخطو هذه الخطوة ، وتشاركه فى ايمانها

بالحرية ، وتتعجله في أن يترك حياة العبيد داخل القصور .. وانتهاز سعيد فرصة غفلة من شقيقته وزوجة خاله فعرض على نازلى الزواج فرحبت بالفكرة وشجعتها على أن يتقدم لخطبتها .

وكان سعيد شابا طويل القامة ، عريض المنكبين ، جميل الصورة . له عينان جميلتان ، وكان الذين يعرفون سعد زغلول في شبابه يقولون أن سعيدا كان في تلك السنوات صورة طبق الأصل من خاله الذى كان في تلك الأيام يفتن قلوب النساء !

ولهذا لم يكن غريبا أن تقع نازلى في هواه ، فهو الشاب الوحيد الذى تراه في محيطها ، من غير اقربائها الشبان ، وقد ساعد على نمو الحب أنه كان يعيش دائما في خطر . انه يحاول أن يخدع عيون الأذكىاء ، فقد كانت صفية زغلول لمحة ، قادرة على أن تقرأ ما تخفيه العيون ، وكانت شقيقته رتيبة مشهورة باليقظة حتى أن أسرتها كانت تطلق عليها اسم « شارلوك هولمز » لقدرتها وبراعتها العجيبة في اكتشاف الجرائم الغامضة او السرقات ! والمخالفات ! .. ومع هذا فقد استطاع هذا الحب الصغير أن يخدع هذه الرقابة الشديدة المتخصصة في كشف الأسرار وحل الألغاز . ومن طبيعة الحب أنه ينمو في الخطر أسرع مما ينمو في جو السلامة . الخطر يمنح الحب رعايته وقلقه وتوقده وحرارته . وجو السلامة يطفى على الحب استرخاء واستسلاما وانطفاء وبرودة ، فيحوّله من شيء حى متحرك الى صورة لها اطار معلقة على جدار الحب المسروق كالقبة المسروقة له طعم النشوة . فيه شيء حراق . له لسعة لذيدة . فيه حلاوة المغامرة وروعة المفاجأة . فيه شعور العاشقين بانهما ينتصران على قوى ضخمة . كأنهما يخترقان الفضاء في صاروخ .. بينما الحب المعلن اشبه بالسير على الأقدام !

وفاتح سعيد شقيقته برغبته في الزواج من نازلى . وطلب اليها أن تتولى ابلاغ صفية زغلول هذه الرغبة لتستأذن سعد زغلول . فقد كان سعيد لا يجزؤ على أن يتقدم بهذا الطلب مباشرة الى خاله . ورحبت رتيبة بأن يتزوج شقيقها من صديقتها نازلى ، ولكنها قالت انها تفضل أن تسال صديقتها رايها .

والح سعيد على شقيقته في الا تساله نازلى . ولكن شقيقته أصرت على أن تسال نازلى أولا ، وسالتها ، فقالت لها نازلى وهى تضحك : دعيني أفكر دقيقة !

وامسكت نازلى ساعتها وراحت ترقب عقارب الثوانى إلى أن قطع مسافة الدقيقة ثم قالت وهى تعانق رتيبة : موافقة جدا !

وذهبت رتيبة إلى صفية زغلول وأبلغتها برغبة سعيد فى أن يتزوج نازلى فقالت صفية : أن سعد ابنى ونازلى ابنتى . وأنا أرحب بهذا الزواج ولكن يجب أن أسأل نازلى رأيها قبل أن أعرض الأمر على سعد .

واستدعت صفية زغلول نازلى إلى غرفة زينتها وأغلقت الباب عليهما وألقت محاضرة على أن كل فتاة يجب أن تتزوج ، ولكن المهم أن يكون الزوج متعلما ومستقيما . وأن سعيد يريد أن يتزوجك . وإننى اعتبر نفسى أمك . ومع أنه يسعدنى أن تتزوجى من سعيد الذى اعتبره ابنى . إلا أننى لا أريد أن أؤثر عليك . فانا أؤمن بأن الفتاة من حقها أن ترفض أو تقبل من يتقدم لخطبتها . صحيح أن التقاليد ترى أن هذا ليس من شأن الفتاة . ولكنى أحب أن أسالك أنت رايك أولا .

قالت نازلى : أننى لو تزوجته فسوف أكون أسعد فتاة فى العالم .

وضمتها صفية إلى صدرها وقبلتها وهى تقول :

— وأنا أرحب أن تقيما بعد زواجكما معى فى هذا البيت ..

وذهبت صفية وأبلغت زوجها سعد زغلول برغبة سعيد فى أن يتزوج نازلى . ولم تخبره صفية بأن سعيد اتفق مع نازلى على الزواج ، فلو أن سعد زغلول عرف أن ابن شقيقته اتفق مع نازلى على الزواج بغير علمه لأثار الدنيا عليها ، فقد كان الفلاح فيه يعتبر أن ليس من حق أحد من افراد الأسرة الشبان أن يفكر فى الزواج بغير استئذانه ..

ولهذا حرصت صفية على أن تتقدم إلى سعد بالفكرة على أنه اقتراح ~~مقبل~~ عندها هى ، فوافق سعد عليه لأن والد نازلى صديقه ، ولأن أمها كانت صديقة زوجته . وطلب سعد من صفية أن تسأل الفتاة أولا قبل أن يتقدم إلى أبيها ويطلب يدها لسعيد .

وتظاهرت صفية بأنها لم تفعل هذا بعد . ثم عادت إليه وأبلغته أن نازلى رحبت بالزواج ..

وعندئذ ذهب سعد زغلول وقابل والد الفتاة وطلب يدها لسعيد زغلول ، فرحب الأب وقال أنه سيسأل ابنته نازلى ويبلغه بالرد . وتأكد سعد زغلول من أن المسألة انتهت ، فقد كان يعرف من زوجته أن نازلى وافقت على الزواج .. ثم انشغل سعد زغلول بوفاة السلطان حسين وبترشيح الأمير فؤاد سلطانا

على مصر ، وبمحاولته أن يجعل من حق الجمعية التشريعية انتخاب السلطان الجديد ، وبفشله في تنفيذ رغبته في أن يكون لشعب مصر الحق في اختيار حاكمه ..

وتولى السلطان فؤاد عرش مصر ..

وكان أول قرار أصدره أن تتولى الدولة تسديد ديونه !

وتولت الدولة تسديد ديون السلطان الجديد ، وإذا بينها ديون متأخرة للبحال والجزار ولخدم الأمير ، وديون قمار مستحقة لخزانة نادى محمد على ، وديون للترزى الايطالى ديليه ثمن فلابس حصل عليها فؤاد ولم يدفع ثمنها .. وبعض الديون دفعت لصاحبات باتسيونات كان يتردد عليهن الأمير .. وهكذا ظهر أن سلطان مصر كان يأكل « بالشكك » ويلبس « بالشكك » ويحب « بالشكك » أيضا !

وعرف السلطان الجديد أن سعد زغلول كان يتزعم المعارضين في تعيينه سلطانا ، فأرسل اليه صديقه أمين يحيى باشا التاجر الكبير بالإسكندرية ، ليؤكد له أن السلطان فؤاد قرر أن يتغير ، وأن يبدأ حياة جديدة ، وأنه يرغب في تعيينه وزيرا ولكن الانجليز يعارضون في ذلك ، ولكنه سيتغلب عليهم ولن يقبل أن يتلقى أوامر من الانجليز بعد اليوم !

وإبلغه كذلك أن السلطان فؤاد قرر أن يمتنع عن حياة الفسق والفجور وأنه سيصلى الجمعة كل اسبوع ، وأنه يرغب في أن يؤدي سعد زغلول معه الصلاة !

ثم عاد أمين يحيى باشا الى سعد زغلول ذات يوم وقال له ان السلطان الجديد يريد أن يعين عددا من كبار سيدات مصر وصيفات في القصر ، وأنه اختار صافية زغلول لتكون وصيفة . وثار الفلاح في سعد زغلول . غضب أن يفكر السلطان العازب في أن يجعل زوجة سعد زغلول وصيفة في قصره . وقال سعد زغلول لرسول السلطان وهو ينتفض غضبا :

— قل للسلطان .. ان سعد زغلول ينصحك أن تتزوج فورا !

وخرج رسول السلطان من عند سعد زغلول مباشرة وذهب الى السلطان في قصر عابدين . وإبلغه بغضب سعد زغلول وبأنه يرى أن يبادر السلطان بالزواج فورا !



وذات مساء دعا زغلول صديقه عبدالرحيم صبرى باشا مدير المنوفية
لمشاهدة إحدى الروايات فى مسرح الأوبرا .
وفى أثناء الاستراحة سألته سعد زغلول :

— انك لم تبلغنى بعد موافقتك على زواج نازلى من سعيد وتلعثم
عبدالرحيم صبرى باشا وأجاب اجابة مبهمه .

ودهش سعد زغلول ، ودهش أكثر لأن لاحظ تغييرا لم يفهمه فى تصرفات
صديقه عبدالرحيم صبرى باشا ، فلم يعد يطبق الدعاية كما كان يفعل من
قبل ، ولكنه اعتقد أن صديقه تأخر فى الرد عليه لأسباب طارئة ، ولم يعلق
ليلتها أهمية على اجابة صديقه المبهمه ..

ولكن سعد زغلول فوجئ فى اليوم التالى بإعلان خطبة السلطان فؤاد
للآنسة نازلى كريمة عبدالرحيم صبرى باشا .. نازلى التى خطبها لابن شقيقة
سعد زغلول .. والتى رحبت بهذا الزواج !

ونزل النبأ على سعد زغلول نزول الصاعقة !

لقد قال له سعد زغلول يوم أن استقال من خدمة القصر ، انه صفع
السلطان .. ولكن لم تكد تمضى بضعة أسابيع .. حتى تلقى من السلطان
صفعة هائلة . صفعة جعلته يترنح ، ويحس كأنه فقد توازنه . صفعة عملاق
على وجه ضعيف . صفعة سلطان على وجه موظف صغير . أحس كأنه يهتز
ويتهوى . كأنه يموت وهو على قيد الحياة . أسودت الدنيا فى وجهه . شعر
كان انفاسه تتقطع وهو واقف على قدميه كأنه يعدو وهو ثابت فى مكانه كأن
مطارق هائلة تنهال عليه وهو غير قادر على أن يرد لها أو يحمي رأسه من هول
ضرباتها . ما أشقى العاشق الضعيف عندما ينافسه طاغية جبار . انه فى
ضعفه يراه أضخم مما هو ، بينما يرى نفسه أصغر مما هى . يحار : ابيضك
من نفسه أم يبكى عليها ؟ هل يكتم الألم أم يصرخ من عذابه ؟ انه يريد أن
ينوارى من الناس حتى لا يشهدوا هزيمته . ان هزيمة الرجل أمام رجل آخر
عار ، ولكن هزيمة الرجل أمام السلطان ذل وهوان ! انه يشعر كأن كل الأصابع
تشير اليه هازئة ساخرة .. هذا هو الشاب الذى خطف منه السلطان الفتاة
التي يحبها ! هذا هو الصعلوك الذى تطاول الى مقام الملوك ! هذا هو المجنون
الذى يحب زوجة السلطان ! انه يمشى فى الطرقات ورأسه منكس داخل معطفه
حتى لا تراه العيون . يريد أن يركض هاربا من هذه الدولة التى يحكمها

غريمه . يريد أن يصرخ . وهو غير قادر على الصراخ . ان الصراخ في وجه السلطان جريمة عيب في الذات الملكية !

ويتذكر سعيد نازلى .. هذه الفتاة التى تحبه .. هل تقبل أن تتزوج من هذا السلطان الأفاق ! هذه الفتاة المليئة بالحيوية والشباب هل ترضى بأن تنام في فراش واحد مع رجل في سن أكبر من سن أبيها ! ان نازلى لا يمكن أن تقبل هذا الزواج . انها فتاة ذات شخصية لا يمكن اخضاعها . انها ورثت عن جدها لأمها سليمان باشا الفرنسى الذى كان معروفا باسم الكولونيل سيف صفة الثورة . لابد انها ستتمرد على أبيها . لابد انها سوف تثور عليه . لابد انها ستأبى أن يذبحوها قربانا لرضاء السلطان . لابد أن والدها هو الذى أرغمها على هذا الخطبة الغريبة . لابد أنه قيدها بالسلاسل وكممها وسجنها في بيتها بالجيزة ومنعها من الاتصال بسعيد . ويشعر سعيد بالرغبة في أن يذهب اليها ويحطم أغلالها ، ويفك قيودها ، ويحررها من أصفادها ، ويحملها على كتفيه ويهرب بها الى خارج مصر في مكان بعيد لا تستطيع أن تصل اليه يد الطاغية ، ولا جبروت السلطان ، لا يمكن أن تكون نازلى توقفت عن حبه . ان قلبه يؤكد له انها تهواه . لقد عاش هذا الحب عدة سنوات . لاتزال في أرجاء بيت سعد زغلول بقية من رائحة هذا الحب وشذاه . لا تزال خفقات قلبى العاشقين الصغيرين تحملها تموجات الهواء في الدار التى شهدت مولد الحب وطفولته وربيعه . لا تزال بقية من نازلى في الحديقة بجوار أشجار الورد . لا تزال أنفاسها في صالة الطابق الأول حيث كانا يلعبان « لعبة الشايب » . هذه اللوحات الزيتية شاهدت اصابعهما وهى تتشابك وتتعانق وتتناجى . ان عقل سعيد يقول له ان نازلى تكره حياة القصور ، تمقت معيشة الملوك . ترفض أن تكون جارية في القصر وإن كانت جارية تحمل لقب صاحبة العظمة السلطانية ! ألم تشجعه نازلى على الاستقالة من منصبه في القصر ليتنفس الهواء بدلا من أن يختنق في الجو الموبوء . ألم تقل له انها توافقه على أن مرتبه الذى انخفض الى خمسة عشر جنيها في الشهر وهو حر ، أشرف له ولها من مرتب أربعين جنيها وهو عبد رقيق ؟ ألم تقل له نازلى انها تفضل أن تعيش معه ياكلان العيش والملح في عالم الحرية ، على أن يعيشا معا وهو مسجون في داخل بذلة التشريفة الموشاة بالقصب والمرصعة بالأوسمة والنياشين ؟ ألم يحدث أن جاءت سيدة الى بيت سعد زغلول وقرأت كف نازلى وقالت لها : ستكونين ملكة في يوم من الأيام . وشهقت نازلى وقالت : مستحيل أن أرى أن أكون ملكة إلا إذا فقدت عقلى .

ماذا حدث إذن لنازلى ؟ هل فقدت عقلها خلال أيام قليلة ؟ هل جنت ؟ هل
موت الحب بالسكتة القلبية ؟ هل يمكن أن تفقد المرأة رأسها عندما ترى
التاج ، فتنسى فى لحظة واحدة حب عمرها واحلام حياتها ؟ هل التاج كبير جدا
اذا وضعه الانسان على رأسه غطاه حتى يجعل الانسان يفقد النظر
فلا يبصر ، ويثقل على الرأس فيعطل ملكة التفكير . هل يمكن أن يكون للماس
الذى يحلى التاج سلطان على القلب فيبهره كما يبهز العين ، فيصاب القلب
بالعمى ، أو أن فى التاج مغناطيسا قادرا على أن يسلب الحب من القلب ،
وينتزع الهوى من الروح ، ويستل العشق من الفؤاد ؟

وكان سعد زغلول واثقا من أن نازلى سترفض هذا الزواج . كان يحبها . لقد
حملها وهى طفلة تحبو . كان يعطف عليها ويعجب بأدبها وذكاؤها . كان يرى
خسارة كبرى فى أن تتزوج الملاك الصغير من شيطان كبير . كان واثقا من أن
نازلى ستفضل أن تعيش فى بيته زوجة لابن شقيقته سعيد ، على أن تعيش
زوجة السلطان فؤاد فى قصر عابدين !

وكانت زوجته صغية زغلول مؤمنة بأن نازلى لا يمكن أن تخطو مثل هذه
الخطوة قبل أن تستأذنها باعتبارها فى مقام أمها . كانت مؤمنة بأن العلاقة
التي بينهما أقوى من العلاقة التي بين نازلى وأبيها ، فقد كانت نازلى تلجأ فى
كل امر من امورها الى صغية . فهل يصدق عقلها أن تقدم نازلى على هذه الخطوة
بغير استشارتها واستئذانها ، وهى التي سمعتها بأذنها تقول لها انها لو
تزوجت من سعيد زغلول فستكون أسعد امرأة فى العالم ؟

وكانت رتيبة زغلول تعتقد أن صديققتها سترحب بأن تكون سلطانة ، فلم
تكن حتى تلك الأيام تعرف بقوة العلاقة بين شقيقها الصغير وصديققتها
الصغيرة .

وكان سعيد زغلول فى دهشة من أن حبيبته نازلى لعبت لعبة « الشايب »
بعيدا عنه .

فوقع فى يدها الشايب ولم تنتفض كما كانت تفعل دائما عندما تبقئ معها
ورقة الكوتشينة المرسوم عليها الشايب وتصرخ جعزا ! بل انها احتفظت فى
اللعبة بالسلطان « الشايب » وأصبحت ملكة فى الوقت نفسه ، وأصدرت
حكمها .. انه حكم بالاعدام على قلبها وقلب سعيد !

ومضت الأيام ونازلى لا تتصل ببيت سعد زغلول .. وكانت قبل ذلك تتصل
بهذا البيت تليفونيا عدة مرات !

وشعر كل فرداً في هذه الأسرة بأنه مهزوم مغلوب على أمره . أحس سعد زغلول أن كبريائه جرحت لأن السلطان خطف الفتاة التي اختارها زوجة لابنه بالتبني . رأى في عيني سعيد الألم الصامت والعذاب الدفين والكآبة المريرة أحس سعد بأن السلطان أصر على أن يتزوج من نازلي رغبة منه في أن يبطش بالتشريفاتي الصغير الذي جرؤ على إعلان العصيان ، ورفض أن يبقى في القصر دقيقة واحدة بعد أن تولى فؤاد عرش البلاد . فأراد أن يلطم هذا الشاب لطمة تهوى به إلى قرار سحيق من الهزيمة والعار . وأحس أيضاً أن السلطان أراد أن يلطمه هو ، لأنه تزعم المعارضة ضد توليه العرش ، ولأنه طالب بأن يكون للشعب حق اختيار حاكمه ، وأن يكون حكم المصريين للمصريين ، فجاء السلطان وأراد أن يذل هذا الفلاح الكبير ، ويمرغ رأسه في التراب ، ويفهمه أنه ليس من حق الفلاحين أن يختاروا ملوكهم ، بل ليس من حقهم أن يختاروا زوجات ابنائهم ، وبذلك يكسر قلبه ، ويحطم كبريائه ، ويضعه في مكانه ، ويدوس على أحلامه . ولعل هذا الحادث الصغير رسب في ضمير الفلاح الكبير مع رواسب كثيرة سبقته في صراعه المرير ضد سيطرة الحكام الأجانب على الشعب المصري ، فقد كانت حياته منذ شبابه صراعاً لا يتوقف إلا ليتجدد . ولا ينتهي إلا ليبدأ ، ولا يستكين إلا ليتنمر من جديد ..

وأحست صفية زغلول بصدمة عنيفة . كان السلطان اختطف ابنتها . الفتاة الصغيرة اليتيمة الجميلة التي طلبت أمها وهي على فراش الموت من صفية أن تأخذها وديعة عندها وأن تكون أمها بدلاً منها . كانت صفية تعتقد أن السلطان فؤاد آخر من يصلح زوجاً لنازلي . أنه رجل فاسد أفاق لا أخلاق له . يستبدل عشيقاته كما يستبدل جواربه ! أن نازلي ستكون شقية في زواجها ، سجيناً في قصرها . أن زوجة السلطان هي أشقى جريم السلطان . أنها سجيناً في قفص من ذهب . كل من حولها يتجسس عليها . تحسب عليها خطواتها . ترقب أنفاسها . تحاك ضدها الدسائس . تدبر لها المؤامرات . لقد كانت صفية زغلول صديقة للأميرة اقبال زوجة الخديو عباس . وطالما سمعت منها القصص المحزنة عن تعاسيتها وعذابها . طالما رأتها تبكي وهي تقول : كنت أتمنى أن أتزوج كناساً ولا أتزوج ملكاً ! كانت تروى لها كيف كان الخديو يصفعها ويضربها ويركلها بقدمه ، وكيف أنها اشتبكت ذات مرة في مشاجرة مع عشيقة الخديو النمساوية فارغمها الخديو عباس على أن تذهب لكي

تعتذر لعشيقته وتطلب اليها الصفح والغفران ! وقد كانت صفية تقول ان الملكة هي جارية على رأسها تاج !

وكانت رتيبة تشعر بان السلطان خطف منها صديقتها ! وقد سرها في اول الامر ان صديقتها الحميمة ستصبح سلطانة .. ولكنها عندما قرأت الدموع في عيني شقيقها المفجوع جزعت ، ثم عندما عرفت من سعيد قصة الحب التي جمعتها بنازلى في غفلة منها أحست بعظم الفجيرة . ان صديقتها خانت شقيقها . باعتها وأشرت التاج . داست على قلبه لتصل الى العرش .. ولكنها مع حبها لأخيها وسخطها على هذا الزواج لم تستطع ان تكره نازلى . كانت دائما تحاول ان تلتصق لها المعاذير والأسباب . لعلها فعلت ما فعلت خضوعا لارادة أبيها . لعل شقيقها حسين وشريف الحا عليها في قبول هذا الزواج . لعل سوء حالة أبيها المالية هو الذى اضطرها لأن تضحي بنفسها لانقاذ اسرتها .

وتم عقد زواج السلطان فؤاد من الأنسة نازلى عبدالرحيم صبرى . وعاشت الأسرة في حزن ، كانها فقدت احدى بناتها ! كان زفاف نازلى للسلطان هو جنازتها . وكان قصر عابدين هو قبرها . وكان ثوب عرسها المرصع بالماس واللؤلؤ هو كفنها ! وكان زوجها السلطان فؤاد هو الذى خطفها منهم وذبجها ودفنها في قبر من ذهب مرصع بالماس ! ولم يذهب احد من الأسرة الى بيت نازلى يهنئها بالخطبة ولم يذهب احد الى القصر ليهنئ السلطان بزفافه .. كانت زغاريد الأسرة في ليلة الزفاف هي الدموع والتنهيدات !



وبعد ذلك ظهرت الحقيقة . عندما ذهب أمين يحيى باشا الى مقابلة السلطان وأبلغه بان سعد زغلول ينصح به بان يتزوج فورا ، اعتقد السلطان ان بقاءه اعزب هو ثغرة يمكن ان ينفذ منها خصومه للتعلم عليه مستغلين سمعته السيئة كزئ نساء ! واسرع الملك فؤاد الى لادى جراهام صديقه سير جراهام المستشار البريطانى لوزارة الداخلية وطلب اليها ان تبحث له فورا عن عروس .. وقالت لادى جراهام انها تعرف الأنسة نازلى عبدالرحيم صبرى .. واطلعتها على صورة فوتوغرافية لها .. وقالت انها تخشى الا تقبل نازلى هذا الزواج لانها اخبرتها بانها مخطوبة لسعيد ابن شقيقه سعد زغلول .

وطلب السلطان من لادى جراهام ان يرى نازلى .
فقال له لادى جراهام انه ليس من الممكن ان تجعله يلتقى بنازلى لأن تقاليد
اسرتها تمنع هذا اللقاء ، ولكن من الممكن ان تدعو نازلى لتناول الشاى
عندها ، وان يختبئ السلطان خلف ستارة ويرى نازلى .. وافق السلطان على
الفكرة وذهبت نازلى الى بيت لادى جراهام مع شقيقها وتناولت معها الشاى ،
ورأها السلطان من خلف الستار ..

ولما عرف السلطان ان نازلى سوف تخطب الى سعيد زغلول التشريفاى
الذى رفض ان يبقى للعمل فى قصره بعد توليه العرش ، وفضل وظيفة صغيرة
خارج القصر على وظيفة كبيرة فيه اذداد تمسكه بأن يتزوج نازلى . كان فؤاد
من اسرة تعشق مالا تمتلك ، وتزهد فيما تمتلك ، تتشبث بما فى ايدى الناس
وتحتقر ما فى يدها . تريد ان تخطف من الناس ما فى افواههم . لذتها ان تحرم
الآخرين اكثر من لذتها فى أن تحصل على ما تريد . وقد ورث فاروق ابن فؤاد
عن ابيه هذا الخلق الغريب . فبعد ثلاثين سنة تقريبا من هذا الحادث خطف
فاروق الأنسة ناريمان صادق من خطيبها الدكتور زكى هاشم . ولم يثره
جمالها ، وانما اثره شعوره بأنه يخطفها من الخطيب الذى يحبها ، وأنه
ياخذ اللقمة اللذيذة من فم رجل آخر . فمالك فؤاد كمالك فاروق لم يكن لهما
ذوق فى اختيار النساء ! كانا يريان النساء بعيون الآخرين . ما يعجب الرجل
الآخر يعجبهم . تستهويهم زوجات الآخرين . تجذبهم قصور الآخرين ،
وممتلكات الآخرين ، ومجوهرات الآخرين ، اضعاف اضعاف ما يستهويهم
ويثيرهم ما يملكون من نساء وقصور وزوجات وممتلكات ! فهو لا يعرف قيمة
ما سلب إلا بمقدار شقاء المسلوب ، ولا يحس بلذة ما نهب إلا عندما يرى
عذاب المنهوبين !

وعندما قامت ثورة سنة ١٩١٩ وهاجم الشعب السلطان ، اتهم الشعب فى
اغانيه وانشيده نازلى بأنها كانت عشيقة السلطان قبل أن تتزوجه ، وانها
حملت منه ، وأنه اضطر الى زواجها ليخفى جريمة اغتصابها وحملها ، وأن
فاروق ابن زنى !

ونظم الشاعر بيرم التونسي زجلا مشهورا نشره فى مجلته « المسلة » وصف
فيه/الزفاف الذى تم قبل الخطبة والحمل الذى وقع قبل الزواج وؤ ويؤكد أن
« الفرخة كانت مذبوحة » و « القرع كان سلطانى » وردت الجماهير هذه
الازجال والانشيد فى وقت الثورة وطبعت منشورات اتهم صراحة الامير فاروق
وى العهد بأنه ابن زنى !

وغضب السلطان فؤاد على الشاعر بيرم التونسي ونفاه الى خارج مصر ،
وبقى منفيا حتى مات الملك فؤاد ، ولم يعد الى مصر الا بعد وفاته بعامين و
لم يكن فاروق ابن زنى و كل ما هناك انه ولد بعد الزفاف بسبعة شهور
وهو امر يحدث كثيرا بسبب كبر حجم المولود و
وللتاريخ كانت نازلى مظلومة في هذه التهمة و
ولكن للتاريخ ايضا فان نازلى رحبت بزواجها من السلطان فؤاد على الفور ،
ولم تعترض كما تصور سعد زغلول ، ولم تربط بالسلاسل وتقيد بالاغلال كما
تصور سعيد زغلول و
وعاش سعيد زغلول في عذاب و
كان يرى صورة غريمه في كل ديوان يدخله و يقرأ اسمه في كل جريدة
يفتحها و ولم تحاول نازلى ان تتصل بسعيد بعد خطبتها ، او ترسل له كلمة
اعتذار و

ومات سعيد زغلول بعد ذلك بسنوات قليلة و
ومات حزينا ، معذبا ، محسورا ، مهزوما !
وكانت نازلى تقول اننى اعرف انه مات وهو يلعننى و
ولكن احدا لم يسمع سعيد يلعنها و
فان اللعنة لم تصبها الا بعد وفاته بثلاثين سنة !





●● صورة نادرة للزعيم سعد زغلول والسيدة الجليلة ام المصريين ●

● الفصل الثالث ●

بيوت صغيرة من الطين . مربعة ومستطيلة ومستديرة . بعضها مسقوف بالقش ، وبعضها مسقوف بالحصير وبعضها بلا سقوف على الإطلاق . تقيم في كل بيت منها أسرة ، وأحيانا أسرتان ، وكثيرا ما كانت تقيم أربع أسر في بيت واحد . الكل يعيش في فقر مدقع . الذين يملكون والذين لا يملكون . الذي يملك فدانا كالذى يملك عشرة أفدنة . زبانية الحاكم ينتشرون في الأرض في لحظة ظهور المحصول فيفعلون في المزارع ما يفعله الجراد . الحاكم لا يشبع . لا يهتم ساء المحصول أو أكلته الآفات . كل ما يهتم أن يجمع أكبر ما يستطيع من دم هؤلاء الفلاحين . انهم عبيد أفندينا .

مهمة العبيد أن يزرعوا ويحصد أفندينا . أن يشقوا ويسعد أفندينا . أن يجوعوا ويأكل أفندينا ! والفلاحون في قرية ابيانة في شمال الدلتا لم يعرفوا وجه أفندينا هذا . وإنما يرون وجه المتصرف التركي الذي يهبط على القرية فوق حصان أبيض ، وفي يده سوط ، ويقوم بعملية السرقة الرسمية في وضع النهار . يسطو على المحصولات بلا خجل ولا حياء . ينتزع طعامهم من أفواههم . يلهب بالسوط ظهورهم إذا ترددوا في دفع ما يأمرهم أن يدفعوه . أن أوامره نهائية لا تقبل مناقشة . احكامه غير خاضعة للنقض والابرام .

وكان الشيخ ابراهيم زغلول شيخ بلد ابيانة . يدفع صاغرا كما يدفع الفلاحون . يشهد أرضه تنهب أمام عينيه فلا يفتح فمه . كان الفلاحون جميعا ينتظرون الى المتصرف التركي باعتباره قضاء وقدر لا يستطيعون لهما ردا ولا دفعا . يحنون رعوسهم له اذا أقبل عليهم ، ويلعنونه اذا أدير عنهم . يبشون في وجهه وهو يغتصب محصولاتهم أمام أعينهم . كانوا يعرفون انهم يشترون بما يدفعون بقايا حريتهم وحياتهم ، ويحمدون الله على ما بقى في الأرض مما عفا المتصرف عن أخذه معه . وكان أهل القرية يكتفون بالدعاء لله أن ينقذهم من المتصرف التركي . أن يقبض روحه فلا يجيء اليهم . أن يشل يده التي تحمل السوط ليجدوا الجراة على الوقوف في وجهه . ولكن الله لم يقبض روحه ، ولم يشل يده ، بل كان المتصرف يزداد صحة وقوة وطغيانا ، والفلاحون يزدادون مرضا وضعفا واستخذاء .

وقد اُحد مواسم ساء المحصول ولم تنتج الأرض من الدريس والقمح إلا ما يكفى لسد بطون الفلاحين طوال العام . وجاء المتصرف التركى فوق حصانه الأبيض يطالبهم بأن يدفعوا لأقدينا ما اعتادوا أن يدفعوه في مواسم الرخاء . وتقدم الشيخ ابراهيم زغلول نحو المتصرف التركى وقال له :
— لن تدفع هذا العام لأنه ليس لدينا ما ندفع !
وشتم المتصرف التركى الشيخ ابراهيم زغلول وسبه وأهانته ..
وأصر الشيخ ابراهيم زغلول على أن الفلاحين لن يدفعوا ..
وهنا رفع المتصرف التركى سوطه وهم بضرب الشيخ ابراهيم فما كان من الشيخ ابراهيم إلا أن هجم على المتصرف التركى ، وانتزعه من فوق جواده الأبيض ، وهوى به على الأرض وانقض عليه ضربا وصفعا ..
وعرفت القرى المجاورة ما فعله الشيخ ابراهيم زغلول بالمتصرف فامتنعت بدورها عن أن تدفع شيئا للحكومة .

وكان سعد زغلول يروى دائما لأسرته قصة أبيه الشيخ ابراهيم زغلول ، فقد شهدته في طفولته وهو ينتزع الطاغية من فوق الحصان وكان يقول :
— كان المتصرف التركى فوق الحصان يبدو أمام عيوننا عملاقا قدمه اعلى من رؤوسنا ، وكان يبدو لنا اطول مما هو ، فلما انتزعه أبى من فوق الحصان والقى به على الأرض بدا قزما صغيرا ! لا يستحق هذه الصورة الرهيبة التى افزعت الفلاحين طوال هذه السنين . ولقد رايت هذا الفارس وعمرى ه سنوات ولا تزال صورته ماثلة أمام عيني إلى اليوم !
وهكذا عاش سعد حياته يحاول أن ينتزع الطاغية من فوق الحصان ! وجلدوا الشيخ ابراهيم .. ومات الشيخ ابراهيم زغلول بعد هذا الحادث بعام واحد ، وكان عمر سعد الصغير ست سنوات ، وعندما بلغ الحادية عشرة من عمره ادخله اخوه الأكبر الى الأزهر . وكان اصغر تلاميذ الفيلسوف النائر جمال الدين الافغانى . وكان يتردد على بيته ويجلس أمامه مبهورا ، وكأنه منوم تنويما مغناطيسيا . ومن قم جمال الدين سمع أول كلمات سمعها في حياته عن أن الشعوب يجب أن تثور على الطغاة والمستبدين والمستعمرين . أن الشعب المصرى قادر على أن ييقر بطون غاصبيه . أنه اقوى من مستغليه . أن الحرية تؤخذ ولا توهب . أن الشورى هى اساس الحكم . وحدث أن طلب السيد جمال الدين الافغانى من جميع تلاميذه أن يكتبوا بحثا عن الحرية وحق الشعوب فيها ..

وكتب جميع التلاميذ الموضوع المطلوب ، وقراها جمال الدين فإذا به
يكشف أن سعد زغلول وهو أصغر تلاميذه سنا أحسن من كتب عن الحرية ،
بينما كان بعض تلاميذ جمال الدين في الستين من عمرهم !
وقال جمال الدين :

— من علامة نشأة الحرية في هذا الشعب ألا يجيد الكتابة في الحرية
إلا ناشئ كهذا الفتى الصغير !
وهذه التلاميذ أن يكتب شاب في الثامنة عشرة بهذه القوة والبلاغة وبهذا
الأسلوب الثورى الجديد !

وكان الشيخ محمد عبده من تلاميذ جمال الدين ، وكان قد سمع رأى جمال
الدين في سعد زغلول ، لهذا عندما عين رئيسا لتحرير جريدة الوقائع المصرية
اختار سعد زغلول ، وهو في العشرين من عمره ، مساعدا لرئيس التحرير ،
ورئيسا للقسم الأدبى ..

وإذا بسعد زغلول يكتب في جريدة الحكومة الرسمية مقالات يطالب فيها
بالشورى ، وأن يحكم الشعب نفسه بنفسه ، ويهاجم الطغاة والمستبدين ،
ويثبت أن الدكتاتورية والطغيان ضد الدين ..

واستمر سعد زغلول يكتب مهاجما الحكم المطلق الى أن قامت الثورة
العربية ، وإذا بمكتبه في جريدة الوقائع المصرية يتحول الى مكان يجتمع فيه
شباب الثورة ، وإذا به يؤلف خلايا من الشباب ، كل خلية مؤلفة من اثنين ،
لمساعدة الثورة . وأصبح سعد زغلول هو رئيس حركة الشباب السرية في
ثورة عراقى ! كان يحاول أن ينتزع الطاغية من فوق الحصان !

وفشلت الثورة . وقبض على سعد زغلول ، وطرد من وظيفته ، وخرج من
السجن ، وبحث عن أصدقائه فوجدهم مشردين هائمين على وجوههم . بحث
عن أستاذه محمد عبده فوجده منفيا في لبنان . أمضى زمنا بلا مأوى
وبلا عمل . كان الانجليز قد سيطروا على كل شئ . كانت تهمة الاشتراك في
الثورة العراقية الفاشلة أشبه بمرض الجذام يهرب منها الأصحاء !

واضطرب أن يحترف المحاماة . رفضت كل الصحف أن تقبله محررا فيها .
وكانت المحاماة في مصر وقتئذ مهنة حقيرة ، لم يكن في مصر كلها محام واحد
يحمل شهادة عليا ! وما كاد يستقر في عمله في المحاماة حتى بدأ يجتمع
بالشبان الذين عملوا تحت رياسته في العمل السرى في ثورة عراقى . والف
جمعية اسمها الانتقام . مهمتها أن تنتقم لمصر من جيش الاحتلال ومن الذين

تعاونوا مع جيش الاحتلال ومن الذين خانوا الثورة . وقبض الانجليز على سعد زغلول . وقسّلوا في اثبات التهمة عليه ، لأن الخلية الواحدة كانت مؤلفة من اثنين فقط ، ولم تستطع سلطات الاحتلال أن تجد ضد سعد زغلول سوى - شاهد واحد . وحكمت المحكمة ببراءته لعدم كفاية الأدلة . ولكن الانجليز ابوا الافراج عنه فظل مسجوناً أكثر من ثلاثة أشهر بعد الحكم ببراءته . وفي السجن بدأ يدرس اسباب فشل ثورة عرابي ، واسباب فشل جمعية الانتقام التي ألقاها . واسباب فشل الخلايا السرية التي كوّنها من الشبان لمساعدة الثورة .

وقد وصل في دراسته الى أن ثورة عرابي فشلت لأنها خلت من قيادات متعلمة ولأن الشعب غير متعلم ، ولأن الثورة لم تتغلغل في الريف ، ولأن القيادات كلها كانت معروفة ، فما أن قبض الانجليز على القادة حتى انتهت الثورة ، ولأن الثورة اعتمدت على الجيش وحده ، وعندما انهزم الجيش انهزمت الثورة معه . وخرج سعد زغلول من السجن وهو مصمم على أن يؤلف جمعية جديدة للانتقام مؤلفة منه وحده ! وأن تكون مهمته أن ينظم ثورة يتلافى فيها كل اخطاء ثورة عرابي ، وكل اخطائه في تأليف الخلايا السرية وجمعية الانتقام !

وكان سعد زغلول يقول انه بدأ في التفكير في ثورة ١٩١٩ في أواخر سنة ١٨٨٢ أي انه مكث سبعة وثلاثين سنة يفكر في هذه الثورة ! وأنه لولا أن ورث الصبر عن أمه « مريم » لما استطاع أن يحقق هذا الأمل ! وأنه جاءت اوقات كثيرة يؤس فيها من قيام مثل هذه الثورة ، وحدث في وقت من الاوقات أن فكر في الهجرة من مصر كلها ! وأول ما فكر فيه هو نشر التعليم ، فاشترك في تأليف الجمعية الخيرية الإسلامية ، وكان الغرض الاساسي من تأليف هذه الجمعية هو إنشاء مدارس غير خاضعة لسلطة الاحتلال ، ثم دعا لإنشاء الجامعة المصرية . وعندما أصبح وزيراً للمعارف كان كل اهتمامه موجها الى إنشاء الكتاتيب والمدارس ليتلافى الجهل الذي أدى الى فشل ثورة عرابي . ثم قرر أن يوفد البعثات الى أوروبا ، واشترط في الذين يوقدهم في البعثات أن يكونوا شباناً يصلحون لأن يتولوا قيادات في الثورة . ومن الغريب أن أكثر زعماء الجهاز السري في ثورة ١٩١٩ كانوا ممن أوقدهم سعد زغلول بنفسه إلى بعثات في الخارج . وكان يصر على أن يستقبل الطلبة المتفوقين بنفسه ويناقشهم قبل أن يختار من يوفده الى الخارج . فهو لا يرسل إلا الشباب

ذا الشخصية القوية ، والذي يصلح للقيادة . وحدث أن قابل سعد زغلول أول الليسانس فوجده شخصية مهزوزة ، وقابل ثانياً الليسانس فوجده غير مؤمن بمصر ، وقابل ثالث الليسانس فاعجب بشخصيته ، فاختار الثالث ليوفده في البعثة ورفض أن يوفد الأول والثاني . وكان أول الليسانس من الأقباط . وعلم بذلك مستر دنلوب مستشار وزارة المعارف الإنجليزى فهاج وماج ، واتهم الوزير سعد بالتعصب لأنه رفض إرسال الطالب المسيحي الذي كان ترتيبه الأول في الليسانس واختار الثالث وعجب أن يهتم وزير المعارف بنفسه باختيار من يرسلونه في البعثات . ولكن سعد أصر على موقفه ، واستمر يختار بنفسه ، أعضاء البعثات ، الذين أصبحوا فيما بعد هم ساعده الأيمن في ثورة سنة ١٩١٩ فالدكتور أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى وحسن كامل الشيشينى ومحمد شرارة زعماء الجهاز السرى للثورة هم شبان اختارهم سعد زغلول وهو وزير للمعارف وأوقفهم بنفسه الى بعثات في أوروبا

وكان سعد زغلول مؤمناً بالشعب المصرى ، كان يعتقد أن هذا الشعب على استعداد دائماً لأن يؤيد كل ثورة تحطم القيود التى كبلته وتدمر الاستسلام التى استعبدته . ويحارب الذل والطغيان والاستبداد . ويقاوم الاستعمار بمخالبه وأناباه ، وجشعه وجبروته ، وينقض على الذين امتصوا دمه مئات السنين . وكان يؤمن بأن الشعب لم يخضع يوماً واحداً لهذا الطغيان ، ولم يكف عن المقاومة ، ولم يتردد مرات كثيرة في أن ينتفض ثم ينقض على غاصبيه . ولكن في كل مرة فعل ذلك ضربت ثورته من الخلف ، ولم يستطع أن ينطلق انطلاقته الكبرى . كان يهز الفارس الطاغية فوق حصانه ، ولكنه لم يستطع أن يقتلعه من فوق الحصان .

وكان سعد زغلول يؤمن بأن على مدى التاريخ لم يحدث أن شعباً من الشعوب ثار بعدد المرات التى ثارها الشعب المصرى . وهو لا يتور إلا على الأقوياء . ولا يضرب إلا العمالقة ، ولا يحارب إلا المنتصرين ! وهو أمر يدل على « فروسية » هذا الشعب ، وأن الثورة عنده ليست فرصة ينتهزها ، وإنما هى احساس يملأ قلبه . وإيمان يسيطر على خواصه ، فإذا قرر أن ينتفض لا يهمله السلاح في يد خصمه ، وإذا صمم أن يقاوم ، فإنه لا يحسب أى حساب قبل أن يخوض المعركة . متحدياً قوى أكبر منه ، وأضحى ..

ولقد اشترك سعد في ثورة عرابى باعتبارها حركة فلاحين حركة موجهة ضد الخديو الأجنبى ، وضد الباشوات الشراكسة الذين وزعوا أرض الفلاح على

انفسهم وجواربهم ومخزليتهم ، وضد الذين طعنوا الثورة من الخلف ،
وتعاونوا مع الانجليز ، ولولا تعاونهم مع الانجليز لما استطاع الجيش
البريطاني ان يهزم عرابي ويحتل مصر ويقضى على الثورة .

وعندما قامت حركة مصطفى كامل . كان من رأى سعد زغلول ان تبدأ
الحركة من النقطة التي انتهت اليها ثورة عرابي ، اى تبدأ بمقاومة الخونة
الذين مهدوا لجيوش الاحتلال . ان تبدأ ضد سلطان تركيا الذى وزع على
الفلاحين منشورا بصفته خليفة المسلمين يقول فيه ان كل من يقف بجوار
عرابي كافر يدخل النار . وهكذا استغل سلطان تركيا سلطته الروحية ليقاوم
الثورة ويرى في كل من يدعو للحرية والديمقراطية كافرا خارجا على الاسلام ،
وان من يتعاون مع الاحتلال البريطاني والطغيان التركى مسلم يدخل الجنة !
وكان سعد في تقييمه لأسباب فشل ثورة عرابي ، يعتقد ان هذه الفتوى
الغريبة خدعت الفلاحين وغررت بهم وصرفتهم عن مقاومة الاحتلال .

ولكن سعد زغلول فوجيء بان حركة مصطفى كامل كانت عكس ذلك تماما .
تقف على خط مستقيم ضد آرائه ومعتقداته بصفته أحد تلاميذ ثورة عرابي .
كان مصطفى كامل يؤمن بان محاربة الانجليز تكون بالانضمام الى تركيا ،
وبالولاء لسلطان تركيا باعتباره خليفة المسلمين . وكان مصطفى كامل يبرق الى
الخليفة في استانبول يقول له في برقيات بالحرف الواحد : « وستكون علاقة
مصر بتركيا الى الأبد علاقة التابع بالمتبوع » !

وكان سعد زغلول يعتقد ان الأتراك طغاة مستبدون . لا تزال آثار سياطهم
على ظهور الفلاحين المصريين . وكان يتابع مذابحهم في البلاد العربية
ومحاربتهم للحرية والديمقراطية . فكيف نثور لنستبدل بسوط الانجليز سوط
الأتراك ! يجب ان نثور على كل صاحب سوط . فنحن نحارب الطغيان
لا جنسية الطغيان !

وكان مصطفى كامل يتحالف مع الخديو عباس . ويعتبر الهجوم على عباس
هجوما على الوطن . وقد ظهر من مذكرات محمد فريد ان الخديو عباس كان
يساعد حركة مصطفى كامل بالمال . وكان مصطفى كامل يعتقد ان الخديو شاب
وطني ، اليس الخديو يكره الانجليز ؟ اليس الخديو يدفع مالا للحركة
الوطنية التي تقاوم الانجليز ؟ اليس الخديو يكره عملاء الانجليز ؟

وكان سعد زغلول يرى ان الخلاف بين الخديو والانجليز ليس خلافا على
استقلال مصر ، وإنما هو خلاف على من يستقل بحكم مصر . فالخديو لا يريد

أن تكون مصر حرة ، وإنما أن يكون هو حرا يفعل ما يشاء بالمصريين وهو لا يريد أن يكون المصريون مستقلين ، وإنما يريد أن يكون هو مستقلا بالمصريين أي أن الخديو يريد أن يحرر المصريين من الانجليز ليتولى هو استعبادهم كما فعل أبوه وجده ، وأبو جده من قديم الزمان !

وكان مصطفى كامل يعتقد أن أحمد عرابي خائن لمصر ، وأن ثورته على العرش خيانة عظمى ، وكانت صحف مصطفى كامل تقول صراحة أن ثورة عرابي قامت بالاتفاق مع الانجليز ، وأن الغرض منها هو تبرير احتلالهم لمصر !

وكان سعد زغلول يؤمن بأن أحمد عرابي وطني ، وأن ثورة عرابي وطنية ، وأن الذي اتفق مع الانجليز على احتلال مصر هو الخديو توفيق والد الخديو عباس وليس عرابي باشا ولا العراقيون . وقد كون عقيدته هذه كفلاح مصرى ، شهد بعينه السخرة ، ورأى سياط عملاء الخديو وهى تلهب ظهور الفلاحين ، ومهد لثورة عرابي ، واشترك فيها ، ودخل السجن من أجلها ، والف جمعية الانتقام لينتقم من خصومها . فكانت مبادئ هذه الثورة أشبه باليقين ، لم تتزعزع على مدى السنين ، ولم تؤثر فيها الهزيمة ولا البطش ، ولا حملات الأقوياء . وقد كان هذا الخلاف الأساسى هو الذى أبعد سعد زغلول عن مصطفى كامل .

ولم يلبث مصطفى كامل أن عرف فى أواخر أيامه الحقيقة التى عرفها سعد زغلول قبله . وهو أن الخديو لم يكن يريد أن تستقل مصر ، وإنما كان يريد أن يستقل بمصر ، وأن الخديو لم يكن يريد أن يصبح شعب مصر هو صاحب مصر ، بل كان يريد أن يكون هو صاحب الحق الوحيد فيها ، فى استغلالها ، وامتصاص دم شعبها . ولهذا لم يكد الخديو يتفق مع سير جورست المعتمد البريطانى الجديد - الذى حل محل لورد كرومر - حتى تنكر للحركة الوطنية وشجع على القضاء عليها . ولكنه عرف الحقيقة بعد فوات الوقت ..

وبعد أن تولى محمد فريد زعامة الحركة الوطنية ، بعد وفاة مصطفى كامل ، حاول الخديو أن يستغل محمد فريد . ولكن صلابة محمد فريد جعلت تحقيق هذا الهدف مستحيلا . كان محمد فريد مستعدا لأن يستعمل الخديو لمصلحة الحركة الوطنية . ولكنه لم يكن مستعدا لأن يستعمل الحركة الوطنية لمصلحة الخديو . وعندئذ انقلب الخديو عباس على محمد فريد وظارده ، وتحالف مع الاحتلال البريطانى عليه حتى اضطر محمد فريد الى الهرب من مصر .

ثم رأى محمد فريد يعد ذلك أن يقتل في الخديو من أجل استقلال مصر ، وتحالف معه بعد قيام الحرب العالمية الأولى ضد الانجليز . واكتشف محمد فريد كما دون في مذكراته انه كان مخدوعا للمرة الثانية ، وأن الخديو لا يهيمه استقلال مصر ، وإنما كل ما يهيمه هو ثروته في مصر وأن تكون وراثة العرش في أيوائه !

وهكذا كان أعضاء الحزب الوطني يعتبرون كل من يقاوم أسرة محمد على خائنا للوطن . وكل من يقاوم طغيان سلطان تركيا واستبداده كافرا بالاسلام . وكل من اشترك في ثورة عرابي عميلا من عملاء الانجليز !

وكان الخديو هو الذى دس على الحزب الوطنى فكرة محاربة عرابي وهدم ذكراه ، بل انه جعل مهاجمة عرابي وثورة عرابي ثمنا لتأييده لحركة مصطفى كامل ! فقد كان الخديو عباس يحب والده الخديو توفيق جدا جدا ، وكان يعرف أن الشعب المصرى ينهم الخديو توفيق بالخيانة ، لأنه سلم مصر للانجليز ، وتعاون معهم على هزيمة عرابي . وكان بذكائه يعلم أن الشعب المصرى لن يغفر له انه ابن الرجل الخائن الذى طعن بخنجره ثورة الشعب واستعان عليها بالجيش البريطانى ، وكان الخديو يعرف انه ، لكى يحمى عرشه ، يجب أن يقنع الوطنيين بأن عرابي كان خائنا ، وانه اتفق مع الانجليز على القيام بالثورة ، لكى يدخل الانجليز مصر ويحتلوها .

وكان الخديو بارعا في تزيف المستندات والوثائق واختلاق الاخبار .. وبلغ من كذبه انه عندما عاد عرابي من منفاه محطما ، اتصل الخديو بجريدة اللواء لسان حال مصطفى كامل ، وطلب اليها أن تنشر أن اللورد كرومر المعتمد البريطانى وممثل الاحتلال كان في استقبال احمد عرابي عند وصوله الى محطة مصر . أى أن ممثل الاحتلال البريطانى يستقبل عرابي لأنه هو الرجل الذى مهد للانجليز احتلال مصر . ونشرت اللواء الخبر . وكان الخبر كاذبا مائة في المائة . ولم يتصور أحد أن الخديو يلفق مثل هذا الخبر . ولكن الخديو كان يريد أن ينتقم من احمد عرابي !

وكان أحمد شوقي أمير الشعراء هو شاعر الخديو فنظم قصيدة هاجم فيها عرابي بعنف واتهمه بالخيانة وبيع البلاد للانجليز !

ونشرت الصحف الوطنية قصيدة شوقي في صفحاتها الأولى ! وكان سعد زغلول يتعذب وهو يقرأ هذه الاتهامات ضد الرجل الذى كان زعيمه في وقت من الأوقات . وليس أشق على نفس الوطنى من أن يتهم في

وطنيتها .. وأن يلوث بالطين بأيدي الذين حارب من أجلهم ، ومن أجل أن يحولهم من عبيد الى احرار !
وكان انصار الحزب الوطني يصدقون هذه الاتهامات حتى أن أحد اعضاء الحزب الوطنى رأى أحمد عرابى جالسا فى قهوة فى المنصورة بعد عودته من منفاه ، وبصق فى وجهه وصاح : يا خائن !
ولم يتحرك أحمد عرابى من مكانه ، بل مسح البصقة عن وجهه ، وانهمرت من عينيه الدموع .

وكان سعد زغزل يحس كأن هذه البصقة وجهت الى وجهه هو !
كان يقول دائما لأفراد أسرته أن المصريين لا يستطيعون أن ينسوا المظالم التى تعرضوا لها فى عهد الأتراك وعهد محمد على . ملايين الفلاحين ، وهو منهم ، يذكرون السخرة ويذكرون الكرياج . يذكرون المتصرف التركى فوق الحصان الأبيض والسموط فى يده . بل أنهم لا يزالون يذكرون جباههم التى عفرها التراب . والاهانات التى لحقتهم . والأرض التى سلبت منهم . والسجون التى سيقوا إليها . والمشائى التى علقوا فيها . والخوازيق التى عذبوا فوقها !

كانت كلمة الثورة تعنى عنده الثورة على الانجليز المحتلين ، والثورة فى الوقت نفسه على الذين أرغموا الفلاحين المصريين على السخرة وضربوهم بالكرياج وعاملوهم معاملة العبيد ! كان من رأيه أن الطغيان لا يتجزأ . ولا يمكن للفلاح المصرى أن يقتنع بأن الذين يجلدونهم بالسياط هم وطنيون مخلصون ، والذين حاولوا انتزاع السياط من أيدي الطغاة هم الخونة المارقون ! وأن الذين نشروا السخرة هم انصار الحرية ، والذين هاجموا السخرة هم أعوان الاستعمار !

وقد كتب الخديو عباس فى مذكراته يدافع عن نفسه وعن أجداده ويقول بالحرف الواحد :

« لن اتعب نفسى فى نفى الفساد ، فإن تلك الوصفة التى لحقت بفترة معينة ، تسرى فى كل البلاد الديمقراطية والحرية والاشتراكية » !!
« أما السخرة فإن الالتجاء إليها يرجع الى عهد سليمان الحكيم ، فهى إذن قديمة قدم مصر . وكانت لازمة . ولا سبيل الى تجنبها ، فى العصور التى لم يكن القانون فيها يطبق بغير القوة ..
« ومن الواضح أن الفراغ ما كانوا ليتمكنوا من تشييد عمالقة آثارهم

بغير السخرة ، ومن شق شبكة قنواتهم التي نفذوها بعناية دقيقة من غير السخرة . وما كانت مصر لتحصل على الأهرام ، والمدن ، والمعابد ، والمسلات ، وخطوط المياه التي أخصبت الصحراء خلال آلاف السنين بغير السخرة .

« ان استعمال الكبراج ، تلك الأداة البربرية ، لا يزال ساريا في جهات عديدة في العالم . وخاصة في آسيا والمستعمرات ، ولم يكن إذن في يوم من الأيام تخصصا مضرًا ..

« ان السخرة والكبراج لم يكونا جريمة أو حاجة سادية ، ولا كانا وقفا على مصر . لقد كانا موجودين في انجلترا نفسها في مراحل من تاريخها ، اقل تقدما من مرحلتنا » .

انتهى ما كتبه الخديو عباس في مذكراته عن الفساد ، والسخرة والكبراج ! وكان هذا هو سر كراهيته لثورة عرابي ، ولتلاميذ ثورة عرابي ، فهو خلاف طبيعي بين الذي يحمل في يده الكبراج ، وبين الذي يذوق طعم الكبراج ! كان الخديو يعتبر استعمال القراعة السخرة لبناء الأهرامات دليلا على عظمتهم . وكان سعد زغلول يعتبره دليلا على طغيانهم وجبروتهم . كان يعتبر الأهرامات تماثيل للظلم والظالمين تؤ كان يقول انها بنيت على أشلاء المصريين ، وارتفعت فوق جماجمهم ، وإن مئات الألوف من الفلاحين قتلوا من أجل تشييد قبر لرجل واحد !

وكان يؤمن بأن الأحرار يستطيعون أن يشيدوا أهرامات بغير أن يقيدوا بالسلاسل ، وبغير أن يضربوا بالسياط ، وبغير أن تزهد أرواحهم وتراق دماؤهم . وإن الطغاة يستعبدون الشعوب من أجل أشخاصهم لا من أجل مصالح شعوبهم ، فعظمة الأمم لا تقوم على استعباد ابنائها ، وإنما تقوم على منحهم الحرية والكرامة وعقهم في الحياة !

وهكذا أعلنت أسيرة محمد على حربا شعواء على عرابي . حاربوه وهو يقود الثورة .. وحاربوه في منفاه . وحاربوه وهو جثة ، ولا يذكر التاريخ رجلا من الرجال جندت القوى والكفايات والأحزاب والكتاب الأجانب والمؤرخون لكي يهدموه ويشوهوا سمعته وينالوا منه ، وهو رفات في قبره ، كما حدث مع أحمد عرابي . ومن أجل هذا زورت كتب التاريخ . بل زورت الكتب المدرسية التي كانت توزع على التلاميذ . ونسبت إليه أحاديث لم يدل بها ، وأخطاء هو برىء منها وكان ذكر اسمه أشبه بلدغة عقرب تلدغ الملوك والحكام .

وكان الخديو عباس يمقت كل من اشترك مع عرابى في ثورته . كان يكره سعد زغلول وكان يكره صديقه محمد عبده ، لأنهما اشتركا في ثورة عرابى ، ولأنهما يدافعن عن اهداف الثورة ، ولأنهما كانا يرفضان أن يصما عرابى بالخيانة وأنه عميل بريطانى !

وحدث أن طلب الخديو عباس من مصطفى كامل أن يدعو الحزب الوطنى الى الاحتفال بمرور مائة سنة هجرية على تنصيب محمد على واليا على مصر .. وكتبت جريدة اللواء لسان حال الحزب الوطنى تدعو إلى هذا الاحتفال الوطنى !

وشعر تلاميذ ثورة عرابى بالضيق من هذه الدعوة . وقال سعد زغلول انها دعوة للشعب المصرى أن يحتفل بجلاده !

وكتب الشيخ محمد عبده يهاجم هذه الفكرة بعنف ، ويذكر الشعب المصرى بأن محمد على هو الذى طغى واستبد ، وحكم مصر بالكرياح ، واستغل هذا الشعب لأغراضه ومراميه .. وكانت شجاعة لاشك فيها من محمد عبده ..

وهاج الخديو .. وخرجت الصحف الوطنية تتهم الشيخ محمد عبده بأنه خائن لأنه يطعن في محمد على مؤسس الأسرة العلوية العظيمة !

وكان سعد زغلول يضيق بصحف الحزب الوطنى التى تهاجم صديقه محمد عبده وتتهمه بالخيانة والمروق لأنه ينادى بالراى الذى يؤمن به كل فلاح مصرى ذاق هو أو اجداده سياط أسرة محمد على . وكان يشعر بأن هذه المقالات هى سياط اخرى تنهال عليه كالسوط الذى كان يحمله المتصرف التركى عندما انتزعه أبوه الشيخ ابراهيم زغلول من فوق الحصان . وكان يحس بغیظ ومرازة وهو يرى الوطنيين يلوثون بالطين ، وخصوم الوطن يكللون بالغار . وكان يضايقه هذا الانفصال الشبكى بين مدرسة مصطفى كامل ومدرسة العرابيين . وكان يرى انه يجب أن يكون من مطالب الشعب خلع أسرة محمد على . وكثيرا ما ردد : لو أن مصطفى كامل درس بتجرد ثورة عرابى لعرف أن من اسباب هزيمتها ان الاقطاعيين المصريين تخلوا عن عرابى وراحوا يؤيدون الخديو والانجليز ضد ثورة المصريين ، وأن محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب المصرى كان فى استقبال جيش الاحتلال ، وأنه قدم الى قائد الاحتلال رسالة بتوقيعه وتوقيع الاقطاعيين المصريين يشكرون فيها جيش الاحتلال الذى هزم عرابى وعلى « إنقاذ البلاد من غوائل الفتنة العاصية » ..

ولكن لم يكن في استطاعة مصطفى كامل ان يعلن خيانة الخديو توفيق ،
إذ كان ابنه الخديو عباس راعيا للحزب الوطنى ، ولم يكن يستطيع ان يعلن
خيانة محمد سلطان باشا فقد ورد في مذكرات محمد فريد ان ابنه - وهو عمر
سلطان باشا - كان عضوا في اللجنة الادارية للحزب الوطنى ، واصبح احد
ممولى الحزب .

ويظلم هذا الجيل مصطفى كامل ومحمد فريد اذا جملهما مسئولية التنكر
لثورة عرابى . فقد كانا يهاجمانها عن اقتناع بان الخروج على العرش هو
خروج على الوطن ، وكانا يحملان عرابى نتائج الثورة التى انتهت باحتلال
مصر ، وكانا يؤمنان عن عقيدة بان عرابى لو وقف الى جانب الخديو بدلا من
الوقوف ضده ، لما جرى الانجليز على احتلال البلاد . ولعل اعتناقهما لهذا
الراى . كان مبنيا على انهما لم يكونا من الفلاحين ، ولم يشتركا في ثورة
عرابى ، ولم يشعرنا بالمظالم التى كانت ترتكبها اسرة محمد على ، فقد كان والد
محمد فريد يعمل في وظيفة كبيرة في القصر ، كما اوفد الخديو مصطفى كامل في
بعثة الى الخارج .

فلم ير الزعيمان إلا الصورة الحسنة لاسرة محمد على . بينما رآى سعد
زغلول منذ طفولته الصورة البشعة بما فيها من مظالم وطغيان وجبروت
واستبداد .

ثم ان الخديو جند عددا ضخما من المؤرخين والكتاب لينالوا من هذه
الثورة ، ومن احمد عرابى بالذات ، فلم ينس الخديو ان فلاحا مصريا تجرا
وقام يزلزل العرش من تحت احد افراد اسرة محمد على . وتأثر الزعيمان
الوطنيان في قرارتهما بهذه الآراء التى شوهدت امام عيونهما صورة الزعيم
الوطنى المهزوم . فعند نجاح اى ثورة تنسب الى قائدها كل انتصاراتها ، فإذا
فشلت ، القيت عليه تبعة كل أخطائها !

بل ان الخديو عباس ، في مذكراته التى كتبها بعد ثورة عرابى باكثر من
خمس وستين سنة ، كتب يقول بالحرف الواحد :

« ان جميع تفصيلات حكم الخديو توفيق » والد الخديو عباس « قد غدت
من حق التاريخ . ان الآلام التى عاناها أبى لتقترن بجهوده اليائسة لانقاذ
مصر من عبودية احتلال اجنبى ، كانت حجته طموح رجل ، لاشك في خيائنه
ملكه ووطنه ومواطنيه » احمد عرابى « . »

وانه من الخطا البين ان نجعل من هذا الطاغية العسكرى احد الابطال
الاول للوطنية المصرية . !

وهكذا يرى الخديو عباس أن الرجل الذى سلم مصر للانجليز هو الذى بذل
جهوده لانقاذ مصر من عبودية الاحتلال ، اما احمد عرابى الذى حارب
الاحتلال فهو خائن للملكه ولوطنه ولوطانيه ، ولا يستحق أن يكون بطلا وطنيا
بل هو طاغية عسكري !!

ويمضى الخديو عباس فى مذكراته يدافع عن تسليم والده مصر للانجليز
وتأييده للاحتلال البريطانى بقوله :

« ان أبى بالرغم من الهموم التى عاناها ، وبالرغم من مركزه العسير عندما
وضع الانجليز يدهم على البلاد ، لم يطأطئ الرأس ، وانما قبل الأمر
الواقع » !!

« وما كان يسعه أن يفعل غير ذلك . ولقد كان فوق ذلك يؤمن بالأمانة
البريطانية »

الم يقل الانجليز أن هذا الاحتلال هو تدخل قصير الأمد ، ريثما يعود
الامن ، ولحماية الشخصية الحاكمة فى مصر ، وتأييد العرش ، وحماية
مصالح الأجانب وخصوصا الانجليز ؟

وقد اضطر الخديو الى ملاطفة هذا الاحتلال القصير الأمد « !! »

هذا هو دفاع الخديو عباس عن موقف والده من الاحتلال البريطانى ، فلم
يكن عجبيا أن يظل طوال الاثنتين والعشرين سنة التى حكم فيها مصر يحاول
أن يلوث سمعة عرابى ، وأن ينتقم من كل ناصر ثورة عرابى . وفى مقدمة
هؤلاء محمد عبده ، وسعد زغلول .

ولقد بقى الخديو عباس يتعقب محمد عبده حتى بعد وفاته .

وكان احمد شفيق باشا رئيسا لديوان الخديو .

ومات الشيخ محمد عبده ، والخديو غير موجود فى مصر ، واشترك احمد
شفيق باشا فى تشييع جنازة الشيخ محمد عبده .

وكتب احمد شفيق باشا فى مذكراته التى نشرها بعنوان « مذكراتى فى نصف
قرن » أن الخديو عباس غضب عليه أشد الغضب لأنه اشترك فى تشييع جنازة
الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية فى ذلك الحين ، وكتب إليه يقول :
« ان الجنازة حارة والميت كلب » !

وجاء فى رسالة الخديو الى رئيس ديوانه بالحرف الواحد :

« يظهر ، والله اعلم ، انكم اردتم بالسير وراء نعشه ، المجاملة بعد الموت ،
وهو على ما تعهدونه عدو الله ، وعدو النبى ، وعدو الدين ، وعدو الأمير
والخديو ، وعدو العلماء ، وعدو المسلمين ، وعدو اهله ، وعدو نفسه .. فلم
هذه المجاملة ؟ »

وهكذا بلغ حقد الخديو على الشيخ محمد عبده ، لا لشيء إلا لأنه اشترك في ثورة عرابي ، ولأنه رفض الاحتفال بمرور مائة سنة على تولي محمد على حكم مصر ، ولأنه كتب يذكر الشعب بما تحمله في عهد محمد على من فساد وسخرة وضربات السياط !

وهذا يفسر كيف حاول الخديو عباس أن يحتضن حركة مصطفى كامل ، ليوجهها الوجهة التي يريد ، وليحاول أن ينتقم لأبيه من عرابي ، ومن انصار عرابي ، ومن كل الذين يطالبون بتخليص مصر من السيادة التركية وحكم الباشوات الأتراك ، وحق الشعب المصري في أن يحكم نفسه بنفسه ، ومن الذين يهاجمون السخرة وحكم الطغيان والكرجاج !

ولقد كان الوطنيون الثيبان أمثال مصطفى كامل يصدقون أكاذيب الخديو ضد الشيخ محمد عبده وكراهيته له بدعوى أنه كان صديقا للانجليز ! ولم يكن معقولا أن الشيخ محمد عبده الذي ساند ثورة عرابي ، وكتب مؤيدا لها ، ووقف بجوارها في حربها ضد الانجليز هو الذي يؤيد الانجليز ! ولكن الشيخ محمد عبده كان يطالب لشعب مصر بالحرية التي يتمتع بها الانجليز في بلاده .

كان يطالب بأن يكون لمصر مجلس نواب ، وهو أول ما طالب به عرابي ، كما طالب بتقييد سلطة الحاكم كما قيدت سلطة ملك الانجليز . وأن يكون الحكم ديمقراطيا كما هو الحال في بلاد الانجليز .. وكان الخديو يعتبر هذا خيانة وطنية !

وكان الشيخ محمد عبده يقول أنه يفضل أن يواجه الاحتلال البريطاني-المصريين صراحة ، لا أن يتستر الاحتلال وراء الخديو ، وكان يصرح بأنه يرى أن استبداد الأتراك وأسرة محمد على بالشعب المصري ، لا يقل في طغيانه عن استبداد الاستعمار .. وكانت هذه الآراء في نظر الخديو كفرا بالله .. فكيف يجوز للشيخ محمد عبده أن يسوى بين طغيان حاكم مسلم وطغيان حاكم غير مسلم ؟ !

وكان الشيخ محمد عبده يقول لأصدقائه أن الطغيان كفر بالله سواء كان الطاغية مسلما أو غير مسلم ، بل أن الطاغية المسلم الذي يستبد بشعب مسلم أكثر أجراما من طاغية غير مسلم يستبد بشعب مسلم !

ولقد نسب إلى الشيخ محمد عبده أنه قال مرة أن الشعب المصري مستعد ، إذا تخلص من أسرة محمد على ، لأن يقبل وزيرين انجليزيين في الوزارة ، ونوابا انجليزيا في مجلس النواب المصري !

ولا يمكن أن يكون الشيخ محمد عبده جادا في مثل هذا الرأي الغريب ..

ولاشك انه أراد أن يبين مقدار ما يعانيه الشعب المصرى من أسرة محمد على ،
وانه مستعد لأى تضحية من أجل أن يتخلص من هذا الطغيان الأجنبي ، حتى
لو جاء بوزيرين انجليزيين فى الوزارة المصرية .. ولم يكن المصريون هم
أصحاب فكرة دخول وزيرين انجليزيين فى الوزارة المصرية ، فإن الخديو
اسماعيل عندما غرق فى الدين ، وقبل أن يقوم عرابي بثورته ، جاء بوزيرين
انجليزيين فى الوزارة المصرية !

فالشيخ محمد عبده ، وهو فلاح مصرى ، كان لا يزال يحس فى جسمه بأثار
ضرب السياط من أيدى أسرة محمد على ، كانت لا تزال تدوى فى أذنيه
الامانات التى كان يتلقاها الفلاحون المصريون من حكامه المتعاليين عليه ،
الذين ارتفعوا على أكتاف الشعب المصرى ، ثم داسوه بعد ذلك بأقدامهم . كان
يرى فى احتلال أسرة محمد على احتلالا أجنبيا لا يقل بشاعة عن احتلال
الانجليز . وكثيرا ما ردد أن من حق المصريين أن يتولوا حكم أنفسهم
بانفسهم ، وأن يكون الحكم شورى ، غير قائم على طغيان واستبداد الأسرة
الحاكمة . كما يرفض أن يستبدل باستبداد الانجليزى استبداد التركى . بل
يأبى أن يستبدل بالطاغية الانجليزى طاغية مصرى !

وكان هذا الخلاف فى الراى فى شأن أسرة محمد على ، هو سبب الخلاف
الأساسى بين محمد عبده وسعد زغلول من ناحية وبين مصطفى كامل من ناحية
أخرى .

ولقد كتب الشيخ محمد رشيد رضا الذى كان سكرتيرا خاصا للشيخ محمد
عبده واحد تلامذته فى كتابه « تاريخ الإمام » يقول :

« كان مصطفى كامل يود الاتفاق مع الأستاذ الإمام » محمد عبده « والعمل
معه ، أو براهيه ، لمصر والاسلام . ولكن الأستاذ ورجاله لم يقيموا وزنا لخنائته
واعجابه . لكونه مُسخرا للخديو بالمال . وكان سعد زغلول يقول أنه مجنون .
وأما الأستاذ الإمام فقال فى وصف مقالات مصطفى كامل أنها مجموعة نوبات
عصبية ، بعضها شديدة وبعضها خفيف » .

ولم يكن مصطفى كامل مجنونا كما صوره سعد زغلول ، فقد كان شابا
وطنيا متحمسا ، يكره الانجليز ، ويحب سلطان تركيا لأنه اعتقد أن تركيا
قادرة على تخليص مصر من الاحتلال البريطانى ، ولم يكن آلة مسخرة بالمال ،
فى يد الخديو ، كما يقول الشيخ رشيد رضا ، وإنما كان يعتقد أن مساعدة
الخديو له بالمال دليل على وطنية الخديو ، وأن كل من يهاجمون الخديو
الوطنى هم خونة ، ولم تكن مقالاته تشنجات عصبية كما يقول الشيخ محمد
عبده وإنما كانت مقالات حماسية لم تستطع فى حماسها أن تفهم مدرسة
٤٧

العربيين أمثال محمد عبده وسعد زغلول . فلم يكتشف مصطفى كامل أن الخديو كان كذابا ، وكان يخدعه إلا في أواخر أيامه .

وكان سعد زغلول وزيرا للمعارف ، وكثيرا ما تحدثى مستر دنلوب المستشار الانجليزى فى الوزارة ، بسبب سياسته ضد التعليم .. فعمل سعد على نشره بيد أبناء الأمة متحديا الانجليز لاعتقاده بأن ثورة عرابى لم تفشل إلا بسبب الجهل المتفشى بين الشعب . وكان الخديو يوعز الى مصطفى كامل بأن يقول أن سعد زغلول يفرط فى حقوق الوطن ، ويضعف فى مقاومة الانجليز . وكان الخديو ينصح الوزير سعد زغلول سرا بالا يتشدد فى مواقفه ضد المستشار الانجليزى ..

وكان سعد زغلول يستعين بالمصريين فى وزارته ويسند إليهم مناصب كبرى متحديا دنلوب ، وكان الخديو من جانبه يستدعى هؤلاء المصريين الذين عينهم سعد زغلول ويامرهم بالوقوف الى جانب مستر دنلوب الانجليزى فى صراعه ضد الوزير المصرى !

وفى الوقت نفسه يوعز إلى صحف الحزب الوطنى بأن تنشر أن وزير المعارف سعد زغلول يبصم على كل الأوامر التى يصدرها المستشار الانجليزى !

• وكان صنفيو الحزب الوطنى معذورين فى تصديقهم للخديو الوطنى « !! » عندما يوعز إليهم بأن الوزير المصرى متواطئ مع الانجليز ! وكانوا معذورين أيضا لأنهم لم يتصوروا أن ملك البلاد ممكن أن يزيغ الأخبار ويخترع الأكاذيب ضد أحد وزرائه !

ولكن الخديو عباس كان يريد أن يقضى على سعد زغلول . كما قضى على محمد عبده . وكما قضى على عرابى قبل ذلك . كان لا يستطيع أن يغفر لهم أنهم اشتركوا فى الثورة العربية على أبيه . وأنهم لم يلعنوا الثورة كما لعنها الباشوات الأعيان الذين وقعوا عريضة يقولون فيها أن عرابى خائن للوطن . وكان لا يستطيع أن يغفر لمحمد عبده وسعد زغلول انهما يطالبان بالدستور ، وبتقييد سلطة الملك ، وبأن يكون الشعب المصرى مصدر السلطات . ولو أن الحزب الوطنى كشف يومها لعبة الخديو عباس وعرف حقيقته ودوافعه لما وقف هذا الموقف من الذين اشتركوا فى ثورة عرابى .

وهكذا شعر الذين يقيمون فى بيت سعد زغلول أن أساس الخلاف بين مصطفى كامل وبين تلاميذ ثورة عرابى هو على النظرة للثورة العربية نفسها . كان الخديو يعتقد أن عرابى خائن ، وأن محمد عبده خائن ، وأن جمال الدين الافغانى جاسوس انجليزى ، وأن عبدالله النديم مشعوذ أفاق !

وكان تلاميذ ثورة عرابي يقولون ان هؤلاء هم الوطنيون الحقيقيون ، وان الخونة هم الخديو توفيق والد الخديو عباس ، ومحمد سلطان باشا والد عمر سلطان باشا عضو مجلس ادارة الحزب الوطني ، وجميع الباشوات الذين خانوا عرابي وانضموا الى الخديو .

ولاشك ان مصطفى كامل كان في تقديره لثورة عرابي ضحية للمعلومات الخاطئة التي كان يقدمها له الخديو عباس . ولولا الخديو عباس لما حدثت هذه الشقة الواسعة بين المدرستين ، فإن الثورة العرابية هي الام الشرعية لجميع الثورات والحركات الوطنية التي قامت في مصر بعد الاحتلال . ولقد نجح الخديو عباس في ان يبعد العرش عن ان يكون أحد أهداف الحركة الوطنية ، بل نجح في بعض الاوقات في ان يجعل هذا العرش أحد اعلامها . وكان هذا بلاشك نكسة للحركة الوطنية ، وتراجعا عن الخط الثوري الذي وصلت اليه في اثناء ثورة عرابي .

وقد اختلف سعد زغلول مع اصدق صديق له وهو قاسم امين بشأن رايهما في مصطفى كامل . وحدثت بين الصديقين الحميمين جفوة بسبب هذا الخلاف .

واستمر الصراع بين انصار مصطفى كامل وانصار عرابي زمنا طويلا .. ففي مذكرات محمد فريد يقول في يوم ١٧ فبراير سنة ١٩١٤ .. سافرت الى عربة المستر « بلانت » المؤرخ الانجليزى وصديق عرابي . لقضاء اليوم عنده فوجدته في غاية الصحة ..

« وقد اطلعني على جوابين محررين الى عرابي باشا ، أحدهما من الشيخ محمد ظافر ، والثاني من احمد راتب باشا في ربيع سنة ١٢٩٩ هجرية يعربان صراحة بان السلطان عبدالحميد كان يمينه بملك مصر . ويحضه على الدفاع عنها حتى لا يملكها الاجنبى كما اخذت فرنسا تونس .

« وقد نشر ترجمتهما في كتابه تاريخ مصر السرى » وسينشر نسختيهما بالفوتوغراف في ترجمة هذا الكتاب .. الذى وعد بنشره احمد أفندى عبدالغفار من اعيان تلا منوفية « احمد عبدالغفار باشا وزير الزراعة الدستورى فيما بعد » الذى كان بلجنة الحزب الوطنى بجامعة اكسفورد . « ولقد اطلعت بطريق الصدفة على جواب كان بينهما ، من الشيخ محمد عبده الى مستر « بلانت » تاريخه ذى الحجة سنة ١٢٩٩ أرسله اليه من السجن يشكو حاله .

« ويذكر له الشيخ محمد عبده مقابلة المستر « برودى » المحامى له في السجن ، ويقول ما معناه انه واثق بان انجلترا سيكون لها تمثال في قلوب المصريين .

« وبكل أسف لم أتمكن من أخذ صورته . وعلمت من المستر « بلانت » أن لديه أوراقا كثيرة بالعربية من رجال الحزب الأهلئ « حزب عرابئ » إذ ذاك . فإذا مكنتنى الفرصة ، وأقمت فى لندن بضعة أسابيع ، سأعود إليه ، وأطلب منه اطلاعى على هذه الأوراق ، لعلئ أجد فيها شيئا يفيد نشره » . وهكذا كان الزعيم محمد فريد حتى بعد خروجه من مصر ، لا يزال متأثرا بفكرة الحزب الوطنئ بأن عرابئ خائن . وأنه قام بثورته لأنه يريد أن يكون ملكا على مصر ، وأن الشئخ محمد عبده ، وهو أحد أقطاب حزب عرابئ ، كان يرى إقامة تمثال للانجليز .. وكان محمد فريد يريد الحصول على هذه الرسائل حتى يفصح العرابئ !

ولا يعيب عرابئ أن يطمع فى أن يكون ملكا على مصر ، فإن من حق المصرئ أن يفكروا فى أن يكون حاكمهم مصرئاً مثلهم . ولكن فى تلك الأيام التى كتب فيها محمد فريد مذكراته لم يتصور بعض الناس أن يفكر فلاح مصرئ فى أن يكون حاكما لمصر !

ولقد كان الخديو توفئق يريد أن يشنق جميع قادة ثورة عرابئ بغير محاكمة ، ولكن الانجليز خشوا اثر ذلك على الرأئ العام العالمئ ، وأصروا على إجراء محاكمة علنئة ، وقد سر العرابئون فى سجونهم حين علموا بأن الانجليز كانوا يحسبون حسابا للرأئ العام العالمئ . فإذا جاء المحامئ الانجليزئ لمحمد عبده فى سجنه وقال له أن الخديو يريد شنقه بغير محاكمة ، وأن الانجليز يطالبون بمحاكمة عادلة .. فهل يطلب منه أن يقترح إقامة تمثال لمن يطالب بإعدامه ، أم يشكر الذين طالبوا بأن يقدم الى المحاكمة ؟ ! هل مطلوب من المظلوم أن يهلل للظلم اذا جاء على يد تركئ ، وأن يلعن العدل اذا جاء على يد بريطانئ ! ان العدالة لا وطن لها ، والظلم لا وطن له . والذين يطالبون المظلومين بأن يسكتوا على ظلم الحاكم لأنه من أبناء بلدهم ، هم شركاء للظالم فى ظلمه ، ثم من قال أن الخديو توفئق من أبناء هذا الوطن ؟ !

ولكن جريمة محمد عبده الكبرى انه كان يطالب بأن تكون الأمة مصدر السلطات ، وجريمة سعد زغلول انه كان يريد دائما أن ينتزع الخديو الظالم من فوق الحصان !

وعندما كان سعد زغلول وزيرا للمعارف كتب فى مذكراته فى يوم ١٥ يناير سنة ١٩٠٨ يقول :

« مضيت الليلة مع ارق ، منشؤه الفكر فى حالتئ ، وما صارت إليه . من جهة أشعر بأن الانجليز غير راضئين ، لأنئى شديد الوطأة عليهم ، مخالف لهم فى آميالهم ، جار على مبادئ لا تتفق مع مقاصدهم .

« ومن جهة الجناب الخديو فإنه غير واثق بى ، لأنى من أصدقاء الشيخ محمد عبده الذى كان يكرهه أشد الكراهية ، وزاد كراهته فيه ، وإن كان ميتا ، خطابان نشرتهما الجرائد كان أرسلهما الشيخ محمد عبده الى مستر بلنت « صديق عرابى » عقب الاتفاق الانجليزى الفرنسى بأن نظام الحكومة يجب أن يكون مبنيا على غل يد الخديو عن كل شىء فى الإدارة ، حتى الأمور الخاصة بالدين ، وأن تكون القوة التشريعية فى يد نواب الأمة . ولا بأس أن يوجد فيهم انجليز . والسلطة التنفيذية فى مجلس النظار ، الذى لا يضر أن يكون فيه بعض الانجليز ، بشرط أن يكون الرئيس مسلما ، وأن تكون جميع الوظائف بعد ذلك فى يد المصريين سواء كانت قضائية أو إدارية ، ولا بأس أن يكون السردار انجليزيا ، وبعض القواد أيضا .

« فهذه الكتابات زادت كراهية الخديو للشيخ محمد عبده ، واثارت فى نفسه بغض أصدقاء المرحوم الشيخ محمد عبده ، خصوصا وقد ورد فى الخطابين أنه استشار فيما تضمنهما كثيرا من الفضلاء .

« وبما أنى أحد أصدقائه ، فمن الطبيعى أن أكون أول من يخطر ببالى سمو الخديو والملتفين حوله .

« أنا متضايق من الانجليز ، ومن الخديو ، وكذلك من الذين تحت إدارتى ، خصوصا الذين اختلفوا مع دنلوب « مستشار وزارة المعارف الانجليزى » فى شأن ترقيةهم ، فإنهم لم يؤيدوا حسن ظنى ، وخذلونى أمامه ، وأمام ضميرى .

« كل هذا كان يمر بالفكر وقت الأرق ، وأنى فى حيرة شديدة من امرى ، تحدثنى نفسى مرة بأن أقدم استقالتى وأستريح من هذا العناء ، ولكن يصدنى عن ذلك رجاء صلاح الحال من جهة ، وضيق العيش من جهة أخرى ، وشماتة الأعداء من جهة ثالثة . ومن سوء البخت .. أنهم كثيرون .

« ويرد على خاطرى أننى إذا تركت الخدمة استرددت حزيتى ، واشتغلت بالمحامة ، وبالصحافة . ولكن يضعف عزيمتى عن ذلك ضعف صحتى ، واختلال رجال المحامة ، وفساد الصحافة .

« والاحسن أنى أقوض امرى الى الله فى جميع ذلك ، لأنه عودنى أن يدبر لى الأمور بإحسن مما أتصور ، وأفيد مما أريد .

وهكذا كان سعد زغلول وهو وزير للمعارف يتلقى الضربات من الانجليز لأنه شديد الوطأة عليهم ، ولأنهم كانوا يشكون فى اتصالاته بالشبان المصريين ، وفى الأسباب التى تجعله يوفد اشخاصا بالذات فى بعثات

الى الخارج ، ولا ينسون أنه كان متهما بتأليف جمعية الانتقام . وكان يحاربه لأنه من مدرسة العرابيين ، ومن أصدقاء محمد عبده ، ومن بغل يد الخديو ، ومن المنادين بإنشاء مجلس نواب مصرى . وقد زغول يختلف مع مستردنلوب المستشار الانجليزى فى وزارة المعارف تعيين مصريين فى الوظائف العربى فى وزارته ، فإذا انتصر على دنلوب هؤلاء المصريين الى هذه المراكز ، استدعاهم الخديو سرا والبهم ض الذى حارب من أجلهم ، وجعلهم يضمنون الى المستشار الانجليزى فى ضد الوزير المصرى . وفى الوقت نفسه يوعز الخديو الى صحف الوطنى بأن تهاجمه وتتهمه بأنه انجليزى ، وتكتب بعض الصحف الأكيد على أن سعد زغول انجليزى هو أنه كان مشتركا فى الثورة التى نادى بخلع الخديو ، والتى هاجمت أسرة محمد على ، وأنه سجد هذه الثورة الخائنة !! وأنه كان يؤيد الشيخ محمد عبده فى عدم الاحتميلاد محمد على منشئ مصر الحديثة وصاحب الأيدى البيضاء على المصرى ، والذى وصلت جيوشه الى أبواب الاستانة ، والذى قام بالالاعظيمة المجيدة فى البلاد .

وكان سعد زغول يضيق بهجوم الصحف الوطنية عليه فى اذ بالخيانة ، لأنه يطالب بأن يحكم مصر المصريون ، لأنه يؤيد الدعوة للمصريين وليست لسلطان تركيا ولا للخديو ولا للانجليز ، لأنه رقد حركة المؤتمر الإسلامى التى وقف فيها الشيخ عبدالعزيز جاويش يه مصر بقوله و« ستجعل من جلودكم نعلا ، ومن شعوركم حبالا » فقد زغول يؤمن بأن مصر ستعود الى المصريين عندما يتعانق الصليب م وتتخلص من حكم غير المصريين ..

وكان سعد زغول يتحدث الى أسرته دائما عن أن مصر يجب أن المصريون . كان يقول أن الحاكم الأجنبى لا يشعر بشعورهم ، ولا لاهمهم ، ولا يحس بعذابهم . عندما يطلق عليهم الرصاص يشعر التى يشعر بها الصياد عندما يصطاد البط فى بركة أكيا ! يمر على فيتصور انها تغنى . بينما يشعر الفلاح بأن صوت السواقى هو عود تذرف الدموع على الفلاحين الذين بنوها ولم يشربوا من مائها ! ه العطش ، بينما مياه الساقية تروى أراضى الأمراء ! الحاكم الأجنب الأهرامات فلا يشعر إلا بعظمتها . ولكن الذين بنوها وحدهم الذين بالام السياط فى أيدى الفراعنة ، يعرفون أن هذه الصخور طحتهم القهر هو الذى صنعها . الاستبداد هو الذى شيدها . لم تصق ا

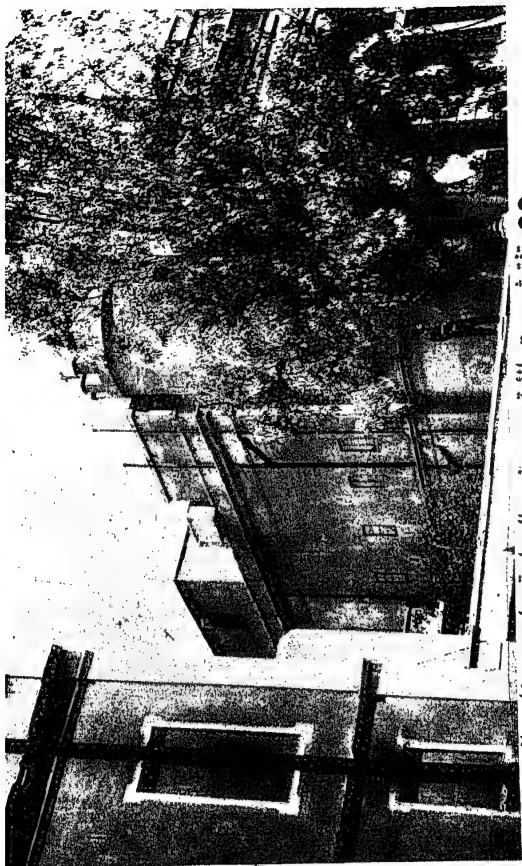
بالاسمنت ، بل بدماء الفلاحين المصريين . الحاكم الاجنبى بنى سلطانه على
دموع المحرومين ، وجثث المشردين ، وقبور المستضعفين ، واثين الجوعى
والضائعين والتائهين فى بلادهم ! انهم اعطونا الفقر واخذوا منا الغنى ،
هدموا اكواخنا ليبنوا قصورهم ، نهبوا ارضنا ليملكوا التفاتيش
والابعديات . اسكتونا ليتكلموا . احنوا رقابنا ليرتفعوا فوقها . فرشوا طريق
المجد لهم بجماجم ابنائنا . حفروا قناة السويس بعظام فلاحينا . انهم
اعتبروا طيبتنا غفلة . وبراءتنا سذاجة ، وصبرنا رضى ، وطهرنا عبطا ،
وسكوتنا استسلاما وصمتنا استكانة . ذلك لانهم لا يفهمون لغتنا ، ان الدمة
تفقد حرارتها عندما تترجم ! ولو كان مصطفى كامل فلاحا لفهم المرارة التى
نشعر بها نحن الفلاحين ..

وبقى الحديث عن الخلاف مع مصطفى كامل حديث مائدة سعد زغلول زمانا
طويلا ..

وفجأة احتد الحديث .. وارتفعت الاصوات ..
فقد تزوجت ابنة اخت سعد زغلول ، وابنته بالتبنى ، رتبية زغلول من
محام شاب .. وعقد القران فى بيت سعد زغلول .

وتم الزفاف فى بيت سعد زغلول ..
وبعد القران والزفاف عرف سعد زغلول لأول مرة ان العريس الجديد عضو
فى الحزب الوطنى !!





●● نفّيش بيت الأمة .. ووضع الحراسة عليه من كل جانب

● الفصل الرابع ●

وقفت عربة أجرة ، بجرها حصانان هزيلان ، ونزل منها شاب في العشرين من عمره ، نحيف القامة ، متوسط الطول ، على رأسه طربوش أحمر طويل ، يملأ وجهه شارب كبير غليظ يحاول جاهدا أن يخفى صغر سنه ، ودفع الشاب للحوذي أجره مضاعفا ، حتى لا يثير مشاجرة في هذه اللحظة الرهيبة من حياته ، فدعا له الحوذي بالتوفيق ، وأحس أنه في حاجة فعلا إلى هذا الدعاء . واستدار الشاب يتأمل بعينين قلقتين حائرتين البيت الفخم الكبير الذي وقفت العربة أمامه ، وقطع في رهبة المسافة إلى الباب الحديدي الشاهق ، وخفق قلبه من الخوف وقد أحس أنه يخطو إلى عالم جديد مجهول ، عالم مسحور لم يدخل إلى مثله من قبل . وتقدم نحوه الحاج أحمد خادم سعد زغلول الخاص تملأ وجهه ابتسامة كبيرة ، وإطمأن الشاب قليلا عندما رأى الوجه الطيب والابتسامة الرقيقة فقد أخرجته الابتسامة من الوحشة التي أحس بها . وقاده الخادم إلى حديقة البيت دون أن يسأله عن اسمه ، وكأنه كان ينتظره ، ويتوقع قدمه ، ويعرف لماذا جاء . ومضى به يصعد درجات السلم الرخامي إلى المكتب الكبير الخاص بالباشا في السلامك . وأشار الحاج أحمد إلى مقعد في الغرفة الكبيرة الخالية ، فجلس الشاب فيه ، وتركه الحاج أحمد وخرج وأغلق الباب . وحاول الشاب جاهدا أن يخفى اضطرابه وأن يتمالك أعصابه ، وراح ينقل عينيه بين أثاث المكتب والصور الفوتوغرافية المعلقة على الجدران ، كأنه يستنجد بها أن تخفف وحشته أو تؤنس وحدته أو تزيل قلقه واضطرابه . ولكنه أحس كأن العيون التي ترمقه في الصور تطل من أطرافها شزرا ، كأنها في دهشة من جراءة هذا الصعلوك على دخول المكتب الذي يتردد عليه الوزراء والأمراء والملوك !

وأخرج الشاب مذبله ليمسح عرقه . صحيح أنه حفظ درسه جيدا . أنه يعرف أنه سيواجه امتحانا صعبا رهيبا ، يختلف عن كل الامتحانات التي اجتازها حتى حصل على شهادة الليسانس من مدرسة الحقوق . وصحيح أن صديقه طاهر اللوزي أحد موكله في مدينة دمياط مهده للمحنة التي سوف يواجهها . أن طاهر اللوزي هو زوج ابنة شقيقة صفية زغلول ، وهو الذي أخبره بأن لسعد زغلول ابنة متبناه في سن الزواج ، وصحيح أن طاهر اللوزي حذره من أن سعد زغلول يستقبل كل من يتقدم لخطة رتيبة ، بطريقة

تختلف عما اعتاده الناس في مثل هذه المناسبات ، فبدلاً من أن يسأل طالب الزواج الأسئلة العادية التي يسألها أباء العرائس ، يحول هذا اللقاء الى امتحان رهيب ، فيوجه الى طالب الزواج عشرات الأسئلة في السياسة والأدب والاجتماع ، ويثير معه عشرات الموضوعات ، تماماً كما كان يفعل وهو وزير المعارف مع الشهبان الذين كان يستقبلهم ليوفد منهم من يختاره لارساله في بعثة الخارج ! وعرف أن الباشا اكتسب من عمله كمستشار في محكمة الاستئناف خبرة في التحقيق ، فلا يفرق بين المتهم وطالب الزواج . وتعلم في الأزهر فن الجدل ، فكانت هوايته صراع الأفكار ومبارزة الآراء . وهو يكره الذين يوافقونه على كل رأى ويمقت الذين يعارضونه في كل رأى ! وهو أحياناً يجد لذة في أن يعيث بالذين يجادلهم . يتظاهر أحياناً بالتمسك برأى لا يؤمن به . حتى اذا أفتع سامعه واستسلم لرأيه ، انقلب على الرأى نفسه . وفنده . وهدمه بنفس الكفائية والعبقرية التي بنى بها الرأى الأول وشيده وسنده وأوقفه على قدميه ! فهو أشبه بمركم موهوب ، لا يرضيه أن يرى خصمه واقفاً على قدميه . ولا يرضيه أن يراه ملقى على الأرض !

« وقال له طاهر اللوزى أن كثيرين تقدموا لخطبة رقية ، فكانوا يسقطون دائماً في هذا الامتحان العجيب . فهو يرفض أبناء الباشوات لأنه يحتقر أبناء هذه الطبقة ، ويؤمن بانهم طبقة رخوة ، ليس فيها طين الريف الذى هو أشبه بالأسمنت في بناء الرجال . وهو يرفض أبناء اعيان الريف ، لأنهم غير متعلمين ، وهو يؤمن بأن العصر القادم هو عصر المتعلمين ، ولا يريد أن تعيش ابنته المتنبهة في عصر الجاهلية ، ثم هو يرفض المتعلمين من أبناء الريف لأنهم يقيمون في الريف . وهو يريد لرتيبة أن تتزوج في القاهرة وتبقى مع زوجها في بيته الكبير لأنه لم يرزق بأولاد . ثم هو يرفض الموظفين الذين يقيمون في القاهرة لأنه يعتبر أن الوظيفة سجن ، تحول الرجال الى عبيد ، وتحول العبيد الى رقيق اذلاء وهو يرفض الشباب صغار السن لأنهم بلا تجربة ، ولا يعجبه كبار السن لأنه لا يريد لها أن تعيش أرملة !

والشباب الذى يجلس في غرفة الامتحان اليوم لا يتوآقر فيه أى شرط من الشروط التى يطلبها الباشا ، ولكن روح المغامرة فيه هى التى جعلته يقبل أن يواجه هذا الامتحان الرهيب ، ولكنه ما كاد يجلس في قاعة الامتحان حتى أحس بأن ثقته بنفسه تتخلى عنه ، ولولا خوفه من أن يكون الحاج احمد واقفاً أمام الباب ، لفتح الباب ، واطلق ساقيه للريح !

انه شاب فقير مات أبوه المحامى وهو لا يزال طالباً في السنة الأولى بمدرسة الحقوق ، وكان أبوه أكبر محام في دمياط وكان الطالب يعيش في رغد ،

ولكن بعد أن مات أبوه عرف أن ديون أبيه كانت أكبر منه فلم يجد في البيت مصاريف الجنازة والماتم فاقترضها .

لم يجد مالا يتم به دراسته فاضطر أن يعطى دروسا خصوصية للتلاميذ لياكل ولينفق على أمه وليصل إلى شهادة الليسانس ! ما أبعد المسافة بينه وبين الذين جاء لمصاهرتهم ! هذا القصر الضخم . هذا الأثاث الفخم . هذا الخادم الذى يرتدى بذلة لا تقل أناقة عن البذلة التى يرتديها العريس ! ياله من أحقق ! كيف تصور أنه أهل لأن يتقدم طالبا يد ابنة سعد زغلول وابنته المتبتاه . لقد أقام أثناء دراسته في بيت أحد أقاربه وأحب ابنة قريبة البيك وأحبته ، وتقدم إلى البيك والدها يطلب يدها ، ورفضه البيك ، لأنه فقير ، ولا يملك ثروة ، ومحام مبتدئ وفوجئ بالفتاة التى أحبتها تلقى بنفسها من النافذة احتجاجا على قرار أهلها . وكادت تقتله الصدمة ، وقرر أن يعيش طول حياته أعزب يبكي حبه ، ولكن أصدقاءه اقنعوه بأن يحاول أن ينسى حبه المذبوح بزواج جديد كما تصحوه أن ينظر إلى تحت ، لأن الذين ينظرون إلى فوق تقطع سيوف الأبناء رقابهم ، ولكنه أصر على أن يصاهر سعد زغلول بعد أن رفضته أسرته هو لهوان شأنه وفقره وديونه .. لكن .. هل من المعقول أن يرفضه قريبه البيك ، ويقبله الباشا الذى لا يعرفه ؟

كانت هذه الأفكار والخواطر تتقاذفه .. كانت أشبه بالمطارق تدق على رأسه ، وتكاد تحطمه بضوضائها ، فلم يشعر بأن سعد زغلول فتح باب المكتب ودخل الغرفة إلا عندما رآه أمامه ، وقفز الشاب من مقعده معتذرا ، فدعاه سعد إلى الجلوس في مقعد بجوار المكتب وجلس هو إلى مكتبه . وأحس الشاب بالرهبة ، فقد توقع أن سعد زغلول سيجلس إلى جواره في جلسة عائلية ، فإذا به يستقبله كائى وزير يستقبل زائرا ، وكان الشاب هو أحد أصحاب الحاجات ..

وبدا سعد زغلول الحديث بقوله أنه ستجرى انتخابات للجمعية التشريعية ، وأن بعض أصدقائه اقترح عليه أن يرشح نفسه في الانتخابات نائبا عن دائرة السيدة زينب ، ولكن الغالبية من أصدقائه قالت أنه لا يجوز أن ينزل سعد زغلول من مكانته كوزير سابق ، ويرشح نفسه في الانتخابات ، وهو يميل إلى هذا الرأي ، فإنه لم يسبق لوزراء في تاريخ مصر أن نزلوا في الانتخابات ..

وقال الشاب أنه على العكس يعتقد أنه يشرف سعد زغلول أن يكون نائبا عن الأمة . وأن رؤساء وزارات في فرنسا وإنجلترا وألمانيا يرشحون أنفسهم للانتخابات ولعلنا سعد زغلول ، وأرسمت ابتسامة على شفتيه ، وقام

من مقعده ، واتجه الى الشاب ، ووضع يده على كتفه ، ودعاه الى الجلوس بجواره على اريكة جانبية وقال : يظهر ان المناقشة ستكون حامية !
واحدثت المناقشة بين الباشا والشاب الصغير . سعد يثير الاعتراضات والشاب يفندها .. سعد زغلول يقول ان الشعب لا يمكن ان يعرف كيف يختار من يمثله ، سوف يبيع صوته للمرشح الغنى ، وهو لا يريد ان يشتري اصوات الناخبين ، الشعب سوف يختار مرشح السلطة ، وهو خصم الخديو وخصم اللورد كتشنر الملك الحقيقى للبلاد !

والشاب يؤكد له ان في الشعب المصرى حساسية خاصة تجعله يعرف كيف يفرق بين خصومه والذين يسعون الى خدمته .. الذين يستغلونه ، والذين يدافعون عن مصالحه واحلامه وامانيه ..

واستمرت المناقشة العنيفة ساعة ، واذا بسعد يقول له :

اننى مقتنع تماما برأيك ، ولكن اردت ان ادرس شخصيتك من خلال المناقشة ! ان البلد فيه بلاط للخديو ، وبلاط للمعتمد البريطانى وانا اريد ان انشئ بلاطاً للشعب !

الخديو هو ملك بالوراثة ، ولورد كتشنر هو ملك بالقوة ، والشعب هو الملك الشرعى . لقد عشنا سنوات نتصور ان الطريق الوحيد للحكم في هذا البلد هو طريق قصر عابدين حيث يقيم الخديو عباس ، او طريق قصر الدوبارة حيث يقيم لورد كتشنر ، واريد ان اثبت ان الطريق الصحيح هو الشارع ! اريد ان اثبت ان الشارع هو صاحب الجلالة ! وهى مهمة تبدو الان مستحيلة . ولكنى اؤمن بان في قدرة هذا الشعب ان يسترد سلطانه . ان التقاليد المتبعة عندما يترك أحد الوزراء منصبه ان يجلس في نادى محمد على . يقف في الموقف . لا يفتح فمه . الى ان يرضى عنه المعتمد البريطانى او الخديو . فيعيده احدهما الى الوزارة . وانا لا اريد ان اقف في الموقف وانتظر ! لقد طردنى لورد كتشنر والخديو عباس من الوزارة طردا . وارسل الى الخديو يطلب منى ان اقل فمى ، وانه سوف يعيدنى الى الوزارة فقلت للرسول كان الخديو امانتى لبحيبنى من جديد ! يفتح الله ! ان الله وحده هو الذى يحيى ويميت ! وانا اريد ان اثبت نظريتى بان الشعب وهو وحده فى رأى ظل الله على الارض . هو الذى يحيى ويميت !

وقال الشاب : ان الثورة العربية فشلت لأنها لم تعرف كيف تنظم الشعب .

وهزت كلمة الثورة العربية سعد زغلول وقال له :

وما الذى تعرفه عن الثورة العربية ؟

قال الشاب :

أبى ! كان أبى الشيخ أمين يوسف أحد زعماء المقاومة فى دمياط ، وسجنه
الانجليز بعد فشل الثورة ، وحكموا عليه بالنفى خمس سنوات ، وأمضى مدة
التقى مع الشيخ محمد عبده فى لبنان .
ولمعت عينا سعد زغلول :
هل أنت ابن الشيخ أمين أبو يوسف ؟
قال الشاب : نعم ..

قال سعد زغلول : اننى أعرف أباك .. وكنت معجبا بالحركة الشعبية التى
قامت فى دمياط ، وسمعت تفاصيلها من الشيخ محمد عبده ..
وسكت سعد زغلول قليلا ثم قال : أكنى موافق على أن تتزوج رتيبة ..
وهل الشاب .. ان سعد زغلول لم يطرح عليه واحدا من الالف سؤال التى
استعد للإجابة عليها ..
وقال الشاب متعلنا : ولكننى فقير . ان أبى مات معدما نتيجة السجن
والنفى ..

قال سعد : هذا لا يهم !

قال الشاب : وأنا أرغب فى أن تقيم معى زوجتى فى دمياط ..

قال سعد : هذا لا يهم أيضا ! ... متى تريد أن تتزوج ..

قال الشاب : بأسرع ما يمكن !

قال سعد وهو يضحك : ساتفق معك فيما بعد على الموعد .. أما المهر فادفع
أى مبلغ تستطيع .

قال الشاب وهو لا يصدق : أن كل هذا تم بسرعة . هل هذا هو الرد
النهائى ؟

قال سعد : ان ردودى دائما نهائية !

وخرج الشاب ..

وصعد سعد زغلول الى الدور العلوى حيث كانت تنتظره زوجته صفية
وقال لها سعد :

مبروك :

ودهشت صفية . فإنها لم تتوقع أن يصدر زغلول قراره بهذه السرعة
وسالته :

هل عرفت كل شىء عنه !

قال سعد : عرفت أنه ابن الشيخ أمين يوسف أحد قواد الثورة فى دمياط فى
عهد عرابى !

قالت صفية : اننى لا أسال عن أبيه .. أسال عنه !
قال سعد : اننى أغرف أباه وهذا يكفى !
قالت صفية : وهل وافق على أن يعيش معنا فى البيت ؟
قال سعد : لا .. لم يوافق .. أنا الذى وافقت على أن تقيم رتيبة معه فى
دمياط !

وشبهت صفية وقالت : فى دمياط ؟ أى فى آخر الدنيا ! كيف تقبل أن تفترق
رتيبة عنا ..

قال سعد : انه إصر على ذلك ..
قالت صفية : وهل له ثروة تجعله يهين لرتيبة حياة فى مستوى الحياة
التي تعيشها معنا ..
قال سعد : انه فقير جدا ! فقد أبوه كل ما يملك عندما سجنه الانجليز ونفوه
خارج البلاد !

ولم تستطع صفية زغلول أن تعارض فى قرار زوجها ، فإنها تعرف أن
قراراته دائما لا تقبل النقض . ولكنها انتهزت فرصة لقائها بالعريس بعد
الخطبة ، واتفقت معه على أن تتردد العروس بين القاهرة ودمياط ، وخاصة
انها علمت أنه يعمل فى مكتبين ، مكتب بالمنصورة ، ومكتب فى دمياط ، حتى
لا تبقى العروس وحدها عندما يضطره عمله الى مغادرة دمياط الى مختلف مدن
القطر للمرافعة فى محاكمها ..

ووافقت رتيبة ، التى لم تر وجه الشاب ، على الزواج ، لأن صديقتها
العزيزة ، وهيبة ، ابنة شقيقة صفية زغلول ، متزوجة فى دمياط ..
ولم تر رتيبة وجه العريس إلا فى يوم الزفاف ! ..

وهكذا عقد قران الأنسة رتيبة زغلول على الأستاذ محمد أمين يوسف
لحامى . وتم عقد القران والزفاف فى بيت سعد زغلول ، وكان سعد شاهد
عروس .

وكانت صفية زغلول تضحك وهى تتذكر ما حدث يوم تقدم العريس
للخطبة ، وتقول : لقد جاء سعد بجميع المعلومات عن والد العريس ولم
يجئ بأى معلومات عن العريس ، كان البنت ستزوج والد العريس وليس
العريس نفسه ! وعندما سألت سعد هل العريس طويل أم قصير ، نحيف
أم بدين ، أبيض أم أسمر ، قال لى سعد انه لا يذكر فقد انشغل فى الحديث
معه عن الانتخابات وثورة عرابي !!

ولقد عرف سعد زغلول بعد ذلك أن صهره من شباب الحزب الوطنى ، وأنه
شريك فى مكتب الحمامة مع الأستاذ عبدالرحمن الزافعى المحامى الشاب

وأحد أعضاء اللجنة الإدارية للحزب الوطني وشقيق أمين الرفاعي رئيس تحرير جريدة العلم لسان حال الحزب الوطني ، ودارت مناقشات عاصفة بين سعد زغلول وصهره ، واكتشف أمين يوسف أن سعد زغلول قريب جدا الى أفكار هؤلاء الشباب ، الأفكار واحدة ولكن كلا منهما يعبر عنها بلغة مختلفة ! وجاء مع عدد من أصدقائه من شباب الحزب الوطني والتقوا بسعد زغلول عدة مرات ، وناقشهم سعد بعنف ، وناقشوه بحدة . وهاجموه وهاجمهم . واتهموه ودافع عن نفسه ، وإذا بهم يقتربون منه ، ويتعاونون معه ، بل أنهم اشتركوا معه في المعركة الانتخابية وطافوا يدعون له في الشوارع والحواري والبيوت ، وانضم اليهم الشباب الذين أوفدهم سعد زغلول في بعثات الى الخارج عندما كان وزيرا للمعارف بعد أن عادوا من بعثاتهم . وأعلن الخديو الحرب على المرشح وأمر بإسقاطه . وأصدر لورد كتشستر أمره الى رئيس الحكومة بأن يكون سقوط سعد زغلول في الانتخابات سقوطا شائنا حتى لا تقوم له قائمة بعد ذلك اليوم ، ونفذ رئيس الوزراء أوامر الخديو والمعتمد البريطاني فامر البوليس ومشايخ الحارات بإسقاط سعد زغلول ، وإنجاح مرشح القصر والحكومة والانجليز !

وأصبحت دائرة السيدة زينب ميدان معركة طاحنة ، بين رجل يعتمد على الشارع ، ورجل يعتمد على الخديو والدولة وجيش الاحتلال بكل ما لهم من نفوذ وجبروت وسلطان !

وإذا بالشارع يسيطر على المعركة . وهنا أحس سعد زغلول أن دائرة السيدة زينب لا تكفى وحدها لتكون ميدان القتال ، فأراد أن يوسع الميدان ، فريش نفسه أيضا عن دائرة بولاق !

وكان برنامج الانتخابي متواضعا وهو إثارة الشوارع ! لم يطالب بالاستقلال ولا بالجلاء ، ولا بالدستور ! ولكن خصومه أدركوا ما يعنيه من كلمة إثارة الشوارع ! أدركوا أنه يعلن حربا على الظلام ! الظلام بما فيه من طغيان واستبداد واحتلال وفساد !

وركزت الدولة كل سلطانها لتهزم المرشح الذي أراد إضاءة النور ! وجرت الانتخابات ، وإذا بسعد زغلول يكتسح منافسيه في الدائرتين الانتخابيتين معا ، ويكتسح معهم الخديو والوزارة وممثل جيش الاحتلال !

وأصبح الشعب كله من الاسكندرية الى أسوان يهتم بهذه المعركة الغريبة ، وبيتجه لتنتجتها ، فقد أحس كل فرد أنه هو الذي انتصر في هذه المعركة ! وإذا بشباب الحزب الوطني يرون أن سعد زغلول هو خير من ينتخب رئيسا للحزب بعد أن اضطر زعيم الحزب محمد فريد للهروب من مصر فرارا من بطش الخديو وطغيان الانجليز ..

ورأى الشبان أن يخففوا الصدمة عن زعيمهم محمد فريد فكتبوا اليه يستأذنونهم في أن يختاروا سعد زغلول نائبا لرئيس الحزب الوطنى فى اثناء غيابه فى أوربا ، ولم يعجب محمد فريد بهذا الاختيار .
وفى الوقت نفسه لم يوافق الشبان الذين كانوا يعدون للثورة مع سعد زغلول سرا على أن يتولى سعد رئاسة الحزب الوطنى ، فقد كان من رأيهم أن تقوم ثورة جديدة لا ترث خصومات الحزب الوطنى وأخطاءه ..
واتصل خبر ترشيح سعد زغلول لرئاسة الحزب الوطنى اللورد كتشنر فهاج وماج ، واستدعى سعد زغلول وهدده وتوعده اذا تولى رئاسة الحزب الوطنى ، وأكد له سعد زغلول انه لا يفكر فى هذه الرئاسة ..
ولكنه كان يفكر فى معركة أخرى ، كان يعتقد انها اخطر من معركة رئاسة الحزب الوطنى فقد نص قانون الجمعية التشريعية على أن يعين الخديو رئيس الجمعية ووكيلها وأن ينتخب اعضاء الجمعية الوكيل الآخر ..
وعين الخديو احمد مظلوم باشا رئيسا للجمعية ، وهو وزير من المدرسة التركية القديمة وعين الخديو عدلى يكن باشا وكيلا لها ، وهو من اصهار اسرة محمد على .

ولم يترك الخديو لاعضاء الجمعية أن يختاروا الوكيل الثانى اعز عليهم أن يكون من ممثلى الشعب أحد الوكيلين ، فرشح الخديو مدحت يكن باشا العضو المعين فى الجمعية وأحد اصهار اسرة محمد على لينتخبه الاعضاء وكيلا للجمعية ! أى أن يكون الرئيس والوكيلان فى البرلمان المصرى من الأتراك ، والا يكون بينهم فلاح واحد !

وجاء لورد كتشنر المعتمد البريطانى وأيد هذا الاختيار على الرغم من أنه كان يطلق على نفسه لقب صديق الفلاح المصرى !

وجاءت الحكومة وتبنت مدحت يكن باشا مرشح الخديو ومرشح المعتمد البريطانى وإذا بسعد زغلول يرشح نفسه لمنصب وكيل الجمعية منافسا المرشح الذى اجتمعت عليه كلمة قصر عابدين وقصر الاحتلال وقسم الحكم ! وبدأت معركة جديدة بين الشارع وبين القصور الثلاثة !

وانضم النواب الفلاحون الى سعد زغلول ، واسقطوا مدحت يكن باشا مرشح مجلس الوزراء ! وانتخب ممثلو الشعب سعد زغلول وكيلا للجمعية التشريعية ، متحدين اوامر الخديو ، وتهديد لورد كتشنر ، وضغط الحكومة وتلويحها بحل الجمعية التشريعية إذا أعلنت العصيان بانتخاب خصم الخديو وعدو لورد كتشنر !

وكان لورد كتشنر يبدو فى وجه المصريين فى صورة الطاغية المرعب حتى

ان جريدة الاهرام وصفته عند تعيينه في منصبه بقولها بالحرف الواحد « قالوا لنا اللورد كتنشز قادم ، فارتعدت أقلام ، واصطلكت ركب ، وارتجفت أيد . فهذا يذكر سيفه البتار ، وذاك يذكر البطل المغوار .. »

وشعر الشعب للمرة الثانية بأنه انتصر على لورد كتنشز ، القائد الجبار ، والحاكم المتغطرس ، والعسكري الذى اشتهر بانتصاراته المتوالية في كل معركة حربية دخلها ، فإذا بهذا الشعب الذى هزمه الانجليز في معركة التل الكبير ، وأذلوه ، واستعبدوه ، وطاردوا أحراره ، ونفوا زعماءه ، وشردوا رجاله ومحووا جيشه ، وهدموا معاقله ، ودكوا بيوته .

إذا بهذا الشعب يهزم الذين هزموه ، وينتصر على الذين غلبوه ، ويفرض رأيه على لورد كتنشز ، وعلى الاحتلال ، وعلى الحكومة كلها !

وامتلا بيت سعد زغلول الخالي . ضاقت غرفه الواسعة ، ازحمت صالاته الكبيرة ، غصت حديقته بالجماهير . أصبح كل مصرى يعتقد أنه شريك في النصر . الذين انتخبوا سعدا من أعضاء الجمعية التشريعية أحسوا أنهم أصبحوا أبطالاً أمام الجماهير ، والذين انتخبوا سعدا في الدائرتين الانتخابيتين شعروا بأنهم هم الذين هزموا البطش والارهاب والجبروت ، والذين لم يكونوا ناخبين ، أنهم شركاء في المعركة ، بقلوبهم التي هزها النصر ، وبألسنتهم التي تحمست لممثل الشعب ، وبلغعاتهم على ممثل السلطة وممثل العرش وممثل الاحتلال .

وكانت هذه هي المرة الثانية التي يصبح فيها بيت سعد زغلول كعبة المواطنين . كانت المرة الأولى قبل ذلك بست سنوات عندما دعا سعد زغلول المصريين للاجتماع في بيته في سنة ١٩٠٦ للاكتتاب لإنشاء الجامعة المصرية ، بعد أن رفض الانجليز إنشاء الجامعة !

وكانت هذه الخطوات كلها هي الرد على السؤال الذى بقى بغير جواب : لماذا بنى سعد زغلول في سنة ١٩٠١ هذا البيت الكبير ؟ !
في يوم وليلة أصبح هذا البيت هو مركز قيادة المعارضة ضد الخديو وضد اللورد كتنشز وضد الحكومة !

وفي هذا البيت توثقت عرى الصداقة بين الذين وقفوا مع سعد زغلول في المعركة من أعضاء الجمعية التشريعية وكان هؤلاء الذين وقفوا معه في هذه المعركة والمعارك التالية ، هم الذين اختارهم سعد زغلول ليكونوا أعضاء في الوفد الذى قاد ثورة سنة ١٩١٩ بعد ذلك بسنوات . فإن الذين اختارهم سعد زغلول للقيادة بعد ذلك بسبع سنوات كانوا إما من هؤلاء النواب الذين بدأوا يترددون على بيته في معاركه في الجمعية التشريعية ، أو من جيرانه في البيوت

التي تجاوره ، او من الطلبة الذين أوفدهم في بعثات عندما كان وزيرا للمعارف . فبعد العزيم فهمي بك وعبد اللطيف المكباتي وسينوت حنا ومحمد علي علوبة وجورج خياط وعلى الشمسي ، أعضاء الوفد هم انفسهم أعضاء الجمعية التشريعية الذين وقفوا بجوار سعد زغلول وانتخبوه وكيلًا للجمعية ضد إرادة الخديو واللورد كتشنر ورئيس الحكومة . وحمّد الباسل باشا الذي اختاره بعد ذلك وكيلًا للوفد يقيم في البيت المقابل لبيته في نفس شارع سعد زغلول ، ومحمود أبو النصر ، عضو الوفد يقيم في نفس الشارع ، وإبراهيم سعيد باشا الذي اختاره ليكون رئيسًا للجنة الوفد المركزية يقيم في بيت خلف بيته مباشرة ، وعبد الرحمن فهمي بك الذي اختاره رئيسًا للجهاز السري للثورة كان يقيم في شارع القصر العيني على بعد خطوات من شارع سعد زغلول ، ومحمد محمود الذي كان عضوا في الوفد يقيم في شارع الفلكي في نفس الشارع الذي يقع على ناصيته بيت سعد زغلول وكان الشيخ أحمد جاد الله العامل في الترسانة وأحد زعماء الاغتيالات السياسية في ثورة سنة ١٩١٩ أحد ناخبي سعد زغلول في دائرة بولاق ! وقد كانت استعانة سعد زغلول بجيرانه في تدبير الثورة سببا هاما في كتمان أنبيائها عن الانجليز الذين اشتهر نشاط مخابراتهم في تلك الأيام في القاهرة لأن القاهرة كانت هي مركز قيادة قوات الحلفاء في الشرق الأوسط في اثناء المعارك ، وكانت تحشد فيها الجيوش التي تنطلق الى فلسطين وسوريا والى مختلف ميادين القتال . وكان البوليس المصرى تحت سيطرة الانجليز ، حكام القاهرة انجليزى ، ونائب الحكمدار انجليزى ، وكبار الضباط في البوليس المصرى انجليز ، ووكيل الداخلية انجليزى .. ومدير الأمن العام انجليزى ، ومع ذلك تمت الاجتماعات السرية تمهيدا للثورة ، تحت أنف الانجليز ، بل ان بيت سعد زغلول الذي كانت تدبر فيه الثورة كان على بعد خطوات من مجلس الوزراء ، وعلى بعد خطوات من وزارة الداخلية التي كانت عيونها كأيدي الاخطبوط تمتد الى جميع أنحاء البلاد . ولهذا تصور البوليس ان هذه الاجتماعات إنما هي زيارات بين الجيران ، وليس تمهيدا للقيام بأول ثورة في الشرق بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى !

والذين عاشوا في البيت في اثناء التمهيد للثورة أحسوا أن عميد الأسرة مشغول ، زوار يدخلون وزوار يخرجون . زوار يتناولون الغداء وزوار يتناولون العشاء . ولكن احدا من الجيران لم يش بالثورة ، لأن الجيران انفسهم كانوا شركاء فيها ! ولم يكن الإعداد للثورة قد بدا قبل قيامها بيوم أو يومين كما قال بعض المؤرخين ، ولا قبلها بعام أو عامين ، بل كانت

عملية الاعداد قد بدأت قبلها بسنوات طويلة أو كما قال سعد زغلول انها بدأت يوم فشلت ثورة عرابي . بدأت وسعد زغلول مسجون في سجن القلعة ، بعد أن استسلم عرابي والجيش المصري ، ودخل الجيش البريطاني القاهرة ووقف الخديو يستعرض جيوش الاحتلال في ميدان عابدين ! ولم تكن خطة الثورة كما رسمها سعد زغلول في خياله خطأ مستقيما ، بل كان خطأ متعرجا ، يتقدم الى الامام ، ثم يتعرج اذا صادف عقبة ، ثم يعود الخط الى الوراء اذا اصطدم بمحنة ، أو يدور حول نفسه في دائرة أو يتوقف في مكانه ، وقد كان هذا الخط يقترب من خطوط أخرى ، أو يختفى تحت خطوط مختلفة لأن المرحلة قضت بالاقتراب أو حتمت الاختفاء . فإن جمعية الانتقام التي ألفها سعد زغلول عقب فشل الثورة العرابية كانت بداية هذا الخط ، ثم تقهقر الخط عندما اكتشف الانجليز التنظيم السري الذي وضعه ، وكانت دعوة سعد زغلول لإنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية استمرارا للخط ، ثم دعوته لإنشاء الجامعة المصرية هي أيضا استمرار للخط نفسه ، ثم تحريضه لقاسم أمين على دعوته لسفور المرأة ووقوفه بجواره في معركته الضارية ضد الرجعيين كان استمرارا للخط الثوري ، ثم مساهمته سرا في تأسيس جريدة « الجريدة » التي رأس تحريرها صديقه لطفي السيد ، والتي نادى بشعار « مصر للمصريين » فاغضبت الذين يؤمنون بالتبعية لتركيا وانهالت عليها الاتهامات بالخيانة والكفر والمروق ، كانت هذه الدعوة جزءا من الخط الثوري أيضا . وتولى سعد زغلول وزارة المعارف فدعا الى إنشاء المدارس والكتاتيب ، وإيفاد الشبان الذين يصلحون لقيادة الثورة القادمة في بعثات الى أوروبا وكانت هذه الدعوة كذلك جزءا من هذا الخط الثوري والاعداد الثوري . كما كان ترشيحه للجمعية التشريعية وانتصاره على عرش الخديو والانجليزى جزءا هاما من هذا الاعداد ..

ولم يكن الطريق سهلا ، بل كان حافلا بالعقبات والأشواك والمخاطر ، وكان أكثر ما يؤلم سعد زغلول اضطرابه الى أن يخفى خطته عن اقرب المقربين إليه ، فلم يكن يستطيع أن يكشف أوراقه ، أو أن يطلع احدا على نواياه ، إلا عددا من الشبان الذين اختارهم ليكونوا نواة الجهاز السري للثورة ، وكان عددهم قليلا جدا . وكانت حيطة سعد وحذره يجعلانه يحرص على إبعادهم عن اصدقائه الكبار . وهكذا كان يركب حصانين في وقت واحد ، حصان الكبراء والاعيان وأعضاء الجمعية التشريعية ، وحصان الشباب المتحمس الذي اختار أفراداه وأوفدهم في بعثات الى أوروبا ، قلما عادوا الى بلادهم ارتبطوا به وجعلهم تلامذته الثوريين . وكان يحرص على ألا يجتمع بهم في بيته

في القاهرة ، بل كان يسافر الى عزبة يملكها قرب دمنهور ، وهناك كان يجتمع في بيت صغير بالعزبة بأحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي وحسن كامل الشيشيني ، وغيرهم من الشبان الذين كانوا روّج الجهاز السري لثورة سنة ١٩١٩ وكان يجتمع بأحمد لطفى السيد في عزبة تملكها زوجته في قرية مسجد وصيف بقرب مدينة زفتى .

وكان سعد زغلول يتصور وهو يقوم بهذه الاعدادات السرية أن أحدا لن يكشف خطته .. ولكن حدث يوما أن وقع له حادث أذهله .. ورواه لأفراد أسرته وقد تملكه العجب واستبدت به الدهشة ، وبقي طوال حياته يردد هذا الحادث ولا يجد له تفسيراً معقولا ..

حدث ذات يوم أن استقل سعد زغلول قطار السكة الحديد من محطة القاهرة في طريقه الى حضور أحد هذه الاجتماعات السرية في مسجد وصيف . وجرّت العادة في تلك الأيام على أن تحجز مصلحة السكة الحديد ديوانا للوزير السابق ..

وبينما كان سعد زغلول جالسا وحده في الديوان والقطار ينهب الأرض بأقصى سرعته ، إذ فتح باب الديوان رجل عجوز له لحية بيضاء كبيرة ، وعلى رأسه عمامة بيضاء كبيرة ، ويرتدى عباءة بيضاء كبيرة ، ودون أن يستأذن الشيخ أغلق باب الديوان ، وجلس قبالة سعد زغلول وقال له : اسمع ! ستكون زعيما لهذه الأمة !

وفوجيء سعد زغلول بهذا التصريح العجيب ، وإذا بالشيخ يقف ويغادر الديوان ويغلق الباب .. حدث هذا في نفس اللحظة التي كان سعد زغلول يفكر فيها في فشله ، وأن الاجتماعات التي كان يعقدها مع أصدقائه لم يتفقوا فيها إلا على شيء واحد وهو فض الاجتماع !

وكان سعد زغلول يومها يائسا من كل شيء عقبات كبيرة في طريقه ، بعض الذين ظن أنه يستطيع أن يعتمد عليهم لم يصمدوا في الطريق . الخدبو يهدد بالبطش به . اللورد كتشيريسد أمامه كل مسلك . الشعب يبدو مستسلما أمام القوى الغاشمة التي تنهال على رأسه بالمطارق والضربات .. اسمه لا يكاد يذكر على لسان أحد . أصدقاؤه الشبان قدموا له في اجتماعهم السابق تقريرا عن حالة الشباب المصرى بأنه يعيش في مرحلة انعدام الوزن !

وقام سعد زغلول من مقعده وفتح باب القطار ، ومضى يبحث عن هذا الشيخ الغريب . ولم يجده في مقاعد الدرجة الأولى . ولا مقاعد الدرجة الثانية . ولا مقاعد الدرجة الثالثة . عاد يبحث عنه من جديد فلم يجده . من غير المعقول أن يكون اختفى من القطار الذى كان يجرى بأقصى سرعته . ولكنه لم يجد هذا الشيخ الغريب !

وشغل هذا الحادث سعد زغلول . لقد رأى الشيخ بنفسه . سمع صوته . انها ليست رؤيا ولا وهما ولا خيالا ، فاین ذهب هذا الرجل ، ومن هو ؟ ولماذا جاء ؟ ولماذا اختفى ؟ إن كل هذه الأسئلة ظلت تشغل بال سعد زغلول الى آخر يوم في حياته .

ولكنه اعترف لأسرته بأن هذا الحادث رفع روحه المعنوية . منحه قوة جديدة . أضاف إلى عموده الفقرى عمودا فقريا أقوى وأصلب يجعله قادرا على مواجهة الأحداث والضربات والصدمات !

ففى الوقت الذى كان يعد فيه للثورة ضد الانجليز ، كان يهاجم بشدة ويتهم من بعض الناس أنه من أنصار الانجليز ! وليس اصعب على نفس الوطنى من أن يتهم بخيانة بلاده ! أن يرى العبيد يملطون بالطين من يحاول تحطيم قيودهم ! أن تلقى التهم بأيدٍ مصرية لرجل يطالب بالحرية لجميع المصريين . ولقد كانت السلطة هى التى توعز بتلطيح سعد زغلول . كان الخديو يخافه فكان يطلق عليه كلابه تنهش فيه .

وكان لورد كتشنرىكرهه ، فراح يوعز الى صحفه بأن تتهمه بخيانة الوطن ! فالوطنية عند الحاكم الظالم هى أن يحنى الناس رؤوسهم ، ويخرسوا السنتهم ، ويسجدوا أمام الطغيان ويحرقوا البخور للجبروت ! فإذا ارتفع راس اتهم بالخيانة لأن الوطنية فى نظرهم هى أن نحنى الرؤوس ، وإذا تحركت شفاه قالوا عنها انها عميلة للأجنبى ، لأن الاخلاص للوطن لا يكون إلا بالسكوت على الظلم ، أو التسريح بحمد الظالمين !

ولورد كتشنرى يعتبر انجلترا هى الوطن . وكل خارج على انجلترا خارج على الوطن ، ومن خالف سياسة انجلترا فهو خائن للوطن يستحق الرجم فإذا اجتمع الخديو عباس ولورد كتشنر وعقدا بينهما حلفا مقدسا تحولت السلطة الى إله مقدس ، على الجميع أن يسجدوا له ويطيعوه ، ومن أغضب واحدا منهما فقد أغضب ربه ، ومن خرج عليهما معا فقد كفر باله !

وجاء وقت على سعد زغلول وجهت اليه فيه الاتهامات فى الصحف فلا يجد صحيفة تنشر له ردا ! وتكال له المطاعن وتمنع الرقابة من نشر دفاعه عن نفسه . وراحت الصحف تشهر به وتعيده بأنه اشترك فى ثورة عرابى ، وتعتبر هذا دليلا على خيائنه للوطن !

والضعفاء وحدهم هم الذين ينهارون اذا انهالت عليهم اللطمات ، أما الأقوياء فإنها تزيدهم إصرارا وتضاعف من صلابتهم ، وتقوى عزائمهم ، وتحول آراءهم الى عقيدة ودين . والرجل المؤمن برأيه أشبه بالكرة كلما قذفها على الأرض بقوة زاد ارتفاعها . وكما أن الصواريخ هى التى تدفع السفن

الى الفضاء ، فذلك التلقيق والتكيل والمظالم والعنف والاستبداد فإنها وقوا
المؤمنين .. الذى يزيدهم انطلاقا أو كانها الصاروخ الذى يرتفع بهم الى م
وراء الفضاء ليحقق المعجزات . وإن كثيرين من العظماء مدبنون بعظمتهم
للذين ظلموهم واضطهدوهم . فلولا الصليب الذى صلب عليه المسيح ، ل
أصبح الصليب معلقا على صدور الملايين ! ولولا النار التى أحرقت فيه
الظالمون جان دارك . لما أضاء تاريخها بالنور خلال مئات السنين . فالأكاذيب
التي يلفقها السلطان لخصومه مثل « الفشنك » الذى يطلق من البنادق
يدوى ولا يقتل . ولكن الحقائق التى يطلقها التاريخ على الطغاة هى أشبا
برصاصات المسدس مع كاتم الصوت ، تقتل دون أن تدوى !

كان سعد زغلول يستطيع أن يخرس خصومه إذا اكتفى بأن يلغى
التصريحات الوطنية الجوفاء ويسبح بحمد الخديو ، ولكنه كان بذلك يكسب
السلطة ويفقد الثورة . فما أرخص الوطنية إذا كانت هى التسبيح بحمد
الطغاة ، والسير فى مواكبهم ، ورفع أعلامهم والهتاف بحياتهم !!

إن الوطنية الحقيقية لا تفقد الثقة ببلدك ولو تألبت كل القوى ضدك .. أن
تتحمل كل ما يواجهك من ظلم شخصى من أجل أن تخلص البلد من ظلم
أكبر . الوطنية أن تعمل فى صمت وتبذل من عرق ودمك ، وتسهر الليالى
الطوال تعمل لانقاذ هذا البلد من غاصبيه ومحتليه ، بينما تنهل عليك التهم
والأكاذيب من سذج أبرياء . أو من غادرين أدياء . يرون الوطنية فى الرقص
على حبل المواكب أو فى الدفوف فى أفراح الحاكمين ! ما أرخص الضوضاء
الوطنية وما أسهلها . وما أغلى العمل الوطنى الصامت وما أصعبه . إنك
لا تسمع صوت العالم الذى صمم سفينة الفضاء ولكتك تسمع صراخ بائع
الخيار فى الطريق العام !

وكثيرا ما قال سعد زغلول لأفراد أسرته أنه عندما كان يضع نواة الثورة لم
يكن يفكر فى أن يكون قائدها . كان يتمنى لو عاش الشيخ محمد عبده ليقود هو
الثورة ويعمل هو تحت قيادته ! فقد كانت الثورة الجديدة من أحلام الشيخ
محمد عبده الذى شهد مصرع الثورة القديمة .. ثورة عرابى ! ومع ذلك كان
سعد حريصا على أن يضيق المسافة بينه وبين شباب جيله ، فيتصل بهم .
ويناقش آراءهم ، وكان يقول لأسرته اننى أريد أن أكون أبيا للثورة القادمة ،
لا جدما الكبير ، ولهذا أحرص على أن أكون أقرب الى الشبان من الشيوخ .
وكان يحدث أسرته باستمرار ، عندما يجتمع بهم على الإفطار أو الغداء
أو العشاء عن أنباء الصراع الذى يخوضه وما فيه من هزائم وانتصارات ،
وقد عاش طوال حياته فى صراع لا ينقطع .

ولم يكن الصراع صراعا سياسيا فقط ، بل كان صراعا في داخل الأسرة نفسها ! فإن الرجل الذى اندمج بشباب الأمة ، لم يستطع أن يندمج بشباب أسرته !

كان لسعد زغلول شقيق واحد هو احمد فتحى زغلول وشقيقه واحدة هى أم رتيبة ، وكان باقى أخوته وأخواته غير أشقاء ، وكان سعد يكبر فتحى بعدة سنوات . وتولى تربيته بنفسه ، وكان يعامله كابنه ، ولكن فتحى زغلول تعلم فى فرنسا ، وكان شابا نابغا موهوبا ، وعاد من باريس بشخصية مستقلة ، فلم يكن على استعداد لأن ينطوى تحت جناح أخيه الأكبر . كان سعد أقوى شخصية ، وكان فتحى أقوى علما . عاد فتحى من دراسته بعقلية أوربية . وعكف على ترجمة الكتب العالمية الكبرى . وفى مقدمتها كتاب « سر تقدم الانجليز » وكان من رأيه أن تقطع مصر كل صلة بماضيتها وتنتقل الى القرن العشرين وأن تصبح قطعة من أوروبا .

وكان سعد زغلول متأثرا بعقليته الثورية ، بهزيمته فى ثورة عرابى ، بإيمانه أنه لا بد من التخلص من الاحتلال وأسرة محمد على معا لتمضى مصر الى القرن العشرين . ان مصر لا يمكن أن تترجم . ان تاريخها يمتد خمسة آلاف سنة ، يجب أن تنصهر فيها المدنية الفرعونية والمدنية العربية والمدنية الجديدة لتقوم دولة مصرية صميمة ، لها شخصيتها ، وليست صورة باهتة مترجمة عن دول أوروبا .

واشتد الخلاف بين الشقيقين عندما قبل فتحى زغلول أن يكون أحد قضاة محكمة دنشواى التى حكمت بإعدام الفلاحين الذين ضربوا جنديا انجليزيا حتى الموت . وبعد أن عين سعد زغلول وزيرا للمعارف عين فتحى زغلول وكيلا لوزارة العدل . ثم غضب الانجليز على سياسة سعد زغلول فى وزارة المعارف فاوعزوا الى الخديوى بنقله من هذه الوزارة ، فعيّنه وزيرا لوزارة العدل .

وفوجيء الشقيق الأصغر وكيل وزارة العدل بأن شقيقه الأكبر أصبح وزيرا للعدل ..

وبدلا من أن يتعاون الشقيقان اختلفا ، وأصبح فتحى زغلول يعتقد أنه أحق من أخيه الأكبر بمنصب وزير العدل . أنه أكثر منه علما . وأكفا منه فى شؤون الإدارة ..

ولكن احدا لم يشعر بالخلاف بين الشقيقين ، فقد بقى محصورا بينهما إلى أن مات فتحى زغلول وعندئذ بكاه سعد زغلول كما لم يبكه أحد !
وحدث صراع آخر بين سعد زغلول وبين ابن شقيقته فتح الله بركات باشا ..

فقد كان نجل فتح الله باشا الأكبر الدكتور بهي الدين بركات من أقرب شباب الأسرة إلى سعد زغلول ..

وفكر بهي الدين بركات بعد أن حصل على شهادة الدكتوراه في الحقوق في أن يتزوج واستأذن سعد زغلول في الزواج وعرض عليه اسم الفتاة التي اختارها بصفته عميد الأسرة ، فوافق سعد زغلول ..

وتم عقد القران وحضره سعد زغلول وبارك الزواج .. وإذا بالعروس تموت فجأة .. وكانت صدمة قاسية على الشباب الرقيق بهي الدين بركات ، ورأى فتح الله بركات باشا أن يسارع إلى تضييد جراح ابنه ، فخطب له ابنة أحمد عفيفي باشا ناظر خاصة السلطان حسين .

ورحب بهي الدين بالعروس الجميلة الصغيرة ..

وغضب سعد زغلول لأن بهي الدين لم يستأذنه في الزواج بصفته عميد الأسرة ، وأنه خطب ابنة أحمد عفيفي باشا ، وهو رجل يكرهه ، منذ كان الاثنان يعملان مستشارين في محكمة الاستئناف ! وكان معروفاً أن أحمد عفيفي باشا كان يلغى كل حكم تصدره دائرة سعد زغلول !

ودهش سعد زغلول أن يختار ابن أخته مصاهرة رجل كان سعد معه على طرقي نقيض .. وعلى خلاف مستحکم ..

ورفض سعد زغلول حضور الزواج . ومنع صغية من حضور الزفاف . كما منع رتيبة وسعيد من حضوره أيضا ، رغم أنهما كانا يعتبران بهي الدين بمثابة شقيق أصغر لهما وأصدر سعد أمره بمقاطعة أسرة فتح الله بركات ! ولقد كان فتح الله بركات فلاحا ، وكان يعرف تقاليد الفلاحين التي تقضى بالآيتم زواج في الأسرة إلا بعد موافقة عميدها ، ولكن ابنه بهي الدين بركات كان قد درس في فرنسا وعاد براء جديدة ، لا تتفق مع هذه التقاليد البالية ، منها أن من حق كل شاب أن يختار عروسه بغير أن يحصل على موافقة أبيه وعميد الأسرة .. ثم أنه ارتبط بكلمة ، وكرامته أن يحافظ على كلمته .. فالرجل هو الكلمة التي يقولها ..

وأيد فتح الله بركات ابنه في موقفه ضد خاله سعد زغلول .. وكانت محنة قاسية لرتيبة .. فإنها كانت تعتبر فتح الله بركات خالها ، وتعتبر زوجته خالتها ، وأولاده أخوتها ، ولكنها عاشت تطيع سعد زغلول طاعة عمياء فاضطرت أن تخضع لأمره وقطعت صلتها بأقرب الناس إليها .. أما زوجها الأستاذ محمد أمين فقد رفض أن يخضع لهذا الأمر ، واستمر على صلته ببهي الدين بركات ، فقد كان زميله وصديقه في الدراسة في المدرسة الخديوية ثم مدرسة الحقوق .

ثم حدث أن سافر سعد زغلول إلى باريس ، وخيل إليه أنه رأى بهي الدين في أحد شوارع باريس ، فلم يتقدم بهي الدين لتقبيل يده ، وإنما اكتفى برفع قبعته له .

وهاج سعد زغلول واعتبر تصرف بهي الدين وقاحة وقلة حياء .. بينما لم يقصد بهي الدين اهانتته ، وإنما رآه مشغولاً في حديث مع أحد الكبراء ، فلم يرد أن يقطع عليه الحديث ..

ولكن هذا الحادث جعل الزوبعة تشتد في الأسرة ، والخصام يتضاعف ، حتى أنه عندما قاد سعد زغلول ثورة سنة ١٩١٩ رفض فتح الله باشا أن ينضم إليه ولكن عندما نفى الإنجليز سعد زغلول إلى مالطة ، تقدم فتح الله بركات على الفور وانضم إلى الوفد ونفى مع سعد زغلول إلى سيشيل ، وعاد وأصبح يد سعد اليمنى في الثورة . وأحب سعد زغلول زوجة بهي الدين التي قاطعه من أجلها ، بعد أن عرف أنها كانت من أولى المصريات اللاتي خرجن في مظاهرات ثورة سنة ١٩١٩ ولكن هذه القطيعة التي استمرت عدة سنوات تركت أثراً عميقاً في نفس كل من صفية زغلول وزوجة بهي الدين بركات ! فالمرأة لا تنسى ولا تصفح كما ينسى ويصفح الرجل ..

فعندما مات سعد زغلول ، وانحصر الترشيح لرياسة الوفد بين فتح الله بركات ومصطفى النحاس ، إذا بصفية زغلول تتقدم وتلعب دوراً كبيراً وحاسماً في تأييد النحاس ضد فتح الله بركات !

وكان فتح الله بركات باشا يقول : أن ما تفعله صفية هائم معنى .. هو نفس ما فعلته السيدة عائشة زوجة النبي مع سيدنا علي بن أبي طالب !

وهكذا بعد أن مضى ١٤ عاماً على الخلاف لم يلتئم جرح صفية زغلول ! ثم حدث في عام ١٩٣٣ خلاف آخر بين الوفديين .. وكان ذلك بين الأقلية برياسة مصطفى النحاس ، وأغلبية الوفد برياسة فتح الله بركات .. وانضمت صفية زغلول إلى الأقلية ضد الأغلبية ، وأصدرت بياناً للشعب تؤيد فيه فصل أغلبية الوفد .. وكان هذا بعد عشرين عاماً من الخلاف الأول !

وعاد الخلاف من جديد بين أسرة فتح الله بركات وأسرة سعد زغلول .. ولم ينته هذا الخلاف إلا قبل وفاة صفية زغلول بسنوات قليلة !

ثم حدث بعد ذلك بثلاث وثلاثين سنة أن دب خلاف ثالث : فقد تقدم مصطفى أمين إلى ابنة بهي الدين بركات وخطبها . ووافقت الفتاة على الخطبة ..

وإذا بزوجة بهي الدين تعترض على الزواج وتحاربهم ، وتقيم العقبات في طريقه .. وذلك لأن أمه رتيبة كانت من فريق الأسرة الذي وقف ضد زواجه

من بهى الدين .. رغم مضى ثلاث وثلاثين سنة على هذا الخلاف !
وهذه أشياء تبدو عجيبة للجيل الذى نعيش فيه اليوم . ولكن فى تلك الأيام
كانت أسر الريف المصرى تلتزم بتقاليد وعادات تقديسها وتعنتقها وتؤمن بها .
وهكذا نجد أن سعد زغلول الناصر المجدد الذى دعا الى انشاء الجامعة ، والذى
أيد قاسم أمين فى سفور المرأة ، والذى حارب التقاليد الرجعية ، يعيش فى بيته
بعقلية قريته : فلاحا أصيلا ، يقبض على أسرته بيد قوية ، ويسيطر عليها ،
ويلزمها بالتمسك بتقاليد الفلاحين التى ورثها سواء أكان أفراد الأسرة هؤلاء
كبارا أم صغارا ، يحملون أعلى الشهادات أو أكبر الألقاب .. انهم أمامه جميعا
أولاد صغارا !

ولقد تأثرت صفية زغلول بتعاليمه ..
فقد كان لصفية زغلول أخت كبرى تحبها حبا يقرب من العبادة ، وكانت
هذه الأخت متزوجة من الدكتور محمود صدقى باشا محافظ القاهرة .
وعندما قامت ثورة سنة ١٩١٩ قال محمود صدقى باشا فى نادى محمد على
انه يعتقد أن الشعب المصرى لا يستحق الاستقلال ، وأن سعد زغلول
سيفشل فى ثورته !

ودهشت صفية زغلول لهذا التصريح الغريب .. كيف يصدر مثل هذا الكلام
من زوج شقيقته الكبرى ضد الثورة التى يقودها سعد زغلول ..
واتصلت بشقيقته الكبرى وسألته عن الرواية التى سمعتها نقلا عن
زوجها .

وقالت الشقيقة ان الشعب المصرى لا يستحق الاستقلال إلا بعد عشرين
سنة !

وإذا بصفية زغلول تنقطع عن زيارة أختها الكبرى ، وعن مقابلتها وعن
التحدث إليها ..

وبقيت هذه القطيعة عدة سنوات .. بغير أن يطلب سعد زغلول من زوجته
أن تقاطع شقيقته .. بل لقد ألح عليها بعد ذلك فى أن تزيل ما بينها وبين
شقيقته وقال لها : أنا سامحتك فى أسأتها لى !

قالت صفية : ولكن الشعب المصرى لم يسامحها !
ولعل الشعب سامح شقيقة صفية الكبرى لما اعتبرته إهانة للشعب بأنه
لا يستحق الاستقلال إلا بعد عشرين سنة !

والواقع أن الشعب المصرى لم يحصل على الاستقلال الحقيقى إلا بعد ذلك
بخمس وثلاثين سنة .. أى بعد ١٥ سنة من الموعد الذى قدرته شقيقة صفية
زغلول وجعلها تقاطعها لهذا السبب الخطير !

ومن الغريب أن السيدتين اللتين لم يضمدا الزمن جراحهما كانتا طارئتين على أسرة زغلول ، ولم تكونا من صميمها ، وهى طبيعة المرأة التى تتزوج فلاحا مصرية ، فإنها لا تلبث أن تندمج فى حياته ، فإذا دمه هو الذى يسرى فى دمها ، فراه يصبح عقيدتها ، وعقيدته تصبح دينها ، وخدشه الوقتى يتحول الى جرح أبدي لا يشفيه الزمن . رجلها ينسى وهى تذكر . يغفر فلا تغفر . ولعل جروح النساء أشبه بالكسور فى عظام العجايز تحتاج الى وقت طويل كى تلتئم . ولعل قلوب الرجال كعظام الأطفال سريعة الالتئام !

فلقد حدث فى نهاية حياة سعد زغلول أن قرر أن يضم صفوف الشعب ، وياتلف مع خصومه ، ويحتضن أعداءه القدامى ويجعل البلد كتلة واحدة فى مواجهة الإنجليز . وكان أكبر خصومه يومها عدلى يكن باشا وعبد الخالق باشا . ونسى سعد زغلول صراعه مع عدلى كما نسى أن ثروت باشا اشترك مع الإنجليز فى نفيه الى سيشيل ، وفى تشريد رجاله وإعدام أنصاره .

وحدد سعد موعدا يستقبل فيه العدوين السابقين فى بيته .. وإذا بزوجته ترفض أن تبقى فى البيت أثناء هذه الزيارة ، وتغادر فعلا ولا تعود إليه إلا بعد انصراف العدوين القديمين . ولم يستطع سعد زغلول مع سلطانه ومنزله لدى زوجته أن يرغبها على البقاء فى بيته فى أثناء هذه المقابلة التاريخية التى رحب بها الشعب كل الترحيب .

وكان سعد يضحك لتمرأد أفراد أسرته عليه ولطالما كان يعجب كيف استطاع أن يسيطر على الملايين ولم يستطع السيطرة على بضعة أفراد ، يتزوج بعضهم بغير إرادته ، ويخالفه بعضهم فى الراى ويخرج آخرون على أوامره وتعليماته .

والواقع أن سعد زغلول هو المسئول عن أزماته مع الأسرة ، فقد كان حديثه المحبب إليها يدور دائما حول التمرد على السلطة ، وكيف يكون هذا التمرد ، وكيف يكون من حق الشعب أن يناقش السلطة فى أحكامها ، وكيف أننا يجب أن نتحرر من قيودنا وأغلالنا ، ونأبى السيطرة ونرفض الطغيان ..

كان سعد زغلول يقصد فى دروسه اليومية الى أسرته سلطة الاحتلال وسلطة القصر .. ولكن أفراد الأسرة شبوا يتمردون على كل سلطة . لذلك لم يكن عجيبا أن يتمردوا على السلطة التى أمامهم وهى سلطته هو : عميد الأسرة . وهكذا زرع سعد زغلول الريح فى حديقته فحصد العواصف فى بيته ! .. ولكن هذه الصراعات العائلية لم تضعف رابطة الحب التى كانت تجمع رب الأسرة بابنائها . كانوا يخشونه ويعبدونه . يرهبونه ويقسونه . يخرجون عليه فى الصغائر من الأمور ويقفون الى جانبه فى كبائرهما . وكثيرون منهم

انضموا الى الجهاز السرى للثورة بغير استئذانه ، فهو لم يدع واحدا منهم الى الخطر . ولكنهم هم الذين اقبلوا عليه ، وتسابقوا اليه .
ولقد كانوا شغوفين بالاطلاع على اعداده السرى للثورة . الصغار فيهم تابعوه وكانهم يشهدون فيلما بوليسيا مثيرا ، او لعبة عسكر وحرامية ، السلطة هي العسكر والشعب هو الحرامية الذين لا يريدون ان يضبطهم العسكر وكان الكبار منهم يشهدون الاعداد السرى وكانهم يشهدون مولد دين جديد ، عميد أسرته هو نبيه والشعب المصرى هو جبريل الذى يحمل له الوحي والالهام ! وكانت نساء الاسرة اسرع الى الايمان من الرجال ، واغوى يقينا ، واكثر استعدادا للنضحية ، ولجرا في مواجهة الخطر ، وقد كان صمود كل امرأة منهم وراء زوجها هو سلاحه السرى الذى جعله يواجه اخطارا لا قبل له بها ..

وكان سعد زغلول في اعداده الطويل للثورة اشبه براقص التانجو .. لا يحتضن امرأة ، ولكنه يحتضن حركة سرية . يخطو خطوات ثم يتراجع خطوة ، ويدور حول نفسه ، ثم يخطو ثلاث خطوات ويتأخر خطوتين ، ثم يتقدم خطوة ويتأخر خطوة ، وكأنه يبحث في حلبة الرقص عن ثغرة ينطلق منها مع المرأة التى يراقصها الى الفجر الجديد !

وكانت الحياة في داخل البيت نفسه حياة مثيرة . زيارات في الظلام . ابواب تفتح بهدوء ثم تغلق . زوار يدخلون من الباب الامامى ، وزوار يدخلون من الباب الخلفى ، وآخرون يدخلون من باب الاسطبل حيث يقيم الحصانان والعربة الحنطور ! منهم من يستقبله سعد في مكتبه ، ومنهم من يستقبله في الصالون ، او في الطابق العلوى ، او يجتمع بهم في البدروم ! وكان الحرص على الحرص في الا يلتقى الزوار ببعضهم البعض . الا يرى الجالس في المكتب لشخص المجهول المنتظر في البدروم . وكان ابرز ما في هذه الزيارات انها تتم جميعا بمواعيد محددة . وكان اغرب ما في بيت سعد زغلول في تلك الايام ان في كل غرفة ساعة كبيرة .. فإذا دقت الساعات مرة واحدة ، خيل إليك انك تسمع اجراس الكنائس في ليلة عيد الميلاد !

وذات يوم كانت الاسرة كلها في انتظار زائر جديد !
وفوجئت الاسرة ، انه بدلا من ان يصل زائر واحد ، وصل زائران معا ! ..
ووقعت الاسرة في أزمة !



● الفصل الخامس ●

صرخت رتيبة بصوت عال دوى كالرعد وهز جدران بيت سعد زغلول الهادى . وقفزت صفية من مقعدها ملقاة فزعة . راحت تعدو فى لهفة إلى غرفة ابنتها المتبناة التى تنتظر مولودها الأول . كان صراخ رتيبة يمزق أعصاب صفية ، انحنت عليها ومسحت رأسها بيدها فى حنو تطمئنهما وهى أشد هلعاً من الأم التى تصرخ وتتلوى بصوت يفتت الأكباد . إن صفية رأت قبل الآن شقيقتها الكبرى زكية تلد ابنها حسينا ، ورات اختها فهيمة تلد خمس مرات ، ولكنها لم تسمع فى مرات الوضع هذه هذا الصراخ الذى يمزق قلبها كسكين ، لم تشهد هذه الآلام المروعة التى تحطم روحها ، لم تحضر ولادة أربعتها وملأتها حيرة وفزعا كالولادة التى تشهدها الآن .

كان صفية قد حرمت طوال سنوات زوجها من أن تكون أما . لم تذق عذاب الوضع . كم تمنّت أن تحس بهذا العذاب اللذيذ لتسعد زوجها سعد الذى حرّمته متعة أن يكون له أطفال . عاشت طوال شهور حمل رتيبة تحلم بأن يجرى اليوم الموعود . يوم ترى طفلا فى بيتها لأول مرة منذ أكثر من عشرين عاما .

وما هو ذا اليوم قد جاء ، وجاء معه برعب يملأ قلبها ، أن رتيبة لاتلد كما تلد الأمهات . انها لا تلد وإنما تموت ! وهى سترى اليوم حفيدها وتفقد فى نفس اليوم ابنتها ؟ ربما مات الطفل فى بطنها ؟ ربما ماتت الأم والطفل معا . انها تخشى أن تكون روح رتيبة هى التى تخرج الآن من جسمها وليس وليدها . انها تعرف أن رتيبة ورثت من خالها سعد زغلول قوة احتماله . لم ترها تشكو يوما . كانت قادرة على أن تخفى عذابها تحت ابتسامة . أن تصبر على بلواها . فلا بد أن الأمها اليوم اكبر مما يحتمل البشر . ولهذا أطلقت هذا الصراخ والعويل والأنين . إن شيئا من داخل رتيبة يتمزق . هى كلها تتمزق . ليست هذه ولادة طبيعية . انما هو جو جنازة . ان الصراخ المدوى والعويل الدامى ليس إبدانا بمولد طفل ، وإنما هو نعيب يعلن عن موت أم ! وأسرعت صفية تعدو . وتتقفز درجات سلم الطابق الثانى . واتجهت الى الطابق الأول تستغيث بزوجها سعد ، وتبلغه أن رتيبة على وشك الموت ، واتصل سعد تليفونيا بالدكتور ملبتون الطبيب السويسرى المشهور فى القاهرة . وطلب إليه أن يحضر على الفور .

ووصل الدكتور ملتون . ودخل الحجرة في الساعة الاولى بعد ظهر يوم السبت ٢١ فبراير سنة ١٩١٤ ، وبعد دقائق كان يحمل في يده مولودا اكبر من الحجم المعتاد ، وراح يضرب ظهره بيده فينطلق صراخه .. وتتلق صفة زغلول الطفل وتدور به في الغرفة وهى تصيح في فرح وزهو . ولد ! ولد ! - ومضت صفة تقول وهى تلف المولود باللحافات والاربطة :
- "معدورة رتيبة ! ان ضخامة جسم المولود هى السبب في صراخها وعويلها ..

واذا بالسيدة الحكيمة التى كانت تساعد الدكتور ملتون تصرخ في فرح :
- الحقونى ! الحقونى !
واتجهت صفة في رعب الى الفراش الذى ترفد فيه رتيبة وتصورت انها ماتت في أثناء الوضع .
وقالت الحكيمة وهى لانزال منحنية على جسم رتيبة :
- فيه واحد ثانى ..

وأخرجت الحكيمة مولودا هزيلا ضعيفا ضئيلا ، حجمه اقل من المعتاد ، ويدق قلبه كما تدق الساعات الرخيصة التى لا تنتظم خمس دقائق الا لتتوقف خمس دقائق .

وراح الدكتور ملتون يضرب بيده ظهر الطفل الهزيل فلا ينطق ، واستمر يضربه حتى خرج من فمه صوت هزيل ضعيف اقرب الى حشرجة عجائز يموتون . منه الى صراخ اطفال يولدون !
وسلمت صفة المولود الاول الى الحكيمة ، وحملت المولود الثانى وصاحت في دهشة :

- ولد كمان ؟ ! .. ولد ثان ؟ ؟

وما كادت رتيبة تعلم انها رزقت بولدين توأمين حتى أغمى عليها من الفزع . وأسرع الطبيب يسعفها من اثر الصدمة الهائلة ! لم تكن ولادة التوأمين منتشرة في مصر في تلك الايام كما هى منتشرة الآن . كانت رتيبة تحمل هم تربية مولود واحد . فاذا بها تفاجأ بأنها رزقت بولدين معا في وقت واحد . كيف تربيهما معا ؟ كيف تحملهما معا ؟ ان هذه اول مرة تلد فيها ، وهى لاتعرف كيف تعنى بطفل واحد ، لابطالين اثنين في وقت واحد . وهى قد اعدت ملابس ولوازم طفل .. فماذا تفعل بالطفلين !

ومضت رتيبة تبكي وتندب سوء بختها . وقلة حظها ، لماذا هى وحدها دون نساء العالم تترق بمولودين معا !

وكانت رتيبة تشهق بالبكاء حزنا واسى بسبب المصيبة الفادحة التى حلت

بها . وتندب حظها لأنها رزقت وحدها دون جميع أمهات الأسرة بولدين في وقت واحد . وتركتها صفية وخرجت الى الغرفة المجاورة التي كان يجلس فيها سعد زغلول ثم عادت مرة أخرى . وجلست بجوار رتيبة في فراشها تهديء روعها وتقول لها :

- إن سعد قال لي الآن انه أسعد رجل في العالم لأنك رزقت بولدين .
فقلت رتيبة ودموعها تنهمر من عينيها : ولكنى اتعس أم في العالم ؟ كيف يمكن أن أربي ولدين في وقت واحد ؟
قالت صفية :

- إن سعد حل هذه المشكلة . انه يقول ان الله شاء بهذين الولدين ان يحل مشكلتنا . انا وخالك نتمنى ان يكون لنا ولد .. هذه هي أميتنا الكبرى . وقد حقق الله أميتنا فرزقك بولدين ، لناخذ نحن أحدهما وتأخذى أنت الثاني ..
قالت رتيبة في سعادة :

- صحيح هل وافق خالي حقا على ان يأخذ أحدهما .. خذى من تريدين منهما ؟

قالت صفية : لقد اقترحت ان أسمى الأول على باسم عمى على بك زكى وأسمى الثاني مصطفى باسم والدى وقد وافق سعد على ذلك . وقال انه سيرتك لك على المولود القوى الصحيح ، وسأخذ هو المولود الضعيف الهزيل مصطفى .. وسوف نتبناه .. وسوف يحمل اسم خالك سعد زغلول ، وسيكون اسمه في شهادة الميلاد مقرونا باسم والده سعد زغلول وأمه صفية زغلول .
واجهشت رتيبة بالبكاء وقالت :

- إنك تسخرين منى ؟ إنك تكذبين على بهذا الاقتراح . لتخففى عنى المصيبة .

قالت صفية زغلول :

- أقسم لك برأس والدى ان سعد يريد ان يتبنى مصطفى ، وقد عرض على الفكرة ، فرحبت بها من كل قلبي . انك تسعين خالك إذا نزلت عن مصطفى » له .

قالت رتيبة : إننى مدينة لخالي بحياتى . إنه هو الذى ربانى وأنا طفلة يتيمة . كما تبناى مع أخى سعيد ، ولو طلب حياتى لأعطيها له . إننى لا أظن ان في الدنيا أبا خيرا من خالى سعد ولا يوجد في الدنيا أم خير منك .
قالت صفية : وهل سيوافق زوجك على ان تأخذ مصطفى ؟

قالت رتيبة في عتاب :

- يوافق ؟ إنه سيرقص من الفرح والفخر ..

ولم يكن الأب موجودا من القاهرة عندما وضعت زوجته . كان غائبا في دمياط . فان الأطباء أجمعوا على أن رتيبة سوف تلد بعد موعد الوضع الفعلى بأسبوع على الأقل . وكان الأب الأستاذ أمين يوسف يتراجع في محكمة دمياط ، في قضية غرامية كانت تهز المدينة الصغيرة هذا عنيفا . وكان أول قضية حب في محكمة دمياط . قضية قسمت المدينة قسمين . رجال المدينة في ناحية ونساءها في ناحية أخرى . الرجال يؤيدون الجاني وهو شاب من أغنيائها المعروفين . والنساء ينتصرن للمجنى عليها وهي ابنة أحد أثرياء المدينة التي أحبها الثرى الدمياطى وبادلته الحب . ووعدا بالزواج ثم أنكر وعده . وكان أمين يوسف هو محامى العاشقة الحسنة .

وحار سعد زغلول كيف يبلغ أمين يوسف أنه رزق بتوأمين . واعتقد أنه سينزعج كما انزعجت الأم الصغيرة . وجلس وكتب برقية يقول فيها : « نهنتكم . حرمكم أنجب مولودا ذكرا » والامضاء سعد زغلول . وضحك سعد وقال لصفية :

- وهكذا .. يعرف أمين المصيبة بالتدريج ! .. وعندما يعود الى القاهرة من دمياط نخبره بأمر المولود الثانى !

وعندما وصلت البرقية الى أمين يوسف كان يسمع الحكم لمصلحة موكلته العاشقة الحسنة ، ويستلم منها ثلثمائة جنيه ذهباً مؤخر أتعاب المرافعة في هذه القضية ويتلقى التهاني من الرجال الذين كسبهم بعد أن سمعوا مرافعته !

وتفاعل أمين يوسف بان يزف اليه نبأ ولادة مولوده الأول في اللحظة التي ينتقل فيها من حمام صغير الى حمام معروف مشهور ! واستقل أول قطار وعاد الى القاهرة ، وما كاد يدخل بيت سعد زغلول حتى احضرت له صفية زغلول مولودا واحدا .

وسر به سرورا عظيما . كان المولود سمينا جدا . ممتلئا صحة وعافية . وبعد أن اطمأن الأب على صحة زوجته . عاد يظل على المولود . وفوجئ به هزلا شاحبا ضعيفا .

وأصيب الأب بالذعر . اعتقد أن مولوده أصيب فجأة بنزيف حاد . جعله يفقد نصف وزنه في خلال دقائق . وأسرع الأب يعدو الى الشارع باحثا عن الدكتور طلعت باشا الطبيب المشهور لينقذ مولوده البكر المهدد بالموت . وأسرع بهى الدين بركات باشا يعدو خلفه ، ويعيده الى البيت ، ويخبره بأنه رزق بولدين . لابلود واحد ، أحدهما قوى بدني ، والآخر ضعيف هزيل . ولم يحتمل الأب الصدمة ، فاعمى عليه ، أنه لم يسمع قبل ذلك أن أما رزقت بولدين في بطن واحد ..

وإبلغته رتيبة باقتراح سعد وصفية أن يسمى الولد الأول على والولد الثاني مصطفى فرحب بالاقترح .

ولكن ما كادت رتيبة تخبر زوجها باقتراح سعد أن يتبنى مصطفى حتى غضب الأب وثار ورفض الاقتراح بعنف وقال :

- لا يمكن أن أبيع ابني !

قالت رتيبة :

- ان المسألة ليست مسألة بيع وشراء ، إنما كنا نريد من الله ولدا واحدا وأعطانا ولدين ، وقد صدمت أنت كما صدمت أنا بالنبا . جاء خالي وطلب أن يتبنى مصطفى لأنه محروم من نعمة الأولاد . فلماذا لانسعه بان نعطيه الولد الضعيف الهزيل ؟ !

قال الأب :

- أنا لا يمكن أن أعطي ابني لأحد !

قالت رتيبة :

- أنه ليس « أحد » أنه خالي وأبي الذي تبناني ورباني أنا وأخي وأنا يتيمة الأبوين فأقل ما أفعله أن أرد له جميله وأسعده في شيخوخته ووحدته .

قال الأب :

سيمكنك أن تعطيه ما تملكين ! ولكن ابني لا يمكن أن أنزل عنه لأحد ! وتالم سعد كثيرا لموقف الأب .

وعندما أرادت صفية أن تقنعه قال لها ما قاله لزوجته بعنف أقسى ، وغضبت صفية للطريقة القاسية التي أبدى بها رفضه .

وبكت رتيبة على رفض زوجها أن يتبنى خالها مولودها الضعيف . ولم تمر هذه الأزمة ببساطة على بيت سعد زغلول . أنها جرحته . لقد عاش

سعد بضغ ساعات يتصور أنه أصبح أبا . أن ولدا سيجمل اسمه . أنه سيجمل بين يديه . سيجبو فوق ركبتيه . سيسل به شيخوخته . سيطربه

صراخه . سيملا صوته الصغير البيت الهادئ الساكن الوقور . وعندما تلقى سعد رفض أمين يوسف عبس وجهه واكفهر . تحولت عيناه الضاحكتان الى

عينين جامدتين حزينتين . أحس كأنه طعن في قلبه الذي نبض لأول مرة نبضة الأبوة بسكين زوج ابنته المتباه . أو كما قال مرزا : أحسست كأنني رزقت

بولد وحيد ثم مات بعد بضغ ساعات ! أيسكثر عليه أمين يوسف أن يعطيه المولود الذي لم يرده ولم يتوقعه ؟ ماذا سيفعل هذا الأب الشاب بمولودين

اثنين ؟ إن امامه سنوات كثيرة يرزق بعدد من الأولاد والبنات . ولكنه هو .. إنه لا أمل له في أن يرزق بالولد . لقد طاف بزوجته أوروبا . وعرضها على

أكبر أطلبائها فاجمعوا على أنها لا يمكن أن تلد . أبضن عليه يوسف بمولود يخفف عنه وحدته . يضئ شمعته حياته التي بدأت تخبو ؟ أيكون هذا جزاءه بعد أن منح رتبة وسعيد ولدى أخته الوحيدة كل حبه وكل عطفه وكل حنانه . حتى نسبا ذل اليتيم . وهوان فقد الأب والام في سنوات طفولتهما الأولى ؟ هل يعطى الله الذين لا يريدون أكثر مما يريدون . ويحرم الذين يحلمون بولد ولو كان ولدا مستعاراً ؟ !

وعاش سعد في تلك الأيام لحظات قاسية ، من الحزن والهم والغم . وحاولت رتيبة وصفيّة أن تسريا عنه ، وأن تزيلا كابته ، وجاء الأب يعرض اقتراحا أن يبقى الطفلان في كنفه دائما وإن حملا اسم أبيهما . ورفض سعد الاقتراح بشدة في أول الأمر ، ثم عاد فقبله ، وحاول أن يتناسى اقتراحه المرفوض ، ولكنه كان يعود بين وقت وآخر ويستذكر رفض عرضه ، وفي أيام يتسلى بملاعبة الطفلين الصغيرين ، يداعبهما ويحملهما ، ويدرس تصرفاتهما ، ويكتب عنهما في مذكراته السياسية ، ويسال عنهما إذا غابا ، ويبحث عنهما إذا اختفيا . وفي أحيان أخرى تعود إليه رغبته في أن يكون أبا وصيفه بأنه حرم من أن يتبنى أحد الطفلين ، فيطلب الى صفيّة أن تبعد الطفلين حتى لايتذكر أنه فقد أحدهما ، ويفضل أن يعتكف وحيدا في ضيعته بمسجد وصيف طوال الصيف ، ويطلب الى صفيّة أن تعطى رتيبة نفقات المصيف لتصبح الطفلين الصغيرين الى أى مصيف ، بدلا من أن يمضوا الصيف معه . حتى لايتذكر في كل يوم أنه حرم من أن يكون أبا لأحدهما . وتنفذ صفيّة أمر زوجها . ولاتكاد رتيبة تحزم حقائبها لتصبح طفليها الى مصيف بعيد ، حتى يعود سعد ويصدر أمره بالغاء أمره الأول ، وبإحضار الطفلين وأمهما الى مسجد وصيف من جديد . !

ويمضى سعد مع الطفلين وقت راحته ، فيتناول إفطاره معهما ، وغذاه وعشاءه ، ويصحبهما على حمارين للتجول في مزارعه بمسجد رصيف . ويتولى تعليمهما الكتابة ، كما يتولى امتحانها في دروسهما .

ولكن كل هذا لم يستطع أن يقضى على رغبة سعد في أن يكون له ولد من لحمه ودمه ، فعندما كان يعد لثورة سنة ١٩١٩ اعتزل في قرية مسجد وصيف . ليجتمع سرا بالذين اختارهم للاشتراك معه في قيادة الثورة ، وكان في ذلك الوقت مشغولا طوال اليوم وأغلب الليل في عملية الإعداد والتصميم والترتيب ووضع خطة الثورة ، واختيار قيادات متوالية ، اذا سجت قيادة او أعدمت أو نفيت ، قفزت القيادة التالية مكانها حتى تستمر الثورة مهما حدث لقيادتها . وفي هذا الجو القاتم الذى كان سعد يفترض فيه أنه قد يفقد

رأسه إذا فشلت الثورة ، فكر من جديد في أن يكون له ولد ! وعجيب أن يفكر رجل يعرف أنه مهدد بالموت في أية لحظة . فقد يقتل رميا بالرصاص ، أو يعلق في مشنقة . أو ينفي حتى الموت ، عجيب أن يفكر رجل ، في مثل هذه الظروف ، في أن يكون له ولد . ولقد كتب في تلك الأيام في مذكراته انه يتمنى أن يكون له ولد ، وأن الطريقة الوحيدة لكي يحقق هذه الأمنية . أن يتزوج من فلاحه مصرية . وأن يبقى زواجه سرا ! ولكنه مالبث أن عدل عن أمنيته خشية أن ينكشف السر ، ويجرح قلب زوجته التي يحبها ، وعاد من جديد يلعب على ومصطفى ويصبحهما معه في كل مكان يذهب إليه .

وبعد قيام الثورة ونجاحها . ومرور عدة سنوات على رفض أمين يوسف التنازل عن ولده مصطفى ، لم ينس سعد هذا الأمر ، وذات يوم كان يتناول غذاءه في بيت الأمة ومعه صغية ورتيبة وزوجها وعلى ومصطفى وفجأة قال سعد :

- إن أمين عز عليه أن أكون أباً لمصطفى .. ولكن الله عوضني عن هذا الحرمان ، فبدلاً من أن أكون أباً لولد واحد أصبحت أباً لأربعة عشر مليوناً من المصريين .. وأصبحت صغية أم المصريين كلهم .. لقد جاءني اليوم أحد الأطباء يحمل صور ولديه التوامين ، وقال لي انه مستعد أن يتنازل لي عن ولديه التوامين . ودهشت أن يعرض على شخص غريب أن أتبني ولديه التوامين معاً ، بينما أبي على زوج ابنتي أن أتبني أحد تواميهِ ، إنني رفضت عرض الطبيب شاكرًا . ولكن لشدة ما أمني هذا العرض !
واصفر وجه أمين يوسف ووضع رأسه في طبق طعامه .
وامتلأت عينا رتيبة بالدموع .

وقالت صغية في ابتسامة مغتصبة :

- كان أمين في ذلك الوقت شاباً .. وهي هفوة من هفوات الشباب !
وسمع على ومصطفى ما أثاره سعد في دهشة وذهول .. فقد كانا يجهلان تماماً هذه القصة الغريبة قبل أن يسمعاهما في ذلك اليوم من فم سعد زغلول .
وعندما انفردا بأبيهما قال مصطفى له :

- كيف ترفض أن يتبناني سعد زغلول ؟

- وسكت والده قليلاً وقال :

- عندما تصبح أباً ستعرف سر رفضي ..

قالت رتيبة :

- ولكنك كسرت قلبه .. إن قلبه لا يزال مكسوراً حتى الآن .

قال الأب :

- إننى فعلت ما يجب أن يفعله كل أب . ولو أن التاريخ أعاد نفسه لفعلت الشيء نفسه من جديد .

إن الشحاذ يرفض أن ينزل عن ابنه . حتى لو عرف أنه سيصبح ملكا بعد ذلك ! إننى أفضل أن يحمل ابنى اسمى ويصبح شحاذاً . على أن يحمل إسم رجل آخر ويصبح ملكاً !

قالت الأم : كان يمكنك أن ترفض بطريقة أخرى .. دون أن نجرحه هذا الجرح الذى لم يلتئم حتى الآن بعد أكثر من عشرين سنوات !
قال الأب : إن الحقيقة تجرح مهما أخفيناها فى ورق مقضض ! لقد كنت على ثقة أنه إذا تبنى سعد زغلول مصطفى ، فإن ابنى كان سيحصل على تربية أرقى ، وسيعيش منعماً مرفهاً ، وسيحمل اسماً تاريخياً ، ولكن كل هذا لايغوض حنان الأب الحقيقى وحنان الأم الحقيقية .

قالت رتيبة : ولكنه لم يطلب منا الا نرى ابننا ! إننا نقيم معه طوال الوقت ! كل ما طلبه هو الاسم ! إننى تمتعت بحنان خالى سعد وحب زوجته صافية كأنهما أبى وامى . لم يشعرانى قط بأننى فقدت الأب والأم . مع اننى كنت أعرف اننى فقدتهما . ولم يكن مصطفى سيفقد فى يوم من الأيام الحب والحنان . كنا سنكون معه باستمرار . ولابد أنه سيرف أن اخاه على هو شقيقه . وهو توأمه ، بسبب الشبه العجيب بينهما . ولن يفقد حنان الأخوة وحبها . لقد خلفت فعلتك فى نفس سعد جرحاً لم يندمل حتى اليوم ، إنك كسرت قلب خالى . الرجل الذى يعلن الملايين اليوم استعدادهم للتضحية بحياتهم فداء له !

ويصبح الأب : كيف أقبل أن يحمل ابنى إسم رجل آخر ، حتى ولو كان هذا الرحيل زعيمنا ومن الطريف أن المولود الذى كانت تدور حوله كل هذه المعارك كان مولوداً هزيلة ، وكان من رأى بعض الأطباء أنه لايمكن أن يعيش ! واقتربت إحدى الممرضات أن يوضع الطفل فى النيدج وجاءوا بطشت غسيل ، وافرغوا فيه زجاجات النيدج ، ووضعوا فيه مصطفى أربعين يوماً ! ويدا مصطفى يسترد أنفاسه ..

وقرر الأطباء بعد عدة شهور من مولده بأنه قد يعيش !
وإذا كان الطفلان فى حماسهما لسعد زغلول قد لاما والدهما على وقوفه هذا الموقف العنيد ، فلاشك انهما بعد أن كبرا - كما تنبأ والدهما - قد كفا عن لومه . بل انهما أصبحا يدركان الآن ما جهلاه فى طفولتهما . وقدرا سبب عناده واصراره على أن يحتفظ بالتوأمين معا ، فلو أن مصطفى حمل هذا الاسم الضخم على ظهره . لتعثر خطواته ، ولاختلفت حياته ، ولقد أجمل ما فيها ،

وهي الصلة القوية الحلوة التى تربطه بأخيه التوام « على » ، فلو أن سعد زغلول منح مصطفى اسمه وجعله ابنه ووريثه بحكم القانون لكان من الطبيعى أن يفترق التوامان . ولعاشا حياتين مختلفتين . لصحب سعد ابنه فى كل مكان يذهب اليه . وبهذا يحرم التوامان من هذا الاندماج اللذيذ الذى كان احلى ما فى حياتهما . هذا التلازم الذى كان أشبه بلحن موسيقى واحد يشتركان فى عزفه معا . وإذا كان تقسيم الذرة قد أحدث انفجارا ، فإن شطر هذين التوامين كان سيدمر حياتهما معا ، سيفقدنهما حلاوتهما التى تشبه حلوة القبلية . فإذا كانت القبلية تحتاج لأثنين لتتكون حلاوتهما ، لأن شفة واحدة لاتصنع شهيدا ، فكذلك كانت حياة مصطفى فى وحدته سوف تتعثر ، وهو يحمل على رأسه الصغير الإسم الهائل ، اسم سعد زغلول . ولاشك أن هذا القل الكبير الذى كان سينوء به . كان سيبيطىء خطواته . وسيفقد روح المغامرة التى صنعت حياته ، ويحرمه من طاقة الاندفاع التى ساعدته على شق طريقه . كانت تربيته ستختلف حتما .. أن ابن الافندى لابد أن يختلف فى نوع تنشئته عن ابن الباشا . وأى باشا ؟ انه معبود الملايين . الرجل الذى يستطيع بكلمة منه أن يشعل ثورة ، وبإشارة منه أن يسقط وزارة . الرجل الذى كان يخلق من الأفندية وزراء . ويسخط الوزراء فيحولهم الى منبوذين لايجزؤون على الخروج من بيوتهم خشية أن ينقض الشعب عليهم ويدوسهم بالأقدام . كان هذا السلطان الضخم سيفسد مصطفى ، سيشره بأنه ابن الاله ، سيرى الرؤوس الكبيرة تتحنى بين يديه . سيشهد العظماء ينزلون اليه . سينتفخ كالبالون المملوء بالهواء . ذلك الهواء الذى استمدته من جاه أبيه زعيم الأمة وقائدها ورمزها . لن يكون أكثر من ابن الزعيم . يصعد على أكتاف أنصاره . ينال المناصب تكريما لذكراه . كان سعد سيدلله أضعاف ما دللته أمه . التى كانت تحرص على معاملته بحزم . والأب العجوز يضعف أمام طفله الصغير . يخاف عليه من النسيم حتى لا يصاب بالبرد . يخشى عليه من التراب حتى لا يصاب بالتهاب فى الحلق . تحمله السيارة حتى لاتتعب قدماه . وما كان هذا التدليل بقادر على أن يصنع منه أكثر من ابن ذوات . وهكذا يتحول الى وارث بدلا من خالق ، يصبح نباتا متسلقا لا شابا عصاميا ، ستمد اليه أيد كثيرة تساعد على المشى ، س يحملونه على أكتافهم حتى لا يتعثر وهو يصعد سلم الحياة ، فيصاب بذلك الكساح الذى يصاب به الذين يعجزون عن الوقوف . ولا يعتمدون على أقدامهم . الذين لم يذوقوا متاعب العثرات ، ولم يعرفوا الاصطدام بالعقاب ، ولم يعانون الام التدرج وهم يحاولون صعود جبل الحياة ، وهذه التجارب الشاقة هى وحدها التى

تقوى عضلات الأقدام لتجعلها قادرة على الوقوف في مواجهة العواصف .
وأعاصير الأيام .

ولو كان مصطفى حمل اسم سعد زغلول . لما دخل المعارك التي دخلها . ولما عاش الحياة الصاخبة التي عاشها . ولما خاض غمار الصراعات التي اشترك فيها . ولبقى جالسا في واجهة زجاجية تحمل اسم والده العظيم كأنه أحد المخلفات التاريخية . ولما ذاق مرمة الحياة الصحفية . ولما اضطر أن يمسخ بلاط صاحبة الجلالة الصحافة قبل أن يجلس مع أخيه « على » فوق أحد عروشها .

وقد اعتدنا في الشرق أن ندلل أبناء كبرائنا . أن نجعلهم أولياء عهد في غير ممالك . أن نحيطهم بالتكريم والتجليل زلفى لأبائهم . نكاد نلفهم بأوراق مفضضة حتى لا يصل إليهم الغبار . ناسين أن الغبار هو الذى يضرع الرجال ، وأن الذين لا يغوصون في الطين لا يستطيعون أن يقتحموا الصخور . وأن القمم في الحياة لا تفتح أبوابها للراكبين على اكتاف آبائهم . وإنما تفتحها لمن يحفرون الصخور بأظفارهم . والعظمة تكتسب ولا تورث . والأب قد يورث ملامحه ولون بشرته وبعض طباعه لأبنائه . ولكن لا يستطيع أن يورثهم عبقريته . فالعبقرية عمل متواصل .. فالأجيال ترث عبقرية العظماء . لأنها تراث هائل لا يستطيع أن يحمله بعد صاحبه شخص واحد أو بضعة أشخاص . ويظهر هذا وضوح في الشرق فإن أكثر أولاد عظمائنا فشلوا في أن يكرروا عبقرية آبائهم . ورثوا أسماءهم ولم يرثوا عبقريتهم . بينما نجد في الغرب مثلا بضع أسس توارثت علوما وفنوننا وخبرات . وهى ظاهرة يكاد يخلو الشرق منها . فابن أمير الشعراء أحمد شوقي حاول أن يكون شاعرا وفشل . وابن سيد درويش حاول أن يكون مطربا واحتكر لعدة سنوات ألحان أبيه ورفض أن يغنيها سواء وفشل .. وابن توفيق الحكيم القصصى العبقري . شب يكره الأدب . وأصبح عضوا في فرقة موسيقية تعزف الموسيقى الراقصة الحديثة التى كان يمقتها توفيق الحكيم ويعشق الموسيقى الكلاسيكية . ولم يشتغل ابن واحد من أبناء الزعيم أحمد عرابي العديدين لا بالحرب . ولا بالسياسة . ورفض أولاد السياسى الداهية اسماعيل صدقى الاشتغال بالسياسة ، فكان أولهم طبيباً . وثانيهم مهندسا وثالثهم موظفا ثم فلاحا . وعشرات من أولاد العظماء احترقوا في أضواء آبائهم ، واكتفوا من أمجاد هؤلاء الآباء بأن يقال أنهم أولاد هؤلاء العظماء الموهوبين . بينما نجد أن الأمر يختلف في الغرب فإن بعض أولاد الممثل الهزئ العالمى شارلى شابلن أصبحوا نجوما في السينما والمسرح . وونستون تشرشل ورث السياسة

عن أبيه . وبرز فيها أكثر من أبيه زعيم المعارضة في مجلس العموم . وكذلك الحال مع نيفيل تشمبرلين رئيس وزراء بريطانيا أوائل الحرب العالمية الثانية . ونجد أن أبناء الاقتصادي العالمي روكفلر ورثوا عبقريته الاقتصادية . وكذلك الحال مع فورد الصغير . وجون كيندي وروبرت كيندي برزا في السياسة أكثر من أبيهما الذي وصل إلى منصب سفير أمريكا في لندن . ولكن الشرق لم يشهد مثل هذه الوراثة إلا في دائرة محدودة . ولما وصل فرد واحد من أبناء عظمائنا إلى عبقرية أبيه . أو إلى شهرته . أو إلى نبوغه في فنه . فهل الشخصية لاتورث في الشرق كما تورث في الغرب . أم أن لطريقتنا في تربية أولاد عظمائنا أكبر الأثر في مسح هذه الشخصية أو مسخها . أو أننا نهتم بمظهر هؤلاء الأبناء دون مخبرهم . أو أن الآباء العظماء بدلا من يلقوا بأولادهم في خضم الحياة يسبحون فيها ويغوصون . يحملونهم على أكتافهم خشية أن تغرقهم أمواجها . وهكذا يفقد ابن العظيم صلته بالأرض التي خرج من طينها ، وإذا كان للآب جذور راسخة في الأرض يجيء أولاده بلا جذور !

* * *

وكان سعد زغلول في بعض الأحيان يعزى نفسه عن عدم انجابه بقوله ان كثيرا من عظماء العالم لم يرزقوا أولادا ذكورا ! .. قمصطفى كمال اتاتورك زعيم ثورة تركيا لم يرزق ولدا ولا بنتا . وقاسم أمين زعيم سفور المرأة الشرقية لم يرزق ولدا واحدا وإنما رزق عدة بنات . ومحمد عبده زعيم الإصلاح الديني في مصر لم يرزق ولدا وإنما رزق بنتا ، وملاحظة سعد زغلول حقيقة إلى حد كبير في البلاد العربية فإن طلعت حرب زعيم مصر الاقتصادي لم يرزق ولدا ولكنه رزق ثلاث بنات . ورياض الصلح أحد زعماء الحرية والقومية العربية لم يرزق ولدا . وإنما رزق عدة بنات . وأحمد ماهر زعيم الجهاز السرى لثورة سنة ١٩١٩ لم يرزق ولدا وإنما رزق بنتا . وفتحي زغلول لم يرزق لا ولدا ولا بنتا . وكذلك عباس العقاد ، ومصطفى النحاس ، ومحمود مختار المثال المصري الكبير ، وأم كلثوم ونجيب الريحاني ويوسف وهبي كل هؤلاء وغيرهم لم يرزقوا لا أولادا ولا بنات . ولكن مع كل ما وصل إليه هؤلاء من مجد ، كان الكثيرون منهم يشعرون بحسرة لأنهم لم يرزقوا ولدا ليكون امتدادا لهم ، كان تاريخهم لا يكفيهم . أو كأنهم تصوروا أن الولد يمكن أن يعيش عمرا أطول من عمر التاريخ ! أو أنهم خشوا أن يعجز التاريخ عن أن يحمل للغد صورهم على الورق . فتمنوا لو أن صورتهم رسمت باللحم والدم على أولادهم !

وكل هذا شعور طبيعي ومفهوم ، ولكن الذي ليس طبيعيا ولا مفهوما . أن يقوى هذا الإحساس الطبيعي في سعد زغلول وهو مقبل على معركة مصيره .

وهو يعد للثورة ١٩١٩ التي كان يقدر تماما اخطارها . كان يعرف أن الموت فيها هو المؤكد والنجاه هي المحتملة . كان يعلم أنه مقبل على طريق ينتهي الى حبل المشنقة .. يلتف حول عنقه . أو الى منفى قد يلقي فيه حتفه على أحسن الاحتمالات . ومع ذلك كان في هذا الوقت بالذات يحس برغبة في داخله أن يكون له ولد ، ولد من صلبه . ولم يكن هذا الشعور خاطرا مريبه واختفى . وإنما ظل يسيطر عليه وهو يعد للثورة حتى انه فكر في أن يتزوج سرا من فلاحه مصرية ليكون له منها هذا الولد الذي يريده ، وهو الذي يحب زوجته صفية حبا جارفا . ولا يكتفى بالتفكير بل يدون هذا بكتابة بخط يده في مذكراته . ويقول انه يريد أن يكون زواجه من هذه الفلاحه سرا حتى لا يجرح زوجته . ثم يعدل عن هذه الفكرة لأنه خشى أن يذاع هذا السر ويبلغ زوجته . ومن حسن حظ سعد زغلول أنه قاوم هذه الرغبة في نفسه ، لأنه لو استجاب لها ، لفقد صفية زغلول التي لعبت دورا سياسيا في الثورة . ولفقد نساء مصر اللاتي انضمن اليها . ومشين في المظاهرات متحديات بنادق الانجليز ومدافعهم هاتفات لسعد محرر المرأة المصرية ، مستجيبات له عندما دعاهن الى رفع الحجاب كانت المرأة المصرية المثقفة ترى في سعد زغلول صورة الزعيم التقدمي المتحرر . وكان هذا سر حماسها له . ولم تكن المرأة المصرية لترضى أن تعرض حياتها لرصاص الانجليز من أجل زعيم متزوج من امرأتين في وقت واحد .

وكانت صفية زغلول تطيع زوجها طاعة عمياء لأنها كانت تحبه حبا جما ، ولكنها كامرأة ذات شخصية قوية وإرادة جبارة . ماكانت لتقبل أن تقاسمها امرأة أخرى في سعد زغلول ، فكان من الطبيعي لو تم هذا الزوج . ورزق سعد بالولد الذي ينتظره . أن تعلم صفية بأمره وتبتعد عن سعد . أن لم تنفصل عنه ، وما كانت في مثل ذلك الظرف كامرأة ترضى أن تقوم بهذا الدور البطولي الذي قامت به في ثورة سعد زغلول . لما تولت قيادة الثورة بعد نفى سعد ، ولما أصدرت البيانات الحماسية الثورية التي ألهمت الجماهير . ولما ألفت الخطابات النارية التي كانت تلهب المتحمسين ، وتشعل المترددين ، وتشجع المتخاذلين ، وتقوى الضعفاء الخائفين .. فلو أن سعد زغلول طعن صفية بهذا الزواج من فلاحه ثم انجبت له هذه الفلاحه ولدا . لتغير وجه تاريخ ثورة ١٩١٩ .

لاختفى منها وجه صفية زغلول .

ولاختفت منها نساء مصر ..

ولفقدت الثورة بذلك بعض أبرز سماتها .



● الفصل السادس ●

عاش الطفلان التوأمين في بيت سعد طفولة عجيبة
 لاتشابه طفولة كثيرين من الأطفال في سنهما . لم
 يسمعا « الحوادث » التي ترويها أمهات تلك الأيام
 لأطفالهما . لم يعرفا قصة الشاطر حسن وست الحسن
 والجمال . ولا قصة الغول ولا قصة « أبو رجل
 مسلوخة » . كان يسمعان من جدهما قصصا مختلفة .
 قصصا عن تاريخ حياته وعن مغامراته . كان هو فيها الشاطر حسن . وكانت
 أحلامه عن الحرية والاستقلال والديمقراطية هي ست الحسن والجمال التي
 يحاول الشاطر حسن أن يصل إليها ! وكان الغول أحيانا يبدو في صورة
 الانجليز الذين يحتلون البلاد . أو السلطان الذي عينه الانجليز ليزل

هذا الشعب ، او عن طبقة الأتراك من بقايا الحكم التركي التي كانت تجلد ظهور الفلاحين بالسياط ! ولم يلعب الطفلان لعبة عسكر وحرامية اولعبة الاختفاء التي يسمونها « الاستغماية » وإنما اللعبة الوحيدة التي كانا يلهوان بها اسمها لعبة « عسكر وثوار » .. الثوار يخفون ، والعسكر يحاولون أن يمسكوا بهم ويضربوهم .

وكان الطفلان يهويان كثيرا أن يقوموا بدور الثوار حتى لو كان ثمن ذلك ما يلحقه بهما زملاؤهما من أطفال الجيران من ضرب مبرح . فقد كانت قصص سعد عن حياته المثيرة كشاب ثورى يطارده البوليس . ويهرب من عيون الحكومة ، ويضل مطارديه . هى أحدى القصص التي يستمعون اليها . ويتابعون سعد وهو يرويها لهم بأسلوبه الشائق ولغته السهلة . وكانت امهما تبذل جهدا كبيرا في حملهما من مقعديهما ليناما حين يحل موعد النوم . كانا يتشبهان بمقعديهما ويرفضان ان يغادرا الغرفة الى فراشهما . وتجذبهما امهما فيصرخان ويستجدان بسعد . فكان حينما يهب سعد الى نجدتهما ويستبقيهما معه ساعة أخرى . وإحيانا يضحك ويعدهما بأن يتم القصة في اليوم التالى ، ويגיע اليوم التالى ولا يتم القصة . لانشغاله بأعماله وحينئذ ينسى شوق الطفلين الى بقيتها . ثم يستأنف حديثه العذب في مناسبة أخرى تاركا القصة الأولى بغير خاتمة . أو يتمها عندما يطالبه الطفلان باتمامها ! وذات يوم سمع الطفلان سعد يتحدث غاضبا عن سيدة اسمها « صفية » وبهت الطفلان .. أن سعد يهاجم صفية هذه بعنف ومرارة ، انهما يعرفان أن ستهما اسمها صفية وهى زوجة سعد ، وهو يحبها كل الحب ، ويحترما أشد الاحترام .. وإذا بالطفلين يبكيان في وقت واحد حزنا لأن جدتهما يشتم ستهما بهذه الألفاظ القاسية !

وتنبه سعد الى بكائهما ودهش ، وسالهما عما يبكيهما ؟ فقالا في صوت واحد : لأنك تشتم ستى !

وضحك سعد طويلا وضحكت صفية زغلول .. وقال سعد أنه لا يهاجم صفية زوجته وإنما يهاجم صفية السادات أرملة صديقه الشيخ على يوسف ! وكانت هذه هى أول مرة يسمع فيها الطفلان سعد يقسو في الحديث عن امرأة !

وكان سر قسوته أنه سمع أن أرملة صديقه أحببت بعد وفاته ممثلا مغنيا اسمه زكى عكاشة ، وانها قد تتزوج . وكان سعد نائرا على هذا التصرف ، فقد رأى فيه عدوانا على ذكرى صديقه الذى أعطى هذه المرأة اسمه ومجده وحياته فداست على كل هذا بالاقدام من أجل ممثل شاب ! صحيح أن هذا

الحب بدأ بعد وفاة صديقه بعشر سنوات . ولكنه كرجل فلاح لم يتصور ان تنتهى قصة حب شهداها ، هذه النهاية .

كان يريد أن تعيش الأرملة طوال حياتها مخلصه بجسدها وقلبيها لذكرى صديقه الذى احبها !

وكانت القصة التى أثارت سعد زغلول كل هذه الثورة ، من الغرابة بمكان ، فقد كان الشيخ على يوسف فلاحا فقيرا في قرية بلفصورة في الصعيد ، وجاء الى القاهرة ودرس في الأزهر ، ولكنه لم يستطع اتمام دراسته لشدة فقره . فعمل في الصحافة . وبرز فيها . وصادر جريدة المؤيد ، وأصبح الصحفي الأول في مصر . وكانت المؤيد تهاجم الانجليز وتنشر مقالات مصطفى كامل . وكان سعد يساعد المؤيد ماليا عندما تقع في صراعها مع الانجليز ، وأحب الشيخ على يوسف الأنسة صفية السادات ابنة الشيخ السادات وهو عميد أسرة عريقة تنتسب الى سلالة الحسين اخفاد النبي . وتقدم الصحفي الأول الى الحسيب النسيب يطلب يد ابنته . ووافق الأب في أول الأمر . ثم تدخل خصوم الصحفي الأول واقتنعوا الأب بأنه لا يليق بكرامة أسرة السادات العظيمة أن تزوج ابنتها لصحفي وضيع الشأن من أسرة حقيرة لا تنتسب للنبي ولا للخلفاء الراشدين . واقتنع الأب وصرف النظر عن الزواج . وإذا بالأنسة صفية تتصل سرا بالصحفي الأول وتبادلته الخطابات الغرامية وتتفق معه على أن تهرب من بيت أبيها وتتزوج منه . ففعلا تم الزواج وقوجيء به الأب . ولم يكن سعد في أول الأمر موافقا على هروب صفية من بيت أبيها ليتزوجها حبيبها الصحفي الأول . ولكنه لم يلبث أن وقف مع الصحفي على يوسف عندما رأى الرجعية كلها تقف ضده . فقد أوعز الانجليز الى الأب أن يرفع قضية أمام المحكمة الشرعية يطلب طلاق ابنته من الصحفي الأول بحجة عدم كفاءة على يوسف لابنته لأن نسبه حقير . وحرفته . وهى الصحافة . مهنة حقيرة بل أحقر الحرف ، حرقة كلها عار وشتار لا يحترفها الا كل متشرد أفاق وكل من لا صناعة له . وكل من لفظته الأعمال الشريفة !

وفوجيء سعد بأغلبية الرأى العام تقف ضد الشيخ على يوسف وتقول إنه لا يجوز . للصحفي الذى هو فلاح من أسرة غير منسبة ، أن يتزوج من ابنة كبير الاشراف !

ووجد سعد نفسه في معسكر على يوسف ضد أغلبية الرأى العام في مصر . انه هو ايضا فلاح مثل على يوسف . ان أسرته لا تنتسب للنبي مثل على يوسف . إنه كان صحفيا مثل على يوسف ، ومع ذلك فقد تزوج من ابنة رئيس وزراء مصر ، ولم يجزؤ احد على أن يقول أن هذا الزواج غير متكافئ !

وهو يؤمن بأن من حق المرأة التي بلغت سن الرشد أن تختار زوجها ، هـ
يوصى الاسلام . وهكذا يقرر .

ولم يتردد سعد وهو مستشار في محكمة الاستئناف أن يشترك في كد
الدفاع الذي سيتولاه حسن بك صبرى (حسن صبرى باشا رئيس الوز
فيما بعد) عن الشيخ على يوسف . ومحمد عز العرب المحامى (عضو الو
فيما بعد) عن الأنسة صفية ومع ذلك الدفاع القوى - حكم القاضى الش
الابتدائى بالتفريق بين الزوجين . ثم حكمت محكمة الاستئناف بتأييد ح
الطلاق .

وفوجيء سعد زغلول بمصطفى كامل وصحف الحزب الوطنى تشديد بالذ
وتؤيد الطلاق وتهاجم الصعلوك الفقير على يوسف . لأنه تجرأ وتزوج حقب
الأشراف . ولم يققع هذا الموقف سعد : فكيف يطالب حزب بالحرية ثم يسته
على صحفى فلاح أن يتزوج من ابنة عميد الأشراف . فليس من المنطق
تطالب بجلاء الانجليز عن مصر لأن أبناءها أهل لحكم انفسهم ونستنكر :
مصرى أن يتزوج ابنة السيد السادات لأن أصله فلاح . أو كما قال مح
السادات في المحكمة أن السادات يعود نسبة الى الفى سنة من الحسب الررة
الشريف . والشيخ على يوسف من قرية حقيرة جدا كل اهلها فقراء وضعاليك
فلا يجوز أن يتزوج الصعلوك من بنات الكبراء والملوك - لايجوز لأب
الفقراء أن يناسبوا أسر السادة الأمراء . لايجوز لمن يمتهن الصحافة ود
احقر مهنة في العالم أن يصاهر أسرة واسعة الثراء . الرجل الفقير اذا اغت
فإن وصمة الفقر تبقى عالقة به الى الأبد . لا يستطيع أن يتطهر منها مهما ب
بعد ذلك من عز وجاه !

ومع صدور هذا الحكم الغريب بالطلاق استمر الصحفى الاول يحب صة
السادات واستمرت هى تبادل الهوى والغرام . وسعى الشيخ على يوس
حتى حصل على رتبة الباشوية . وبعد ثلاث سنوات قبل الأب أن يزو
ابنته .. من على باشا يوسف بعد أن رقص أن يزوجه من الصحفى الا
الشيخ على يوسف . وافنى الشيخ على يوسف صحته وجهده في قضية هـ
الحب . دخل المعارك ، وانفق الأموال وصرف أغلب ثروته ليحصل على لا
« شيخ السادة الوفاية » . وسجل اسمه في سجل الأشراف أحفاد النبى
وعندما مات الشيخ على يوسف كانت صفية السادات في السادة
والعشرين من عمرها .. وبعد ذلك بعشر سنوات ذهبت الى مسرح حدي
الازبكية لتشهد فرقة عكاشة تمثّل رواية شهداء الغرام .
وكان زكى عكاشة يمثل دور روميو ويغنى قصيدة كلها حب وغزل وشو

ولهفة الى لقاء الحبيب . وكانت صفية السادات تشهد تمثيله وتسمع غناؤه من لوج غطى بستاثر بيضاء . ودخل الحب من ثقوب الستائر وبدلا من أن ترسل صفية السادات الى الممثل زكى عكاشة خطاب غرام أرسلت له خاتما من الزمرد لايقدر بثمن !

وبدأت قصة الغرام سرا . ثم داومت صفية السادات على الحضور كل ليلة لتشهد زكى عكاشة يمثل ويغنى ..

وانتشرت قصة الغرام بين الممثل الأول وأرملة الصحفي الأول .. وأنها قررت الزواج بمن تحب .. وأبلغت صفية السادات رغبتها هذه الى سعد بصفته صديق زوجها القديم .. وكان هذا سر ثورة سعد زغلول !

ولكن سعدا لم يستطع أن يفعل شيئا ليمنع هذا الزواج ، فقد كانت ثورة ١٩١٩ قد اندلعت ، ولم تعد تعترف بالفروق بين الطبقات ، وكان سعد زغلول قد تولى رئاسة الوزارة وكانت وزارته أول وزارة تعترف بالمسرح المصرى وتوزع جوائز على أبرز الممثلين والممثلات والمطربين والمطربات ! ومع أن رئيس الوزراء كان ضد هذا الزواج وضد هذا الحب فلم يستطع أن يستعمل سلطته ليمنعه ، بل اعتبر الأمر مسألة شخصية ليس من حق الحكومة التدخل فيها . ولو أنه تدخل لمنع الزواج لناقض نفسه عندما أيد الصحفي الأول ضد قوى الرجعية كلها !

ولم تعترض صحف الحزب الوطنى هذه المرة على أن يتزوج ممثل من حفيدة النبى ، ولم يرفع أحد قضية طالبا التفريق بين الممثل الصعلوك وحفيدة الأشراف والملوك . لأن الدنيا قد تغيرت ، وغيرتها ثورة ١٩١٩ نفسها التى ثار قائدها على هذا الحب وهذا الزواج . لا لأنه يستنكر زواج ابنة شيخ مشايخ الأشراف من ممثل ، بل لأنه تصور أن أرملة الرجل العظيم الذى أحبها كل هذا الحب ، وإفنى صحته دفاعا عن حبها ، وتعرض للشتائم والسباب وقصائد الهجاء وجملات الصحف . وصمد حبه لكل هذه العواصف . تصور أن مثل هذه المرأة الشابة سوف تعيش طول حياتها على ذكرى هذا الحب ، وغير هذا الهوى ، وإنفاس هذا الغرام .. وهذه المأساة التى صدم بها سعد زغلول فى أوج سلطانه .. تكررت للملايين بنفس الصورة بعد أكثر من خمسين عاما عندما تزوجت جاكلين كيندى أرملة رئيس جمهورية الولايات المتحدة الشاب من المليونير اليونانى العجوز أوناسيس !

فهل كان سعد زغلول لا يعرف حقيقة قلب المرأة ؟ أم أن النساء مختلفات ؟ لقد بقيت صفية زغلول عشرين عاما بعد وفاة سعد زغلول وفيه لذكراه ، وكانت تزور قبره كل يوم طوال العشرين عاما ولم تنقطع يوما واحدا

عن الزيارة .. حتى يومها الأخير في الحياة !
أم أن الفلاح فيه هو الذى جعله يستنكر زواج قرينة صديقه بعد وفاته
بـعشر سنوات ؟

أم أن حب سعد للمرأة وتقديره لها هو الذى جعله يضعها فوق صرح عال
كما تفعل بالتمائيل التى تعجبنا ، ولم يتوقع أن التمثال سوف يمل وقفته فوق
قاعدته ، وسوف يترك الصرح ليمشى في الشارع الذى يمشى فيه البشر ؟ !
إن الطفلين التوامين يذكران أن سعد قال مرة :

- إن بعض الناس يسألون في دهشة :

- ماسر حماس هذا الرجل الفلاح الأزهرى للمرأة المصرية ؟ ! ما الذى
جعله يشجع صديقه قاسم أمين على إصدار كتابه عن تحرير المرأة . ويقف إلى
جواره في الحرب التى أعلنها الرجعيون ضد سفور المرأة ؟ ما الذى جعله
يؤيد سفورها في ثورة ١٩١٩ ؟

قال سعد زغلول :

بعض الناس يعتقدون أن الفضل في آرائى التقدمية بشأن المرأة يعود إلى
زوجتى صافية وهذا غير صحيح . وبعض الناس يتصور أننى أخذت من
زياراتى لباريس للحصول على ليسانس الحقوق ، إيمانى بالمرأة ، وهذا غير
صحيح أيضا . الواقع أننى مدين بايمانى بحق المرأة في الحرية والمساواة
لأمى مريم بركات . كانت أمى فلاح لا تقرا ولا تكتب ، ومات أبى وتركنى أذ
وأخى فتحى وأختى أم رتيبة وسعيد أطفالا ، وكانت أمى صغيرة السن عندما
أصبحت أرملة . وكانت جميلة . وكان أولاد أبى من زوجته الأولى أكبر منه
سنا . وحاول أعيان الناحية أن يتقدموا إليها عارضين الزواج فأبت وقالت
إننى ساكرس حياتى لتربية أولادى . واستطاعت وحدها أن تقاوم الإغراء
والضغوط من أسرته حتى تنزوج مرة أخرى . وإذا بها وهى امرأة تصبح
عميدة الأسرة كلها . لقد تمكنت بقوة شخصيتها أن تفرض احترامها على كبار
الأسرة الرجال . ثم فرضت شخصيتها على القرى المجاورة . وكنت أرى الرجال
يحضرون للاحتكام إليها في خلافاتهم . وقد ورثت عن أبى اندفاعه وثورته
وورثت عن أمى حكمته وحسن تدبيرها ، فعندما أغضب . فهذا هو أبى
وعندما أكون حكيم ، فهذا هو أمى ! وحينما اندفع . فهذا هو ثورة أبى
وعندما اتدبر امرى وأسوس نفسى ، فهذا هو سياسة أمى وحكمته . وكنت
معجبا بشخصية أمى القوية وثباتها وصمودها . وهذا هو الذى جعلنى
أتمسك بايمانى بالمرأة .. فإذا كانت أمى الفلاحية الأمية قد استطاعت أن تفعل
كل هذا ، فإن من حق المرأة المصرية أن تتساوى بالرجل . وأنا لا يمكن

أن ادعو الى تحرير الرجل واستعمار المرأة في بلادى في وقت واحد . فالحرية لا تنتجزا . ومن أجل احترامى لأمى احترمت كل امرأة مصرية ، فانا لم أغضب على صفة السادات لأنها تزوجت ممثلا . بل غضبت عليها لأننى توقعت من زوجة صديق أن تفعل ما فعلته أمى ، وترفض أن تتزوج بعد وفاة صديقى على يوسف الذى حارب الدنيا كلها من أجل حبها . ولم أرد أن يسخر الناس من ذكراه ويقولون انه كان على خطأ عندما ضحى من أجل صفة السادات بكل شيء . فلم تقدر هذه التضحية وتزوجت بعد وفاته ، لقد قيل أن فرقه زكى عكاشة كانت أول فرقة مسرحية خرجت في مظاهرة الى الشارع في سنة ١٩١٩ بتقديمها الممثل المطرب زكى عكاشة وكانت تنشد قصيدة أبى الهول لأمير الشعراء أحمد شوقي ، وهذا قد خفف من وقع المصيبة بعض الشيء .. فأن الثورة في اعتقادي جعلت كل من اشترك فيها اصحاب حق في المساواة . ولا أستطيع أن اقول أن صفة السادات ابنة كبير الاشراف وزوجة على باشا يوسف اكبر مقام من رجل اشترك في الثورة لأنه ممثل ومطرب . ولكنى اقول اننى بصفتى الشخصية كرجل فلاح أزهري كنت أود لو أن زوجة صديقى الذى أفنى حياته من أجل حبها . ظلت وفية لهذا الحب ، ومن أجل هذا لم أقاوم الزواج ولم أحاول أن أمنعه ، كل ما فعلته اننى استعملت حقي كإنسان .. حقي في أن اتالم !

ولقد سبب حماس سعد للمرأة المصرية كثيرا من المتاعب له . فعندما أصبح وزيرا للمعارف واهتم بتعليم البنات ثار عليه الخديو ، وهاجمته الصحف واتهمته بالخروج على الدين الحنيف !

وكان من رأى سعد دائما أن أى ثورة في مصر لا يمكن أن تنجح الا اذا اشتركت فيها المرأة مع الرجل ، وكان هذا الرأى يلقي معارضة شديدة من اصدقائه الذين يعدون معه للثورة .. وخاصة الشباب منهم ؟

وكان سعد يردد دائما قصة وقعت أحداثها في مؤتمر الحزب الوطنى الذى عقد في مدينة بروكسل في سبتمبر سنة ١٩١٠ برئاسة الزعيم محمد فريد . فقد وقفت الزعيمة الهندية المعروفة السيدة كاما وقالت للأعضاء وهى لاترى بينهم سيدة مصرية واحدة :

- ايها المصريون ! إننى أسالكم أين نصف سكان مصر ؟ إذا كان النصف الاول من سكانها هم الرجال . فإين إذن الأمهات والأخوات والزوجات ؟ إن الحرية لا تتحقق بنصف الأمة ، انها تتطلب جهدا مشتركا من الرجال والنساء !

وكان الدكتور محمد حسين هيكل يحضر المؤتمر فوقف يرد على الزعيمة الهندية ويقول :

- كنا نقول منذ بضع سنوات أن المرأة لا ينبغي أن تتلقى التعليم ، لأنها إذا تعلمت القراءة والكتابة . سوف تستطيع كتابة الخطابات الغرامية !! وكان سعد يضحك ويقول : إن ما ذكره هيكل ليس مبالغة إنه حقيقة لقد سمعت هذا الاعتراف من الخديو عباس عندما تقدمت ، وأنا وزير للمعارف بمشروعات لتعليم البنات ، وإذا بالخديو بثور ويقول :
- أن تعليم المرأة المصرية يفسدها ! لولا أن صفية السادات تجيد القراءة والكتابة لما تبادلنا مع الشيخ علي يوسف الخطابات الغرامية التي أدت الى هذه الفضيحة !

وبعد مناقشة طويلة قبل الخديو أن تتعلم الفتاة المصرية الى سن الثانية عشرة .

وقال الخديو : مادمت على عرش مصر فلن أسمح بدخول امرأة مصرية إلى المدارس العليا !

ولعلنا لم ندخل الفتاة المصرية المدارس العليا الا بعد عزل الخديو وصدور الدستور !

وكان سعد يقول :

- غير صحيح ما كان يعتقد الخديو من أن صفية السادات أحبت الشيخ علي يوسف لأنها كانت تعرف القراءة والكتابة ، لأن درجة تعليمها لم تكن تسمح لها بأن تفهم مقالات الشيخ علي يوسف السياسية ، أنها أحبت فيه شخصيته اللامعة التي يتحدث الناس عنها ، أحبت فيه مغامراته الصحفية ونشره البرقيات السرية وتقديمه الى المحكمة بتهمة إذاعة أسرار عسكرية وبراعة المحكمة له . وكانت المجالس في كل البيوت لاتتحدث الا عن علي يوسف كبطل أسطوري يقاوم اللورد كنشتر قائد الجيش المصري . ويدافع عن الجنود المصريين الذين يفتك بهم الوباء في السودان . وكان المتعلمون والأميون يتحدثون عنه كبطل أسطوري . وهذا هو ما جعل الفتاة الصغيرة صفية السادات تتدله في حبه وتتمسك بهواه وهذا هو نفس ما جعلها تحب زكي عكاشة . فالممثل المغنى على المسرح هو بطل في نظر المرأة . ولو كانت صفية السادات تجهل القراءة والكتابة ! لأحبت الشيخ علي يوسف رغم ذلك . ولقد عرف الناس الحب قبل أن يعرفوا القراءة والكتابة ! فزليخا التي أحبت سيدنا يوسف كان تجهل القراءة والكتابة ! وحواء أقنعت آدم بالخروج من الجنة بغير حاجة الى خطاب غرام !

ولعل من أسباب حماس سعد زغلول لصديقه الصحفي علي يوسف أنه كان صاحب الفضل الأكبر في تشجيعه على إصدار جريدته . وقد تكونت شركة

اصدار جريدة المؤيد في بيت سعد زغلول ، وكلما واجهت الجريدة اية أزمة مالية ، كان سعد زغلول يسارع الى إمدادها بالمال من أرباحه الطائلة في المحاماة . وقد اعترف الشيخ على يوسف بهذه الحقيقة في مقال كتبه بنفسه في جريدته .

وحدث مرة أن غضب الانجليز على جريدة المؤيد فاعلقوها ، وكان سعد زغلول يومها وزيرا في الوزارة . فذهب الى صهرة مصطفى فهمي رئيس الوزراء . وقال له إنه سيستقيل من منصبه كوزير للمعارف إذا لم يصدر فورا قرارا بعودة جريدة المؤيد .. وكان غريبا في تلك الأيام أن يستقيل وزير بسبب جريدة .

وأسرع مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء الى المعتمد البريطاني وأبلغه تهديد سعد زغلول . فصدر امر بإلغاء قرار الاغلاق .. وعادت المؤيد الى الصدور !

إن سعد عندما غضب على المرأة التي تنكرت لذكرى صديقه فقد غضب في الوقت نفسه من أجل ذكرى رجل وقف بجواره في محنته . وهدد بالاستقالة من أجل جريدته . وأمه بالمال ليستطيع أن يقاوم الاحتلال .. ولأنه قبل كل شيء فلاح مصرى مثله تماما !

ولكن العقبات التي وضعها الخديو عباس والرجعيون في طريق تعليم المرأة المصرية جعلت سعد زغلول يتحمس لتعليم المرأة في بيته ! فعندما تزوج سعد من صفية اكتشف أنها لم تدخل أى مدرسة ! فإن والدها أحضر لها معلمة فرنسية تعلمها اللغة الفرنسية وأخرى مصرية تعلمها مبادئ القراءة والكتابة .. وشعر سعد بخيبة أمل . أنه يريد شريكة لا زوجة . امرأة تقرا الصحف العربية . وتناقشه في أحداث السياسة ، وتلفت نظره الى المقالات الهامة ويقرأ عليها ما يكتب .. لهذا بادر سعد باحضار معلمة للغة العربية تتولى تعليم زوجته وابنته المتبناه زينة في نفس الوقت ! وكان سعد يشرف بنفسه على تعليم صفية ورتيبة . ويطلب إليها أن تقرأ كل منهما بصوت مسموع . ليصحح لهما النطق ويناقشهما في معاني ما تقرأن . ومع الوقت أصبح يأتيهما بمقالات مصطفى لطفى المنفلوطى وقصائد سامى البارودى . وهكذا أصبحت صفية تقرأ الصحف المصرية بانتظام وتتبع الأخبار وتتشارك في التعليق على الحوادث .

وكان سعد . دون أن يشعر ، كان يعد صفية لتقوم بدور هام في حياته . وكان غريبا أن تتلقى زوجة وزير المعارف درسا يوميا في اللغة العربية ، وبقيت صفية تتلقى هذه الدروس بانتظام الى أن قامت الثورة !

وهذه الدراسة المستمرة هي التي هيأت صفة لمتابعة الأحداث في حياة سعد ، فلم تقف فيها موقف المتفرج ، بل وقفت دائما موقف الشريك . ولم يكن من عادة الأزواج أن يطلعوا زوجاتهم في تلك الأيام على دقائق السياسة وما يجري وراء الستار ، ولكن سعد زغلول كان في حاجة دائما لانسان ياتمنه على أسرار ومؤامرات واستعدادات الثورة . أسرار قد تكلفه رأسه . فلم يجد سوى صفة ليتحدث إليها بهذه الأمور التي كان لا يحدث بها الا نفسه . فإن احدا سواه لم يكن يعرف قصة الثورة كلها ! كان كل فريق يعرف طرفا منها . المعتدلون لا يعرفون سوى دورهم . والمتطرفون لا يعرفون سوى أشخاصهم . وكان سعد يركب الحصانين معا . وكان يحدث صفة بكل مايجرى وكأنه يفكر بصوت عال . وقد وجد فيها الشريك الكتوم الأمين أو كما كان يسميها « خزانة الأسرار » .. ولأنها عرفت دوره تماما . عرفت دورها هي تماما .

وقد لا يعرف كثيرون أن سعد زغلول لم يطلب من زوجته أن تقود ثورة ١٩١٩ بعد نفيه ، بل إنه لم يتوقع أنها تستطيع أن تقوم بهذا الدور . كل ما فعله قبل قيام الثورة أنه قال لها :
يا صفة . لقد قررت أن اضع رأسي على كفى اليمنى .
فقالت صفة .

وضع يا سعد رأسي على كفك اليسرى !
وفهم سعد من هذا الحديث أنها مستعدة لأن تتحمل ما يصيبها من تضحيته بنفسه في الثورة . ولكنها فهمت في الواقع أنها وقعت معه ميثاقا مكتوبا بأن تقود الثورة . اذا غاب زوجها عن مكانه !
وعندما قبض الإنجليز على سعد زغلول في يوم ٨ مارس سارع على باشا شعراوي وكيل الوفد ودعا أعضاء الوفد الذين لم ينفوا مع سعد الى اجتماع طارئ يعقد في بيت على شعراوي لبحث الموقف ..
وسمعت صفة زغلول بأمر الدعوة فثارت واتصلت بمنزل على شعراوي باشا فردت زوجته هدى شعراوي . وطلبت صفة التحدث الى على شعراوي . ودهشت هدى شعراوي . فلم تكن التقاليد أيامها تسمح لسيدة متزوجة بأن تطلب التحدث مع رجل متزوج في التليفون .
واستدعت زوجها فقالت له صفة :

.. سمعت انك ستعقد اجتماعا للوفد في بيتك ! هذا الاجتماع يجب ان يعقد في بيت سعد .

قال على باشا شعراوي : كيف نعد الاجتماع في بيت سعد وهو غير موجود .

قالت صفية : انه موجود ! وسوف يكون موجودا ولو قتله الانجليز !
إن هذا ليس بيت سعد . انه بيت الأمة . انه قلعة الثورة . كيف تستسلم
القلعة لأن قائد الجيش أسره العدو . يجب أن تبقى القلعة وتقاوم فقال لها
على شعراوى باشا : لك حق .. سنجىء ونعقد الاجتماع فى بيت سعد باشا ..
ولكنى احب أن أحذرک .. فقد تتعرضين للمتعاب نتيجة لهذا ..

قالت صفية : بعد أن أخذوه لم تعد لحياتى قيمة ! قيمة حياتى وهو هنا !
وأمرت صفية بفتح أبواب البيت ، وتخصيص كل غرفة للثورة ، واحتفظت
بثلاث غرف . غرفة لها وغرفة لرتيبة وولديها وغرفة لسعد زغلول ، وخصصت
كل غرف الدار وصالوناتها وحديقته لمكاتب الثوار !

وكتبت السيدة سيزا نبراوى التى عاصرت الثورة فى مذكراتها التى نشرتها
فى مجلة المصور فى ٧ مارس سنة ١٩٦٩ تقول :

« لقد تعرف العالم على المرأة المصرية كائسانة وكرائدة منذ ثورة ١٩ .
وأذكر موقف السيدة صفية زغلول زوجة سعد زغلول حينما نفى زوجها
ومنعها الانجليز من اصطحابه الى المنفى . وكان لهذا المنع اثر فى تذكىة الثورة
فى النفوس المصرية . وهذه نبذة من بيانها الذى اذاعته على الشعب بعد نفى
سعد » .

« أبناء وطنى » .

« لما رأيت الجنود يطوفون بالبيت ، ويملاؤن الحديقة ، وينتزعون سعدا ،
كان أول شعور قام فى نفسى أن اتبعه خطوة فخطوة ، إنما شاءت القوة أن
تذهب به . فلما رأيتم تقتلون من أجله ، تحول إليكم فجأة كل حبى .
واحساسى . وشعرت من أعماق قلبى بأنى غير مستطبعة أن أترككم فى مثل هذا
الوقت العصيب . وبأن واجبى أن أقاسمكم حضا شاعته الأقدار لكم .
« ولئن كانت خدمتى لسعد لازمة ، وهو محتاج اليها الآن حاجة قصوى .
فأنا أعلم انه عن مسلكى راض . وبهذه التضحية مغتبط . لأنه ضحى من أجل
الوطن بكل شىء . بسكينة وارتياح .

« ابنائى البررة ! لقد أثبتتم أنكم مستعدون لبذل دمائكم فداء للوطن ، حتى
لو لم يكن فى ذلك البذل إلا أن تثبتوا للعدو أنكم بوسائل تفضلون الموت على أن
تعيشوا عبيدا أذلاء » .

« وكان لهذا البيان فعل السحر فى الشعب المصرى » .

... فإرسل لورد اللنبى الى وزارة الخارجية البريطانية يقول :

« مدام زغلول باشا نشرت بيانا من نار . هذه المرأة أقوى من ألف رجل .
أرى أن وجودها فى مصر خطر . أرى السماح لها بالسفر مع زوجها . »

وجاء رد وزارة الخارجية البريطانية بالسماح لا
زوجها ..

فقالت أم المصريين :

« لا .. سعد ذهب .. وأنا هنا مكانه ! »

وهكذا وقفت صفية صغية زغلول في الثورة موقفا فيه
بطولة . واستطاعت هذه المرأة أن تلهب مشاعر
الأطفال ، فتلهب بطولتها حماسهم ، ويشعل
صيحاتها في الجماهير شعارات ترفعها المظاهرات ،
وطلقات الرصاص .

وما كان سعد يتخيل هذا وهو يعد للثورة ، و
أن يتزوج من فلاحه مصرية لتنجب له ولدا !

○ ○ ○

● الفصل السابع ●

وإذا كان الفلاح في سعد زغلول جعله يحس وهو يعد للثورة ١٩١٩ بما يحس به القروى الأمى ، الذى يزدع أرضه بالفاس والمحراث . ويفتقد العزوة والقوة . ويفكر في أن ينجب ولدا . كما يفكر القروى البسيط في أنه يحتاج الى أبدي عاملة في حقله ، يحتاج الى ولد يساعده ، يحتاج الى ابن يعيش فيه بعد موته ، يحتاج الى العزوة والعشيرة في قريته ، في شخص أولاد من صلبه ودمه . فإذا لم تنجب زوجته التى يجبها هؤلاء الأولاد الذين يشدون أزره ويحمون ظهره . ويدافعون عن أرضه ، بحث عن زوجة أخرى تجيء له بأولاد يصنعون له العزوة التى يفتقدها ، ويحققون له العشيرة التى هو في حاجة اليها لتحمي أرضه . وكان جبه للأرض أقوى من حبه للمرأة !

إذا كان هذا هو الفلاح في سعد ، يطل من داخله في لحظات غريبة . وغير منتظرة ، فإن الفلاح فيه كان يطل من داخله في أماكن غير منتظرة وغير متوقعة ، كان هذا الفلاح يطل من داخله وهو جالس يتصنر مائدته الفخمة ذات الطراز الأوروبى في قصره الضخم الذى يشرف على ثلاثة شوارع في وقت واحد . كان ذلك عندما تراه أسرته يتوقف عن الطعام لحظة . ويسرح قليلا ، ويتحدث فجأة عن حنينه الى فحل البصل الذى كان يأكله وهو طفل يجلس حافيا على التربة في قريته إبيانة ، او يتغنى بطعم عود السريس الذى يفضل مذاقه على طعم « الأسبرج » المستورد من باريس .. وكان إذا أراد أن يتخذ قرارا جريئا في حياته ، وأحس بشيء من الحيرة والتردد . اتجه الى الريف . كأنه يستلهم من الأرض وحيا . ومن جو الريف قوة ، ومن رائحة المزروعات عطرا يجعله ينتشى ، ومن ماء التربة الأسن خمرًا تثير فيه الجراءة والشجاعة والأقدام . وكان يمشى بين الحقول متاملا فيها ، وكأنه ينظر الى « سينما سكوب » يرى فيها مصر كلها . ويحدث في عيدان الذرة ورعوسها المذهبة وكأنه يستعرض جنودا مسحورين يحملون أسلحتهم ويبائعونه على المضى وراءه الى ساحة القتال وإذا كان الانسان العادى اذا أراد أن يقدم على مغامرة مجهولة العواقب تجرع زجاجة من الخمر ليستمد من نشوتها القوة والجراءة والاندفاع . فقد كان الفلاح سعد يتجه الى قرية مسجد وصيف او قرية أسرته في إبيانة . او الى عزبة اشتراها في إحدى قرى البحيرة ويبقى بها بضعة أيام قبل أن يتخذ قراره الخطير . فعل ذلك عدة مرات . فعله عندما انضم الى

الثورة العربية ، وفعله عندما قرر تأليف جمعية الانتقام بعد فشل الثورة . وفعله عندما أراد أن يعد لثورة ١٩١٩ . وفعله عندما كان يستعد للقيام بثورته الثانية سنة ١٩٢١ .

وعندما يعود من الريف . كان يبدو رجلا مختلفا عما كان قبل أن يغادر المدينة . يذهب الى الريف متريدا ، ويعود من الريف حازما امره . يدخل القرية مهتما مريضا مهموما ، ويخرج منها صحيح البدن ، سليما معافي ، صلبا صامدا ، كان طين القرية وارتبتها ومياهها غير المقطرة ، ومنظر الفلاحين المسحوقين في جلالبيهم الزرقاء الممزقة وحياة العدم التي يعيشون فيها ، تمنحه قوة غير منظورة . وكان سعد يقول مفسرا ذهابه الى الريف قبل كل معركة ، اننى ارى الله في الريف أكثر مما اراه في المدينة .. !

وكان تعصبه للريف المصرى طابعا يميزه ، ولم يكن يرى في وجوه الفلاحين المسحوقه ضنعهما وهزالها . وانما كان يرى كفلاح ، روح التصميم والقدرة على الصمود . وكان رأى المثقفين دائما أن الفلاح المصرى لا يمكن أن يثور . انه لم يشترك اشتراكا فعليا في ثورة عرابى . ان حركة مصطفى كامل انحصرت في المدينة . ولم تستطع أن تمت جذورها الى الريف الا يوم وفاة مصطفى كامل ! ولعدة يوم واحد ! ولكنه كان يؤمن بأن ثورة لا يشترك فيها الفلاح المصرى لابد أن تولد ميتة . ثورة الفلاحين اعصار يقتلع كل شيء . وثورة الافندية وحدهم زوبعة من تراب !

ولعل القصة التى رواها الأستاذ كامل سليم في مذكراته تعطى صورة لتعصب سعد للريف المصرى .

كان سعد يستقل القطار من مدينة لندن في عام ١٩٢٠ مغادرا انجلترا بعد مفاوضاته مع لورد ملزر . وكان الانجليز قد حاولوا ان يبهروا سعد زغلول بعظمة مدينتهم ، فدعوه الى اكبر القصور . واقاموا له اعظم المآدب . ومع ذلك كان يشعر بأنه يختنق في اكبر مدن العالم في تلك الايام ، كان تعسا غاية التعاسة . بائسا كل البؤس ويقول سكرتيره : « وبعد دقائق معدودات . كان القطار يطوى الأرض طيا ، وسط المزارع المزهرة الجميلة . والمراعى الخضراء النضرة ، ونظرت الى سعد . وكنت جالسا امامه ، فوجدته غارقا مستمتعا ، ثم افاق بعد قليل ، وابتمسم ابتسامة الرضا وقال :

« اشعر الآن بمزيد من السعادة ، سعادة السجين المعذب الذى انتهى عذابه ، وخرج من السجن طليقا ، يذهب الى حيث يشاء ، فاستعاد حريته ، واوشك ان يستعيد صحته ، واصبح يجد متاعا في كل ما يراه من آيات الله » ثم بدا سعد يتحدث حديثا عذبا عن ايام صباه . وعن حبه العميق للريف المصرى .

ومكث يتحدث عن هذا طول رحلة القطار !
ثم روى السكرتير كيف زال عن نفس سعد كل ضيق وكدر ، وانشرح صدره ، وتنفس الصعداء . وعاد الابتسام الى وجهه الحزين ، اذ لم يبتسم مرة واحدة طوال فترة المفاوضات في لندن . كل هذا الكابوس الخائف الثقيل قد انجاب عنه فجأة ، بقدرة قادر .

وعاد سعد باسما كمن يستقبل الحياة بوجه جديد . « !
كل هذا التحول عاد إلى الرجل عندما امضى بعض ساعات يتحدث عن الريف المصرى وعن ذكرياته فيه . ذلك لأن القرية المصرية كانت هواه الكبير ! ولا يمكن لرجل ليس فيه هذا الهوى كله ويرى روعة الريف الانجليزى ، ومناظره الخلابة ، وحقوقه الأنيقة .

وسهوله الجميلة ، وبيوته النظيفة فلا يستهويه كل هذا ، ولا يرى الجمال الا فى قريته المهملة المسحوقة ، وفى الفلاحين شبه العرايا ، وفى بيوتهم المهذمة ! »

ويمضى سكرتير سعد فيقول : إنه فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى رأى سعد وعلى وجهه ابتسامة عريضة تدل على السرور ثم أخبرنى انه مسرور ، لأنه استطاع أن ينام ليلة امس أربع ساعات متتالية . وهذا شيء نادر جدا بالنسبة له ، وأنه لا يذكر اخر مرة تمتع فيها بمثل هذا النوم الطويل ، وقال إنه استيقظ منشريح الصدر وفى نشاط ، بعد أن كان يصحو فى لندن كل صباح ، وهو متعب . متخاذل الأعضاء شديد الانقباض ، ثم ادهشنى انه اعد نداء الى الامة ، وقد بدأ كتابته ابتداء من الساعة السابعة صباحا !

هذا هو وصف سكرتير سعد له ، وهو يقارن بين حالته وهو فى اكبر مدينة فى العالم فى تلك الايام ، ثم حالته بعد أن تركها وراح يتأمل الريف الانجليزى الرائع فلا يرى فيه الا ما يذكره بالريف المصرى . وإذا بالحديث عن الريف المصرى هو الاكسبر ، الذى يعيد للرجل المهتم شبابيه . ويرفعه من حضيض الياس الى سماء الامل . ويحول الهزيمة فيه الى الانتفاض . فهو يستمد قوته من هذه الارض . طين القرية الرخو يمنحه صلابته . ماء الترعة الآسن فيه طعم الذ من طعم القبلة من قم اجمل امرأة فى العالم . يسقيه ويرويه ويملا روحه بالقوة ، ونفسه بالايمان . وقلبه بالاقدام . فيرى بلده القزم عملاقا . ويرى اكواخ قريته المهذمة وبيوتها المبنية بالطين كانها القلاع والحصون القادرة على الصمود امام مدافع اقوى إمبراطورية فى العالم فى ذلك الحين . ولقد كان إيمانه بقوة الفلاح المصرى . يذهل اصداقائه الذين درسوا الريف وعرفوا ما فيه من مرض وفقر وجوع وعدم . ولكنه كان دائما يقول ان ثورة

تقتصر على المدينة أشبه بالحب الأفلاطونى الذى لا يلد شيئا . ولكن ثورة تمتد الى الفلاحين هى التى تخصب وتلد وتؤدى الى نتائج !

ولقد كان إيمانه بالقوية المصرية وحبها . واعتزازه بالفلاح المصرى وإيمانه به . هى اكبر أسرار نجاحه ، ولعل هذا أيضا هو الفرق بينه وبين الذين نافسوه على زعامة مصر . فبينما كان سعد ينقبض من الحياة فى مدينة لندن العظيمة . كان منافسه عدلى يكن باشا يحرص على الا يتولى كى ثيابه الا اشهر مكوجى فى لندن ، وكان يرسل ملابسه بانتظام من القاهرة الى المكوجى الخاص بكى ملابس اللوردات والدوقات والأمراء الانجليز ! وبينما يصرح سعد وهو رئيس وزراء مصر فى حديث لصحيفة التيمس اللندنية بأنه فلاح ابن فلاح . وأنه ليفخر بأن أغلب أقاربه لا يزالون الى اليوم يرتدون الجلابيب الزرقاء واللدية والطاقيه ، ويحملون القفوس . كما هو فخور بأن يكون زعيم الجلابيب الزرقاء . وبينما سعد يصرح بهذا ، كان عدلى يكن باشا يفخر دائما بأنه من اصهار الاسرة المالكة . وأن اسم « يكن » بالتركية معناه صهر السلطان !

وبينما كان سعد يتباهى بأنه كان يذهب حافيا الى « الكتاب » ويجلس على الأرض ويضربه العريف الشيخ عبدالحفيظ ، وأنه درس فى الأزهر مجانا ، وعاش سنوات على القول والبصل والطعمية .. كان عدلى يكن يتباهى بأنه لم يدخل اى مدرسة مصرية وأنه تعلم فقط فى مدارس « الفرير » !

وبينما اسرة عدلى يكن تحمل أسماء تركية مثل مدحت وجليباظ وجلوستا وباكيناز . نجد أن بين اخوات سعد زغلول من يحملون أسماء الشناوى وشلبى وستهم وفرحانه وشلبية . وغيرها من أسماء الفلاحين والفلاحات المصرية العربية الصميمة .

ولهذا لم يكن عجا أن يفخر الرجل وهو جالس بين افراد أسرته بانتسابه الى الفلاحين . وكان يشعر دائما بأن شيئا يجذبه الى أرض الريف والى ذكريات الريف . وكأنه يخل له وهو يقف فوق هذا الطين كأنما تزداد قامته ارتفاعا بينما كان غيره يتكبرون لاصلهم الريفى ويخشون الوقوف فوق هذا الطين حتى لا يغوصوا فيه !

وكان سعد عندما يتحدث عن جلابيته الريفية والطاقيه اللتين يرتديهما فى إبيانه كان يتحدث عنهما بحنين عجيب ، وقد ظل يحتفظ بالجلابية التى جاء بها الى القاهرة . وكان يعلقها بجوار ثوب التشريفه الموشى بالقصب والمرصع بالاوسمة والنياشين ويتدلى منها سيف ذهبى بدولاب فى غرفة مجاورة لغرفة نومه ، وكأنه لا يريد أن ينسى أنه مدين ببذلة رئاسة الوزراء الى جلبابه وهو

فلاح ! فإذا عاد الى بيته خلع طربوشه . وارتنى الطاقية ، وكان يقول انه يفكر وهي فوق رأسه خيرا من تفكيره وهو تحت الطربوش ، ولعله تحت الطاقية يحس كأنها تحمله الى الريف . فيشعر بأنه أصبح أقوى مما هو ، تماما كما يشعر الملك بالسلطان والجبروت عندما يضع على رأسه التاج ! وكان من اعذب أحاديثه ذكرياته عن « الكتاب » الذى كان يتردد عليه فى قريته إبياته حيث يجلس على الأرض ، ويحفظ القرآن ، ويتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، ويصف الفلقة أو العصا التى طابا ذاق ضرباتها على يد الشيخ عبدالحفيظ عريف الكتاب ، كلما أخطأ فى اللغة العربية .

وروى يوما للتوامين الصغيرين انه احتج مرة لأن الشيخ عبدالحفيظ ضربه ضربا مبرحا ، وذهب يشكوه الى أخيه الأكبر الشناوى زغلول ، وتصور سعد أن الشناوى سيذهب فى اليوم التالى ويضرب الشيخ عبدالحفيظ انتقاما لأخيه الصغير ، ولكن الذى حدث كان عكس ذلك تماما . فإن الشناوى صحبه الى الشيخ عبدالحفيظ وقال له : انك لاتضرب سعد ضربا كافيا ، وعليك أن تزيد ضربا ليزداد علما وعمل الشيخ عبدالحفيظ على تنفيذ نصيحة الأخ الأكبر وصدقت نبوءة الشناوى فقد أصبح سعد زغلول أنبغ تلاميذ الشيخ عبدالحفيظ وصحبه أخوه الشناوى الى القاهرة وادخله الأزهر .

وذكر سعد زغلول للتوامين انه لايزال يذكر أول يوم رأى فيه مدينة القاهرة وكيف ، أحس بالسعادة عندما صحبه الشناوى الى قهوة متاتيا فى ميدان العتبة الخضراء الذى بدأ فى عينيه أكبر مائة مرة من مساحة قريته إبياته ! وجلس الشناوى مع بعض معارفه ، وسألوه ماذا يطلب ؟ فطلب الشناوى شيشة ! والتفتوا الى سعد الصغير يسألونه ماذا يطلب ؟ عرقسوس ؟ تمر هندي ؟ وتمنى سعد فى تلك اللحظة أن يطلب « لكوم » وهو الاسم الذى يطلق على حلوى اللبن ! وقبل أن يفتح سعد الصغير فمه ليطلب اللكوم ! اعترض أخوه الشناوى وقال :

- ليس من حق سعد أن يطلب شيئا فى القهوة . الا عندما يستطيع أن يدفع من عرق جبينه ثمن ما يأكله !

ووجع سعد ، وماتت كلمة « لكوم » فوق شفثيه ، وشعر بالضيق الشديد ، ولكن هذا الدرس رسب فى نفسه ، وأصبح يفكر دائما فى أن يدرس ويتعلم وليكسب قوته بعمله . حتى يستطيع أن يجلس فى قهوة « متاتيا » ويطلب « واحد لكوم » ! وارتبط اسم قهوة متاتيا بحياة سعد وتاريخه ، ولكن عندما جاء اليوم الذى أصبح يستطيع فيه أن يجلس فى قهوة متاتيا ، لم يذق « اللكوم » الذى تمناه وهو صغير ، وإنما ذاق شيئا كان فى شفثيه أحلى من

المخين والعرقسوس والتمز هندي . ذاق لأول مرة طعم الثورة . وظل هذا الطعام . الذي ذاقه في قهوة متاتيا عالقا بشفتيه الى أن لقي ربه !
ففي قهوة متاتيا التقى الطالب الشاب الأزهرى سعد بالزعيم الثائر جمال الدين الأفغاني . وسمع منه لأول مرة في حياته كلمة « ثورة » . سمع أن من حق الشعوب المغلوبة على أمرها أن تثور على حكامها الظالمين المستبدين . سمع أن الشعوب التي يدوسها الطغاة بالأقدام قادرة على أن ترفع رأسها ، وتقتلع هؤلاء الطغاة من عروش جيروتهم . سمع أن الملايين المقيدة قادرة على أن تحطم سلاسلها وتنقض على جلاذيتها . وأصبح يتردد على قهوة « متاتيا » كل مساء . لياكل نوعا جديدا من اللكوم من شفتي الشيخ الثائر .

وكان زملاء سعد في الأزهر وفي « الربع » الذي يقيم فيه يترددون في الليل على قهاوى حى الحسين يشنفون أذانهم بالمواويل البلدية . أو يحضرون حفلات الذكر أما سعد فإنه كان يتسلل وحده الى قهوة متاتيا .

كان حديث الأفغاني هو موسيقاه التي تطربه . كان كلامه عن الثورات يجعل سعد يهز رأسه بعنف كما يفعل زملاؤه في حفلات الذكر ، فقد كان الأفغاني كل ليلة يوزع السعوط بيميناه ، والثورة بيسراه ، الكلمات تخرج من شفتيه كالقنابل . والنظرات تنبعث من عينيه كالشرار !

وسمع سعد ذات ليلة الأفغاني يقول : أنت أيها الفلاح المسكين الذي تشق قلب الأرض لتأكل مايمسك الرمح ، لماذا لاتشق قلب ظالمك ؟ لماذا لاتشق قلب الطغاة الذين أكلوا تعبك وعرقك ودمك !

واستقرت هذه الجملة النارية في قلب الشاب الصغير . وكان يقول لأسرته بعد ذلك بعشرات السنين أنه في تلك الليلة تصور أنه يرى المسكين بين أسنان الأفغاني ، وأنه أعطاهما له . وأنه خباها تحت عباءته . ثم أمضى حياته بعد ذلك يبحث عن أيد تحمل هذه المسكين !

كان يقول إن هذه الجملة النارية هي التي صنعت منه ثائرا ، هي التي هزته كما هزته رؤية أبيه وهو ينزع المفتش التركي من فوق حصانه الأبيض . هي التي دفعته وهو طالب في الأزهر الى أن يؤلف جمعية سرية تطالب بثورة فيه . وكان يخرج من غرفته في الليل متسللا في الظلام . وهو يخفي وجهه في عباءته . ويلصق بنفسه المنشورات الثورية التي طبعها . فيغطي بها أعمدة الأزهر وجدرانه . منشورات تطالب بأن يتعلم الطلبة الحرية كما يتعلمون الدين لأن ديننا هو الحرية . مناديا بأن يدرس المشايخ للطلبة أصول الشورى كما يعلمونهم الفقه ابن مالك . مطالبا بادخال تاريخ الشعب المصرى بين مواد الدراسة الى جانب الفقه . ليعرف الأزهريون أنهم همزموا نابليون . وقاوموا

الاستبداد . وأن واجبههم مقاومة كل نابليون جديد !
هذه الجملة النارية هي التي صنعت منه ثائرا في ثورة عرابي ، يؤلف
الخلايا السرية ، ويتزعم شباب الثورة فإذا فشلت الثورة وقبض الانجليز
عليه وجردوه من السكين ، خرج من السجن مشردا وانتزع السكين من
جديد ، والى جمعية سرية جديدة باسم « جمعية الانتقام » هدفها الانتقام من
الذين تعاونوا مع جيش الغزاة ، وخانوا الثورة ، وكانوا سبب الهزيمة
الكبرى .

لم ينس سعد هذه الجملة النارية قط ، وقبل ذلك عندما أمر الخديو توفيق
بنفى جمال الدين من مصر بحجة « أنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي
الطيش ، مجتمع على فساد الدين والدنيا » . عرض جمال الدين على سعد أن
يصحبه الى منفاه . فقال له سعد : ان واجبي أن أبقي في مصر لأفسد دينهم
المزيف وديناهم المزيفة .. واجبي أن أبقي لأشوق قلب الظالمين ! ان مصر تحرر
في مصر ولا تحرر في باريس !

وابتسم الافغانى ولم يقل كلمة واحدة وانما اغرورقت عيناه بالدموع .
وكانت هذه الدموع هي تحية وداع الفيلسوف الثائر لأصغر تلاميذه سنا .
وسرعان ما قبض الانجليز على سعد . وأودعوه السجن بعد أن كشفوا سر
جمعية الانتقام . وخرج سعد من السجن فوجد زعماء الثورة قد تشردوا في
المنافي والسجون والمعتقلات . تنكرت الدنيا للثوار المهزومين . أصيب رجالها
ببأس قاتل مرير . جثا بعض قادتها على أقدام الغزاة يستغفرون لجريمة
الدفاع عن وطنهم . سارع آخرون الى الخديو الذى اتهموه بالخيانة ، يعلنون
توبتهم ويعاهدونه على ألا يذكروا على شفاهم كلمة حق الشعب المصرى في أن
يحكم نفسه بنفسه .

ويروى سعد أنه في تلك الأيام تلقى كتابا سريا من صديقه الشيخ محمد
عبد في باريس يبلغه أنه مختلف مع جمال الدين الافغانى . الافغانى يريد
مواصلة الثورة . لأن الثورة إذا توقفت ماتت . وأن في إمكان خمسة رجال أن
يصنعوا ثورة ! ..

وكان من رأى الشيخ محمد عبده أن واجبنا أن نراجع أولا اسباب الفشل .
أن نذهب إلى مكان بعيد غير خاضع لسلطان الانجليز ولا لسلطان الأتراك . أن
نجلس في هدوء ندرس أسباب الهزيمة . أن ننشئ « مدرسة للزعماء » . نحن
في حاجة الى زعماء متعلمين . سر فشل ثورتنا أن زعماء الثورة كانوا جهلاء .
الثورة علم كالهندسة والجغرافيا ، لابد من مدرسة للزعماء !
فقال الافغانى غاضبا : مدرسة للزعماء ؟ !! إن عندك في مصر سعد زغلول

واخوانه الثوار ، هؤلاء ليسوا في حاجة الى دخول مدرسة ليصبحوا زعماء
ثورة !

وقال سعد زغلول لأسرته انه مع شدة حبه للأفغانى واعتزازه براهيه ، كان
يوافق الشيخ محمد عبده على وجهه نظره . ان جمال الدين لم يكن في مصر
عندما قامت ثورة عرابى . وعندما فشلت هذه الثورة . لم يعرف ما نعرف عن
هزيمتنا السريعة . لقد تخيلت عقب خروجى من السجن في المرة الثانية عقب
براغى لعدم كفاية الأدلة في جريمة تأليف جمعية الانتقام ، تخيلت أن أقدر
الناس على الثورة هم بقايا الثوار . وكانت هذه الفكرة هى محنتى الكبرى . لم
البت أن اكتشفت أن لكمة الهزيمة أصابت العرابيين بدوار دائم . كثير منهم
لم يستطع بعد عدة سنوات أن يقف على قدميه . الهزيمة سحقتهم . خيبة
الامل قلبت بعضهم من النقيض الى النقيض . الشجعان القدماء حولتهم
الصدمة الى جنباء متخاذلين . العمالقة أصبحوا أقزاما . الأقوياء أصبحوا
ضعفاء . إغلبهم فقد الثقة بنفسه . وفقد الثقة بمصر كلها !

كان شيخ الهزيمة يعيش في داخلهم . لم يروا الهول بل عاشوه . راوا بعض
قادة الثورة يتهاونون قبل أن تنهال المطارق على رؤوسهم . ان انعس حياة هى
حياة الثوار المهزومين . أنهم يهزمون أنفسهم قبل أن يهزمهم المنتصر ، ياكل
بعضهم بعضا قبل أن تاكلهم مدافع العدو وتبتلعهم سجونهم ومنافيه . جو
الهزيمة حولهم يختقم . ظلام الفشل يعميهم . ولست ألومهم فقد راوا
بأعينهم احتفالات تقام للمحتلين ، وأقواس نصر يمر من تحتها الغزاة
الفاثون . وسمعوا بأذانهم الذين هتفوا لعرابى يلعنونه ، والذين نظموا في
بطولته قصائد الغزل . يسبونهم ويشتمونه . راوا بعض الذين داسوا التاج
بالأقدام قد رفعوه فوق رؤوسهم . راوا منشورات الثورة تحرق في الشوارع .
أوا كثيرين أنكروا ماضيهم . وتكروا لمبادئهم ومعتقداتهم .

وأحسست على الفور أن الثوار المهزومين هم آخر من يصلح لقيادة ثورة
جديدة . ان الذى غرق في صباه في الترفة يعيش طول حياته يفزع اذا رأى
البحر من بعيد . ان الهزيمة لا تقضى على الجيش وحده . انها تقضى على شئ
أهم من الجيش وهو الأخلاق . يتخلق المهزوم بأخلاق العبيد ليعيش !
يتهاوى الذين يرفعون رؤوسهم ويطالبون بالحرية ويركعون على أقدامهم
يطالبون بالطعام . وطالب الحرية مرفوع القامة وطالب القوت محنى الرأس .
الفرق بينهما كالفرق بين الفارس والشحاذ . والويل لنا عندما يتحول الفرسان
الى شحاذين . فهم يحكم طبيعة تكوينهم لا يعرفون أنصاف الحلول . بقدر
جبروتهم القديم يكون خنوعهم الجديد . وأفجع من كل هذا أنهم في هوانهم

هذا لا يعترفون بمسئوليتهم عن الهزيمة ، ولا يحاولون ان يقفوا على اقدامهم من جديد ، وانما يكتفون بالقاء اللوم على غيرهم ، وهم يزعمون على بطونهم وهكذا عشنا فترة يلقي فيها الجيش اللوم على الشعب . ويلقى الشعب اللوم على الجيش ، ويعزو الجنود الهزيمة الى القادة ، ويؤكد القادة ان الجنود هم سر الهزيمة ، والحقيقة اننا جميعا شركاء في الهزيمة ، فقد كانت أكبر من ان يتحملها فريق دون فريق .

وبقى الافغانى مصرا على رايه . مصرا على ضرورة استئناف الثورة فورا . وكان يقول للشيخ محمد عبده : لو قابلت سعدا لأقنعتة بان يقود الثورة .. اما انت فمبثط للعزائم !

ومضى سعد يروى لأسرته :

- وكان جمال الدين يرسل الى بعض الرسائل من منفاه ، وكان يكتب في بعضها جملة « لاتنس السكين » ! وكنت امزق هذه الرسائل ، لأننى كنت اتوقع في كل يوم ان يفتضح امرى . وان يفتش بيتى ، ولهذا كان من عادتى الا احتفظ باوراق هامة . حتى مذكراتى كنت ادونها بطريقة أفهمها ولا يفهمها غيرى . وقبل وفاة جمال الدين الافغانى بعام تقريبا : وكنت مستشارا بمحكمة الاستئناف . تلقيت منه رسالة سرية يدعونى لمقابلته فورا في الاستانة . وسافرت الى الاستانة . وكنت غير راض عن تصرف استاذى جمال الدين الافغانى لأنى فوجئت به يبايع السلطان عبدالحميد سلطان تركيا المستبد بخلافة المسلمين .

وقلت له : كيف تباع طاغية .. يامولانا ؟؟

قال جمال الدين : بايعته لينهض بالمسلمين ويقاوم طغيان اوربا ومكائدها . قال سعد : لقد علمتنا يامولانا ان الطغيان لا يقاوم بالطغيان .. الطغيان لا يقاوم الا بالحرية .

قال جمال الدين : صدقت يابنى ! انك قد حفظت الدرس .

قال سعد : انك قلت لنا يامولانا ان فاقد الشئ لا يعطيه . اننا لا يمكن ان نصنع من الطغاة احرارا . قد يتكلم الطغاة لغة الحرية . ولكن الاستبداد يجرى في عروقهم بدلا من الدم !

قال جمال الدين الافغانى : خدعنى السلطان عبدالحميد ، اوهمنى بأنه مقتنع بأراشى في الدستور وحكم الشعب . اعترف بان الاسلام اول من دعا الى الشورى ووعد بان يطبق الشورى والحرية في كل بلاد الشرق التابعة لتركيا ، ثم اكتشفت ان هذا السلطان جبان . لم يجرؤ على مواجهتى بأرائه الحقيقية التى يؤمن بها وهى الطغيان والاستبداد . فكان السلطان يوافقنى وأنا معه : فإذا خرجت من مقابلته عاد طاغية مستبدا فاجرا من جديد .

وقد ذهبت اليه في قصره وقلت له : إننى لأستميح جلالتك في أن تقبلنى من بيعتى لك . لانى رجعت عنها . نعم انا بايعتك بالخلافة والخليفة لا يصح أن يكون غير صادق الوعد .

وسكت الأفغانى ونظر الى سعد طويلا ثم قال :
- أنت على حق ياسعد .. ان الملوك لايصنعون الثورات وإنما يخدمون الثورات . الشعب هو الذى يلد الثورة . والحاكم هو جلاها !
ثم التفت جمال الدين الأفغانى الى سعد وقال له :

- ومتى تنور مصر ؟
قال سعد : عندما تستعد للثورة ، وتجد قائدا .
قال الأفغانى وهو يضع يده على كتف سعد :
- أنت ستكون قائد هذه الثورة !
قال سعد ضاحكا :

- أنا يامولانا ؟ لقد خرجت منها وأنا أحد جرحاها ! ولايزال دم الطغيان ينزف منى !

قال الأفغانى : ان الجروح هى التى تصنع قادة الثورات . والذين لم يتعذبوا ولم يذوقوا السجن والطغيان والهزيمة والفشل ، لايمكن أن يقودوا ثورة حقيقية ! لاتنس ياسعد السكين ! لاتنسى الكلمة التى قلتها لك : لماذا لاتشق قلب ظالمك ؟

وكان سعد يقول لأسرته أن جمال الدين الأفغانى مات دون أن يشهد الثورة التى يحلم بها . الثورة التى توقظ الشرق كله . انه مات قبل قيام ثورة ١٩١٩ باثنين وعشرين عاما . ولكن الشيء الذى كان يذهل سعد أن جمال الدين مات يوم ٩ مارس سنة ١٨٩٧ وثورة مصر انفجرت في ٩ مارس سنة ١٩١٩ . نفس اليوم الذى مات فيه القائد الروحي للثورة . هو نفس يوم انفجار هذه الثورة ! ولكن الثورة لم تكن فورا كما أراد جمال الدين . وإذا كان الأفغانى قد رفض اقتراح الشيخ محمد عبده بإنشاء « مدرسة للزعماء » . فإن سعد زغلول أنشأ هذه المدرسة . وبدأ هذه المدرسة بتلميذ واحد هو سعد زغلول نفسه . وكانت الطريقة البطيئة التى اختارها سعد لإنشاء مدرسة الزعماء تدل على الصبر الغريب الذى ورثه عن أمه ، فبدأ يقرأ عن الثورات التى نجحت . ويقرأ عن الثورات التى فشلت . يقرأ تاريخ مصر . يقرأ الجبريتى . يدرس قصة كفاح شعب مصر ضد الأتراك وضد نابليون وضد المماليك . يلثم كتب تاريخ الثورة الفرنسية وأفكار فلاسفتها . ويدرس كل ما كتب باللغة العربية عن نهضة اليابان .

ولكنه مع كل هذه القراءات بقى متأثرا بالجملة البارية التى سمعها من جمال الدين الأفغانى عن قدرة الفلاح المصرى على شق قلب ظالميه ! .. لقد عاش دائما يفكر ويحلم كيف يشق قلب ظالميه ! قلب التركى الذى جلد أباه . قلب كل من يمتطى حصان الحكم ، ويحاول بالكرباج أن يذل الفلاحين ويستعبد المصريين . مهما كانت جنسية هؤلاء الحكام : مسلمين أو غير مسلمين . مصريين أو غير مصريين . كيف يشق قلب الاحتلال الانجليزى ؟ كيف يشق قلب الخديو الأجنبى ؟ كيف يشق قلب الطبقة المستغلة . من بقايا الأتراك . انه ضد كل طغيان مهما كان اسمه . مهما كانت جنسيته . يرفض أن يعتمد على تأييد دولة أجنبية كبرى . رأى بعينه كيف خذلت تركيا عرابى . وسبرى بعينه بعد ذلك كيف ستخذل فرنسا مصطفى كامل . وكيف ستخذل تركيا مرة أخرى محمد فريد . انه يؤمن بأن مصر لا يحررها الا المصريون . انه ليس مستعدا لأن يستبدل بالسيد القديم سيدا جديدا نكايه فى السيد القديم ! هذه هى عقلية العبيد وليست فلسفة الأحرار . انه ليس مستعدا لأن يستبدل بالطغيان البريطانى الطغيان التركى ، بل هو ليس مستعدا لأن يستبدل بالاستعمار الانجليزى الاستعمار المصرى !

وهو يقول إن الدول الكبرى لاتساعدنا لنستخلص حريتنا من الانجليز . وإنما هى تريد أن تطرد الانجليز لحتلنا بدلا منهم . الدول العظمى ليست جمعيات خيرية توزع المساعدات على المحتاجين فهى جميعا لها مطاعمها الاستعمارية . عسكرية أو اقتصادية او سياسية . كلها تريد أن تاكلنا ! بعضها يريد أن يلتهمنا بأصابع يديه . وبعضها يريد أن يستعمل الشوكة والسكين . ولكنها جميعا تريد أن تلتهمنا ! بعض هذه الدول يكشر فى وجوهنا وهو يلوح بالسوط . وبعضها يبتسم وهو يخفى نفس السوط وراء ظهره ! ومن هنا كان من رأى سعد أن ثورته يجب أن تختلف عن الثورات والحركات التى سبقتها ، فتورة الشعب مثل الثورة فى الشعر والثورة فى الفن والثورة فى الموسيقى . لكى تكون ثورة يجب أن تتمرد على الأشكال والمضامين والمدارس القديمة ، فهى انصهار فكر جديد فى وعاء قديم ، وليست وضع فكر قديم ، وليست وضع فكر قديم فى وعاء جديد . وكما يلغى الفنان التأثير قواعد الخطوط والألوان والنسب ليقوم بثورة جديدة فى الرسم . وكما يتخطى الشاعر التأثير قواعد الأوزان المعترف بها والقوافى المتوارثة ، فيجب أن يتخطى الشاعر الجديد اللغة القديمة والشعارات القديمة فيحول الكلمة إلى صاعقة والشعار إلى إعصار ..

وهكذا بدا سعد يقوم بعمليات « ربط » بين مختلف الاتجاهات والأفكار

باحثا عن لغة جديدة لغة تفهمها الملايين . لغة يفهمها الفلاحون . لغة يفهمها الجيل الجديد الذى لم يهزم فى الثورة ولم يذق مرارة الفشل . ولهذا اتجه الى ثوار جدد لم يهزموا . إن أول ما يفعله قائد الجيش الذى هزم جيشه فى معركة عسكرية أن يجيء بفرق جديدة لم تذوق طعم الهزيمة والانسكار ، لكى تستطيع بهذه الروح الجديدة أن تنتصر فى المعركة التالية . فهو يبحث عن أرواح جديدة لم يسحقها المنتصرون .

وكان عليه أن ينتظر وقتا طويلا حتى ينسى الشعب نكبته ، ويتجاوز هزيمته ، ويتخلص من عقدة المغلوب . ومن طبيعة الناس أن ينسوا انتصاراتهم بسهولة ، وينسوا هزائمهم بصعوبة ، فالنصر على وجه الأمة كالطلاء ، والهزيمة فى وجهها كالوشم . الأيام تزيل الطلاء . والنار وحدها هى التى تحو الوشم ..

وعندما اتجه سعد إلى بقايا الحزب الوطنى السرى الذى ألفه جمال الدين الافغانى فى مصر قبل الثورة العربية ، والذى قاد ونظم الثورة العربية واكتوى بنارها . وكان سعد فى مقدمة أعضائه الشبان . وجد امامه فلاسفة ولم يجد مناضلين . فلاسفة لا عمل لهم الا فلسفة الهزيمة بأنها قدر مكتوب ، وانها إرادة الله ، واننا شعب لانصلح للنضال . وإن أحدا لم يعد يثق بأحد ، وإن كل فرد أصبح يشى باخيه ، ويكيد له عند الحاكم ، كان جثث الأصدقاء والزعماء هى درجات السلم الوحيدة التى يصعد عليها ليصل إلى الحاكم الجديد فى مكانه الرفيع .

واظلمت الدنيا فى وجه سعد . وكان بعد خروجه من السجن على اتصال بالشيخ محمد عبده فى منفاه فكتب إليه ، وهو يرى اثر الهزيمة شائعا فى كل مكان : « مولاي . ذكرت لحضرتك أن الضعف الم بفكرى . فبالله الا قويته بتواصل المراسلة ، غير تارك فيها ما عودتنا عل سماعه من النصائح والحكم التى نهتدى بها الى سواء السبيل ، ونتمكن بها من السير فى العالم المصرى الذى اختلفت حقائقه وعرفت خلائقه .. وما يناسبها من ضروب المعاملة » . ويقول سعد إن الشيخ محمد عبده كتب إليه رسالة سرية من منفاه يقول : « نبدأ من الصفر . إننا فى حاجة الى العلم . هو سلاح الثوار الحقيقى . لولا قادتنا الجهلاء لما كانت هذه الهزيمة الكراء . كانوا يحاربون بدون سلاح . نتعلم أولا . ثم نثور ثانيا . إن الفرق بين الجهل والعلم هو الفرق بين الهزيمة والنصر » .

وهكذا بدأ سعد من الصفر ، واشترك فى تأليف الجمعية الخيرية الإسلامية . وكان الهدف الحقيقى من إنشائها هو إقامة مدارس تنشر العلم

وتقضى على الجهل . مدرسة للزعماء الصغار ! وكان الغرض الثانى من انشائها هو تجميع المصريين . لتعليمهم روح الفريق الواحد . وتعودهم على أن يعملوا معا . ولو من أجل هدف صغير ، المهم أن يحدث تجمع . أن تعقد اجتماعات . أن تحدث مناقشات . أن يتبادل أعضاء الجمعية الراى . أن يعرف بعضهم بعضا أن يتفاهموا . أن يثق بعضهم ببعض فى وقت فقد فيه كل الناس الثقة بكل الناس !

ثم بدأ تأليف الحزب السرى للشيخ محمد عبده . وكان الشيخ هو عميده الدينى ، وكان سعد زغلول عميده المدنى . وهو حزب عجيب لم يعرف به احد ، ولكنه جمع عددا من المصلحين الذين تولوا قيادة الإصلاح فى مصر . وأعضاء هذا الحزب هم الذين حملوا لواء إصلاح الأزهر ، وقاوموا رجعية الخديو . وكان منهم قاسم أمين الذى دعا إلى تحرير المرأة . ومصطفى كامل الغمراوى الذى تبرع بأربعمائة فدان لإنشاء الجامعة المصرية التى دعا سعد زغلول لأقامتها بأموال الشعب مادام الانجليز يرفضون أن تقيمها الدولة بأموال الحكومة .

وكان سعد يروى لأسرته أن كل هذه الاجتماعات لم يجر فيها حديث صريح عن قيام ثورة . بل إن كلمة ثورة لم تذكر فيها قط . ولكنها كانت أشبه بمدارس سخط . سخط على الاحتلال . سخط على طغيان الخديو . سخط على ركوع الوزراء المصريين الضعفاء أمام الانجليز .

وكان سعد يغذى مدارس السخط هذه من وراء ستار بتشجيع الشيخ على يوسف على مهاجمة الانجليز فى « المؤيد » بتأييد مصطفى كامل فى حركته خارج الحدود . بتحريض أحمد لطفى السيد على الهجوم على تبعية مصر لتركيا . والمطالبة بأن تكون مصر للمصريين .

ثم انتقل سعد من مرحلة الهمس برأيه الى مرحلة الجهر به فى المنتديات والمجالس ، وهو مستشار فى محكمة الاستئناف ، حتى أن مصطفى كامل وصفه فى جريدة اللواء بقوله : « إن سعد زغلول معروف فى ماضيه وحاضره أنه أشد الناس تمسكا باستقلاله وحقوقه . وأكثرهم انتقادا على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم . كان فى ماضيه الرجل المستقل الذى لا يخذعه منصب ولا مال »

وكان سعد يقول لأسرته بعد قيام ثورة ١٩١٩ أن أول حديث جدى جرى عن وجوب قيام ثورة فى مصر . جرى فى مكان لا يخطر على بال أحد . فقد وقع على بعد ثلاثة أمثار من مكان يجلس فيه ممثل الاحتلال البريطانى فى مصر . وفى بيت رجل كان يؤمن بالتفاهم الدائم بين مصر وبريطانيا ، وكان يعتبر الحديث عن الثورة فى مصر هو حديث مجانيين !

وكان مصطفى فهمى باشا والد صفية زغلول زوجة سعد هو رئيس الوزراء في ذلك الحين ، وكان الانجليز يثقون به حتى انهم ابقوه رئيسا لوزراء مصر ثلاث عشرة سنة بغير انقطاع . وكان يسكن في بيت في حي باب اللوق بالقاهرة - هو مدرسة الفرير الآن .

وكان سعد زغلول يجلس مع صهره مصطفى فهمى والصاغ عبدالرحمن فهمى الذى كان ياورا لمصطفى فهمى باشا عندما كان وزيرا للحربية . واقبل لورد كرومر المعتمد البريطانى بغير موعد سابق وترك سعد زغلول وعبدالرحمن فهمى غرفة رئيس الوزراء ليجتمع بالمعتمد البريطانى على انفراد . وجلسا في غرفة مجاورة في انتظار نهاية الاجتماع .

وقال سعد لعبد الرحمن فهمى : إن الانجليز يتدخلون في كل شأن من شئون الدولة والخديو يتدخل في كل شأن من شئون الدولة كان هذا البلد بلا صاحب ، وهم يفعلون هذا مطمئنين إلى ان الشعب نائم في سبات عميق .. قال عبد الرحمن فهمى هامسا : لابد من قيام ثورة .. ثورة ضد الانجليز والخديو معا !

ودهش سعد أن يسمع كلمة « ثورة » من فم ضابط رشحه اللورد كتشنر القائد البريطانى للجيش المصرى ليكون ياورا لوزير الحربية المصرى . ومعنى هذا الاختيار انه محل ثقة الانجليز واطمئنانهم . قال سعد : ثورة ؟ من يقوم بها ؟

فقال عبدالرحمن فهمى : ثورة يقوم بها الجيش المصرى ويتولى الحكم ! ولم يكن سعد يؤمن بالحكم العسكرى ، فقد عاش الحكم في اثناء الثورة الغرابية وشهد هزيمته ، ولس الاخطاء التى ارتكبها ، وانقذ مهازل ذلك الحكم وجهله وغروره . واتصل بحكم عمله في الثورة ببعض الضباط فهاله أن فيهم حماسة الثيران وعقول الفراخ . وصيحة الاسود . وصفات الفيران . وأن الأبطال منهم هم الذين ماتوا أو سجنوا أو نفوا .. وأن اعلامهم صوتا كان أسرعهم قرارا من المعركة . وكان من رايه أن الحكم العسكرى اشبه بالسيرك ! له ضجيج السيرك وزيناته ، فيه طيوله وزموره . مواكبه واستعراضاته . له قدرة على اجتذاب المصنفين في الزفة والهاتفين في الحفلة والراقصين في الضوضاء . مع فارق واحد : أن في السيرك يتحكم آدميون في بعض الحيوانات .

وفي الحكم العسكرى يتحكم بعض الحيوانات في كل الناس !
وبومها قال سعد لعبد الرحمن فهمى : ان ثورة الجيش هي استبدال طاغية واحد كبير بعدد من الطغاة الصغار . وأن الثورة الحقيقية لايقوم بها

جيش وإنما يقوم بها الشعب . كل مانريده هو ألا يقف جيش مصر ضد ثورة مصر ! الثورة التي نريدها ثورة فلاحين !

واعترف عبد الرحمن فهمي بأن الانجليز أخرجوا أغلب الضباط الوطنيين من الجيش المصري . وأنه لا يثق إلا بثلاثة من الضباط الشبان في الجيش كله ، ولكنه مؤمن بوطنية الجنود .

وهنا انتهت المقابلة بين لورد كرومر ورئيس الوزراء . وخرج مصطفى فهمي باشا يودع المعتمد البريطاني إلى باب الحديقة الخارجي ..

وقال سعد هامسا في أذن عبدالرحمن فهمي :
للحديث بقية !

واستمر الحديث بينهما حوالي العشرين سنة ..

وكل الحديث يدور حول اجابة سؤال واحد هو : كيف نجعل الفلاح المصري يثور ، ويشق قلب ظالميه !

لا ... ليس الفلاح وحده ... وإنما مصر كلها !

○ ○ ○



●● صورة نادرة تجمع بين زعيم الأمة وأم المصريين ...

● الفصل الثامن ●

كان عبدالرحمن فهمى يتردد على بيت سعد باستمرار . كان الصديقان القديمان بلا عمل . كان سعد أكبر من عبدالرحمن فهمى بعشر سنوات . لم تكن السن وحدها هى الفارق بينهما . كانت فى عبدالرحمن خشونة العسكرى القديم . وكان فى سعد حزم القاضى القديم وعبدالرحمن يطالب بوضعها فى

قفص .

كان سعد يحب المناقشة ويهوى المجادلة . يجد لذة فى مقارعة الحجة بالحجة . كلاعب السيف العبقري يلاعب خصمه حتى يسقط السيف من يد منافسه . ثم ينحنى ويلتقط سيف خصمه ويسلمه له . ويعود إلى مبارزته مرة أخرى .. إلى أن يسقط السيف من جديد . وينتشى وهو يكبر عملية إسقاط السيف من يد خصمه وإعادته إليه إلى أن ينكسر سيف الخصم ويتحطم . أما عبدالرحمن فقد كان يحب إصدار الأوامر ويهوى النظام . ويمقت المناقشة فإذا أمسك السيف بيده قطع به رقبة خصمه .. وهذا الاختلاف فى شخصية الرجلين كان كفيلا بأن يباعد بينهما إلى الأبد . لولا أن ما يجمعهما معا كان اضعاف ما يفرقهما . فقد كان كل منهما ناثرا .

وكان سعد زغلول فى تلك الأيام قد أخرجه الخديو والانجليز من الوزارة . مغضوبا عليه من قصر الدوبارة حيث السلطة الفعلية التى هى سلطة الانجليز . ومغضوبا عليه من قصر عابدين حيث السلطة الشرعية وهى سلطة الخديو عباس . وقد اختلف سعد مع الانجليز لأنه كان مصرا على أن يكون وزيرا بمعنى الكلمة . والا يسمح للموظفين الانجليز بأن يحولوه الى ظروف يحركونه كما يشاءون كما يفعلون مع باقى الوزراء المصريين . واختلف سعد مع الخديو لأنه اتهم أحد رجاله المقربين بسرقة أموال تركة كبيرة كان مؤتمنا عليها .. وكان الخديو شريكا للبائسا المتهم ! وهكذا خسر سعد بلح الشام وغضب اليمين معا !

وكان عبد الرحمن فهمى فى نفس وضع سعد زغلول تماما . فقد أخرجه الانجليز من منصب مدير الجيزة لأنه إصطدم بهم . ورفض أن يركبوه كما يركبون باقى زملائه من المديرين المصريين فى تلك الأيام . وطرده الخديو بعد ذلك من منصب وكيل الأوقاف لأنه اعترض على مسروقات الخديو منها ! وقد كتب عبد الرحمن فهمى فى مذكراته التى طبعها سنة ١٩٣٧ :

« كنت سائرا في جميع اعمالى بالوظائف التى تقلدتها سيرا ماكنت الاحظ فيه الا ارضا ضميرى ، وكرامة المركز . بمعنى اننى كنت اتصرف فى جميع المسائل . كبرت او صغرت . بما يوحى الى الضمير . مع مراعاة القوانين الجارى العمل بها ، وما كنت استرشد برأى مخلوق كائنا من كان ، وهذا للأسف الشديد كان يخالف الطريقة التى كان يتبعها زملائى المديرون فى تصريف اعمالهم . حيث كانوا يستأنسون بآراء المفتشين الانجليز فى كل الاعمال المهمة . وكثير من غير المهمة » !

ولو كان سعد زغلول كتب اسباب خلافة مع الانجليز لما كتب اكثر من هذا ، ولو كان كتب اسباب خلافة مع الخديو لما ذكر إلا ما ذكره عبدالرحمن فهمى عند خلافة مع الخديو اللص الذى يسرق لنفسه أموال الشعب . وهكذا فى سنة ١٩١٣ شعر الرجلان بأنه لهما عدوا مشتركا هو القصر والاحتلال . وإن كل السلطات صاحبة الامر فى مصر ضدّهما .. ولم تبق الا مصر نفسها .. مصر التى ليس لها أى سلطة . ولا أى نفوذ ، ولا أى شان فى حماية ابنائها .

ولكى تصبح مصر سلطة يجب أن تتخلص من الاحتلالين معا . احتلال الانجليز ، واحتلال القصر ..

وكان عبد الرحمن فهمى يعرف ان سعد زغلول هو الذى رشحه مديرا للجيزة فى اجتماع مجلس الوزراء سنة ١٩٠٨ ، وكان يعرف أيضا أنه طرد من منصب وكيل الاوقاف بعد طرد سعد من الوزارة بعام فى سنة ١٩١٣ . فى ذلك العام أصبح سعد عاطلا وعمره ٥٣ سنة ! وأصبح عبدالرحمن فهمى عاطلا وعمره ٤٣ سنة !

وعندما رشح سعد زغلول نفسه نائبا فى الجمعية التشريعية عن دائرتى السيدة زينب وبولاق كان عبدالرحمن فهمى أحد معاونيه فى الانتخابات . والغريب أن سعد وطد صلته بناخبيه فى الدائرتين . وهما نصف مدينة القاهرة وقتئذ . ولم تقطع صلته بناخبيه حتى بعد وقف جلسات الجمعية التشريعية . فعندما قامت ثورة ١٩١٩ بدأت أول مظاهرة شعبية فى الثورة فى حى السيدة زينب . دائرة سعد الانتخابية . وسقط أول شهيد فى دائرة السيدة زينب .

وكان ناخبو سعد زغلول فى دائرة بولاق هم اكبر قوة عمالية هاجمت الانجليز وقتلت عشرات منهم . وكان الشيخ أحمد جاد الله العامل فى العنابر وأحد ناخبي سعد زغلول ، هو زعيم العنابر التى اشترك عمالها فى معارك دامية مع الانجليز ، وكان الشيخ أحمد جاد الله نفسه هو رئيس خلية من أهم

خلالها الجهاز السرى التى لعبت الدور الاول فى اغتيال الضباط والجنود الانجليز ، وعندما قبض عليه بعد مصرع السردار عذبه الانجليز تعذيباً وحشياً ، وكان فى السبعين من عمره ، ولكنه لم يفتح فمه ، ولم يعترف بأنه كان على صلة وثيقة بسعد زغلول من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٢٤ ؛

* * *

وكثيراً ما كان سعد يدعو عبدالرحمن فهمى لتناول الغداء معه فى بيته مع افراد أسرته . وكان الطفلان يلاحظان دائماً شيئاً غريباً . وهو أن عبدالرحمن لم يجيء مرة واحدة الى بيت سعد مع زوجته ، وكان متزوجاً للمرة الثانية . وكان الطفلان يلاحظان أن عبدالرحمن عندما يحضر للغداء كانا يتخليان له عن المقعد الاول فى المائدة على يسار سعد . ويتأخر مكانهما الى المقعدين التاليين ، وكانت صفيّة تجلس فى المقعد المقابل له عن يمين سعد . وكان عبدالرحمن عندما يجلس يضع عينيه دائماً فى الطبق الذى امامه ، ولا يرفعها فى وجه صفيّة ، ولا فى وجه والدتها . وكان لا يوجه الحديث الا لسعد باعتبار أن صفيّة ورتيبة غير موجودتين على الإطلاق !

وكان غريباً فى تلك الأيام أن يدعى رجل من غير افراد الأسرة للجُلوس على مائدة واحدة مع سيدات الأسرة ، ولكن الفلاح الأزهرى القديم سعد زغلول كان لا يجد غضاضة فى أن يجلس أصدقاؤه المقربون مع أسرته لتناول الغداء والعشاء .

وكانت هذه ظاهرة غريبة فى بيت سعد زغلول ! إن معاصريه ما كانوا ليسمحوا لزوجاتهم برؤية أصدقاؤهم ، ولا يذكر أحد من أصدقاء عدلى يكن باشا أنه رأى وجه زوجته . ولا يذكر أقرب صديق لحسين رشدى باشا أنه تناول معه الغداء فى حضور زوجته .. بل الأغرب من هذا كله أن قاسم أمين زعيم تحرير المرأة . كان يتردد باستمرار على بيت سعد زغلول ويتناول الغداء معه ومع صفيّة ، ولكن زوجة قاسم أمين لم تحضر هذا الغداء الدورى مرة واحدة !

ويذكر الطفلان بعد وفاة قاسم أمين بعشر سنوات أن زوجته كانت تاتى بين وقت وآخر لزيارة صفيّة زغلول ، فلا تكشف وجهها امامهما ، بل انها إذا تناولت الغداء مع صفيّة ، كانت تعد لها مائدة فى غرفة أخرى ، وتناول سعد الطعام وحده ، ذلك أن قاسم أمين الرجل الذى دعا المرأة المصرية الى نزع الحجاب فشل فى إقناع زوجته بأن تنزع حجابها ، وظلت متمسكة بوضع الحجاب على وجهها الى ما بعد أن نزلت اغلب المصريات حجابهن ! وكان أكثر ما يؤلم قاسم أمين .. أنه لم يفلح فى إقناع زوجته التى تقيم معه فى بيت واحد بالرسالة التى آمن بها !

ولم يكن موقف زوجة قاسم أمين شاذاً في ذلك الوقت عند المجتمع الذي عاشت فيه . فإن قاسم أمين كان يروى أنه حضر ذات يوم اجتماعاً في بيت سعد زغلول كان يحضره الامام الشيخ محمد عبده .
وفجأة دخل أحد رجال الدين يلطم خديه ويشق عبايته حزناً على ما يجري للاسلام ! وطلب رجل الدين من الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في ذلك الحين أن يفتى بأن يحل دم ابراهيم الهلباوى بك نقيب المحامين . بعد أن ثبت عليه الكفر والالحاد وحلت عليه لعنتا الأرض والسماء .
فقد أقسم شهود عدول أنهم رأوا ابراهيم الهلباوى يركب عربة حانطور بجوار زوجته في محطة مصر !

ذلك أن رجال الدين اعتبروا ركوب رجل مع زوجته في عربة حانطور فعلاً فاضحاً في الطريق العام ، والمفروض أن يركب ابراهيم الهلباوى بك في عربة حانطور ، وتركب زوجته في عربة « كوبيل » مسدلة الستائر ومغلقة النوافذ !
وروى قاسم أمين أيضاً أن زوجة أحد الوزراء في ذلك الحين مرضت .. فدعا الزوج الوزير أحد الأطباء لفحصها . ودخل الطبيب الغرفة فوجد سريراً وبجواره أحد الأغوات .. ورأى السرير مغطى بعدد من الألحفة والبطاطين . ولم يتبين الطبيب مكان زوجة الوزير إلا بعد أن أشار الأغا إلى السرير !
وطلب الطبيب من السيدة أن تخرج يدها من تحت الأغطية ليقيس نبضها ، ولكن الأغا رفض أن تخرج الست هانم ذراعها ، وقدم الأغا للطبيب ذراعها هو !

واراد الطبيب أن يرى لسان السيدة زوجة الوزير .
وأخرج الأغا الطبيب من الغرفة .. ثم دعاه بعد لحظة فإذا بالطبيب يرى جزءاً من اللسان ، من خلال الأغطية والبطاطين !
وفي الوقت الذي يروى فيه قاسم أمين هذه الصورة الكئيبة عن زوجات أصدقاء سعد ، كان سعد يسمح لصفية بحضور الغداء مع الشيخ محمد عبده وقاسم أمين وعبد الرحمن فهمي وغيرهم من أصدقائه الحميمين ، وكان يصحبها في رحلاته السنوية الى أوروبا .
ولكن عبد الرحمن فهمي كان يوافق على أن تكشف صفية وحدها وجهها ، ويرفض أن يوافق على أن تخلع باقى المضريات الحجاب !
وعندما قبض الانجليز على سعد زغلول يوم ٨ مارس سنة ١٩١٩ قامت الثورة في اليوم التالي .

ولكنها كانت في أسبوعها الأول ثورة رجال فقط . واجتمعت في بيت سعد زغلول صفية زغلول وهدى شعرواى وحرم محمد محمود باشا .

وقالت هدى هانم إنها كتبت برقيات احتجاج باسم سيدات مصر الى زوجة المندوب السامي البريطاني ، وأن زوجها على شعراوى رئيس الوفد بالنيابة أخذ البرقيات وعرضها في اجتماع الوفد ثم عاد إليها متهلل الوجه وقال لها : لقد أعجب أعضاء الوفد ببرقيتك حتى أنهم قرروا حفظها في محضر جلسة الوفد !

قالت صفية : إن كتابة الاحتجاجات والبرقيات لا تكفى . يجب أن تخرج المرأة المصرية الى الشارع ! تخرج جميع النساء الى الشوارع ومظاهرات هاتفات بسقوط الاحتلال ..

قالت زوجة محمد محمود متحمسة : إننى لم أضع قدمى في الشارع منذ كنت طفلة . ولكنى موافقة على الخروج الى الشارع .. حتى لو ضربنا الانجليز بالرصاص !

قالت هدى شعراوى : يضربوننا بالرصاص ! لو قتلوا امرأة واحدة فسوف تلتهب مصر كلها .

قالت صفية : هذا ما نريده تماما !

واتصلت هدى شعراوى بزوجة على شعراوى باشا تعرض عليه الفكرة فذهل ! كيف تخرج السيدات المحترمات الى الشوارع !

وكان على شعراوى باشا رجلا وقورا في السبعين من عمره ، يطلق لحيته ، ومن أهالى المنيا المحافظين المتمسكين بالتقاليد . ولكنه كان اكبر بأربعين سنة من زوجته . وكان يحبها حبا يقرب من العبادة ، فلم يستطع أن يقاوم تصميمها على المظاهرة ، وخاصة بعد أن أخبرته بأن هذا رأى صفية زغلول وحرم محمد محمود باشا ، فوعد بأن يعرض فكرة مظاهرة السيدات على أعضاء الوفد في الاجتماع ويبلغها بالنتيجة .

وعقد الوفد اجتماعا وما كاد يعرض على شعراوى باشا الفكرة حتى هاج وماج كل الأعضاء ورفضوا خروج النساء في مظاهرة ، وكان من رأى الأقلية أنها من تقديرها أن هذا الفعل وقاحة وقلة حياء ، وكان من رأى الأقلية أنها من تقديرها للوطنية التى أملت هذه الفكرة الجريئة ، الا أن الأغلبية العظمى للشعب تستنكر خروج النساء الى الشوارع ، وأن هذا سوف يقسم الرأى العام في مسألة فرعية ، بينما هو مجمع لأول مرة على مسألة واحدة هى مسألة الاستقلال ، فخروج النساء قد يجعل الانجليز يتهمون الثورة بأنها تدعو الى الخروج على الدين الاسلامى ، وبذلك تنفض أغلبية الشعب عن الثورة .. وكانت الأغلبية التى تعتبر خروج المرأة الى الشارع وقاحة ، وقلة حياء مؤلفة من على باشا شعراوى نفسه ، وعبدالعزیز بك فهمى ، ومحمد على

علوبة وجورج بك خياط وحسين باشا واصف وعبدالخالق باشا مذكور
ومحمود أبو النصر بك وعبداللطيف المكباتي بك .
وكانت الأقلية التي رفضت رفضا دبلوماسيا خشية انقسام الأمة ، مؤلفة
من أحمد لطفي السيد بك ومصطفى النحاس بك وسينوت حنا بك وعلى ماهر
بك ودكتور حافظ عفيفي .

وقال عبد العزيز بك فهمي : اننى أعجب أن سيدة عاقلة مثل صفية هانم
تقترح خروج النساء الى الشوارع ..

وضاق على باشا شعراوى يقول عبدالعزيز فهمي عن صفية زغلول من انها
العاقلة الوحيدة ، فمعنى ذلك أن زوجته هو مجنونة ! وقال إنه حاول أن يقنع
زوجته بالعدول عن المظاهرة وأبلغته أن صفية هانم هي صاحبة الفكرة .
وقال عبدالعزيز فهمي أنه سيتصل بصفية هانم ويبلغها قرار الوفد
بالاجماع بمنع مظاهرة النساء !

واتصل عبد العزيز فهمي تليفونيا بصفية زغلول وأبلغها بأسلوب رقيق
قرار الوفد :

- نحن نخشى أن تتبهدل السيدات !

فقالت صفية : أى بهدلة اكبر من بهدلة الانجليز لمصر باحتلالها وقتل
شبابها ونفى زعمائها !

قال عبدالعزيز فهمي : لو كان سعد باشا موجودا لرفض أن تخرج
السيدات الفضليات الى الشوارع .

قالت صفية : أبدا ! إن من رأى سعد أن ثورة لا تشترك فيها المرأة المصرية
لا يمكن أن تنجح ..

فقال عبدالعزيز فهمي : إنه لم يقل لنا ذلك .

قالت صفية : ولكنه قال لى !

قال عبدالعزيز فهمي : أخشى أن تفشل المظاهرة ، أن بعض أصدقائى قرروا
أنهم سيطلقون زوجاتهم إذا خرجن فى مثل هذه المظاهرة !

قالت صفية : لن يجرؤ رجل أن يطلق زوجته لأنها تدافع عن شرف
بلادها ! ..

وشرف مصر هو شرف كل رجل فيها !

قال عبد العزيز فهمي : إنهم يخشون على مراكزهم فى البلد من السنة
الناس .

قالت صفية : إن الرجل الذى يخشى من الالسنه .. سوف يخشى أكثر مدافع
الانجليز . ومثل هؤلاء الرجال لا يحسب لهم حساب فى قيادة البلد !

وانهى عبد العزيز فهمى الحديث وهو يحاول جاهداً أن يمسك أعصابه
ويقول :

- تاكدى اننى احترم المرأة وأقدرها ..
قالت له صفية :

- لو كنت تحترم المرأة لما حاولت أن تحرمها من شرف الدفاع عن بلادها !
واسرع عبد العزيز فهمى بك إلى زملائه وقال لهم أنه يخشى أن تكون صفية
هانم قد جنت . وأن صدمة نفى زوجها . أثرت على عقلها !
وسمع عبد الرحمن فهمى بما حدث فتطوع بأن يتولى إقناع صفية هانم
نظرا للعلاقة الوثيقة بينه وبينها .. ولكن صفية انقضت عليه كما انقضت على
عبد العزيز فهمى . وقالت إن نساء مصر لسن أعضاء فى الوفد . ولا توجد
امراة تمثلن فى الوفد . ولهذا ليس من حق الوفد أن يصدر الأوامر إليهن !
وتحست السيدات المصريات لتحدى قرار الوفد .. واجتمعت مئات
السيدات فى بيت الأمة ، وتولت هدى شعراوى الاتصال تليفونيا بعدد من
صديقاتها ، وراحت السيدة استر فهمى وبصا وهدية بركات وعطية أبو اصبع
وفكرية حسن واحسان القوصى يتصلن بمعارفهن وصديقاتهن وقريباتهن
للاشتراك فى مظاهرة حدد لها يوم ١٦ مارس .. بعد سبعة أيام من قيام
الثورة .

واتفقت السيدات على أن يجتمع عدد منهن فى بيت الأمة ، وعدد ثان فى منزل
احمد بك أبو اصبع فى ميدان الاسماعيلية (ميدان التحرير الآن) ثم يجتمع
الفريقان فى لحظة واحدة بحديقة جاردن سيتى ومن هناك تتحرك المظاهرة
الكبرى ..

ولم ينم عبد الرحمن فهمى الليل ! إنه لم يستطع أن يفهم لماذا تريد أن تزج
المرأة بنفسها فى السياسة ! لماذا تريد أن تفسد بتصرفها وقار الثورة ؟ وكان
أكثر ما يزعجه موقف زوجة صديقه وزعيمه سعد زغلول . أنها هى التى تنادى
بأن تخرج المرأة المصرية الى الشارع . وفى الوقت نفسه عندما استقبلته
ليناقتبها فى هذا القرار لم تقابله وجها لوجه . بل إنها وقفت تحذره من خلف
الباب ! إنه لم يرها بل سمع صوتها فقط من وراء الحاجز ! أى أنها حرصت
على ألا تظهر وجهها له فى غياب زوجها ، بينما كان يتناول معها الغذاء
والعشاء وهى سافرة فى حضور سعد ، فإذا كان هذا هو مبلغ حرص صفية على
التقاليد فما الذى جعلها تخرج عليها وتصر على خروج النساء الى الشارع
ومتظاهرات ! وماذا يحدث لو أن بعض الشبان تعرض لهن وألقى عليهن كلمات
وماذا يحدث لو أن بعض الشبان تعرض لهن وألقى عليهن كلمات

« البصبة » المبتذلة التى يقولها أولاد البلد لكل امرأة يرونها فى الطريق العام ! وأى مصيبة سوف تحدث لتعرضت زوجات قادة الثورة « للبهلة » والسخرية والزراية والاستخفاف ؟ !

واتصل عبد الرحمن فهمى بالشيخ مصطفى القايتى الأستاذ بالأزهر ومندوب الجهاز السرى للثورة فى الأزهر ، والذى اختير رئيسا للبوليس الوطنى ، وطلب إليه أن يرسل عددا من رجاله لحراسة المظاهرة ، وضرب أى شخص يحاول أن يغازل إحدى المتظاهرات !

وكلف الأستاذ توفيق صليب أن يتابع المظاهرة ويبلغه ما يحدث أولا بأول .. وتحركت المظاهرة . وحملت النساء أعلاما سوداء احتجاجا على الاحتلال ونفى سعد . وفجأة انضم الى المظاهرة عدد من بنات البلد . وعلا صوت النساء لأول مرة فى تاريخ مصر يهتفن للثورة ولسعد وللاستقلال وسقوط الحماية البريطانية . وألهبت المظاهرة الجماهير فتجمعت حولها الألوف المؤلفة . وتصدى للمظاهرة طابور بريطانى مسلح . وحمل الجنود الانجليز مدافعهم الرشاشة ووجهوا قواها الى صدور النساء .. وأرادت هدى شعراوى أن تقتحم الحصار ، واتجهت الى جندى إنجليزى يجلس القرفصاء ويصوب فوهة بندقيته الى صدرها . وصاحت فى الجندى : - اقتلنى ! .. ليكون لمصر اليوم « مس كافل » بين المصريات . وكانت مس كافل بطلة إنجليزية قتلها الألمان فى الحرب العالمية الأولى .. واهتزت البندقية فى يد الجندى البريطانى ، ثم تهاوت يده بالبندقية المصوبة .

وصرخت هدى شعراوى فى النساء وهى تخرق الحصار :
- اتبعنى !

وإذا بحرم الدكتور حبيب خياط تحتضنها وهى تصيح :
- لا .. لا .. يا حبيبتى .. هذا جنون ! لو قتلوك فسوف تريقين دماء ألوف من هؤلاء الشبان ..

وعندئذ تراجعت هدى شعراوى ولم تقتحم الحصار .. واستمر وقوف النساء ثلاث ساعات فى الشمس ، والجموع تتجمع حولهن . حتى تكونت مظاهرة ضخمة ، واضطر الانجليز الى فك الحصار ، واتجهت المظاهرة الى بيت سعد زغلول .. وأسرع توفيق صليب الى بيت عبد الرحمن فهمى فى شارع القصر العينى يبلغه كل ما حدث وذهل عبد الرحمن فهمى وقال :
- وماذا كان يفعل الرجال وهم يرون النساء فى الشارع .

فقال توفيق صليب :

- كانوا ينتظرون الى النساء . وكانهن يؤدين الصلاة !

وكتب الشاعر حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة التى يقول فيها : خرج الغوانى يحتججن . ورحت أرقب جمعهنه . فإذا بهن تخذن من سود الثياب شعارهنه . فطلعن مثل هنه كواكب . يستطعن فى وسط الدجته . وأخذن بجتن الطريق وبيت سعد قصيدته . يمشين فى كنف الوقار ، وقد ابن شعورهنه . وإذا بجيش مقبل . والخيل مطلقة الأعنة . وإذا الجنود سيوفها قد صوبت لنحورهنه . والخيل والفرسان قد طربت نطاقا حولهنه .

وعندئذ فقط آمن عبدالرحمن فهمى بأن سعد وصفية كانا على حق فى إصرارهما على اشتراك المرأة فى الثورة .

فى ذلك اليوم رأى الصغيران أمهما تخرج الى الشارع وقد ارتدت الحبرة السوداء والبرقع الأبيض . تحمل علما أسود فى يدها . لم تستاذن إياهما لم تستاذن أحدا كما تفعل دائما .. كان اليوم بداية ثورة النساء !

ولم يكن هذا هو الخلاف الوحيد بين سعد وعبدالرحمن فى أثناء الإعداد للثورة ، فقد اختلفا أيضا فى أثناء اختيار الطبقات التى يتألف منها الوفد . فقد كان سعد يعد قائمة فيها أسماء عدد من الوطنيين مقسمين الى سبع طبقات . إذا نفيت طبقة أو أعدمنا أو سجننا ، حلت محلها الطبقة التى تليها . وبذلك لا تخلو قيادة الثورة يوما واحدا .

وكان عبدالرحمن فهمى بحكم نشاطه العسكرية يميل إلى أن يضم سعد الى هذه القائمة أسماء عدد من الضباط الوطنيين السابقين الذين عرفهم فى أثناء خدمته فى الجيش .

غير أن سعد لم يوافق على ضم ضباط الى القيادة ..

وبعد إلحاح قبل سعد زغلول أن يصبح فى القائمة اسم ضابط واحد ، ووضعه فى الطبقة الخامسة فى الوفد ، أى الفريق الذى يتولى القيادة بعد إعدام أو نفى أو سجن الطبقات الأربع الأولى ..

وكان هذا الضباط هو الأميرالاي محمود حلمى إسماعيل ، وأثبت الأميرالاي فى الثورة جراته وشجاعته وإقدامه .

ولكن حدث أثناء نفى سعد إلى جبل طارق . ونفى الطبقة الأولى من الوفد إلى جزيرة سيشيل ، والحكم بإعدام الطبقة الثانية من الوفد ثم استبدال الإعدام بالسجن فى معتقل الماظنة ، ونفى الطبقة الثالثة من الوفد فى راحة المحاريق وسجن الطبقة الرابعة من الوفد فى قشلاق قصر النيل . حدث أن اجتمعت الطبقة الخامسة فى الوفد فى بيت الأمة تناقش اتخاذ قرار فى إحدى

مسائل الثورة .. واحتدمت المناقشة ، وإذا بالأمير الإي محمود حلمي إسماعيل يضرب بعض أعضاء الوفد أثناء النقاش ! وعندئذ قرر الوفد فصل الأمير الإي محمود حلمي إسماعيل من عضويته ، وبقي عبدالرحمن فهمي بك هو الضابط السابق الوحيد بين أعضاء الوفد !

ولم يختلف سعد في اختيار أسماء أعضاء الوفد مع عبدالرحمن فهمي وحده .. وإنما اختلف كذلك مع عدد من زملائه .. وانتصر في بعض الخلافات . وقفل في البعض الآخر ..

وروى سعد لأسرته أنه يخطئ من يتصور أنه كان وانثا من قيام الثورة ، ففي أوقات كثيرة كان يشعر بياس من اندلاع هذه الثورة ، وكان أحيانا يصاب بخيبة أمل غير منتظرة في أشخاص اختارهم . كثيرا ما دون قوائم بأسماء الذين يمكن أن يعتمد عليهم ، ثم شطب بعض الأسماء . ثم شطب أكثر الأسماء على ضوء تصرفاتهم ، أو أحاديثهم معه .. وكثيرا ما مرق القوائم كلها ، وأسودت الدنيا في وجهه اعتقادا منه أنه لن يجد من يمكن الاعتماد عليه في هذه المهمة الخطيرة ، ثم يعود بعد ذلك ويبدأ كتابة القوائم من جديد ! فقد اختلف مع لطفى السيد في شأن دخول عبدالعزيز فهمي إلى الوفد .. كان عبدالعزيز فهمي نقيب المحامين ، وعضو الجمعية التشريعية وخطيبا مفوها . وقانونيا ضليعا ، وصديقا لسعد زغلول .. ومع ذلك كان سعد لا يثق به ، ولا يطمئن إليه !

وكان لطفى السيد يلح عليه باستمرار في ضم عبد العزيز فهمي .. وكان سعد يرفض ..

وأخيرا اضطر سعد إلى قبول عبد العزيز فهمي تحت إلحاح لطفى السيد .. ثم جاءت مشكلة إسماعيل صدقي ..

كان في ذلك اليوم مطرودا من الوزارة ، لأن البوليس ضبطه في عوامة مع ابنة أحد زملائه الوزراء . وانتحرت السيدة المتزوجة في اليوم التالي ، وكانت فضيحة .. واعتزل إسماعيل صدقي الحياة العامة .. وقع هذا الحادث قبل قيام الثورة بثلاث سنوات ..

وكان سعد يؤمن بعبقريته صدقي وكفايته . ولكنه كان لا يستطيع أن يفرق بين الرجل وأخلاقه الشخصية ..

والح أعضاء الوفد على سعد حتى جعلوه يقبل تعيين إسماعيل صدقي عضوا في الوفد على مضض ..

ثم حدثت المشكلة الكبرى .. كان من رأى سعد أن يضم الوفد عددا من الأقباط وكانت أغلبية الوفد تعارض في دخول قبطي واحد إلى القيادة !

وتألف الوفد المصرى الاول الذى اعطاه الشعب توكيلا عنه وليس فيه قبطى واحد !

وحاول سعد من جديد .. واقترح اسم واصف غالى ، وارسل إليه برقية في باريس يبلغه بهذا الاختيار فلم يرد عليه واصف غالى !
وقال له زملاؤه : ألم تقل لك إن الأقباط لا يمكن أن يدخلوا في حركة ضد الانجليز ..

ثم اكتشف سعد زغلول أن رقابة التلغرافات الانجليزية حجزت هذا التلغراف ولم ترسله إلى واصف غالى ..

واجتمع سعد بعدد من زعماء الأقباط وتم الاتفاق على اختيار جورج ويصا باشا وهو من كبار أثرياء الأقباط ..

ثم ظهر أن جورج ويصا باشا هو قنصل أمريكا في الصعيد ولهذا عدل سعد عن اسمه !

واختار سينوت حنا بك عضو الجمعية التشريعية وجورج خياط بك من اعيان أسيوط .

والقائمة التى وضعها سعد باسماء أعضاء طبقات الوفد السبع حوت اسماء اخفت من التاريخ بإرادتها .

فقد قبل هؤلاء عضوية الوفد قبل الثورة ، وعندما راوا أعضاء الوفد ينفون إلى الماطة وعدن وسيشيل وجبل طارق ويحكم عليهم بالاعدام وتصادر ممتلكاتهم ، رفضوا قبول عضوية الوفد عندما جاء دورهم لتولى القيادة !
وكان في مقدمة الاسماء التى وضعها سعد في قائمة الوفد الاول اسما شقيقين لم يصبحا عضوين في الوفد ابدا .. وهما امين الرافعى وعبدالرحمن الرافعى... وقد قبلوا عضوية الوفد بشرط موافقة اللجنة الادارية للحزب الوطنى ، وقد كانا عضوين فيه ..

وإذا باللجنة الادارية ترفض الموافقة على انضمامهما إلى الوفد ، فاضطرا للخضوع لهذا القرار ، ولكن هذا لم يمنع امين الرافعى من قبول العمل مساعدا لعبد الرحمن فهى سكرتير لجنة الوفد المركزية . ومن قبول عبدالرحمن الرافعى لمهمة أخطر ، وهى أن يكون عضوا في المجلس الأعلى للاغتيالات في الجهاز السرى للثورة !

ووضع سعد في القائمة الاولى اسم ميشيل لطف الله بك عضو الجمعية التشريعية ليمثل السوريين في الوفد .

وقبل ميشيل بك .. ووضع اسمه في توكيل الوفد الذى يوقعه الشعب وطبع من التوكيل مئات الالوف من النسخ في سرية تامة ، في ظل الاحكام العرفية البريطانية . وكان جهدا شاقا مرهقا محفوفا بالمخاطر .

وبعد أن انتهى طبع مئات الآلات من هذا التوكيل ، فوجيء سعد بميشيل
لطف الله يطلب حذف اسمه منه لأنه مرشح ملكا على سوريا !
واضطر الوفد الى إحراق مئات ألوف النسخ ... وإعادة طبع مئات الألوف
من التوكيلات الجديدة وليس فيها اسم ميشيل بك لطف الله !
ولم يكن في القائمة التي كتبها سعد زغلول قبل الثورة بأسماء طبقات الوفد
اسم مكرم عبيد مثلا ، الذي أصبح فيما بعد سكرتيرا للوفد ، وكان في حساسة
سعد من اقرب الأعضاء إليه ، والسبب في ذلك أن سعدا لم يكن يعرف وقتئذ
مكرم عبيد .. فقد كان مكرم سكرتيرا للمستشار القضائي البريطاني في وزارة
العدل ، ولم يخطر ببال سعد وقتئذ أن سكرتير المستشار البريطاني سينضم
الى الثورة ويرفس منصبه ويصبح من أعضاء الوفد المتطرفين .
وقد أمضى سعد عدة سنوات قبل تأليف الوفد يحاول إقناع أصدقائه بضم
الأقباط الى عضوية الوفد . وكان أعيان الصعيد المسلمون من أعضاء الوفد .
أكثر المعارضين لهذا الضم ، فقد كانوا متأثرين بالخلافات المحلية بينهم وبين
أغنياء الأقباط في مديرياتهم ، وكان على شعراوى باشا مثلا يقول أنه لايسمح
لقبطى أن يجلس معه ، فكيف يسمح لقبطى بأن يصبح زميلا له في عضوية
الوفد ؟ !

وكان بعض الأعضاء متأثرين بالجو العام الذى نشأ عن الخلاف العنيف
الذى وقع بين الأقباط والمسلمين بعد اغتيال ابراهيم الوردانى لبطرس غالى
باشا رئيس الوزراء وعقد الأقباط مؤتمرا لهم طلبوا فيه حمايتهم من تعصب
المسلمين . وعقد المسلمون مؤتمرا خطب فيه الشيخ عبدالعزيز جوايش ودعا
إلى ذبح جميع الأقباط والتخلص منهم !

وكان بعض أعضاء الوفد يتوهم أنه لو دخل قبطى في عضوية الوفد فسوف
نقل أسرارهم الى الانجليز ، باعتبار أن الانجليز هم الذين يتولون حماية
الأقليات وفي مقدمتهم الأقباط . وكانوا يستولون على ذلك بأن قيادة الثورة
العربية لم يكن فيها قبطى واحد . وقيادة حركة مصطفى كامل لم يكن فيها
قبطى واحد كذلك .. !

وبذل سعد جهدا متواصلا في إقناع زملائه بأنه من مصلحة الثورة أن تضم
عنصرى الأمة ، وأنها بذلك تقطع الطريق على الانجليز بأنهم يحتلون مصر
لحماية الأقليات ، وأنه يعرف أقباطا لايقولون وطنية ولا إخلاصا لمصر عن أكثر
المسلمين المصريين حماسا لمصر وإيمانا بها .. وأن التفريق بين الأقباط
والمسلمين ليس من صنع المصريين . وإنما هو الوسيلة التى لجأ اليها
المستعمرون لتفريق الروابط بين المصريين وإضعافهم لاحتلالهم ولتمكين هذا
الاحتلال ..

وفشل سعد في أول الأمر وتالف الوفد الأول من سبعة أعضاء هم سعد زغلول وعلى شعراوي وعبدالعزیز فهمي ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد وعبداللطيف المكباتى ومحمد على علوبة .. وكلهم مسلمون وليس فيهم قبطى واحد !

ولم يستسلم سعد لهذه الهزيمة ، واستمر في محاولات اقناع زملائه . وكان أول من كبسبهم سعد الى رأيه أحمد لطفى السيد ، ثم عبدالرحمن فهمى . ثم باقى أعضاء الوفد واحدا واحدا .. واقتضى الأمر أن يمكث ساعات طويلة مع كل من اختارهم من الأعضاء ، يناقشه ويحاوِّره ويقنعه .. حتى تمت الموافقة على هذا الاقتراح .

ولكن ماكد سعد يقترح اسم واصف غالى حتى ثار الأعضاء ! إنه ابن بطرس غالى باشا رئيس الوزراء الذى قتله الوردانى لأنتر فرط فى السودان .. وقال سعد : ليس الابن مسئولا عن أعمال أبيه .. إننى أعرفه وهو شاب وطنى يحب بلاده ومتعلم ومثقف . وما دام الأقباط يعتبرون بطرس غالى زعيمهم . فإن اختيار ابن هذا الرجل الذى اتهموا المسلمين بقتله ، هو ترضية للأقباط جميعا ، وهو دليل على أن المصريين غير متعصبين ضد الأقباط عموما ، ولكنهم يقفون ضد الذين يخرجون عليهم ، سواء كانوا أقباطا أو مسلمين .. وقد يدهشكم أن تعلموا اننى انا شخصا تاملت على بطرس غالى .

لقد كنت وزيرا في وزارته وطالما ضقت به واتفقت مع محمد سعيد باشا زميلى في الوزارة على أن نتآمر على رئيسنا ، وأن نقنع الخديو للتخلص منه .. وأن نذهب معا الى الخديو ونبلغه بقائمة الاتهامات ضد بطرس غالى رئيس الوزراء .. وإذا في اليوم المحدد لتنفيذ هذه المؤامرة اغتال ابراهيم الوردانى بطرس غالى باشا ، وفعل المسدس ما أردت أنا وزميل أن نفعله بلساننا ! . ولكن ليس معنى خلافى مع رجل واحد قبطى أن اختلف مع كل الأقباط ، وألا أقدر كفاءة ابنه الشاب ووطنيته .

ونزل أعضاء الوفد على رأى سعد ، ووافقوا على ضم واصف غالى الذى كان موجودا في باريس في تلك الأيام .

ومن سخرية القدر أن أعضاء الوفد من الأقباط ظلوا صامدين الى جوار سعد أكثر من كثير من أعضاء الوفد من المسلمين ..

فعندما اختلف سعد مع أغلبية الوفد في باريس في شأن قبول مشروع ملتر الذى كان حماية مقنعة .. كانت الأغلبية التى تمثل المعتدلين مؤلفة من ثمانية : سبعة منهم من المسلمين هم محمد محمود وعلى ماهر وحافظ عفيفى

وعبداللطيف المكباتى وعبدالعزيز فهمى ومحمد على علوبة ولطفى السيد وقبطى واحد هو ووصا واصف وكان الاقلية التى وقفت الى جانب رأى سعد المتطرف مكونه من عضوين اثنين كلاهما من الاقباط وهما واصف غالى وسينوت حنا !

وعندما نفى الانجليز سعد زغلول فى سنة ١٩٢١ الى سيشيل كان البيان الذى اصدره الوفد احتجاجا على نفيه بتوقيع خمسة اعضاء فقط .. فيهم مسلم واحد هو مصطفى النحاس وأربعة من الاقباط هم واصف غالى وسينوت حنا ووصا واصف ومكرم عبيد !

واعضاء الوفد الذين نفاهم الانجليز الى سيشيل كانوا ستة ، أربعة منهم من المسلمين هم سعد زغلول وفتح الله بركات ومصطفى النحاس وعاطف بركات واثنان من الاقباط هما سينوت حنا ومكرم عبيد !

واعضاء الوفد الذين حكم عليهم بالاعدام كانوا سبعة ، ثلاثة من المسلمين هم : حمد الباسل ومراد الشريعى وعلوى الجزار ، وأربعة من الاقباط هم : مرقص حنا وواصف غالى وجورج خياط ووصا واصف !

واعضاء الوفد الذين نفاهم الانجليز الى الصحراء فى معسكر المحاريق كانوا سبعة ، أربعة من المسلمين : المصرى السعدى بك والسيد حسين القصبى ومحمد نجيب الغرابى والشيخ مصطفى القايتى وثلاثة من الاقباط هم : فخرى عبدالنور بك وسلامة ميخائيل بك والاستاذ راغب اسكندر .

وهكذا كان سعد على حق فى اصراره على أن يشترك الاقباط فى قيادة الثورة ، فقد حملوا أكثر من نسبتهم العددية فى اخطارها ، وهذا يفسر أنه عندما ألف سعد زغلول وزارته الأولى سنة ١٩٢٤ اختار وزيرين من الاقباط .. وعندما عرض قائمة الوزراء على الملك فؤاد تأمل القائمة وقال :

- يوجد خطأ فى أسماء الوزراء .. إن التقاليد أن يكون عدد الوزراء عشرة بينهم وزير قبطى واحد ! .. أن النسبة هى واحد من الاقباط لكل تسعة من المسلمين !

فقال له سعد :

- هذه ليست وزارة تقاليد .. انها وزارة ثورة .. عندما كان الانجليز يطلقون علينا النار فى الثورة لم يراعوا النسبة بين الاقباط والمسلمين .. وعندما نفانا الانجليز الى سيشيل نفوا أربعة من المسلمين واثنين من الاقباط ولم يراعوا النسبة .. فكيف نراعى اليوم هذه النسبة فى اختيار الوزراء ؟

واضطرب الملك فؤاد أن يوقع مرسوم الوزارة بتعيين اثنين من الاقباط وثمانية من المسلمين .. وقع المرسوم على مضض .. وما كاد سعد يخرج

من الوزارة حتى عادت النسبة كما كانت من قديم : قبطى واحد فى مقابل تسعة من المسلمين !

وكان انضمام الاقباط الى الثورة مفاجأة مذهلة للانجليز .. كانوا يتوقعون ان يقف الاقباط ضد الثورة ويطلبون حماية الانجليز .

وعندما فوجئ المندوب السامى البريطانى فى القاهرة بدخول اثنين من الاقباط فى عضوية الوفد أرسل البرقية رقم ١٩٥٣٤٧ بتاريخ ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٨ يقول فيها : وأما بالنسبة للقبطيين (جورج خياط بك وسينوت حنا لا مال له ، وإن كان كلاهما من أسرٍ كبيرتين من أسر الصعيد المصرى) !

وكان الطفلان التوأمين يريان اتصالات سعد وصفيه بالاقباط . لم يشعرا يوما فى البيت بروح التعصب . لم يسمعا قط كلمة قبطى ومسلم ، كان سعد زغلول قد حذر من استعمال هذه الكلمة فى البيت ، كانت فى البيت خادمتان : إحداها مسلمة واسمها فاطمة والأخرى مسيحية اسمها ماري . وكانت صفيه تهتم بأن تؤدى فاطمة فروض الصلاة ، وتهتم فى الوقت نفسه بأن تذهب ماري الى الكنيسة يوم الاحد ، فإذا تكلت ماري فى الذهاب تعجلتها صفيه وطلبت إليها ان تترك ما فى يدها من عمل ! وكان من اعز صديقات صفيه سيدة قبطية هى حرم سينوت حنا ، وسيدة قبطية أخرى هى استر فهمى ويصا زوجة فهمى بك ويصا وأخت الاستاذ لويس فانوس . وشهد الطفلان الصغيران صفيه وهى مكية على صنع علم جديد !

فقد كانت صفيه زغلول هى اول من فكر فى تصميم علم للثورة مؤلف من الهلال والصليب ، وقد صنعت هذا العلم بيدها فى بيتها ، واشتركت فى صنعه معها عدد من السيدات بينهن زوجتا سينوت حنا ومرقص حنا .. وكان العلم مصنوعا من الحرير ، ولم يلبث ان اصبح بعد ذلك العلم الوحيد الذى ترفعه كل المظاهرات فى الثورة .

وكانت صفيه مهتمة اهتماما عجيبا بوحدة الصليب والهلال .. وكانت تقول ان وصية سعد الوحيدة اليها يوم نفيه هى وجوب المحافظة على وحدة المسلمين والاقباط !

وذات يوم علمت صفيه بخبر ازعجها ، ففى الوقت الذى اضرب فيه جميع الوزراء المصريين ، عين الانجليز وزيرا قبطيا هو يوسف وهبة باشا رئيسا للوزارة .

وكانت السيدات المصريات قد طفن بجميع الوزراء المصريين ، وارغمنهم على القسم بالقرآن على الا يؤلف واحد منهم الوزارة .. ولكنهن لم يذهبن

الى بيت يوسف وهبة باشا لأنهن لم يتصورن أن يؤلف قبضى الوزارة !
وجنت صفية وقالت إن الانجليز قصدوا بهذه العملية أن يقسموا الأمة
ويفرقوا بين الأقباط والمسلمين ، وبذلك قضوا على ما كسبه الشعب من ثورة
سعد ..

وأرسلت واستدعت عبدالرحمن فهمى بك سكرتير لجنة الوفد المركزية
وقالت له :

- أن قبول قبضى تاليف الوزارة مصيبة !
فقال عبدالرحمن فهمى إنه فكر فى ذلك وأنه سيقترح أن تنتخب لجنة الوفد
المركزية مرقص حنا بك . وهو قبضى ، رئيسا للجنة بالنيابة .. وبذلك نرد على
الانجليز بأن قبضيا يرأس وزارتنا وقبضيا يرأس حركتنا ..
قالت صفية : هذا لا يكفى !

وفى اليوم التالى جاء عبدالرحمن فهمى اليها وقال لها ان طالبا فى مدرسة
الطب القى قنبلتين على يوسف وهبة باشا رئيس الوزراء .. وان المهم أن هذا
الطالب قبضى اسمه عريان يوسف سعد ..

قالت صفية : إننى أريد أن أقبل هذا الشاب !
قال عبدالرحمن فهمى : لقد قبضوا عليه .

قالت صفية منزعة : لا تدعوهم يقتلوه .. حاولوا أن تخطفوه !
قال عبد الرحمن فهمى : اطمئنى .. سنحاول ذلك !
وبذلت محاولة لخطف عريان سعد ولكنها فشلت ..

وحكمت المحكمة العسكرية البريطانية بإعدام عريان سعد ، واضطرت
تحت ضغط الراى العام الى استبدال حكم الاعدام بالسجن المؤبد ..

وبقى عريان سعد فى السجن خمس سنوات الى أن تولى سعد زغلول الوزارة
واستصدر عفوا عنه ، وعينه سكرتيرا للجنة الداخلية فى مجلس الشيوخ
الذى يرأسها يوسف وهبة باشا الذى حاول أن يغتاله أثناء الثورة .

وبلغ من حرص صفية على وحدة الأقباط والمسلمين أنه حدث عندما حكم
الانجليز على أعضاء الوفد السبعة بالإعدام أن وقفوا جميعا وهتفوا : نموت
وتحيا مصر .. وبعد أيام علمت صفية زغلول أن أحدهم وهو جورج خياط بك
بدأ ينهار بسبب حالته الصحية ، وأن محاميه زاره فى السجن ونصحه أن
يكتب استرحاما للقائد العام البريطانى يطلب العفو ..

وذعرت صفية من هذا النبا .. وقالت : ان الشعب يجد فى صمود أبطاله
سببا لاستمرار الثورة والنضال ، فإذا اتهار واحد منهم . فسوف تنهار معنوية
الشعب ..

واستدعت صفية الأستاذ محمد أمين يوسف والد التوامين وطلبت إليه

ان يبحث عن طريقة تيسر لها زيارة اعضاء الوفد المحكوم عليهم بالاعدام سرا
في سجنهم في معسكر الماظا ..

وقال امين يوسف : ان هذا مستحيل . ان المعسكر كله محاط بالجيش
البريطاني وهو معسكر بريطاني ، يتولى حراسته الانجليز .. ولو كانوا في
سجن مصرى لامكن تدبير هذه المحاولة !
قالت صفية : افعل المستحيل !

وبحث امين يوسف فعلم انه في يوم الاربعاء يتولى قيادة المعسكر ضابط
ايرلندى ..

فذهب إليه ، وقال : ان ام هؤلاء المسجونين تريد ان تراهم .

فقال الضابط الايرلندى : ان هذا مستحيل وضد التعليمات .

فقال له امين يوسف : لتقرض اناك وقعت اسيرا في يد الالمان ، وحكموا عليك
بالاعدام ، وجاءت امك لزيارتك ، ورفض قائد المعسكر الالماني ان يسمح لك
بهذه الزيارة فماذا تقول ؟

قال الضابط الايرلندى : اقول انه وحش .. وسوف اسمح لها بهذه الزيارة
واحب ان اقول لك انه لو علم رؤسائى بذلك فسوف احوال الى محكمة عسكرية
لمحاكمتى ..

قال له امين يوسف : خير لك ان تكون انسانا وتحال الى محكمة عسكرية !
قال الضابط : صدقت ! هاتها ..

وفي مساء الاربعاء تسلمت صفية زغلول ومعها امين يوسف ، ودخلا
المعسكر البريطانى وقابلت اعضاء الوفد المحكوم عليهم بالاعدام .. وذهل
اعضاء الوفد عندما راوها امامهم ..

وجلس معهم طويلا وقالت لهم : ان مصر تعتبركم جميعا ابطالا فلا
تخذلوا في ايمانها بكم ..

واستطاعت ان ترفع روح جورج خياط المعنوية ..

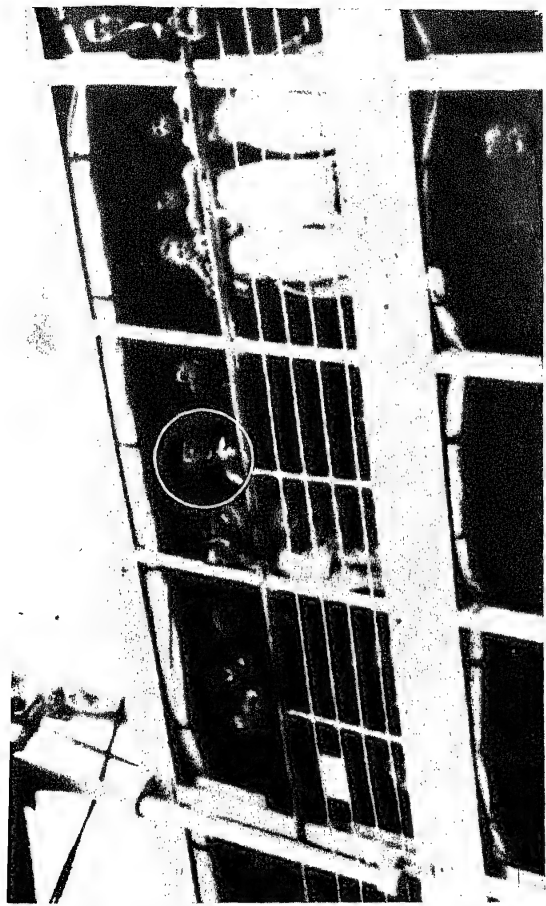
وفي صباح اليوم التالى جاء المحامى ليتسلم من جورج خياط الالتماس واذ
به يفاجأ به يقول له :

- التماس ؟ .. اننى افضل ان اشنق بيد انجليزى .. على ان انتحربيدى !
اننى افضل ان اموت بطلا على ان اعيش جباناً !

وذهل المحامى الكبير ولم يعرف ماحدث .. لم يعرف ان صفية زغلول ملأت
قلب جورج خياط بحقنة من الصمود والثبات والايمان ..

انه راي امرأة تقتحم معسكرا بريطانيا .. تخترق الاسوار والمدافع
والحراس لتقول له ان الشعب كله يقول انك بطل .





●● زعيم الأمة في الباخرة .. في طريقه إلى المنفى .

● الفصل التاسع ●

كان اليوم هو يوم التنفيض . اليوم المخصص في كل اسبوع لتنظيف البيت . وهو يوم مقدس عند صفية . تقلب فيه أثاث البيت راسا على عقب . الخدم يشمرون عن سواعدهم . يمسون راس العبد وينظفون الأسقف . يلمعون خشب الباريكه . يحملون السجاجيد والأبسطه وينفضونها في حديقة البيت . يغسلون درجات السلالم الرخامية بالماء والصابون . إذا دخلت البيت في ذلك اليوم حسبت أن أهله يستعدون للانتقال إلى بيت آخر . صفية تروح وتجيء بين الخدم . ووراءها رتيبة . كل منهما تحمل فوطه في يدها . تمسح التراب عن الزجاج وإطارات الصور المعلقة على الجدران . أو تزيل التراب عن أواني الزهور ، ولا تتردد إحداهما في تناول المقشة من يد الخادمة لتتولى بنفسها عملية الكس زيادة في العناية والاهتمام . وكانت عملية التنظيف تتم كل يوم . وكانت أرض الغرف تبدو دائما كالصيني النظيف ، والأثاث يلمع دائما كأنه خرج من المصنع من بضع دقائق . ولكن يوما محمدا كل اسبوع كان مخصصا « للتنفيض الكبير » . كان البيت يغسل وجهه صباح كل يوم ، ولكن في يوم التنفيض الكبير يقوم البيت بعملية كاملة للاستحمام ! وكان سعد يضيق بهذا اليوم المقدس الذي لاتقبل فيه صفية تبديلا ولا تغييرا ولا تأجيلا . فمطلوب من سعد في هذا اليوم أن يترك غرفة نومه مبكرا لأن عملية التنظيف تبدأ من الدور العلوى حيث غرفة نومه . ومطلوب منه أن يتناول طعام الإفطار بسرعة حتى لايلحقه التنظيف وتسحب منه مائدة الطعام وهو لا يزال يتناول الإفطار . ومطلوب منه الا يستقبل زوارا في هذا اليوم حتى لاتتعطل عملية التنظيف وعليه أن يتناول غداءه في نادى محمد على أو يبحث عن صديق يدعوه إلى الغداء حتى لا يضيع الزوار عقبات في عملية المسح والغسل والتنفيض والتلميع .

وكان سعد هو سيد البيت في كل أيام الأسبوع إلا هذا اليوم ! هنا ينزل عن عرشه وتجلس صفية عليه تصدر اليه الأوامر والتعليمات . وفي هذا اليوم تدخل صفية غرفة سعد وتقف امامه لا تتحرك ولا تتكلم . ويفهم سعد من هذه الحركة أنها تدعوه إلى الجلاء عن البيت بسرعة . وكان يسميها في ذلك اليوم « مقلقة الراحة وهادمة اللذات » ! فقد اعتاد كل يوم أن يقوم من فراشه بثقل . ويحمل معه الصحف إلى دورة المياه . ويمكث فيها ساعة كاملة .

ثم يخرج الى الحمام يحلق ذقنه بيده ، ولم يكن يعرف الى آخر أيامه ماكينة الحلاقة . وانما كان يستعمل الموسى الطويلة التى يستعملها الحلاقون ، ثم يرتدى ملابسه على مهل . وينزل إلى مائدة الإفطار ويتناول افطاره الذى يستمر ساعة او أكثر من ساعة . ولكن في يوم التنفيض الكبير يسرع كل شيء . لا يبقى في الحمام الا دقائق . لا يبقى على مائدة الطعام الا دقائق . وبين دقيقة وأخرى تظهر صفية لتتبعه . وكان سعد يقول ان صفية مريضة بمرض اسمه « النخافة » ، وان ابنة اخته رتيبة اصببت بعدوى هذا المرض ، وقد كان منظرهما وهما تقومان بعملية التنفيض الكبير يثير الضحك ! فهما تقبلان على هذه العملية يشغف غريب ويتفان واخلاص كأنهما تخوضان حربا مقدسة . وعيونهما تلتقط ذرات التراب على الأبواب ، وتحت الكراسى ، وبين صفحات الكتب ، وخلف الصور المعلقة على الجدران . وكانت صفية تضع منفضة من الحديد في ادنى درجات السلم الخارجى ، ومنفضة من سعف النخل في أعلى الاولى ليمسح فيها الزائر قدميه من الطين . والثانية ليمسح فيها الزائر حذاءه من التراب . فإذا وجدت آثار اقدام على الرخام الأبيض في سلم السلامك ، نادت عبد الكريم فراش السلامك ليسارع إلى محو هذه الآثار حتى تبدو درجات السلم الرخامية ناصعة البياض تبرق وتلمع وتضئ ! فقد كانت ترى آثار الاحذية على الرخام كأنها وصمة عار في جبين البيت الأبيض النظيف ! ولكن منذ أن بدا سعد يستعد للثورة فقد يوم التنفيض الكبير قداسته بين أيام الاسبوع . لم يعد سعد يستطيع أن يطلب من زائريه ألا يدخلوا بيته في اليوم المقدس . لم يعد يستطيع أن يتناول غداءه خارج البيت . وكان يضحك ويقول لصفية أن تنظيف البلد من الاحتلال اهم من تنظيف البيت من التراب ! واستسلمت صفية لارادة سعد . وتضاعل شأن يوم التنفيض الكبير . فاقصر على تنظيف غرف البيت ، وأصبح السلامك متمتعاً بالاستقلال الذاتى . يتولى الفراش عبد الكريم مهمة تنظيفه . ولم تلبث صفية أن بدأت ترى في آثار الأقدام على درجات سلم السلامك وفي حديقة البيت ما يهيجها ويسعدها . لم تعد آثار طين الأقدام وصمة عار وإنما اصبحت أوسمة ونياشين . كلما كثرت آثار الأقدام دل هذا على ازدياد عدد أنصار سعد ، المترددين على داره ، والمؤمنين بحركته ، ولن تمضى بضعة شهور حتى تتغير آثار الأقدام . فلاتقتصر على آثار احذية . وإنما تجد بجانبها آثار شبشب قبائيب واقدام حافيه . وسوف تجلس سيدات بالملية اللف على مقاعد لاوبسون الفاخرة . وسوف تلتصق جلايب الفلاحين الزرقاء بالحزير الفرنسى لثمين الذى يغطى الوسادات التى تستعمل مساند للارائك . وسوف

تتحطم أواني الورود والأزهار في الحديقة لتستعمل قذائف تلقى على الجنود الانجليز ردا على طلقات بنادقهم . وسوف تفرش السجاجيد العجمية في فناء الدار لتتوسدها جثث قتلى الثورة وجرحاها . وسوف يتحول الشارع الهادئ الى ميدان قتال . وسوف تجد صفيحة في كل هذه المظاهر عملية تنفيض كبيرة . وسوف تقبل على هذه العملية بشغف غريب وتغاف واخلاص كأنها تخوض حربا مقدسة . وسوف تجد في الدم الذى يتساقط على درجات السلم الرخامى البيضاء علامات على الطريق الى الحرية . وسوف ترى حديقته الجميلة وازهارها التى كانت تعنى بكل واحدة منها وهى تسقط تحت اقدام الجماهير المحتشدة التى جاءت تسمع خطب زوجها الناثر ، وكان هذا هو الفرق بين بيت الباشا .. و « بيت الامة » .

ولكنها في ذلك اليوم لم تركل هذا .. انتهت عملية التنفيض وذهبت مع رتيبة تزور شقيقته الكبرى زكية حرم الدكتور محمود صدقى باشا . وكانت الساعة الخامسة بعد الظهر يوم ٨ مارس سنة ١٩١٩ . الجو ربيع . الطفلان الصغيران على ومصطفى يلعبان في حديقة الدار . سلامك الدار اثنىه بخليّة نحل . الفراش عبدالكريم يحمل صينية عليها فناجين القهوة وأكواب الماء . لايف عن الصعود الى السلامك بالفناجين الممتلئة . والهبوط الى البدروم بالفناجين الفارغة . السلامك الذى يشبه خلية النحل . في كل غرفة فيه رؤوس منكسة تهمس او تكتب او لترجم . في مكتب سعد زغلول الكبير بعض أعضاء الوفد . عبدالعزيز فهمى بقامته المنحنية قليلا . اسماعيل صدقى بابتسامته التى لاتفارق شفتيه . جورج خياط بشاربه الضخم . فجأة رأى الطفلان عدة سيارات عسكرية بريطانية تحيط بالدار . احدهما تتوقف على ناصية شارع الفلكى وشارع سعد زغلول . الثانية تقف امام باب البيت الخلفى في شارع ناظر الجيش « شارع ضريح سعد الآن » . الثالثة تقف على بعد مائة متر من بيت سعد إلى ناحية شارع القصر العينى . ثم رأى الطفلان الطالب على شاهين الجندى وهو يندفع الى داخل البيت مهولا وهو يصيح : الانجليز جاءوا للقبض على سعد باشا ..

واستوقفه بعض الشبان الموجودين في شرفة السلامك ليسالوه عن التفاصيل .. فقال انه كان امام بيت محمد محمود في شارع الفلكى ورأى الانجليز يقبضون عليه وانهم قادمون الآن ليقبضوا على سعد زغلول . ولم يساله أحد كيف استطاع بجسمه البدين أن يعدو حوالى الكيلومتر ، وأن يسبق السيارة البريطانية . ويبدو أن الذين سمعوه لم يصدقوه لأن احدا لم يتحرك من مكانه .

ولكن على الصغير أسرع يفتح باب مكتب جده سعد زغلول ويدخل بدون استئذان ويتقدم نحو سعد ويقول هامسا : الانجليز جاءوا يقبضون عليك !
وابتسم سعد وقال له : طيب .. روح أنت العب !
ثم مضى يكتب في ورقة امامه .. وخرج الطفل وهو لا يعرف ماذا يقصد جده . هل شك في الخبر ؟ هل أخطأ حين دخل المكتب دون أن يقرع الباب ! هل كان سعد يتوقع القبض عليه ؟ واعتقد الطفل « على » أن أمه ستضربه علة عندما تعود فتعلم أنه أخطأ في البروتوكول ودخل غرفة مكتب جده بغير استئذان !!!

ولم يلبث الطفلان أن شهدا سيارة عسكرية رابعة تقف أمام باب البيت . ويقفز منها ضابطان بريطانيان يتبعهما جنديان بريطانيان يحمل كل منهما مدفعا رشاشا . وصعد الضابطان بسرعة درجات سلم السلامك وهما يقبضان على مسدسيهما . وتقدم احدهما الى السكرتير وقال له : جئت لمقابلة سعد زغلول باشا .. أين هو ؟

وأشار السكرتير الى غرفة الانتظار وطلب منه أن ينتظر في الغرفة حتى يبلغ سعد زغلول ويستأذن له في مقابلته .. ولكن الضابط البريطاني أراح السكرتير جانبا وقال له : اننى ساذهب إليه بنفسى ..

ثم صوب مسدسه الى السكرتير ، وطلب اليه أن يرفع يديه في الهواء .. وشعر سعد بالضجة التى حدثت خارج مكتبه ، فخرج الى باب المكتب . فالتفت اليه الضابط البريطاني . وادى التحية العسكرية وقال :
- أريد أن اتحدث الى معاليك على انفراد .

ودعاه سعد الى دخول غرفة المكتب . وجلس في مقعده امام مكتبه ، ودعا الضابط الى الجلوس في مقعد مجاور ..
ولكن الضابط رفض أن يجلس وقال :

- لى أمر من القائد العام للقوات البريطانية بالقبض عليك .
وابتسم سعد وقال :

- لقد جئت متأخرا ! اننى انتظرك منذ وقت طويل !
ولم يفهم الضابط النكتة فقال :

- ان الأوامر التى عندى أن أقبض على معاليك فى الساعة الخامسة مساء ..
ولأن الساعة الخامسة مساء !

قال سعد وهو يقف :
إذن هيا بنا !

وتقدم سعد الضابط البريطاني ، الذى كان ممسكا بمسدسه ، وخرج

سعد من الباب ، وتقدم مرفوع الرأس ، في ثبات ووقار وجلال ، وكانت عيون الواقفين حوله تسال في لهفة ماذا حدث .. لكنه لم يقل شيئا .. بل التفت الى الواقفين حوله فرأى في وجوههم هلعاً وخوفاً ولهفة .. فقال لهم : تشجعوا ! وكررها عدة مرات !

ثم توقف عند أعلى درجات سلم السلامك وقال للضباط البريطاني : - سارسل في إحضار عربتي !

فلم يفهم الضابط ماذا يقصد سعد وقال له :

- لدى أمر بالقبض على معاليك ..

وابتسم سعد وقال :

- انا اعرف هذا .. ولكنى أريد عربتي لاستقلها معك . لأننى لا أستطيع ان أمشى على قدمى !

قال الضابط البريطانى :

- لدى سيارة عسكرية لتركيها ..

ثم التفت الضابط الى الواقفين وقال :

- أين اسماعيل صدقى باشا ؟

وتقدم صدقى باشا وهو يبتسم وقال : انا

قال الضابط وهو يضع يده على كتفه : وانت أيضاً مقبوض عليك ! ومشى صدقى وراء سعد .. وهنا تقدم عبدالعزيز فهمى من وراء الصفوف واتجه الى الضابط وقال له في صوت عصبى :

- إذا اردتم واحدا منا ، فيكفى ان تكتبوا إليه ، وهو يحضر اليكم !

ثم التفت الضابط الى الواقفين وقال :

- أين منزل احمد باشا الباسل ؟

فأشاروا الى البيت المواجه للسلامك في نفس الشارع .

ونزل سعد درجات سلم السلامك يتوكأ على عصاه . وكان ينظر امامه . لا يلتفت يمينا أو يسارا . كأنه أراد ان يتفادى نظرات الجزع في عيون اصحابه . او كأنه لم يعد ينظر الا الى الامام . لم يعد ينظر الى الخلف . كل من حوله يتصور انه ذاهب الى المجهول . ولكنه هو وعددا قليلا منهم كانوا يعرفون هذا المجهول ! وفي عينيه بريق عجيب . ليس بريق الغضب ، فقد كان يبدو راضيا . ليس بريق القلق فقد كان يظهر مطمئنا . الواقفون حوله يتسألون في صمت : الى أين يذهبون به ؟ الى السجن ؟ الى المنفى . الى المشنقة ! ولكنه بدا كأنه يعرف الطريق جيدا . كأنه مشى فيه قبل ذلك عدة مرات . كأنه ذاهب الى نزهة . او الى موعد غرام .. نعم موعد غرام مع المجد .. مع التاريخ !

وكان الضابط البريطاني يمشى وراءه خائفا متوجسا متعترا ، ي
قلق وريبة .

ولم يلبث سينوت حنا بك وهو يرى صورة سعد وصورة ال
يقبض عليه أن قال :

- يبدو كان سعد باشا هو الذى قبض على الضابط البر
ولم يضحك احد على هذه النكتة فى هذا الموقف الرهيب . أنها
أو قفشة أو مفارقة ! كانت الحقيقة . أن اكبر خطأ وقع فى
البريطاني . أنه قبض على سعد زغلول ! إنه وقع فى الشرك الذ
سعد زغلول . ولولا ذلك لتأخرت ثورة ١٩١٩ ولولا ذلك لما حد
الهائل .

وكان سعد على حق عندما قال للضابط البريطانى انه جاء مت
انتظره منذ وقت طويل ! فقد كانت خطة الثورة السرية أن س
لانفجارها هى ساعة القبض على سعد زغلول .
وارسلت قيادة الثورة تعليمات سرية شفهوية بتحديد هذه اللح
تنظيمات الثورة السرية فى الأقاليم من الاسكندرية الى أسوان
وهذا سر الخطأ الذى وقع فيه كثير من المؤرخين عندما قالوا
قبض الانجليز على سعد انفجرت الثورة على الفور من الاسكندرية ا
فهم يؤرخون بعقلية الحاضر لا بحقيقة الماضى . هم يتصورون أن
على سعد زغلول أذيع فى الاذاعة فأنفجرت الثورة على اثر إذاعة
أنحاء البلاد . ناسين أن الراديو لم يخترع الا بعد انفجار الثور
عديدة .. أو انهم تصوروا أن الصحف نشرت الخبر . وما كاد يطلع
الصحف حتى ثاروا .. ناسين أن الصحف كلها منعت من نشر الخا
طرق المواصلات فى تلك الأيام بدائية ، حتى أن نبا القبض على س
وصل الى بعض بلاد الصعيد بعد القبض عليه بعدة أيام ا
وقد أسفرت التحقيقات التى اذاعها الرسميون الانجليز ب
بخمسين سنة . عن أنه قد ثبت لهم أن الثورة كانت منظمة تنظي
ولكن الانجليز لم يعرفوا فى ذلك الوقت أن سعد زغلول كان يتعد
عليه لتحل ساعة الصفر !

وعندما ذهب سعد فى يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ الى المنده
البريطاني يطالب بالاستقلال التام ، توقع أن يقبض الانجليز علي
القائى هو وزميليه على شعراوى باشا وعبدالعزیز فهمى بك ، اللذين
هذه الزيارة .

وفعلا طلب سعد من صفية في ذلك اليوم أن تعد حقيبته التى سياخذها معه الى السجن ، وأوصاها أن تضع فيها مصحفا وبيجامة وطاقية وموسى للحلاقة وكثيرا من الجوز « عين الجمل » الذى كان يأكله بدلا من الخبز . وأعدت صفية الحقيبة ..

وجلس سعد فى داره ينتظر قدوم الانجليز فلم يحضروا ! وادهشه أنهم لم يحضروا فى الموعد الذى حدده !

ولم يكن يعرف يومئذ أن سر وينجت المندوب السامى البريطانى لم يبرق بنبا هذه المقابلة التاريخية الخطيرة فى يوم وقوعها ! بل انه انتظر خمسة ايام حتى يرسل بالنبا الى وزير الخارجية البريطانية يبلغه هذه المقابلة الخطيرة ! ولكن وزير الخارجية البريطانية إهتم بهذه البرقية ، وأمر بارسالها على الفور الى الملك جورج ملك انجلترا وامبراطور الهند ، والى لويد جورج رئيس الوزراء . والى جميع اعضاء وزارة الحرب البريطانية !

وكان المندوب السامى البريطانى قد ذكر فى برقيته أن المصريين الثلاثة هم من ذوى الآراء المتقدمة . وأنهم طالبوا بالاستقلال الذاتى التام لمصر . ولا يبقى لبريطانيا العظمى الا حق الاشراف على مسألة الدين العام والتسهيلات الخاصة بالسفن البريطانية فى قناة السويس .

ووضعت وزارة الخارجية البريطانية مذكرة علقت فيها على تقرير المندوب السامى البريطانى ، وقالت فيها أنه ليس بين الوطنيين المصريين الثلاثة من يستطيع أن يزعم أنه ممثل الشعب المصرى . فسعد زغلول وعبدالعزیز فهمى محاميان ، وسجلهما معروف ، وربما كانا يمثلان طبقة معينة من المثقفين ، ولكن سعد زغلول قد حط من شأنه كثيرا . أما عبدالعزیز فهمى فخطيب قدير قوى الحجة ، وله بعض الاتباع فى الجمعية التشريعية : « وقد أدهشنى أن أرى على باشا شعراوى متصلا مع هذين الرجلين . فهو من اصحاب الاراضى الواسعة فى مديرية المنيا ، وهو رجل ثرى . وهو نموذج طيب لطبقة الباشوات المحافظة والرجعية . وله مقعد فى الجمعية التشريعية كعضو عن مديرية المنيا . ولكنه عارض كل اقتراح للاصلاح ، كضريبة الدخل او رسوم التراكات ، او القيود الخاصة بزواج الاحداث . وهو متعصب . ولا يتكلم الا بالعربية ، وغير محبوب لدى الفلاحين » .

وابدى وزير الخارجية البريطانية اسفه لأن المندوب السامى البريطانى لم ينبذ هؤلاء الوطنيين بطريقة أشد حزما من الطريقة التى استخدمها . وهكذا كذبت الحكومة البريطانية حسن ظن سعد بغباوتها ، فلم تأمر بالقبض عليه كما توقع ، وإنما اكتفت بتوبيخ مندوبها السامى لانه لم يكن

حازما في حديثه معه ، وانه لم ينبذه بالقدر الكافي من الاحتقار .. وكل مافعلته الحكومة البريطانية ان قالت ان سعد زغلول رجل لاقية له ، وان مطالبه بالاستقلال التام غير معقولة ولا يمكن قبولها .
وابلغ المندوب السلمي البريطاني رسالة وزير الخارجية الى حسين رشدي باشا رئيس الوزراء . وقال له ان لندن تقول ان سعد زغلول وزميليه يتحدثون بالنيابة عن مصر ، دون ان تكون لهم اية صفة تخول لهم هذا الحق .
وابلغ حسين رشدي باشا ما حدث لسعد زغلول ، وان المندوب السلمي يقول عنهم انهم جماعة من المتطرفين ، يدعون صفة ليست لهم ، وان احدا في مصر لم يكلفهم بطلب الاستقلال لان المصريين سعداء تحت الحماية ولا يريدون الاستقلال !

ورأى سعد زغلول ان يرد على انكار بريطانيا لصفته وصفه الوفد .. بان يطبع توكيلات يوقع عليها المصريون ويفوضونه وزملاءه اعضاء الوفد في السعي للحصول على استقلال مصر التام .
وفكرة « التوكيل » املتها على سعد سابقة اشتغاله بالمحاماة . ان يكتب صاحب القضية توكيلا للمحامي ليتولى قضيته ؟ . إذن فإن واجب الشعب ان يكتب له ولزملائه توكيلا ليتولى قضية استقلال مصر .
ولكن بعض الباشوات من اعضاء الوفد اعترض على كلمة « الاستقلال التام » . وقال انه طلب غير معقول ! تكفى كلمة الاستقلال فقط !
وبعض اعضاء الوفد طلبوا ان يضاف الى التوكيل ان يكون السعي للاستقلال « بالطرق المشروعة » لانهم خشوا ان تفسر الصيغة الاولى بانها قيادة ثورة .

وبعض اعضاء الحزب الوطني اعترضوا على صيغة التوكيل واقتصر الطلب على استقلال مصر ، وطلبوا بإضافة السودان والملحقات .
ويومها كان سعد يحاول ان يركب ثلاثة خيول في وقت واحد !
حصان الحكومة ، وهو يتألف من حسين رشدي باشا وعدلى يكن باشا ، وكان يعتقد انه في حاجة الى تأييد الحكومة او على الاقل الى « تحييدها »
لنستطيع الحركة الوليدة ان تتغلغل في الريف . دون ان تبادرها الحكومة بالبطش والتكثيف ..

وكان حسين رشدي وعدلى يكن يوهمانه بانهما يؤيدانه في المطالبة بالاستقلال ، وفي السفر الى لندن ليطلب . باسم مصر ، بالاستقلال ..
واذا بالوثائق الرسمية البريطانية التي اعلنت بعد قيام الثورة بخمسين عاما تثبت انهما كانا يؤيدان بقاء الحماية البريطانية ، وانهما كانا يلحان

في سفر سعد زغلول حتى يسمع من لندن كلمة الرفض ولا يخرج الحكومة بمطالبه !

وكان سعد لا يثق كثيرا في حسين رشدي ، وعدى يكن ، ولكنه كان يحس انه في حاجة الى ركوب هذا الحصان ليعبر به مرحلة الاعداد للثورة .

كان الحصان الثاني الذي يريد أن يركبه هو فريق الباشوات والاعيان . لقد كان يشعر بأن الحركة في حاجة الى واجهة مؤلفة من أشخاص لهم صفة نيابية ، لتستطيع أن تدعى انها تمثل مصر كلها ، والباشوات والاعيان الذين اختارهم لعضوية الوفد كانوا أعضاء في الجمعية التشريعية . وهى آخر هيئة برلمانية انتخبها الشعب ، وعلى الرغم من تضيق اختصاصاتها فقد كانت لها صفتها الديمقراطية التى لا يمكن للانجليز انكارها . صحيح أن الانجليز اوقفوا نشاطها عندما استطاع سعد أن يكسب للجمعية التشريعية حقوقا لم يعطوها لها .. كما استطاع أن يجعل الشعب يهتم بها ، ويتتبع مناقشاتها ، ويتولى قيادة المعارضة فيها ، وبذلك أصبح الشعب ينظر الى الهيئة كما ينظر الى مجلس نواب حقيقى يزلزل المقاعد من تحت الوزراء الجالسين عليها . وهكذا وقفت الجمعية ضد الخديو وضد الانجليز وضد الحكومة التى يؤيدها الانجليز وحرص على أن يكون أعضاء الجمعية التشريعية الذين اختارهم من الأعضاء المنتخبين الذين اختارهم الشعب ، لامن الأعضاء المعينين الذين عينهم الخديو أو اختارهم الانجليز .

وفضل في عملية الاختيار الأعضاء الذين وقفوا بجواره في معاركه الذين انتخبوه وكيلا للجمعية التشريعية واسقطوا احمد مدحت يكن باشا مرشح القصر والانجليز ، الذين أيدوه عندما طالب بأن يسبق الوكيل الذى انتخبه الشعب الوكيل الذى عينه الخديو . لأن الأمة فوق الحكومة . الذين كانوا ينسحبون معه من جلسات الجمعية كلما اصطدمت المعارضة بالحكومة ، وازادت الحكومة أن تحتج بقانون انشاء الجمعية التشريعية عند مناقشة بعض الموضوعات الحساسة !

كانت الجمعية التشريعية مؤلفة من ٦٦ عضوا ينتخبهم الشعب و ١٧ عضوا يعينهم الخديو . واستطاع سعد في أول الامر أن يحصل على أغلبية الأصوات ، ويهزم الحكومة في معاركه الأولى ، ولكن كلما اشتدت معاركه مع الخديو والانجليز والحكومة ، اشتد ضغط السلطة على الأعضاء وتضاعف اربابها ، فإذا بعدد من الذين خاضوا معاركه الأولى ينفضون من حوله في معاركه الأخيرة . حتى لم يبق معه في النهاية سوى ٢٧ عضوا .. وكان هو الثامن والعشرين .

وعندما طالب بزيادة سلطة الشعب . تخاذلت أغلبية ممثلي الشعب ..
وصرخ فيهم سعد من فوق المنبر : اننى فى هذا الموقف أدافع عن شرفى
وشرفكم ، وإذا قبلتم نظريتي كانت أصلح لى ولكم وللصالح العام !
ولكن الأغلبية تخاذلت ! انها لا تريد أن تدخل فى معركة مع الخديو
والانجليز والحكومة فى وقت واحد . انها لا تريد أن يثير سعد زغلول موضوعا
شائتا أن تتجاهله وهو أن سلطة الشعب سلبها الخديو والانجليز . انها تريد
أن تسد الباب الذى يجرى منه الريح وتستريح !

ويزار صوت سعد زغلول وهو يقول لممثلى الأمة :
- نحن نبقى وندافع ما دام حقنا يعتدى عليه ، يجب علينا أن ندافع عنه
مهما كان الأذى له . ولو سكتنا عن الدفاع عن حقنا لكنا مجرمين !
ولكن أغلبية الأعضاء فضلت أن تكون مجرمة فى حق الشعب . على أن تكون
مجرمة فى حق القصر وحق الانجليز ..

ويصيح الوزراء بأن القانون لا يعطى الجمعية الا حقوقا محددة .
ويقول سعد ساخرا :

- هذا القانون يعطى الأمة حقا . لا لأن تستعمله ، بل لأن يكون زينة ! انا
لا ارضى بأن يبلغ الاستخفاف بالأمة الى هذا الحد .
ولكن أغلبية الأعضاء رضيت أن تستخف الحكومة بالأمة . ونصرت
الحكومة على سعد ، وانسحب سعد وأنصاره من الجلسة ..
وفى جلسة أخرى وقف سعد يتحدث عن سلطة الخديو ، وأنه ليس من حقه
أن ينشئ وزارة الأوقاف بدون استشارة الجمعية ممثلة فى الشعب .
وصاحت الحكومة : أن الخديو هو صاحب السلطة .
وضرب سعد المنبر بقبضة يده وقال :

- ان الجمعية التشريعية ، ممثلة الشعب - ورغم ضعفها - هى شريكته فى
التشريع .

إن الخديو لا يملك صفته كحاكم الا باشتراك القوى التشريعية معه !
وهاج الوزراء فى مقاعدهم وصرخوا فى سعد :
- ان اختصاص الجمعية التشريعية منحة من الخديو .
قال سعد :

- انا أرفض هذا .. انا جئت الى هنا بإرادة الأمة وحدها !
فصاح رئيس الوزراء غاضبا :
- إن تكوين الوزراء فى أوروبا هو حق يملكه رئيس الدولة وحده .
قال سعد :

- عجباً لك ! تستدلون بنظام ليس عندنا منه الا شيء قليل ! اعطونا النظام بأكمله ، واستدلوا كما شئتم ! هناك لو أن الرئيس أصدر أمراً مخالفاً لنظامهم لأسقطوه من عرشه .

وهاج الوزراء وماجوا ، وتلمظ الأعضاء من انصار الحكومة بشفاهم بصوت مسموع استنكرا :

كيف يجرو سعد ويطالب للجمعية بأن يكون لها حق عزل الخديو ! وقالت الحكومة : أن الخديو صاحب السلطة على الأوقاف بالذات . قال سعد : أن الخديو يستمد سلطته من القاضي الذي عينه ناظراً على الأوقاف .

قالت الحكومة : أن الخديو يملك عزل القاضي ، فلا يتصور أن يستمد منه سلطة .

قال سعد : يمكنكم أن تعزلوا القاضي بالقوة .. أما نحن الآن فإننا نتكلم بالقانون .

واحدثت هذه المناقشة دوياً عنيفاً في الرأي العام . ثار الخديو على وقاحة سعد زغلول . هاج لورد كتشنر المندوب السامي البريطاني على تحدى سعد للخديو الذي كان قد عقد سياسة وفاق مع الانجليز . وعلى تحدى الحكومة التي عينها الانجليز . وأصيب الوزراء بهستيريا من أن الرأي العام كله وقف يؤيد سعد زغلول ..

وأسرع بعض الأعضاء يتبرأون من حديثه ويتهمونه بالاضرار بالبلاد وبالشعب ويتحدى الجناب العالي الخديو أمير البلاد وولى النعم ..

وأجاب سعد : ان المطالبة بالعدل واحترام الحقوق لا يضر بالدولة ، واننى تكلمت عن الخديو بحرية ، وأنا وحدى المسئول عن كلامي !

ولم يتحمل لا الخديو ولا الانجليز ، ولا الحكومة هذه المواقف ، ولم تعش الجمعية التشريعية الا ثلاثة اشهر فقط . ولكن كانت هذه المدة كافية لتجعل من سعد الزعيم الشعبى ولتنشئ له قاعدة واسعة في الرأي العام . حتى أن المنشورات السرية ملأت جدران بناء الجمعية التشريعية تأييداً لسعد ضد الخديو وضد الانجليز وضد الوزارة . وكانت هذه الأشهر الثلاثة . قبل كل هذا كافية لغربلة أعضاء الجمعية . ليعرف سعد من يستطيع الصمود والوقوف الى جانبه في معركته الكبرى ..

ومن هنا كان مجال الاختيار امام سعد ضيقاً وهو يقارن بين أعضاء الجمعية التشريعية ليختار من بينهم أعضاء للوفد .

وتحرى سعد في اختياره لأعضاء الوفد أن يكونوا من ذوى الشراء !

كانت الثورة في حاجة الى واجهة ومال ..
وكان من رايه أن الثورة محتاجة الى مال ، والى مال كثير ، بعد أن أدرك أنه
كان السبب في فشل جمعية الانتقام التي ألفها عقب الثورة العربية لأنها لم
تكن تملك مالا تطبع به منشورات . ولم تكن تملك مالا تشتري به الأسلحة ،
ولم تكن تملك مالا توسع به نشاطها ، وتدفع نفقات سفر أعضائها للأقاليم
لانشاء فروع فيها .

كما كان يعرف أن المال كان سببا في تقييد حركة مصطفى كامل ، فحاجته الى
مال الخديو عباس هي التي قيدت حركته . وهي التي قصرت خطوطه ، وهي
التي جعلته يسكت على كثير من جرائم الخديو ..
وكانت حاجة مصطفى كامل الى المال هي التي جعلت جريدة المقطم لسان
حال الاحتلال البريطاني تسميه « شحاذ بردنجوت ؟ » .

فهو لا يريد أن يكرر المأساة التي حدثت له ولحزب جمال الدين ولجمعية
الانتقام بعد هزيمة الثورة العربية .

ولا يريد أن يكرر مأساة مصطفى كامل عندما كان يغضب عليه الخديو
فيقبض يده . ويرضى عنه فيبسط يده . ويحاول أن يأخذ بالقليل الذي يدفعه
الكثير من مصطفى كامل وحركته .

كان سعد يعتقد أن الثورة في حاجة الى مال لانفاقه في الدعاية للقضية
المصرية في الخارج . ولدفع مصاريف الوفود التي سيوفدها الى عواصم العالم
تشرح قضية الشعب المصرى وحقه في الاستقلال .

مال لشراء أسلحة . إن الجيش البريطانى جمع الأسلحة من الأهالى عقب
إعلان الحماية البريطانية . جرد الشعب من السلاح . أنه لا يريد سلاحا في
مستوى سلاح الجيش البريطانى الذى هو أعظم جيوش العالم سلاحا .
ولكنه يريد أسلحة للمقاومة . أسلحة توقف زحف الجيوش أو تؤخر هذا
الزحف ، ولايطمع في الحصول على أسلحة ينتصر بها المصريون على جيش
أكبر إمبراطورية في العالم .

مال لتمويل عمليات الاضراب وخاصة اضرابات العمال . انه مؤمن بوطنية
العمال ولكنه مؤمن أيضا بأن العامل المصرى لا يقتصد مليما واحدا لينفق
منه يوم يقطع أجره اليومى . انه يستطيع أن يتحمل الجوع يوما . ولكنه
لا هو ولا زوجته ولا أطفاله يحتملون الجوع الكافر لأسابيع وشهور . يجب
أن تكون الثورة قادرة على دفع تعويضات بسيطة تضمن للعامل المضرب قوته
الضرورى ، بدلا من أن تترك العمال وأسرهم يموتون من الجوع .

مال للانفاق على أسر الضحايا والشهداء . يكفى أن الشهيد قدم روحه

من أجل هذا الوطن . يجب أن يقف الوطن الى جوار أسرة هذا الشهيد . حتى لا يقول الناس : هؤلاء الضحايا هم ضحايا يحيا الوطن !
مال لطبع المنشورات ، ومال لطبع الصحف السرية بسبب اعلان الاحكام العرفية والرقابة الصحفية ، ومال لإنشاء شبكة مواصلات سرية تعمل تحت الأرض في أنحاء مصر كلها .

ومن أجل هذا رحب سعد بضم على شعراوى باشا الى الوفد لأنه مليونير كبير . ويعتبر أغنى رجل في الصعيد . على الرغم من أنه رجعى التفكير ، متعصب ضد الأقباط ، وهو الأمر الذى أدهش الانجليز عندما علموا بانضمامه الى حركة سعد زغلول ، ومن أجل هذا رحب أيضا بمحمد محمود . وقد كان صديقه الحميم ، وكان ثانى رجل من الأعيان فاتحه سعد بفكرة إنشاء الوفد . وكان الرجل الأول هو أحمد لطفى السيد . وكان محمد محمود مثل سعد ساءطا على الانجليز وعلى القصر ، ولكنه قبل ذلك كان الابن البكر لمحمود سليمان باشا من كبار أغنياء الصعيد ، والذى رشحه سعد زغلول سلطانا على مصر ، وقد اختاره رئيسا للجنة الوفد المركزية في مصر ، ومن أجل هذا رحب بضم جورج خياط بك فهو الى جانب تمثيله للأقباط يملك آلاف الأفدنة في الصعيد ، ومن أجل هذا أيضا رحب بضم عبدالخالق مذكور باشا سر تجار مصر لأنه مليونير .

وكان سعد يعتقد أن الحركة في حاجة الى أموالهم .. بل انها في حاجة الى أموال ضخمة أكثر من أموالهم .

وحدث في أثناء تأليف الوفد أن زار سعد في داره أغنى رجل في مديرية المنوفية ، وأبلغه أنه معجب أشد الأعجاب بموقف سعد وحركته ، ولهذا فإنه مستعد لأن يتبرع للوفد بمائة ألف جنيه ..

وسر سعد لهذا الموقف الوطنى الكريم من عين أعيان مديرية المنوفية . ولكن حدث في اليوم التالى أن ذهب الثرى الكبير الى سعد ، وقال انه تأكد أن الانجليز والحكومة والقصر لا يوافقون على حركته ، ولذلك فهو يسحب تبرعه !

ومرة ثانية ذهب أحد باشوات المتزوجين من احدى أميرات أسرة محمد على ، وكان صديقا حميما لسعد ، وأبلغه أن الأميرة زوجته متحمسة لحركته ، وأنها على استعداد لأن تتبرع بأى مبلغ يريد سعد مساهمة منها في حركته الوطنية .

وبعد يومين عاد الباشا زوج الأميرة الى سعد ، وأبلغه أن الأميرة تأكدت أن هذه الحركة التى يتزعمها ترمى الى القضاء على السلطان وأسرة محمد على ، ولهذا فهى تسحب تبرعها !

وغير هؤلاء من الأثرياء والأغنياء والاقطاعيين نكسوا على أعقابهم عندما علموا أن الانجليز ينظرون الى الحركة بالعين الحمراء ، وأن السلطان فؤاد يقاومها ، وأن الحكومة تؤيد الحركة علنا وتحاربها سرا !

وقد دون سعد هذه الوقائع كلها في مذكراته في أول الثورة ، وقال أنه ثبت له وهو في بداية الثورة أنه لا يمكن الاعتماد على كبار الأغنياء ، الذين لا يفكرون الا في مصالحهم الشخصية ، وأنه يجب الاعتماد على الفقراء ، الذين لا يملكون الوف الأقدنة ، وليست لهم أرضة ضخمة في البنوك ، ولا يريدون الا خدمة وطنهم وهم مستعدون لأن يبذلوا كل ما يملكون ، حتى أرواحهم ، في سبيل تحرير البلاد من الاحتلال .

وهذا يدل على أن سعد كان يعرف قيمة هذا الحصان ، حصان الأغنياء ، منذ أول الأمر ، ولكنه كان مضطرا أن يمتطي هذا الحصان في فترة مرحلية ، ليحصل على واجهة ديمقراطية للثورة ، وليحصل على المال الكافي لتمويل عملياتها .

أما الحصان الثالث الذي كان يحاول أن يركبه فهو حصان الثوار .. حصان الشباب .

وكان بين هؤلاء الشباب من تعدى الأربعين مثل عبدالرحمن فهمي ، ومن هو في الثلاثين من عمرهم أمثال الدكتور أحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي وحسن كامل الشيشيني وعبد البرقوقي ويوسف الجندی وغيرهم .

ولم يكن أى واحد من هؤلاء معروفا للناس ، أو يملك أى مال تعتمد عليه الثورة ، ولكن كان فيهم طاقات ثورية تساوى ملايين الجنيهات ، وحرص سعد على أن يكون كل هؤلاء تحت الأرض ، ولم يضم الى عضوية الوفد واحدا هم ، حتى عبدالرحمن فهمي لم يدخل عضوية الوفد الا في سنة ١٩٢٤ بعد وجه من السجن .

وكانت تعليمات سعد لهذه القيادة تحت الأرض أن ساعة القبض عليه هي ساعة الصفر ، وبدأت القيادة السرية تستعد . راحت تؤلف الخلايا . تشتري الأسلحة . تضع الخطط . انتظارا لساعة الانقضاء ! ولكن ساعة الصفر المحددة للانفجار لم تجيء !

ورأى سعد أن يتحرك من جديد . أن يتعجل ساعة الصفر المنتظرة فانتهز محاضرة يلقيها المستشار القضائي البريطاني في جمعية الاقتصاد السياسي وذهب الى المحاضرة والقى خطابا ناريا في حضور المستشارين الانجليز أعلن فيه سقوط الحماية البريطانية عن مصر وبطلانها أمام القانون الدولي . وانتظر سعد أن يقبض عليه بسبب هذا الخطاب المثير ولكن هذا لم يحدث . فقرر أن يتعجل ساعة الصفر من جديد .. ساعة القبض عليه .

ارسل التعليمات الى جميع الأجهزة السرية بتوسيع نطاق الحصول على توقيع الشعب على التوكيلات . كانت التعليمات مقصورة على أن يكون التوقيع لأعضاء الجمعية التشريعية والمحامين والأطباء والعمد والمجالس المحلية والأعيان فأمر سعد بالآ يقتصر جمع التوكيلات على المتعلمين ، بل أن يوقع أيضا الفلاحون والعمال . الذين يعرفون الكتابة يوقعون بأيديهم . والذين يجهلون يوقعونها بأختامهم أو بأبهامهم !!

واندفعت التنظيمات الى الحقول الى تجمعات العمال . وقع الحوزية . وقع عمال الترام . بضم عمال العنابر . بضم الفلاحون . خرج الشعب كله يوقع التوكيل لسعد زغلول وزملائه متحمدا الأوامر التي أصدرها مستشار وزارة الداخلية البريطاني بمنع التوكيلات ومصادرتها .. وتوقع سعد أن يكون هذا التحدى الجديد سببا في دفع الانجليز الى سرعة القبض عليه .

ولكن وزير الخارجية البريطانية الذي تلقى انباء هذه التوكيلات وما صاحبها من مطالبة الشعب بالسماح لسعد بالسفر الى لندن ليقيم طلب مصر الخاص بالاستقلال . ولكن وزير الخارجية لم يأمر بالقبض على سعد زغلول . وإنما ابرق إلى المندوب السامي البريطاني يقول له « لاحظ أن الزعماء المتطرفين يستغلون استقبالك لهم بدار الحماية . وهو عمل جانبه التوفيق . إنك بطبيعة الحال سوف توضح لهم تماما أنك تنظر الى أعمال الاثارة التي يقومون بها . وإلى جميع من يشتركون فيها . نظرة عدم الرضا . كذلك فإننى أوجه نظرك الى مطالبة السلطان والوزراء بأن يظهروا مشاركتهم لرابى . وقد سمعت أن زعماء الحركة ليس لهم وزن كبير . ولكن الحركة يمكن ببساطة أن تصبح حركة خبيثة ، بل يمكن أن تتسبب في فتنة . إذا سمح لها بأن تمضى دون أن تكبح ، ولأشك أنك ستتخذ كافة الإجراءات اللازمة لمنع هذه التطورات . وأرجو أن تبقينى على علم كامل . »

هكذا تصور وزير خارجية بريطانيا أن المصريين أقبلا على تأييد سعد زغلول الذى لا وزن له لأن المندوب السامي البريطانى في القاهرة شرفه بأن يستقبله في دار الحماية ! وأنه لولا هذه المقابلة لما كان لسعد وزميلييه أى شأن أو أى وزن أو أية قيمة ! وتصور وزير الخارجية البريطانية أنه يكفي أن يعلم سعد أن المندوب السامي البريطانى ينظر الى أعماله « نظرة عدم الرضا » حتى يتوقف عن أعماله ، ويعدل عن المطالبة بالاستقلال . ويمزق توكيلات الشعب !

وذهب المندوب السامي البريطانى الى السلطان فؤاد وطلب إليه أن ينفذ

أمر وزير الخارجية البريطانية ويبلغ سعد زغلول أنه غير راض عن حركته !
وأوفد السلطان فؤاد صديقه أمين يحيى باشا الى سعد يبلغه عدم رضاه .
وضحك سعد وقال : اننى لم أشك فى يوم من الأيام فى أن السلطان غير راض
عن حركتى ! لقد عرضت عليه أن أكون رئيسا للجمعية الخيرية الاسلامية
فقال إنه لا شأن له بهذا . قالها بعصبية ! فإذا كان قد استكثر على أن أكون
رئيسا لجمعية خيرية .. أفلا يستكثر على بالتالى أن أكون رئيسا للوفد الذى
يمثل الأمة !

قال أمين يحيى باشا : ان السلطان يعتذر بأن هذه أوامر وزير خارجية
بريطانيا .

وقهقه سعد وقال : غلبان عظمة السلطان ! كان الله فى عونك ! اننى أعرف
أنه يخاف أن يرفقه الانجليز فيموت من الجوع !
وذهب حسين رشدى باشا الى سعد زغلول وقال له ان المندوب السامى
البريطانى تلقى تعليمات بأن يظهر العين الحمراء لسعد زغلول ..
فقال سعد .

- هذه بشرى طيبة .

قال رشدى : أن من رأيك أن يحنى رأسه للغاصفة حتى تمر ، ويتوقف عن
طلب السفر الى لندن للمطالبة باستقلال مصر ..
ورد سعد على هذا الرجاء بأن كتب خطابا الى القيادة البريطانية يطلب
جوازًا للسفر له ولزملائه ، للمطالبة باستقلال مصر ..
ورفضت القيادة البريطانية منح جوازات السفر .. فلم يستك سعد وأرسل
الى المندوب السامى البريطانى يحتج على الرفض .
وأراد المندوب السامى أن يظهر احتقاره لسعد زغلول . تنفيذًا لتعليمات
لندن . فكلف سكرتيره بأن يرد عليه برفض الطلب ويقول له اذا كان لديه
طلبات فليقدم بها كتابة الى المندوب السامى البريطانى ، بشرط أن تكون هذه
الطلبات فى حدود الحماية البريطانية على مصر .

وعاد سعد فكتب الى المندوب السامى مطالبًا بالسماح له بالسفر الى لندن ،
ويقول له ان الشعب وكله للمطالبة بالاستقلال التام . وليس بتقديم مطالب فى
حدود الحماية ، وأنه لا يستطيع أن يخرج عن توكيل موكله .
ولم يرد المندوب السامى البريطانى على خطاب سعد ، فما كان منه الا ان
ارسل برقية احتجاج مطولة الى مستر لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا .
وأمر المندوب السامى رقابة البرقيات بمنع ارسال هذه البرقية .
وهنا قرر سعد أن يبدأ حملته الدولية . فوضع مذكرة بمطالب مصر ،

وقعها هو وعبدالعزى فهمى وعلى شعراوى ، وفيها نداء موجه الى دول العالم يشهداها على التصرفات الاستبدادية للسلطة الانجليزية في مصر . وان مصر ترفض اى قرار يصدره مؤتمر الصلح في غيبيتها ..
ووزع النداء على جميع الدول الأجنبية في مصر ..
وابرق بنفس النداء الى الرئيس ويلسون رئيس الجمهورية الأمريكية .
وثار المندوب السامى البريطانى ، فقد أصبحت الحركة تتحدى بريطانيا دوليا .

وطلب سعد من حسين رشدى أن يقدم استقالته تضامنا مع الوفد واحتجاجا على منعه من السفر ، وقدم رشدى استقالته هو وعدى يكن ولكن السلطان لم يقبلها ..
وبدا رشدى باشا يتلقى تهديدات من جمعية اليد السوداء تطلب اليه الاصرار على الاستقالة .

وكان سعد قد طلب من رشدى أن يكتب في استقالته أنه يستقبل احتجاجا على الانجليز . لأنهم منعوا الوفد ممثل الشعب من السفر الى لندن للمطالبة بالاستقلال .

ولكن رشدى لم ينفذ ما طلبه سعد زغلول وقصر سبب استقالته على منعه وزميله عدلى يكن من السفر الى لندن .
وبعد عشرين يوما كتب رشدى باشا استقالة أخرى ضمنها ما طلب سعد زغلول ! ورفض السلطان الاستقالة .

وكان السلطان يتلقى كل يوم خطابات تهديد بالقتل من جمعية اليد السوداء وجمعية الانتقام وجمعية الشعلة . وجمعية مجلس العشرة وجمعية مجلس الانتقام وجمعية المصرى الحر !

ودب الذعر في قلب السلطان فما جعله لا يبيت في مكان واحد ليلتين متتاليتين . كان حائرا يتنقل بين قصر البستان وقصر عابدين وقصر القبة ! ولم يجد السلطان مصرية واحدا يجرؤ على تأليف وزارة !
واسرع السلطان فؤاد الى المندوب السامى يقول أنه يعيش في رعب ، وان سعد زغلول هو الذى يمنع الوزراء المصريين من تأليف الوزارة . وان بعض الذين كانت تحفى أقدامهم من أجل أن يصبحوا وزراء . يرفضون الآن منصب رئيس الوزراء في ظل الحماية .

وجن جنون المندوب السامى البريطانى . وجن جنون السلطة البريطانية ، وعقدوا اجتماعا لاتخاذ اجراء مع سعد زغلول .
وبادر القائد العام للقوات البريطانية باستدعاء سعد زغلول وأعضاء الوفد للحضور الى مركز القيادة في فندق سافواى .

وخيل لسعد انهم سيلقون القبض عليه فحمل حقيبته معه في العربة .
ولكن خاب أمل سعد .. فما كاد الزعماء يجتمعون في غرفة سكرتير القائد العام ، حتى أوقفهم السكرتير صفا واحدا أمام القائد العام !
ووقف القائد العام البريطاني، وقفة عسكرية ثم تلا بالانجليزية البيان التالي :

« علمت انكم تضعون مسألة وجود الحماية البريطانية موضع المناقشة ،
وانكم تقيمون العقبات في سبيل الحكومة المصرية ، بالسعى في منع تشكيل
وزارة جديدة ، وحيث ان البلاد تحت الأحكام العسكرية . لذلك فواجبى أن
انذركم بأن أى عمل منكم يرمى الى عرقلة مسير الإدارة ، يجعلكم عرضة
للمعاملة الشديدة ، بموجب الأحكام العرفية . »
وبعد أن ألقى القائد البريطاني بيانه أمر بترجمته الى اللغة الفرنسية
ليتاكد من أنهم فهموه ..

وطلب بعض الأعضاء ترجمته الى اللغة العربية .
فقال القائد العام بحزم : الفرنسية فقط !
وبعد انتهاء المترجم . وجه القائد العام الى سعد ورفاقه نظرة حادة وقال :
- لا مناقشة !

وتركهم وانصرف .
وابتسم سعد وهمس في أذن محمد محمود !
- ما معنى هذا ؟
قال محمد محمود :
- معناه إنصرف !

قال سعد في حيرة : إنصراف ؟ إنصراف كيف ؟
وهكذا تاجلت ساعة الصفر مرة أخرى !
واعتمدت القيادة البريطانية أن الانذار البريطاني العنيف ، سيرعب سعدا
وزملاءه ، وسوف يغلقون أفواههم ، ويلزمون بيوتهم ، خوفا ورهبة من تهديد
القائد العام ..

وإذا بسعد يبرق في اليوم التالى الى رئيس وزراء بريطانيا يحتج على إنذار
القائد العام وتوعده بأشد العقاب العسكى وقال انه يطالب بالاستقلال التام
ويرى ان الحماية غير مشروعة ، واستطرد في برقيته قائلا : « إننا اخذنا على
عائقنا واجبا وطنيا لا نتأخر عن ادائه ، وهدد رئيس وزراء بريطانيا بسخط
العالم المتمدن على هذا التصرف الجائر ! »

وأمر المندوب السامى البريطانى السلطان فؤاد . بأن يقبل استقالة وزارة

حسين رشدى ، فصدع السلطان بالأمر ، وقبل استقالة الوزارة .
وكتب سعد خطابا عنيفا الى السلطان فؤاد ، وكان أعنف خطاب كتبه شرقى
الى ملك وسُلطان ، وفيه يلومه باسم الشعب لأنه قبل استقالة الوزارة ، كما
يلومه على أنه قبل مشورة الانجليز ، ويلوح له بأنه من الخير له أن يتنازل عن
عرش مصر من أن يقف هذا الموقف من مطلب شعبه فى الحرية والاستقلال ..
وذهب سعد وزملاؤه الى القصر وطلبوا مقابلة السلطان ليقدّموا له هذا
الخطاب باسم الأمة .

ورفض السلطان أن يقابلهم .
فتركوا له الخطاب موقعا عليه منهم . وتركوا معه ترجمة باللغة
الفرنسية ، لأن السلطان فؤاد لا يجيد اللغة العربية !
واسرع سير شيتهم المعتمد البريطانى فأرسل البرقية التالية الى لورد
كيرزون وزير الخارجية :

« إن استقالة رشدى باشا كانت صدمة شديدة لسعد زغلول ، الذى كان
يعتقد أنه وأصدقائه سيسمح لهم على وجه اليقين بالسفر الى أوروبا للدعوة
للاستقلال . ان سعد زغلول يحاول الآن منع تشكيل حكومة جديدة تعمل على
تدهور حربه أكثر مما تدهور ومن الواضح أن السياسيين الذين كان من الممكن
أن يشتركوا فى تأليف الوزارة يتعرضون للتهديد بالقتل . حتى لا يقبلوا دخولا
الوزارة .

« واتخذ سعد اجراء محددا لتهديد السلطان . ووقف تعاونه الحالى معنا ،
إعادة تشكيل مجلس الوزراء .

« وفى يوم ٣ مارس توجه سعد الى قصر عابدين ومعه بعض أتباعه من
أعضاء وفده الاصل ، ولما لم يسمح لهم بالدخول . ترك سعد احتجاجا موجه
للسلطان . وقد أرسلت ترجمة لهذه الوثيقة بالحقيبة الدبلوماسية أمس .
« ولو أن الاحتجاج صاغ بلهجة مؤدبة فى نواح كثيرة ! الا انه يندد
بالحمية ، ويحذر السلطان من قبول مشورة دار الحماية . ويتضمن تهديدات
مقنعة بقناع رقيق ضد السلطان اذا مضى فى تشكيل الوزارة » .

« وقد قيل لى أن لغة الاحتجاج لا تبرر رفع الدعوى أمام المحاكم المصرية
ضد سعد زغلول ، على أساس أن الاحتجاج فيه إهانة للسلطان ، كما قيل لى أن
هناك صعوبات فنية لادانة سعد زغلول بنفس التهمة فيما لو رفعت عليه
الدعوى أمام المحاكم العسكرية البريطانية ، بموجب القوانين المعمول بها » .
« وفى رأى على أية حال ، اننا لانملك أن نتغاضى عن حملة من التهديد
تستهدف منع تشكيل حكومة مصرية فى ظل الحماية فى وضعها الحاضر » .

« ولدى معلومات وثيقة ، بأن سعد يحاول إثارة نقابة المحامين الوطنية ، وهى حصن مؤيديه ، لتوجه احتجاجا وقحا آخر الى السلطان ، وكذلك لشل حركة المحاكم الوطنية عن طريق إضراب عام » .
« فإذا ما سمحنا لهذه الاجراءات بأن تستمر ، فإن علينا أن نتوقع حدوث مؤامرات ، توجه ضد اطاعة القوانين الحكومية مباشرة ، وازدياد صعوبة تشكيل وزارة .

« وعلى ضوء هذه الاعتبارات فقد طلبت الى القائد العام فى مصر أن يرسل فى طلب سعد واتباعه المعروفين ، وأن يلفت نظرهم بصورة جدية ، الى أن طريقة الاثارة التى يتبعونها فى الوقت الحاضر تتعارض مع المصالح العسكرية ، ومثل هذا التحذير لن يكون كافيا لاقناع الزعماء الوطنيين بالكف عن سياسة التهديد والمؤامرات الخفية » .

« ان السلطان فؤاد قد اهتز للأسلوب الذى صيغ به إحتجاج سعد زغلول . الذى يعتبر فى الحقيقة إهانة للسلطان وأمنه » .

وقد أخذت رأى المستشارين الرئيسيين الذين اتفقوا معى على أن السبيل الواضح امامنا هو نفى سعد زغلول خارج مصر ، ويفضل أن يكون ذلك فى الهند أو سيلان . أن سعد زغلول لم يعد منذ وقت طويل يصغى لجانب العقل .

ويقضى وقته فى لعب القمار ، وقد وصلت حركته الى نقطة يتحتم معها اللجوء الى وسائل أشد عنفا ، للاحتفاظ بقيضتنا على طبقة المثقفين .
وأصبح المعتدلون ، وذوو الإدراك من المصريين ، يعجون لسماحنا لهذه الحركة بأن تمضى فى طريقها طويلا دن أن تكبح ، ولربما كان من المؤسف أن أضطر الى طلب إقصاء مشاغب سياسى فى الوقت الحاضر ، بالنظر الى طبيعة دعاية سعد المتمثلة فى أنه أشد خطرا من أولئك الذين نفيناهم الى مألطة منذ بداية الحرب ، لهذا فإننى أطلب إلقاء القبض عليه وإبعاده فورا .
وأرجو اتخاذ قرار عاجل فى هذا الشأن من أجل سمعة السلطان فؤاد باعتبارها ذات أهمية سياسية لنا » .

وأهمية هذه البرقية فى أن المندوب السامى البريطانى أرسلها الى وزير الخارجية البريطانية بالاتفاق مع السلطان فؤاد . الذى شعر بأن سعد يهز عرشه من تحتة ، وقال انه لا يستطيع أن يحكم اذا بقى سعد فى مصر !
ما كاد لورد كيرزون يتلقى هذه البرقية حتى اتصل بلويد جورج رئيس الوزراء ولورد بلفور وزير الخارجية الموجود فى باريس ، واتفق الثلاثة على إلقاء القبض فورا على سعد زغلول .

وفي اليوم التالى أرسل لورد كيرزون من لندن البرقية التالية الى سير شيتهم القائم بأعمال نائب الملك فى القاهرة .

« بشأن برقيتكم رقم ٣٤٨ . عليكم أن تتخذوا على الفور إجراء يضع حدا للأعمال التى يقوم بها سعد زغلول واتباعه . لمحاولتهم منع السلطان والوزراء من ممارسة مهامهم ومسئولياتهم على الوجه الصحيح .

« ولذلك فقد خولناك السلطة للاتفاق مع القائد العام على إلقاء القبض على سعد ، وإبعاده فوراً الى مالطة . بدون تحذير آخر لسعد وللمقربين المتصلين به عملياً فى حملته المتعمدة للثأر .

« ونرى الا يشمل الابعاد اكثر من عدد الاشخاص الذين تحتم الضرورة إبعادهم . والا يكون عبدالعزیز فهمى واحدا منهم !!!

« وقد صدرت التعليمات الى حاكم مالطة للاتفاق مع القائد العام فى هذا الشأن . ولاتخاذ ترتيبات إقامة الأشخاص المبعدين .. »

انتهى نص البرقية السرية !

وهى البرقية التى حددت ساعة الصفر التى مكث سعد زغلول طويلاً ينتظرها ..

ومن أجل هذا كان سعد يقول « لابد من قارعة » !

ومن أجل هذا كان يتمشى أمام مكتبه مترقباً كل يوم . وصول الذين يجيئون للقبض عليه .. فإذا مضى اليوم دون أن يجضروا قال لأحد أعضاء الوفد :

« ائراهم لا ياتون ؟ هذا لاينفع !! إما أن يدعوننا نسافر او يقبضوا علينا .. والا فهم يتركوننا نموت فى مواضعنا !

ومن أجل هذا هش سعد فى وجه الضابط البريطانى الذى جاء للقبض عليه وقال له :

« جئت متأخراً .. إننى انتظرك منذ وقت طويل !

وهكذا تم القبض على سعد فى يوم « التنفيذ الكبير » ! !

ولم تضرب رتيبة يومها ابنها « على » الصغير لأنه اخطأ فى البروتوكول . ودخل مكتب جده « سعد » بغير استئذان . وقطع عليه حبل تفكيره ، فقد كان عذر الطفل الصغير أنه ارتكب خطأ فى البروتوكول فى يوم القيامة !





● ● زعيم الأمة سعد في طريقه إلى إنجلترا لمفاوضة الانجليز على الجلاء ..

● الفصل العاشر ●

احس الطفلان الصغيران بالرعب في وحدتهما المفاجئة . خلا البيت في دقائق من اعضاء الوفد وانصار سعد واعضاء السكرتارية ، كان الارض انشقت وابتلعتهم جميعا . اطفئت انوار السلامك وانوار الباب الكبير . ولم تغب ستهما وامهما طويلا . كانت المسافة التي قطعها العربية التي يجرها حصانان لالتجاوز عشر دقائق ، من بيت زكية هانم شقيقة صفية الكبرى وبيت سعد . ولكن هذه المسافة القصيرة بدت كأنها طويلة جدا . بدت لهما في رعبها كأنها استمرت دهرا طويلا . ان احدا لم يهتم بهما .. لم يفسر لهما ما حدث . لم يشعرنا بمعنى القبض على جدهما الكبير الا عندما خلا البيت من الناس ومن الدوى ومن خلایا النحل . فهما عندئذ أن شيئا هائلا قد حدث . وساعد ظلام مارس المبكر على خوفهما . وبدت لهما اشجار الحديقة كأنها اشباح . وعندما وقفت العربية ونزلت منها زكية هانم تتبعها صفية ثم رتيبة . اسرع الطفلان يرتميان في احضان امهما وستهما ويبيكان . واحتضنتهما الأم والجدة . وتلفتت صفية حولها الى السلامك المظلم الخالي وقالت : ماذا حدث ؟ قال الحاج احمد خادم سعد الخاص : قبضوا على الباشا ! قالت صفية : اعرّف انهم قبضوا على الباشا .. ولكن أين الناس ؟ أين اعضاء الوفد ؟

قال الحاج احمد : انصرفوا الى بيت شعراوى باشا واخذوا اوراق الوفد خشية ان يعود الانجليز الى تفتيش البيت ! وهاجت صفية وماجت وقالت : ان سعدا لم يمت .. ان بيت سعد سيبقى مفتوحا ليكون مركز قيادة الثورة . واسرعت الى التليفون وطلبت الى على شعراوى باشا ان يعود اعضاء الوفد الى البيت ليجتمعوا فيه . وجلست صفية في النافذة تطل على الشارع . كأنها تنتظر قدوم الثورة ولكن الشارع بقى هادئا ساكنا . كان الناس أصبحوا يخافون السير فيه لانه أصبح شارع الخطر . كان البيت طار فجأة واستقر في صحراء مهجورة وغير مسكونة . ثم بدأت بعض السيدات في الحضور الى البيت . كان أغلبهن متشحات بالسواد وكانهن جئن للتعزية في ميت . الوجوه كالحة . العيون دامعة . الشفاه هامسة . وصرخت صفية قائلة : لسنا في ماتم اننا في ثورة ! وسكت السيدات الجالسات مشدوهات . كان واحدة منهن لم تفهم ما تعنى صفية !

وقالت زوجة أحد الوزراء من صديقات صفية : ان الباشا قال لى ان رشدى باشا حذر سعد باشا من هذا المصير وطلب اليه التروى وباليته سمع كلام رشدى باشا .

وتشجعت سيدة اخرى وقالت : ان سعد باشا اخطا فى الاعتماد على الشعب ! ان الشعب لا حول له ولا قوة !
وانتفضت صفية من مقعدها وتركت ضيوفها وخرجت الى غرفة اخرى فيها رتيبة وقالت لها :

— اذهبى انت واجلسى معهن ! لو بقيت فى الغرفة فسوف أطرد كل هؤلاء السيدات من البيت !

وعادت صفية تطل من النافذة من جديد فى انتظار الشعب ، ولكن الشعب لم يجرى ، وبعد ساعة وصلت سيارة فيها على شعراوى باشا وقابلها وقال لها :

— ان الوفد أرسل احتجاجا الى رئيس وزراء بريطانيا ورئيس جمهورية أمريكا والى مسيو كليمنصر رئيس مؤتمر الصلح ! .. لقد أرسلنا الاحتجاجات بالتلغراف !

وقالت صفية ساخرة : ان التلغرافات لا تحطم قضبان السجون !
قال لها شعراوى : ان كل اعضاء الوفد بكوا عندما سمعوا بالقبض على سعد باشا !

قالت له بعدم اكتراث : الدموع لا تحرر الأمم ولكن تحررها السيوف ..
قال على شعراوى يهدئها : ان سياسة الوفد هى المقاومة بالطرق المشروعة ..

قالت صفية : وهل القبض على سعد وزملائه عمل مشروع ؟ ! الرد على العمل غير المشروع يكون بالوسائل غير المشروعة !
ولم يشأ شعراوى باشا ان يمضى فى مناقشتها فتركها ودخل الى مكتب سعد ثم تتابع حضور اعضاء الوفد .

ودخل اعضاء الوفد وقابلوا صفية وقال عبدالعزيز فهمى .

— المهم أولا ان نعرف أين سعد باشا ؟

قالت صفية :

— المهم أولا ان أعرف أين انتم ؟ انا لا أعرف هل سيسجنونه .. هل سيقتلونه .. هل سيحاكمونه .. وأؤكد لكم أنه لايهمه مصيره . المهم هو مصير البلد . المهم ان يتحرك البلد !

قال جورج خياط بك ! البلد فى مأتم !

قالت صفية : لا أريد أن تجعلوا المسألة مأتما لرجل أو لأربعة رجال ! ..
المهم أن يكون اليوم هو بعث الأمة كلها !
قال لها أحمد لطفي السيد : اننا لن نتخلى عن سعد أبدا .. أن أرواحنا
وحياتنا فداء له فاطمئنى !

وعادت صفية من لقائهم تعسة أكثر مما كانت عندما علمت بالقبض على زوجها . وجدتهم أسفين أكثر مما هم غاضبون . وجدتهم حزاني أكثر مما هم ثائرون . وجدتهم لا يزالون يتحدثون عن البرقيات والاحتجاجات والمذكرات !
وعادت تطل من النافذة من جديد . تحاول أن تسمع أقدام الملايين وهى تدب على أرض الشارع . تحاول أن تلتقط همسات من بعيد فتتوهم بانها أصوات الجماهير الغاضبة .

ثم تسمع انفجارا تحسبه طلقات رصاص . فيبدو على وجهها الارتياح . وتهتز طربا كأنها سمعت انغام موسيقى خالدة . ثم تقطب وجهها بعد أن تبين أن ما سمعته هو صوت طرقعة ماسورة موتوسيكل . ويزيد في كابتها ما تسمعه من السيدات من صديقاتها . كلماتهن فيها أشفاق . فيها عزاء فيها لعنات على هذا الشعب الذى لا فائدة فيه ولا رجاء منه . الناس موتى لا يبعثون . نائمون لا يتيقظون خائفون لا يتحركون . الناس لا يهمهم إلا أنفسهم . أن سعد باشا كان ينفخ في قربة مقطوعة . كان يستند الى جدار مائل . كان يعتمد على من يتصور أنهم أسود فاذا بهم يثبتون انهم فيران ! كانت كل سيدة تطعن في الشعب المصرى وهى تظن انها بذلك تعزى صفية في بلائها . ولكن هذا العزاء كان أشبه بالسياط يجلد روحها . أين الشعب ؟ لقد مضت ساعات بعد القبض على زعيمه ولم ينتفض . لم تقم مظاهرة . لم تخرج الجماهير من بيوتها لتخليصه من يدى أسريه ! ان الناس ينامون الآن كما اعتادوا أن يناموا كل يوم . يأكلون كما كانوا يأكلون . بعضهم ذهب الى السينما أو ذهب الى المسرح ليشهد رواية « كشكش بك عمدة كفر البطيخ » لفرقة نجيب الريحانى أو ليضحك في مسرحية « ياستى .. ماتمشيش كده عريانه » التى تمثلها روز اليوسف وعزيز عيد !

أ يكون زوجها مخدوعا في هذا الشعب الذى امن به ، الذى وهبه عمره وفكره ؟ لقد كان يقول لها دائما انه مؤمن بأن هذا الشعب قادر على أن يحطم قيوده ويكسر أغلاله . وينقض على غاصبيه وجلاديه . ولكن أين هو هذا الشعب ؟ انها تعودت أن تصدق كل كلمة يقولها سعد . انها عرفت طول حياتها معه رجلا لا يكذب أبدا . ولكن هاهى ذى ترى القيامة تقوم دون أن يبعث الناس من قبورهم . هاهى ذى تسمع صوت القارعة .. وكان المصريين جميعا أصيبوا بالصمم لا يسمعون ما تسمع ..

وجلست صافية ورتيبة والطفان على مائدة العشاء . وبقي مقعد سعد خاليا . الطبق امامه . والشوك والسكاكين والأكواب في مواضعها المعتاد . وأبت صافية ورتيبة أن تأكلا شيئا .. جلسنا صامتتين لا نتكلمان . واكل الطفان كالمعتاد . لم تستطع معدة الطفلين الخاوية أن تشارك في الموقف الرهيب .

ثم اقبل الحاج أحمد وقال لصافية : الدكتور أحمد ماهر يريد أن يقابلك فورا .. لقد قلت له ان الهانم على العشاء فقال انه يريد أن يراك الآن وليس لديه أى وقت للانتظار .

ونَهَضت صافية من مقعدها وهى تقول : لعله جاء هو الآخر ليعزىنى ! وبعد دقائق عادت صافية الى المائدة وهى امرأة أخرى .. هذه المرأة العجوز أصبحت عروسا من جديد . امتلأ وجهها بالشباب والجمال . كانت عيناها تضحكان وترقصان ...

وطلبت الطعام الذى رقصت أن تأكله . وبدأت تاكل بشراهة ورتيبة تنظر اليها فى دهشة ..

وأخيرا قالت صافية لرتيبة :

— ألم أقل لك أن سعد لا يكذب أبدا !

إن أحمد ماهر جاء لصافية فى وسط الخطر يقول لها :

— انتظرى غدا .. أن الشعب سيتحرك غدا !

ولكنها لم تخبر يومها الطفلين وأمهما بما قاله الدكتور أحمد ماهر . كل ما قالته أن الشمس ستشرق غدا !

ولم يفهم الطفان ما تقصده ستهما ؟ ولم يفهما لماذا ملأت الابتسامة وجه أمهما الحزين . انهما يعرفان أن الشمس تشرق صباح كل يوم . أكانت ستهما وأمهما فى شك من أن الشمس لن تشرق فى اليوم التالى لأن الانجليز قبضوا على جدهما ؟ أيكون المقصود بهذا الكلام المريب أن جدهما هو الشمس . وأنه غاب اليوم وسيعود غدا ؟

ويملأ الفضول صدرى الطفلين . كل واحد منهما يريد أن يسأل ما معنى أن الشمس ستشرق غدا . ولا يجرؤ على هذا السؤال الذى يطل من قمه ثم يعود الى الاختفاء . كل منهما يخاف أن يغضب سته وإمه . كثيرا ما نهرتهم أمهما على كثرة استئلتهم . كثيرا ما صدمتهما ستهما لأنهما يريدان أن يعرفا كل شيء . كانت تقول لهما أن هناك أشياء لا يعرفها الا الكبار . كان سعد هو حاميهما الوحيد فى هذا البيت . كان يجيب على كل سؤال . كان يشرح كل تسأؤل . لم يكن يتركهما يتوجعان فى صمت . ويقفلان فمهما فى خيبة ، ويطيقان شفاهما

في خجل ! في تلك اللحظة أحسا أكثر من أى لحظة بأنهما فقداهما ، فقداهما . فقداهما مانعة الصواعق التي كانت تمنع أمهما وستهما من المضى في عبارات التائب والتوبيخ لتدخلهما فيما ليس لهما شأن فيه !

ويلاحظ الطفلان أن ستهما لن تدخل غرفتهما لتنام وإنما دعت أمهما لتنام معها . ودخل الطفلان غرفتهما ليناما وليتحدثا معا عما تقصده ستهما من أن الشمس ستشرق في اليوم التالي . ويتساءلان همسا لماذا ستتركهما أمهما ، وتنام في غرفة سعد مع ستهما ، لابد أن ستهما خائفة من النوم وحدها بعد غياب زوجها . ولهذا استنجدت بأمهما لتحميها من الخوف .

ولكن الطفلين يتذكران انهما سينامان وحدهما في الغرفة بغير أمهما . إذن هما اللذان سيخافان بدلا من ستهما ! ثم يقفزان من فراشهما ويسرعان الى النافذة ويذبحان الستائر فلا يريان الا الظلام الدامس . الا الليل المخيف . لاشئ يبشر بأن الشمس ستشرق قبل موعدها ، ستشرق في الظلام .

ويعود الطفلان الى خوفهما من جديد ! البيت ليس فيه رجل ! بجدهما مقبوض عليه . ابوهما في دمياط . الحاج أحمد عاد الى بيته لينام ، ترى ماذا يفعل الانجليز بجدها الآن ؟ هل يضربونه ؟ هل أعطوه طعام العشاء ؟ انهما علما انه لم يصحب معه الحقيرة التي اعدتها له صفيية . لن يجد بيجاما ينام فيها . لن يجد موسا يلحق بها ذقنه . لن يجد جوز عين الجميل . ان جوز عين الجميل اختفى اليوم من مائدة العشاء لأن سعد لم يكن موجودا . لقد كانا يحبان الجوز . كانا كل صباح يقولان لجدهما وهما يدخلان الى مائدة الافطار « صباح الخير يا جدى » . ثم يجلسان الى جواره ويمدان يديهما الى طبق الجوز ويكبشان منه وكان سعد يلاحظ هذه الحركة ضاحكا وذات صباح قال لهما مداعبا لماذا تقولان صباح الخير يا جدى يجب أن تقولوا صراحة صباح الخير يا عين الجميل ! وأصر سعد أن تكون تحيتهما الصباحية بقولهما « صباح الخير يا عين الجميل » ..

وبقى الطفلان يتحدثان همسا عن السجن . كثيرا ما سمع الطفلان جدهما يتحدث عن أنه سيذهب الى السجن ! يتحدث عنه كامنية ، كأنه يتحدث عن رحلة شائقة عن مغامرة لذيذة . حياة في عالم آخر . انهما يذكران انه روى لهما كيف دخل السجن في شبابه . كان السجن في سرداب في القلعة . كان ينام على الأرض والقيد في قدميه والسلاسل في يديه . وكان يحرسه جندي انجليزى ضخم له شارب كبير . وكان الجندي لا يتكلم الا الانجليزية وسعد لا يتكلم الا العربية . فكان اذا طلب سعد ماء ليشرب تصور الجندي الانجليزى أنه يسبه . واذا شتم سعد الجندي رفع يديه بالتحية متوهما انه يقول له صباح الخير !

وخطر ببال الطفلين صورة لجدتهما وفي قدميه القيد وفي يديه السلاسل .
ودعها أن يرحب سعد بهذا السجن . وبينما هما في محاورتهما الساذجة سمعا
صوت سيارة تقف بالباب الخارجى وجرس الباب يدق دقا متواصلا . وقفز كل
اهل البيت من الفراش تصور بعضهم أن سعد قد عاد ، وتصور آخرون أن
أخبارا جاءت منه .

وفتح عم آدم الباب ، ودخل ضابط انجليزى ومعه مترجم وطلب مقابلة
صفية . وقال لها الضابط أن سعد معتقل في أحد المعسكرات وأنه محتاج الى
ملابس ثقيلة ، وأنه مسافر الى رحلة طويلة . وأنه مسموح له بأن يصحب
خادما معه . وألحت صفية في أن تعرف إلى أين يسافر ، ورقض الضابط
الانجليزى أن يجيب . وفكرت صفية في محمد التوتنجى ! والتوتنجى كلمة
تركية معناها الخادم الخاص أو الشماسرجى . لقد كان خادما خاصا لوالدها ،
صاحبه سبع عشرة مرة في رحلات الى أوروبا . يجيد التحدث بالفرنسية
والانجليزية . وهو غير متزوج . وعندما مات والدها أصر على أن يسكن بجوار
قبره . مضت عليه خمسة أعوام وهو مقيم في المدفن . وأرسلت صفية في
استدعائه مع حقييته . ووصل محمد التوتنجى وأبدى استعداده لأن يذهب
مع سعد الى رحلة المجهول .

وأرادت صفية أن تستدرج الضابط الانجليزى فقالت له : الملابس التى
يحتاجها زوجى .. لمدة أيام غير الملابس التى يحتاجها لمدة شهر . غير التى
يحتاجها لمدة عام .

فقال الضابط : يكفي ملابس لمدة شهر !

واشرقت الشمس وصفية عاكفة على اعداد الثياب ..

ونظر الطفلان إلى الشمس ولم يريا فيها شيئا مخالفا عما كانت عليه في كل
صباح .

ومضى الصباح كئيبا متاقلا . وفي كل خمس دقائق تتجه صفية الى النوافذ
الامامية في شارع سعد زغلول والخلفية في شارع ناظر الجيش ، والجانبية في
شارع الفلكى تتسمع اصوات المظاهرات القادمة فلا تسمع الا الصمت !
ويعود القلق الى عينيهما الواسعتين . أذعها الدكتور ماهر عندما قال لها
أن الشمس ستشرق غدا . هاهى ذى شمس الطبيعة قد اشرقت . ولكن شمس
الثورة لاتزال غائبة . ونظرت الى ساعتها فوجدت انها السابعة صباحا ! مضى
على شروق الشمس عدة ساعات ولم يحدث شيء . ولم تكن صفية تعرف أن
الشعوب لاتثور في الفجر . الجيوش فقط هى التى تثور في الفجر . أما
الشعوب فانها لاتثور الا بعد موعد دخول الموظفين الى الدواوين والعمال الى
المصانع والطلبة الى المدارس !

ثم بدا البيت يمتلئ بالناس . وبدأت صفية تشعر بأنها لم تعد وحيدة .
بدا أهل البيت يزيدون ولكن الناس الذين جاؤا لم يكونوا أولئك الذين
تنتظرهم صفية . بعضهم فضوليون جاؤا يسألون عن الأخبار . وبعضهم
ساخطون يعبرون عن غضبهم . وبعضهم حائرون جاؤا يسألون ماذا تفعل
بعد الآن .

وبدا على الجميع أنهم لا يعرفون ما يفعلون . ودخل بعض أعضاء الوفد
إلى مكتب سعد ، والتف حولهم عدد من الشبان يمطرونهم أسئلة
واستجابات . والتفت إليهم عبدالعزيز فهمى شزرا وقال لهم :
دعونا نعمل في هدوء !

نزلت كلمة « هدوء » كالش البارد على الأعصاب المتوترة والنفوس
الناثرة .. وإذا بعدد من الشبان يندفعون إلى حديقة البيت كالسهم ،
وطرايبهم في أيديهم ، والعرق ينهمر من وجوههم ويصبحون :
— أضربت مدرسة الحقوق : إبراهيم عبدالهادى وحسن ياسين يقودان
مظاهرة في طريقها إلى هنا !

وما كاد الموجودون في البيت يسمعون هذه الجملة حتى اندفعوا إلى
الخارج . وكانهم عرفوا جواب سؤالهم الحائر ماذا تفعل الآن .
واستقبلت صفية الشبان الثلاثة وراحت تستفسر منهم ، هل كل الطلبة
أضربوا ؟ ماذا كانت الهتافات التي يرددونها ! وأقبل طالب فوق دراجة
وصاح : مدرسة الهندسة أضربت . الطالب عبدالمجيد بدر. خطب ودعا إلى
الثورة ! واقتحم البيت طالبان يصرخان : مدرسة الزراعة أضربت وهى تهتف
بسقوط الإنجليز . وأربع يعلن أن مدرسة التجارة العليا أضربت .
وخطب الدكتور أحمد ماهر استاذ المحاسبة في الطلبة وقال : مكان الطلبة
اليوم في الشارع لا في مقاعد الدراسة ! وخامس يقول طلبة مدرسة الطب
أضربوا وضربوا ناظرهم الإنجليزى عندما أراد أن يسد الباب ويمنعهم من
الخروج .

ولكن صفية لم تطمئن . إنها لا تريد أن تسمع الأخبار .. انها تريد أن ترى
بعينها الأخبار ..

وبدات الأنباء تتواتر عن المظاهرة الكبرى . الطلبة يندفعون إلى الشوارع
هاوتين بحياة سعد والاستقلال يهتفون بالعربية والإنجليزية والفرنسية ليهم
الأجانب صوت مصر الذى يعلنون . الجماهير تنضم إلى المظاهرة الجالسون
على القهاوى يلقون ما في أيديهم من ورق اللعب وزهر الطاولة ويسبرون مع
المظاهرة . اصحاب الحوانيت يغلقون محالهم وياخذون مكانهم بين

المتظاهرين . الباعة السريعة . باعة الصحف . أطفال الأزقة اسرعوا وراء المظاهرة يرددون شعاراتها . مظاهرة الحقوق بدأت في شارع الفلكي بمدرسة .. وانتهت أمام بيت سعد بشعب .. شعب بكل طبقاته ، بكل فئاته ، بكباره وصغاره .. بالذين سمعوا باسم سعد من قبل ومن لم يسمعوا به . أصبح هتاف يحيا سعد يعنى أشياء كثيرة ! يعنى الاستقلال ويعنى الحرية ويعنى الجلاء ويعنى المساواة . الشرر يتطاير من العيون . الهتافات تخرج من الحناجر كالقذائف . أصوات الجماهير كالرعد . شارع سعد امتلأ بالجماهير . من أين خرج هؤلاء الناس كلهم . أين كانوا طوال الليل . كيف اجتمعوا في لحظة واحدة وسدوا الشوارع كلها المحيطة ببيت سعد . لم تكن الهتافات منمطة . لم تظهر أعلام في أيدي المتظاهرين . كان كل واحد منهم له نداءه الخاص . ولكل لا تفهم من هذه النداءات المختلفة . والهتافات المتباعدة . الكلمة واحدة هي سعد . وخرجت صفية لهم الى النافذة والدموع في عينيها . لوحت لهم بمنديلها . ثم مسحت بالمنديل عيناها . كانت تبكي ، لأنها في تلك اللحظة فقط رأت الشمس تشرق غدا !

وانهزت الانباء كالمطر . طلبة دار العلوم اضربوا . طلبة المدرسة الالهامية الثانوية اضربوا . طلبة مدرسة التجارة المتوسطة اضربوا . طلبة مدرسة القضاء الشرعى اضربوا . مظاهرة ضخمة في السيدة زينب . انضم العمال الى الطلبة . أخذت القيادة الانجليزية على غرة . عقد الحكماء الانجليزى اجتماعا في المحافظة مع القائد البريطانى وضباط البوليس الانجليز . تقرر إرسال فرقة من الفرسان برياسة الأمير الاى ارش وكيل الحكماء الانجليزى . كانوا يحملون الرماح في أيديهم . اتجهت فرقة الفرسان الى شارع الخليج . هاجمت الطلبة المتظاهرين . تقدم بعض الطلبة ونزعوا الفرسان من فوق خيولهم والقوهم على الأرض . تكونت في الحال فرق من الطلبة والأهالي تلقى الطوب على الفرسان . خرجت النساء من الأحياء البلدية يجمعن الطوب من الشوارع والحوارى ويضعنه في متناول أيدي المتظاهرين . وقعت معركة طاحنة . سقط عدد من الفرسان جرحى . سقط بعض الطلبة تحت سنايك الخيل . أرسل الأمير الاى ارش يطلب نجده . أقبلت قوة أخرى من الفرسان بقيادة الضابط شاهين . قبض على ثلاثمائة طالب . اودعوا خرابة مهجورة داخل سجن القلعة . نفس الخرابة التى سجن فيها سعد بعد ثورة عرابى . منعوا من تناول الطعام . صرف لهم الانجليز خبزا جافا . تركوهم يبيتون من غير غطاء . في هذه الليلة لحن الدكتور محمود أحمد الحفنى . وكان أحد طلبة كلية الطب المقبوض عليهم . الأغنية المشهورة التى أصبحت أغنية الطلبة طوال الثورة :

« يا عم حمزه احنا التلامذة ! واخدين ع العيش الحاف ! والنوم من غير لحاف ! مستعدين ! ناس وطنيين ! دايمًا صاحيين . احنا التلامذة .. يحيا الوطن ! »

وانفجرت المظاهرات فى كل مكان . اتجهت الجماهير الغاضبة تحطم عربات الترام ومصابيح الشوارع . قذفت المظاهرات الجنود الانجليز بالطوب والأحجار . صبيان فى الثامنة من عمرهما يشتركان فى المظاهرات . السيدات يزغردن من النوافذ تحية للثوار . الموظفون تركوا مكاتبهم الى الشوارع . أصبحت لاتعرف أى فئة هى التى تتظاهر ، شيوخ متحمسون كانهم شباب . اطفال ثائرون كانهم كبار . طرابيش وعمائم وطواقى ولاسات . المظاهرات لاتنقطع . لا تكاد تنفض تحت هجوم الفرسان الانجليز حتى تتجمع من جديد . عدد من الطلبة يدخلون على اعضاء الوفد بغير استئذان ويقولون لهم : إننا نريد ان نعرف المكان المسجون فيه سعد ، سنقتحم السجن وننتزع منه سعد زغلول . اعضاء الوفد يذعرون . ان الطلبة يتحدثون بلهجة غريبة . الى الامس فقط كانوا يجيئون طالبين النصيح ويستمعون الى الاوامر والتعليمات . ولكنهم اليوم يتحدثون كأنهم أصبحوا القادة . كأنهم لا يعترفون الا بقيادة سعد وحده . وعندما اختفى أصبح كل واحد قائدا ! ويعنف الطلبة فى حديثهم مع الباشوات اعضاء الوفد . ويقسم الأعضاء انهم لا يعرفون المكان الذى سجن فيه الانجليز الزعيم .

وانقسم اعضاء الوفد الى فريقين كبار السن يدعون الى الروية والحكمة . والشبان يؤيدون الثورة والانقضاض . والأغلبية تميل الى الاعتدال . ولم ينم بيت الامة . الجماهير تتقاطر عليه . الشبان يترددون على غرفه ومكتبه . الصحفيون جاءوا يتقصون الاخبار .. البوليس السرى اندس بين الجماهير ليعرف كيف حدث هذا . ومن الذى فعل هذا ، وماذا سوف يحدث من كل هذا ! وفوجئت صافية فى اليوم التالى بمنشور بامضاء طلبة المدارس العليا يستحلفون مواطنيهم الاعزاء ان يلتزموا الهدوء والسكينة ! وسالت صافية محمود فهمى النقراشى عن هذا المنشور الغريب . فقال لها انه مدسوس على تعليمات الثورة . وأن بعض اعضاء الوفد هم الذين كتبوا هذا المنشور وطلبوا من بعض الطلبة توزيعه فى الشوارع . وأن التنظيمات جمعت هذه المنشورات واحرقتها ! وأن الجماهير لم تفهم هذا المنشور ، فكانت تهاجم المحلات الانجليزية وهى تهتف بحياة الهدوء والسكينة ! وكانت تضرب الجنود الانجليز وهى تصرخ « نموت .. وتحيا الهدوء والسكينة ! » !! فقدت القاهرة كل اتصالاتها بالإقاليم . خرج الفلاحون فى الليل ونزعوا

قضبان السكة الحديد . توقفت جميع القطارات . حطموا اسلاك التليفونات فانقطعت انباء المديرية . وضعوا المتاريس في الطرقات الزراعية فتعذر الانتقال بين مدينة واخرى . انعزلت العاصمة . الدولة لم تعد تعرف ماجرى خارج حدود القاهرة . بدأت تصل الى بيت الامة رسائل متقطعة . مديرية المنيا اعلنت استقلالها . تكونت لجنة وطنية للاشراف على الدولة الجديدة . انضم اليها جنود وضباط البوليس والمدير اهاجم الفلاحون في الجزيرة مخازن غلال الجيش البريطاني واشعلوا فيها النار . هاجم اهل اسيوط مراكز تموين الجيش البريطاني وحولوه الى رماد . وقعت معركة بين شعب اسيوط والجيش البريطاني سقط فيها قتلى وجرحى من الفلاحين والعمال المصريين والجنود الانجليز . خرج الوف المتظاهرين في المنصورة واستولوا على المحافظة ورفعوا راية الثورة . اضراب الازهر وجميع المدارس العالية والثانوية والابتدائية في كل مدن القطر . خرجت مظاهرة صاخبة من الازهر تهتف بالموت للانجليز ! هاجمت بعض المظاهرات المحلات الاجنبية . رفض جنود البوليس المصريين ان يطلقوا النار على ابناء وطنهم . جردت قوات البوليس المصرية من السلاح وحل مكانها جنود من الانجليز . سقط في المعركة غلام مجهول الاسم في ميدان السيدة . اصيب بعشرات من رصاص الانجليز . حمل المتظاهرون جثته المخضبة بالدم وذهبوا بها الى بيت الامة . نزلت صفيّة زغلول الى الحديقة وقبلت الغلام في راسه واحتضنته . مشيت المظاهرات في الشوارع تحمل جثة الغلام المجهول وهى تهتف بصوت كالرعد « الموت للانجليز » . ذهبت الى مجلس الوزراء وصاحت في حسين رشدي باشا رئيس الوزراء قائلة : استقيلوا من مناصبكم والا كنتم شركاء للمجرمين ! كانت صفيّة سعيدة بما تراه . رفضت ان تغسل يدها من دم الشهيد الاول الذي احتضنته الى صدرها . كانت تشعر كأنها خضبت يديها بالحناء يوم زفافها . كانت فخورة بنوبها الذي سقطت عليه بقع من دم الشهيد . بقيت ترتدى الثوب نفسه عدة ايام . وتقول انها تفخر بانها تحمل قطرات من دم اول شهيد في الثورة !

عاشت القاهرة في الظلام . كل فوانيس النور في الشوارع حطمها المتظاهرون . دور السينما اقفلت ابوابها . مسارح نجيب الريحاني وعلى الكسار وعكاشة اغلقت بالضربة والمفتاح . وخرج الممثلون والممثلات يتظاهرون في الشوارع . لا بيع ولا شراء . كل المحلات التجارية مغلقة . صدرت الصحف وكل صفحاتها الاولى اعمدة بيضاء . الرقابة حذفت انباء القبض على سعد . هذه المساحة البيضاء كانت غاصة بالإشاعات التي تنتقلها الافواه المنتشرة اكثر من انتشار الصحف . السلطان مختبئ في قصره .

الانجليز ارسلوا في طلب نجدات من فلسطين . القطارات العسكرية التي ارسلتها القيادة البريطانية لاختضاع الاقاليم واقفة بغير حراك لان القضبان نزعَت من امامها ومن خلفها . كلما اُرسِلت القيادة فرقة من المهندسين لاصلاح احد الامكنة ، خرج الفلاحون وحطموا ما اصلحه سلاح المهندسين . ولكن صفية زغلول تسال باستمرار عن اخبار مديرية البحيرة ! عن اخبار البدو ؟ وما من اخبار من البحيرة ولا من البدو ! ولكن لماذا مديرية البحيرة بالذات ؟ ولماذا بدو الصحراء ؟

كان السر في ذلك ان سعد زغلول كان يملك عزبة في مديرية البحيرة . وكانت هذه العزبة هي مكان اجتماعاته السرية باعضاء الجهاز السرى . وكان يجتمع في هذه العزبة بعدد من اصدقائه من مشايخ العربان . كحمد الباسل باشا والمصرى السعدى بك وبعض افراد اسرته وغيرهم من مشايخ القبائل . وجرت بينهم احاديث طويلة ايدوا فيها استعدادهم للاشتراك في اى حركة يقوم بها سعد ضد الانجليز . وكانوا في حاجة الى السلاح . وتم الاتفاق على ان يتم تهريب سلاح الى هذه القبائل بواسطة بعض زعماء اسرة السنوسى ، وكانوا على قرابة بحمد الباسل باشا والمصرى بك السعدى واسرة المصرى بالبحيرة . ولم تكن الثورة في حاجة الى اسلحة ضخمة ، وقد كانت وجهة نظر سعد انها تحتاج الى اسلحة تناسب عمليات المقاومة . وفعلت تم شراء بعض الاسلحة . وكان من راي حمد الباسل باشا ان تتحرك الثورة في سنة ١٩١٤ بعد اعلان الحماية وخلع الخديو ، ولكن سعد لم يوافق على هذا الموعد ، لانه خشى ان تفسر الثورة على انها احتجاج على عزل الخديو عباس وليست ثورة وطنية يقوم بها الشعب .

ومضت ٢٤ ساعة ولم تتحرك مديرية البحيرة ، ولم تتحرك مديرية الفيوم وهما مراكز القبائل التي عرفت صفية من سعد انها ستكون اول من يشترك في الثورة . ولم تقدر صفية وقتئذ ان انقطاع المواصلات وتحطيم قضبان السكك الحديدية . وقطع اسلاك التليفون كان السبب في تاخر ساعة الصفر الى هذه المراكز النائية .

وكان سعد قد اتفق مع صفية على شفرة تستعملها معه بعد القبض عليه . فاذا لم تتحرك البلاد بعد القبض عليه لاترسل اليه شيئا ، واذا تحركت ترسل له قبلة . واذا ثار البلد ترسل اليه مائة قبلة .. وبقدر حرارة الثورة تكون حرارة القبلات ! وطلب اليها ان تسلم الرسالة الى محمود فهمى النقراشى وهو الذى سيتولى ايصالها اليه بطريقته الخاصة .

وكتبت صفية تقول له « اقبلك مليون قبلة » ! وسلمت الرسالة

الى النقراشى .. ولكن الرسالة لم تصل الى سعد . فقد عجز الرسول المكلف عن اقتحام كل الحراسات الى داخل قصر النيل .

وكان سعد فى القاهرة فى قشلاق قصر النيل عندما انفجرت الثورة . ولكنه لم يعلم بها ، وعندما لم يتلق اى رسالة من صفية اعتقد ان الجهاز السرى فشل فى حركته !

ولم يغادر سعد القاهرة الا فى اليوم الثانى لقيام الثورة . ففى اليوم الثالث للقبض عليه وضعه الانجليز وزملاءه الثلاثة فى سيارتين عسكريتين ووراءهما سيارة لورى تحمل الخدم والحقائب . وامام هذا الموكب ثلاث سيارات عسكرية فيها جنود يحملون المدافع الرشاشة ، ووراءهم ثلاث سيارات مصفحة ومر موكب السيارات فى شوارع جانبية حتى محطة القاهرة ، ثم ادخلوا المحطة يحيط بهم عشرون من الضباط الانجليز مسلحون بالمدافع الرشاشة وكانت المحطة قد اخلت من الجماهير . وساروا بهم الى رصيف قطار بورسعيد . ولم يكونوا يعرفون الى اين هم ذاهبون . ورأى سعد على الرصيف عديله محمود صدقى باشا زوج زكية هانم شقيقة صفية الكبرى . فطلب منه ان يعطيه مامعه من النقود . فاعطاه ثمانية عشر جنيها . ولكنه لم يقل له كلمة واحدة عن قيام الثورة ، فقد حذره أحد كبار الضباط الانجليز من الاضواء الى سعد ولو بكلمة واحدة وإلا اعدموه رميا بالرصاص . ولزم محمود صدقى باشا الصمت التام ولم يقل شيئا ! وعندما استقل سعد وزملاؤه الباخرة التى ستنقلهم الى مالطة واوغلت فى عرض البحر بهم عرفوا عندئذ فقط انه تقرر نفيهم الى مالطة !

ولهذا كان سعد والباخرة تحمله الى منفاه يعتقد ان البلد لم يتحرك لانه لم تصله قبلات من زوجته !

اما حمد الباسل باشا ومحمد محمود باشا فكانا يعتقدان ان الثورة على وشك القيام ..

وكان اسماعيل صدقى باشا يميل الى الراى بان البلد لن يثور ! وعندما علمت صفية ان رسالتها لم تصل الى سعد ارسلت اليه برقية الى مالطة تقول له « مليون قبله .. صحتنا جيدة » .. ولكن البرقيب منع ارسال هذه القبلات ! .. ولعله لم يصدق ان عجوزا ترسل الى زوجها العجوز مليون قبله فى منفاه !

وفى يوم الثلاثاء ١١ مارس اضرب عمال الترام . وتبعهم سائقو التاكسى . ثم الحوذية . اغلقت البنوك والشركات . اغلقت البنوك والشركات . اغلقت المحال التجارية . خلت الوزارات من الموظفين . خرجت مصر كلها الى الشوارع

تهتف لمصر والثورة . وفي كل مدينة قامت معركة بين الشعب وجيش الاحتلال . معركة في شبين الكوم . معركة في طنطا . الثوار يستولون على محطة السكك الحديدية . استولوا على المنشآت العامة . نشب قتال رهيب . سقط ٢٢ شهيدا و ٥٠ جريحا . قتل وجرح عشرات من جنود الاحتلال . معركة عنيفة في الاسكندرية بين الشعب والانجليز . قبض الانجليز على ٥٠ متظاهرا . احتل المتظاهرون عددا من مراكز البوليس . اضرِب المحامون . خرجوا الى الشوارع يرتدون ارباب المحاماة ويهتفون بسقوط الاحتلال . اصدر القائد العام البريطاني انذارا بمحاكمة كل من يمتشى في مظاهرة امام محكمة عسكرية بريطانية .

وفي اليوم الرابع تحدث الجماهير الانذار البريطاني . تضاعف عدد المظاهرات . معارك في كل مدينة وكل شارع . دوريات بريطانية مسلحة في كل مكان . الجماهير تهاجمها بالطوب وهي ترد عليهم بالرصاص والمدافع . الشبان يعرضون صدورهم لطلقات المدافع الرشاشة . يندفعون الى السيارات المدرعة . ينتزعون ضباطها الانجليز من داخل السيارات . كم من مرة استطاعت شجاعة الطوب وجراة العصي أن تهزم البنادق والمدافع في ايدي الجنود البريطانيين . المظاهرات تتضاعف مع التهديدات والانذارات كل يوم . وفي يوم الجمعة ١٤ مارس سقطت اول شهيدة مصرية . اسمها حميدة خليل من كفر الزهاوى بحى الجمالية . قتلت برصاص الانجليز في مظاهرة ضخمة . سقط معها ١٢ شهيدا . حمل المتظاهرون جثث القتلى تتقدمهم جثة حميدة وذهبوا الى بيت الامة يهتفون « نموت ويحيا سعد » ! كان أغرب ما حدث في ذلك اليوم أن الجماهير عندما حملت جثة حميدة الى بيتها في حى الجمالية قابلتها نساء الحى باطلاق الزغاريد !

١٢ قتيلا في مظاهرة اخرى امام مسجد الحسين . اكتشف الأطباء أن أغلب القتلى مصابون برصاص يمدد الممنوع دوليا . اضرِب الأطباء مشوا في مظاهرة الى معتمدى الدول وقدموا اليهم مذكرات يحتجون فيها على استعمال هذا الرصاص الوحشى .

وفي ذلك اليوم شهد شارع سعد زغلول منظرا مثيرا . رأى الطفلان كان ارض الشارع انشقت فجأة وخرج منها ثلاثة آلاف فلاح بملابسهم الزرقاء . يحملون في ايديهم العصي والاشجار والفئوس ويلوحون بها في الهواء . اصوات مزجرة غاضبة . تهتف كالرعد وتلوح بقبضة أيديها او بالاشجار هاتفة مزجرة . وعرف انهم اهل مدينة قليب . خرجت المدينة كلها بكل شبابها وشبيها وزحفَت الى القاهرة تهدد بالانتقام للابرياء الذين قتلوا برصاص الانجليز . لسعد الذى نفاه الانجليز . لقد اقسما أن يقتلوا كل انجليزى في طريقهم الى القاهرة !

وخرج اليهم عبد العزيز فهمى من مكتب سعد ، ووقف في شرفة السلاسل المطلة على الشارع . وتسلى الطفلان ووقفا خلف عبدالعزيز فهمى . واحاط به اعضاء الوفد . ورفع يده مهدئا الجماهير الصاخبة أن تسكت . ومضت الجماهير في صخبها وثورتها . وصاح صوت يقول « الى يحب سعد باشا بسكت » . وسكتت الألوف كان على رؤوسها الطير . لو انك ألقيت دبوسا في وسط هذه الألوف لسمعت صوت سقوطه . وخطب عبدالعزيز فهمى داعيا الجماهير الى الهدوء والسكينة ومراعاة النظام وعدم الخروج على القوانين . وطلب اليها أن تترك الوفد يعمل لخبر مصر بالطرق المشروعة . ومكث نصف ساعة يخطب . وكان خطيبيا مفوها من أبلغ خطباء مصر . وبعد أن شعر بأنه استطاع بطلاقة لسانه وقوة حجته أن يقنع الجماهير . دعاها الى العودة الى قلوب في هدوء ..

وما كاد ينتهى عبدالعزيز فهمى من كلمته حتى صرخت الجماهير بصوت كالرعد :

الثورة . الثورة . الثورة ..

وغضب عبدالعزيز فهمى وخلع طربوشه ورماه في الأرض وهو يقول :
— ملعون أبوكم !

ولكن لحسن الحظ أن صوته ضاع في دوى الرعد الذى ينادى بالثورة !

وكان منظر عبدالعزيز فهمى وهو في ثورته يبعث على الضحك في هذا الموقف الرهيب . وكانت صفية تطل من النافذة وترقبه وهو يخطب . ثم وهو يلقي طربوشه على الأرض غاضبا . وظلت تضحك ربع ساعة بغير انقطاع . وكانت هذه هي المرة الأولى التى ضحكت فيها منذ نفى سعد زغلول !

ولم تكن صفية تحب عبدالعزيز فهمى ، فقد كانت تعلم أن سعد عارض في ضمه الى الوفد ، وقبل دخوله تحت الحاح لطفى السيد ، وزاد حنقا عليه حين قرر الطلبة الخروج في مظاهرة فأرسلوا ثلاثة من زملائهم الى بيت الأمة يستشيرون أعضاء الوفد في الاضراب والاعتصام بمدارسهم او الخروج الى الشارع متظاهرين . وثار عليهم عبدالعزيز فهمى وقال : هذا لعب عيال ! لا اضراب ولا مظاهرة ! انتم تفسدون علينا عملنا بحماقتكم . وخرج الطلبة متذمرين ولحق بهم محمود ابوالنصر وعبد اللطيف المكباتى عضو الوفد يحاولان التلطيف من توبيخ عبدالعزيز فهمى لهم ، واستدعته صفية وطبعت خاطرهم وقالت لهم : انتم أبناء سعد ! وهؤلاء اصدقائه . والأب يعتمد أولا على أبنائه ! فقالوا لها : لقد كنا نفكر في ضربه ! قالت لهم : المفروض الآن هو أن نضرب الانجليز لا أن نضرب بعضنا !

وقالت صفية يومها وهى تروى القصة : لقد هممت أن أقول لهم اذهبوا واضربوه ولكنى أمسكت نفسى بصعوبة !
وكان سعد يصف عبد العزيز فهمى بقوله : « ما رأيت رجلا مغرورا بنفسه في تواضع . ولا خبيثا في صالح . ولا عسوفيا في عادل . ولا كذوبيا في صادق ، ولا جبانا في شجاع ، ولا متقلبا في ثابت ، ولا مرأثيا في صريح ، أكثر من هذا الرجل - عبدالعزيز فهمى » !

والواقع أن عبد العزيز فهمى كان يمثل المعتدلين ، وسعد كان يمثل الثوار . الأول عصبى قليل الصبر والثانى يؤمن بأن الصبر فلسفة ! الأول إذا غضب أطلق النار مندفعاً فطاشت الرصاصات في الهواء ، والثانى إذا غضب تأنى وانتظر ، واستعد ، وتمرن ، وتهيأ ، وصوب وبعد ذلك يطلق الرصاصات في المليان ! الأول يؤمن بنفسه والثانى يؤمن بشعبه . الأول واقعى يعيش في الحاضر والماضى ، والثانى حالم يعيش في المستقبل ، ويحاول أن يصنع هذا المستقبل ، الأول يعتقد أن مصر لا تستحق أكثر من الاستقلال الذاتى ، والثانى يؤمن بأن مصر تستحق الاستقلال التام . عبدالعزيز يحترم المثقفين ويحتقر الجهلاء . وسعد يستمد قوته من كل المصريين ، ولأنهم مصدر قوته يحترمهم جميعا ويتجه إليهم جميعا ويحسب حسابهم جميعا . عبدالعزيز يندفع ثم يتردد . وسعد يتردد ثم يندفع ، عبدالعزيز يكر كالاسد ثم يفر كالغار ، وسعد يحوم حول فريسته ثم ينقض عليها ، عبدالعزيز تضعفه الصدمات وتيئسه العقبات . وسعد الضربات وحدها هى التى تدفعه الى الامام . والصدمات تلهمه الصمود . الصواعق تؤنسه ولا تخيفه . المطارق عندما تسقط على رأسه توقظه من نومه ! عبدالعزيز يمشى في طريقه فاذا رأى الجبل أمامه جلس على سفحه وزرع شجرة ، وسعد إذا رأى الجبل أمامه تحول الى كاسحة صخور تشق طريقها في الجبل . كل منهما فلاح يتحمس للفلاحين ، ولكن الفلاحين ، ولكن الفلاحين في تعريف عبدالعزيز فهمى أصحاب الأقطان ، والفلاحين في إيمان سعد هم الحفاة العراة المسحوقون ! كل منهما كاهن في معبد القانون . عبدالعزيز يرى احترام القانون في كل الظروف والأحوال حتى ولو كان الحاكم مستبدًا طاغية أو أجنبيًا محتلا ، وسعد يريد أن تقوم المحبة بين الناس مقام القانون . بل هو يرى أن طاعة قانون الطاغية هو خروج على القانون . وعندما تثور الشعوب على حاكميها يجب أن تثور على قوانينهم . ولو أنها اكتفت بأن تعارضهم من خلال قوانينهم وفي ظلها فكانها تعمل على توطيد دعائم الاستبداد .

الفرق بين عبد العزيز وسعد هو الفرق بين الساخط والثائر ، ان الساخط هو المدرسة الابتدائية للثوار . ولكن إذا بقى الرجل طول حياته في مدرسة

السخط دون أن يخطو إلى جامعة الثورة ، كان أشبه بالذى يمضى عمره كله تلميذاً في المدرسة الابتدائية . فمعاول السخط هي التي نبدا بها في تحطيم قلاع الطغاة . ولكن يوم نمضى حياتنا في مواقعنا تسقط الانقراض فوق رؤوسنا . ولهذا يجب أن نتقدم بالمعاول لنحطم رؤوس الطغاة . فلا نبقى في المرحلة الأولى إلا المدة الكافية لعملية الانتقال للمرحلة التالية وهي مرحلة الانقراض .

وكان عبد العزيز ملكيا . وسعد جمهوريا . وقد ألفى عبد العزيز فهمي خطابا في عام ١٩٢٣ هاجم فيه سعد زغلول واتهمه بأنه مجنون ، واستدل على جنونه بأن ذكر أنه - أي عبدالعزيز فهمي - أعد اثناء المفاوضات مع الانجليز مشروع دستور لمصر بعد الاستقلال نصت مادته الأولى على أن ملك مصر هو الملك فؤاد ، ويخلفه على العرش ولى عهده الأمير فاروق . وما كاد سعد يقرأ نص هذه المادة حتى هاج وماج . وغضب وثار . وألقى بالدستور كله في وجه عبدالعزيز فهمي .

وقال له :

— ألا يكفيك أن تجيء لنا بفؤاد ؟! .. وتريد أيضا أن تنكبنا بفاروق ! وهكذا كان يتصور عبد العزيز فهمي . فالجمهورية في تفكيره جنون ، أما الملكية فهي منتهى العقل والادراك . ولهذا انقسمت الثورة منذ يومها الأول إلى مجانبين وعقلاء . وإلى متطرفين ومعتدلين ، وإلى حالمين وواقعيين . وكان عبدالعزيز في فريق العقلاء والمعتدلين والواقعيين باعتبارهم الفريق القانوني . وكان سعد دائما في فريق المجانبين والمتطرفين والحالمين باعتبارهم فريق الثوار .

والعقلاء والمعتدلون والواقعيون يسجنون أنفسهم في زنزانة من مخاوفهم . ناسين أن المستقبل لا يصنعه إلا الذين يقفزون واقعهم إلى غدهم تمتد أبصارهم من الحاضر إلى المستقبل . لا يتقيدون في تفكيرهم بسلاسل الماضي الثقيل ..

وعندما بدا تأليف الوفد رأى بعض الأعيان أنه لايجوز أن يكون رئيس الوفد من « الرعية » أي من الشعب ، اقترحوا أن يكون رئيس الوفد أميرا من أسرة محمد علي ورشحوا الأمير عمر طوسون لرياسة الوفد بدلا من سعد زغلول !

وحارب سعد هذه الدعوة . وأصر على أن يكون الوفد برياسة رجل من صميم الشعب ، وانضم عبدالعزيز فهمي في أول الأمر إلى المؤيدين بأن يكون رئيس الوفد أميرا بحجة أن الشعب سيسير خلف الحركة إذا وجد في قيادتها أميرا من الأسرة المالكة . ولن يحترم الحركة إذا وجد على رأسها رجلا من الشعب !

وانتهى الخلاف عندما أمر السلطان فؤاد الأمير عمر طوسون بالا يقبل
رياسة الوفد نزولا على الأمر الذى أصدره اليه نائب ملك إنجلترا في مصر !
وكان سعد يتصور أن حماس عبدالعزيز فهمي لكي يرأس الأمير الوفد هو
أن عبدالعزيز يحسده على هذه الزعامة ، ويستنكر على فلاح مصرى أن يقود
الامة المصرية .

وقد أعرب سعد لسكرتيه الأستاذ محمد كامل سليم أثناء وجوده في باريس
يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٠ عن رايه في عبدالعزيز بقوله : « لقد عجبت من أمر
هذا الرجل .. الذى يطفح الحقد في صدره . وانى أرثى لحاله ، لأن الحسد
سياكل نفسه ، حتى يهلكها . بينما الحقد يضمنه ، ويشقيه ، ويذويه ، ثم
يغنيه . »

كان عبد العزيز يضيق برياسة سعد ، ومع ذلك قبل بعد ذلك أن يكون
مرعوسا لرجل أقل من سعد علما وكفاية ، قبل أن يكون سكرتيرا لحزب الأحرار
الدستوريين الذى يرأسه عدلى يكن . لأن عدلى يكن كان من أصهار أسرة محمد
على ، وليس فلاحا مثله . ولا مصريا صميما مثله .

وكان عبد العزيز يعتقد أنه أحق من سعد بالزعامة والرياسة ، فهو من
أسرة أعرق من أسرته ، وأكثر ثراء ، وأوسع نفوذا ، وهو أكثر منه علما
وثقافة . وهو أفقه منه في القانون . وهو أخطب منه إذا خطب . وأبلغ منه إذا
كتب ، وأعظم سحرا إذا تكلم . ولا يرى في سعد أكثر من منوم مغناطيسى .
قادر على أن يسحر الجماهير . ويسلب لبهم . ويسيطر على عواطفهم ويتحكم
في مشاعرهم . ولكنه غير قادر على أن يحرك عقولهم أو يهز أفكارهم .
ولم يكن عبد العزيز بكل السوء الذى يصفه به سعد ، فقد كان عالما كبيرا
ورجلا من أعظم الرجال الذين تولوا منصب قاضى القضاء في مصر ، وله
مواقف تاريخية مشهورة . ولكن عصبية وكراهيته لسعد أفقدته موازينه في
بعض الأحوال .

فعبد العزيز فهمي هو أبوالدستور المصرى . وله الفضل في وضع كثير من
مبادئه الحرة . وعندما تردد الملك فؤاد في الموافقة على الدستور وأراد أن
يحذف المواد التى تؤيد سلطة الامة كان صوت عبد العزيز فهمي أعلى صوت
ارتفع مدافعا عن حقوق الامة المسلوية ، وصدر الدستور بالمواد التى حاول
الملك أن يحذفها . وجرت الانتخابات الأولى لمجلس النواب ، ورشح عبدالعزيز
فهمي نفسه نائبا في دائرته الانتخابية حيث أهله وأسرته وعزوته ومزارعه .
ورشح سعد زغلول ضده رجلا مجهولا من انتصار الوفد . لا نسبة بين كفايته
أو علمه وبين كفاية وعلم عبدالعزيز فهمي . وفوجئ عبدالعزيز بالأغلبية

في دائرته تسقطه هو وتنتخب المرشح المجهول ، لا لسبب الا لانه مرشح سعد زغلول . ومنعته عصبيته ان يحنى راسه لارادة الناخبين فقبلاً من الدستور ولعن حكم الامة . واعلن ان الدستور ثوب فضفاض وان الشعب المصرى لا يستحقه ، ومضى يؤيد كل حكومة تعطل هذا الدستور او تلغيه او تطاهه بالاقدام !

ووقف عبدالعزيز فهمى موقفا تاريخيا ضد الملك فؤاد دفاعا عن حرية الرأى عندما اراد الملك ان يعزل الشيخ على عبدالرازق من منصبه عقابا له على تأليف كتاب « الاسلام واصول الحكم » الذى اثبت فيه ان الملكية بدعة فى الاسلام .. وطلب الملك الى عبدالعزيز ان يستقيل فرفض . فاصدر الملك امرا بإقالته ووقف عبدالعزيز فهمى يخطب ويهاجم علنا حاشية الملك ومستشاريه بخطابه المشهور الذى قال فيه « حنايك يانشأت » إشارة الى حسن نشأت باشا رئيس الديوان الملكى فى تلك الايام .

وانحدت جميع الاحزاب لمقاومة الملك . وفوجيء عبدالعزيز فهمى وهو رئيس حزب الاحرار وقتئذ بان الاحزاب كلها انتخبت سعد رئيسا لمؤتمرها وزعيما لها . فلم يطبق زعامة سعد والقى طريوشه على الارض واستقال من رئاسة حزب الاحرار الدستوريين وانسحب من الحياة السياسية كلها .. وعندما تولى محمد محمود رئاسة الوزارة وعطل الدستور عينه رئيسا لمحكمة الاستئناف ثم أعيدت الحياة النيابية واذا بالاستاذ زهير صبرى عضو مجلس النواب يقدم سؤالا لوزير العدل عن المرتب الاستثنائى الذى يتقاضاه رئيس محكمة الاستئناف . واعتبر عبدالعزيز فهمى سؤال النائب اعتداء على قدسية القضاء . فاعلن ان مقعد القضاة يهتز تحته واستقال .

وكان غريبا ان يستقيل رجل درس القانون الدستورى لهذا السبب .. فان من حق النائب فى جميع برلمانات العالم ان يناقش مرتبات القضاة ! وعجيب ان يثور الرجل الذى وضع فى الدستور المصرى مادة تنص على ان الامة هى مصدر السلطات . عجيب ان يثور عندما يرى احد نواب الامة يمارس احدى هذه السلطات . وهى سلطة السؤال والاستجواب ! واعجب من هذا الا يهتز المقعد تحت قاضى القضاة حين يرى الدستور - وهو ابوالقوانين - قد عطلت كل مواده . ويهتز لان نائبا قدم فى البرلمان سؤالا عن مرتب قاضى القضاة ! ولكن ائتلاف المدرستين والعقليتين والاتجاهين - هو الذى فرق بين عبدالعزيز فهمى وسعد زغلول ..

وقد حدثت فى اوائل الثورة معركة غريبة بين عبدالعزيز وصفيه كاد عبدالعزيز ان يستقيل بسببها من الوفد ، ولم يمض على قيام الثورة سوى بضعة ايام .

فقد اندلعت الثورة في كل مكان ، وتحركت مديرية البحيرة وانتقض اهاليها على مدير البحيرة واوسعوه ضربا واضطر الى الهرب . وهو بين الموت والحياة ، واستولى الاهالى على المديرية . وثارت الغربية والدقهلية . واشتعلت الدلتا كلها . وتسلم الشعب السلطة في كل مكان . واعلن يوسف احمد الجندى الجمهورية في مدينة زفتى . وعزلت القاهرة عن القطر كله . واصبح الانجليز غير قادرين على الاحتفاظ بالصعيد تحت ضربات الثوار . وتحرك فرسان البدو في البحيرة والفيوم واستولوا على جميع مخازن الجيوش البريطانية وتموينها . ورفعت اعلام الثورة في كل مكان . وانذر القائد العام البريطاني باعدام كل من يقطع المواصلات فاضرب عمال السكة الحديد في اليوم التالى وقطعت جميع القضبان واسلاك التلغراف والتليفون . وهدد القائد العام باحراق كل قرية تقع على مقربة منها القضبان . فتحدث جميع القرى هذا التهديد وحطمت القضبان التي اصلحها الانجليز .. ودعا القائد العام البريطاني الى مقر القيادة في فندق « سافوى » بعض الوزراء واعضاء الوفد وقال لهم :

« ان السلطة العسكرية البريطانية اقتصرت حتى الآن على اتخاذ إجراءات دفاعية ضد الحوادث الجارية في البلاد . فإذا استمرت هذه الحوادث فسوف ارانى مضطرا الى اجراء خطة هجومية . وانى احذركم من حملى على انتهاج هذه الخطة التى تكون عاقبتها وبالا على البلاد . فان مدارها تدمير العمائر . وتخريب القصور . فضلا عن احراق القرى ، وازهاق الأرواح البريئة . الى غير ذلك مما يقتضيه الموقف . وانى جمعتكم هنا لاعلنكم بهذا الانذار . واعلموا انه آخر إنذار . واعملوا ان كل شئ فى وسعكم لتسكين الاهالى . ومنعهم عن احداث القلاقل ، « وإلا فإنى سأنفذ خطتى » .

وفي نفس يوم الانذار خرجت النساء فى مظاهراتهن الأولى . ولم تتوقف الثورة بل زاد اندلاعها ، لم يخف الانذار الشعب بل تضاعف اندفاعه ، لم يتراجع الثوار وانما استمروا فى تقدمهم . فشلت قنابل الطائرات فى اخضاع الاهالى . عجز احراق القرى عن تاديب الفلاحين . اعلنت بريطانيا انها قررت إيفاد اللورد اللنبى فاتح القدس وحامل عصا الماريشاليه لاختضاع الثورة فزاد اندلاع الثورة .

وفي اليوم التالى لوصول اللورد اللنبى الى القاهرة فوجئت صفية زغلول بحسين رشدى باشا رئيس الوزراء المستقيل وهو يقترح عليها ان تدعي بيانا للشعب تدعوه للهدوء والسكينة ويحافظ على القوانين . وقالت صفية ان هذه وثيقة خضوع واستسلام ترفض ان توقعها وانضم

إليها في هذا الرأي عبد الرحمن فهمي وأحمد ماهر والنقراشي وجميع أعضاء الجهاز السرى للثورة .

ثم فوجئت صافية بأن رشدى باشا أقنع عبدالعزيز فهمي باصدار هذا البيان . وان عبد العزيز فهمي أقنع أعضاء الوفد بتوقيعه . وكان نصي البيان يقول :

« أصدرت السلطة العسكرية انذارا بأنها ستتخذ اقصى مايكون من الوسائل الحربية عقابا على ما يقع من الاعتداء على طرق المواصلات والأملك العمومية . ولا يخفى على أحد أن الاعتداء سواء كان على الأنفس ، أو على الأملك يحرم بالشرائع الالهية والقوانين الوضعية . وأن قطع طرق المواصلات يضرب أهل البلاد ضربا واضحا اذ هو يحول بينهم وبين مباشرة مصالحهم . ويوقف حركة النقل للمحاصيل والأرزاق . ويعطل المعاملات والأخذ والعطاء . ويسبب العسر وسوء الحالة .. على أن العقاب عليه يعرض بعض القرى للتخريب . ويعرض الأنفس البريئة الى أن تؤخذ بما لم ترتكب من الذنوب . وينبغي أن يلاحظ أن هذا الاعتداء يضيع على المصريين ما ينتظرون من العطف عليهم بما يسبب من رواج اشاعات السوء عنهم ، ومن أجل ذلك رأى الموقعون على هذا أن من أقدس الواجبات الوطنية أن يناشدوا الشعب المصرى باسم مصلحة الوطن ، أن يجتنب كل اعتداء ، والا يخرج أحد في أعماله عن حدود القوانين ، حتى لايسد الطريق في وجه كل الذين يخدمون الوطن بالطرق المشروعة . كما أننا ندعو أعيان البلاد وأرباب النفوذ فيها أن يقوموا بالواجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيسارعوا الى اتخاذ جميع ما لديهم من الوسائل لمنع وقوع ما ينجم عنه ضرر بالبلاد . وإنا شديدا الرجاء في أن الأمة المصرية بما عرفت من التعقل والروية تصفى الى هذا النداء . وتلزم طريق الحكمة في سلوكها . والله الهادى الى سواء السبيل »

وكان البيان واضحا في أنه تصفية كاملة للثورة .. ودعوة للشعب الى احترام القوانين .

وغضب الثوار احتجاجا على هذا البيان الغريب ..

وقالت صافية انها تؤيدهم في أن هذا البيان فضيحة كبرى !

ولم تدهش صافية حين رأت شيخ الأزهر والبطريك قد وقعا البيان ، كما لم تدهش لأن حسين رشدى وجميع وزرائه وقعوه أيضا ، ولكنها ذهلت حين علمت أن أحد عشر من أعضاء الوفد الموجودين في القاهرة وقعوا هذا البيان .. على شعراوى باشا ومحمد على علوبة وعبدالعزيز فهمي ومحمود ابوالنصر وأحمد لطفي السيد وجورج خياط وسينوت حنا وعبد اللطيف

المكباتى ومصطفى النحاس وحافظ عفيفى ومحمد عبدالخالق مذكور ..
وقالت صفية انها ستطرد اعضاء الوفد من بيت الامة .
وان الذى كتب هذا البيان يستحق ان يضرب بالرصاص !
وسمع عبد العزيز فهمى هذا فثار . فقد كان هو كاتب هذا البيان ، وكان
يرى انه فى مصلحة البلاد . فهدد بالاستقالة من الوفد وقال انه لن يضع قدمه
فى بيت سعد زغلول !

وقيل لعبد العزيز فهمى ان هذا لم يعد بيت سعد وانما هو بيت الامة . فقد
حدث اثناء تاليف الوفد ان اثريت مناقشة عنيفة بين سعد وبين الاستاذين
محمد زكى على ومصطفى الشوربجى المحاميين وعضوى الحزب الوطنى .
واشتد زكى على فى مهاجمة سعد فقال له سعد : كيف تهيننى فى بيتى ؟ فقال
له محمد زكى على : هذا ليس بيتك .. انه بيت الامة .. ومنذ ذلك اليوم اصبح
بيت سعد هو بيت الامة ..

وقيل لعبد العزيز فهمى ان صفية لم تكن تعرف انه هو الذى كتب البيان
عندما طالبت بقتل كاتب البيان . ورضى عبدالعزيز ان يعيد عن استقالته
ويعود الى العمل وهو يضرب كفا بكف ويقول :

— والله عال .. الحركة اصبحت حركة عيال ونسوان !
ولكن « العيال والنسوان » انتصروا على عبد العزيز فهمى . اذ استمرت
الثورة فى اندفاعها : داست باقدامها على بيان التهدة . زادت عمليات التدمير
فى كل مكان . وقعت معارك دموية فى كل القطر بغير استثناء ..
وحدث اثناء اجتماع صفية بالثوار حادث طريف .. ففى احد الايام
اجتمعت صفية فى دارها بعبد الرحمن فهمى واحمد ماهر والنقراشى وعدد من
اعضاء الجهاز السرى للثورة ..

وتحدثت صفية بعبارات نارية . تدعو الى استمرار الثورة .. الى المضى فى
تحدى الانجليز ، فى الاستهانة بالموت امام المدافع والرصاص ..
وقال الدكتور احمد ماهر فيما بعد : كانت تتكلم يومها وكأنها جان دارك !
وفجأة صرخت صفية ، وقفزت واقفة فوق المقعد ، وقد ارتسمت عليها كل
علامات الذعر والرعب والخوف وصاحت :

— الحقونى .. الحقونى !
ودهل الثوار الموجودون .. وتلفتوا حولهم فلم يروا شيئا ..
واشارت صفية بيد مرتعشة الى الارض .. وتلفتوا نحو الارض فوجدوا
صرصارا !

واغرق الثوار فى الضحك ، ودهشوا من ان المرأة التى لاتخاف اساطيل
الانجليز وطياراتهم ومدافعهم ودباباتهم تخاف من صرصار !

وهذه هي المرأة في صفة زغلول . تتحدى أقوى قوى الدنيا وتخاف من
حشرة صغيرة !

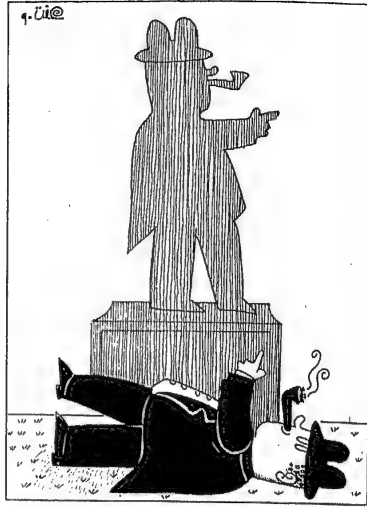
ولكن كيف استطاعت هذه المرأة التي تخاف من المصصر أن تتحول إلى
بطلة . وتلعب دورا رئيسيا في ثورة ١٩١٩ ؟
إنه الحب . أن حبها لزوجها هو الذي رفعها من امرأة تخاف من مصصر إلى
بطلة تخافها أقوى دولة في العالم .. أن المرأة الشرقية إذا أحبت زوجها أمنت
بأفكاره . فقد كانت خديجة أول من آمن بمحمد . المرأة الشرقية إذا أحبت
زوجها تطبعت بطباعه . أو كما يقولون بالعامية « تشرب دمه » . هذا
الامتزاج بين الجسدين والقلبين يصنع روحا واحدا وتفكيراً واحداً . فإذا
أحبت المرأة تغانت ، وإذا تغانت عبدت الرجل ، وإذا عبدته اندمجت فيه
اندماجا فكريا كاملا . ولقد كانت قصة الحب بين هذين الزوجين أقرب إلى قصة
عاشقين حبيبين ..

ان التوامين الصغيرين يذكران عندما كبرا ودخلا عليها في غرفتها . إذا بها
جالسة تحرق خطاباتها الغرامية !
كانت أصابعها ترتعش : وهي تخرج كل خطاب من المظروف . وتقرأه على
مهمل . وتبلله بدموعها . ثم تلقى به في النار !
كانت تخشى أن تقع هذه الخطابات في أيد لا تعرف قيمة حبها وحب سعد ،
فقررت أن تحرقها واحدا واحدا !
كانت لاتحرق ورقا : بل تحرق نبضات قلبها ، وهي تلقى بالخطابات في
النار !

كيف كتب زوجها هذا العدد الضخم من الخطابات الغرامية !
متى وجد الوقت ليكتب كل هذا ؟ كان يحمل فوق كتفيه مسئولية أمه
بأكملها . كان يحارب أقوى امبراطورية في العالم .. فكيف وجد الوقت لكتابة
كل هذه الصفحات ؟

وقالت صفة يومها أن زوجها تعود أن يكتب لها خطابا غراميا في كل مرة
يتناول فيها طعامه خارج البيت . كان يحرص دائما على أن يعوضها عن غيابه
عنها بكلمات رقيقة تنبض بالدفء والحب والحنان ! واستمر يكتب خطابات
الغرام إلى ما بعد الستين . فقد كان يؤمن بأن العمر لا يمكن أن يطفئ
الحب !

وفقد الأدب العربي أرق رسائل حب كتبها زوج إلى زوجته !
لقد قيل أن الحب قادر على أن يصنع المعجزات !
ولكنها المرة الأولى التي استطاع فيها الحب أن يصنع زعيمة ثورة !!



• الفصل الحادى عشر •

اصبح البيت اشبه بسوق عكاظ . اصبح سوقا
للادب والفن والشعر والخلق والابتكار . ولكن السوق
بلا بائعين ولا مشتريين . لامكان فيه للسماسة
والتجار . وعندما يصبح الدم ييذل بلا ثمن يصبح كل
شئ بلا ثمن !

على شرفات البيت ولد خطباء الثورة . بعض هؤلاء
كان يتكلم لأول مرة ، وإذا بالاحداث تحول حماسهم إهى بلاغة ، وترددهم الى
أقدام ، وتلعثمهم إلى فاصحة وبيان .

على هذه الشرفات ولدت فصاحة مكرم عبيد ، وسحر عبدالمجيد بدر .
وتدفق ابراهيم عبدالهادى وثورية الأب سر جيوس ، وشعبية الدكتور
محبوب ثابت ، وبلاغة الشيخ مصطفى القاياتى .

كانت شرفات البيت منابر دائمة ، لا يزل خطيب حتى يصعد خطيب . من
هذه الافواه وغيرها خرجت عبارات نارية كانت تلهب مشاعر الجماهير ، كانت
أشبه بصوت نفير يدعو جيوشا مجهولة للقتال . وكان هؤلاء الخمسة تلاميذ
سعد خطيب الثورة الأول . عبدالمجيد بدر يقلد صوته حتى إذا وقف يخطب
من وراء ستار تصورت أن سعد زغلول هو الذى يخطب . ومكرم يقلده فى
بلاغته وفى اسجاعه وتشبيهاته . وعبدالهادى يقلده فى حماسه واندفاعه ،
وسرجيوس ومحجوب يقلدانه فى اللغة العامية التى كان يستعملها أحيانا
وهو يتحدث الى العمال والفلاحين حتى لتحسبه واحدا منهم . فهم عقليتهم
واندمج فى بيئتهم . وحفظ أمثالهم ، وعرف نكاتهم الشعبية ونواذرهم
الموروثة . وأصبحت كل مديرية تتباهى بخطيبها ، وكل قرية تجىء الى البيت
بفصيحها ، ولم تكن خطب الخطباء تنشر فى الصحف لأن السلطة البريطانية
كانت تمنع نشرها فيها . ولم تكن الخطب تذاع فى الإذاعة لأن الراديو لم يكن
قد اخترع بعد ، ولم يكن من السهل طبع الخطب فى منشورات . فقد كان كل من
يضبط يطبع منشورا يحكم عليه بالأعدام . وإنما كانت ألسنة الجماهير هى
التي تنشر الخطب وتذيعها ، وكانت لسعد كفاية وقدرة جبارة على أن يجعل
الآلاف التى تسمع خطبا تحفظ على الفور أكثر عباراته ، وتردها على الفور
وكانها قطع محفوظات ! وكانت له جمل لها رنين تطير على الفور الى انحاء
البلاد ، فبردها الناس كأنها أغنية أو نشيد ! وكانت له عبارات خالدة على
الزمن . ودخلت اللغة العربية وأصبح الناس يذكرونها فى أحاديثهم
ويكتبونها فى رسائلهم فعبارة « أخلتكم تواضعى » قالها سعد ردا على خطباء
أشادوا ببطولته وقالوا عنه بأنه نبي الوطنية ، وما لبثت هذه الجملة أن
أصبحت تعبيرا يتناقله الناس حتى الآن ! وعندما أصر الانجليز على أن يختار
السلطان فؤاد أعضاء الوفد المصرى الذى يفاوض الانجليز قال سعد زغلول :
كيف يختار السلطان الذى عينه الانجليز الوفد الذى يفاوض الانجليز كان
جورج الخامس يفاوض جورج الخامس ! وكان جورج الخامس هو ملك
انجلترا فى تلك الأيام ، وأصبحت جملة « جورج الخامس يفاوض جورج
الخامس » على لسان الملايين بين يوم وليلة !

وعندما خرج المنشقون من أعضاء الوفد على سعد أطلق عليهم اسم
« برادع الانجليز » ولصقت بهم هذه الصفة .. حتى أنهم بعد ذلك بعدة

سنوات عندما تقدموا للانتخابات سقطوا جميعا في دوائهم ومركز نفوذهم واقطاعياتهم . وكان الفلاحون يعتذرون من عدم انتخابهم بأنهم لا يستطيعون انتخاب يرادع الانجليز ! ..

وهكذا استطاعت بلاغة سعد في خطبه أن تعبد الى اللغة العربية اعتبارها . بعد أن كان الاحتلال قد جعل اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية واللغة التركية هي لغات السياسة والسياسيين . بل ان لغة الصحف نفسها ارتقت ، وأحس الراغبون في الاشتغال بالسياسة أن واجبهم أن يجيدوا لغة التحدث الى الملايين ، فإن فصاحة سعد وقوة حجته هما اللتان منحتاه هذه القوة الهائلة التي جعلته قادرا على أن يحرك الشعب كله ضد الانجليز والسلطان . وكان الساسة المصريون قبل الثورة . وأغلبهم من اصل تركي ، يعتمدون في وصولهم الى النفوذ على المناورات والدسائس والمؤامرات فقد كانت هذه هي لغة القصور . وكان الحكم في مصر في يد قصر الدوبارة وقصر عابدين . وهكذا جلست الكلمة لأول مرة على العرش . إذ أصبح لها قوة السيف وهيبه الصولجان .

وعلى جدران غرف البيت علقنا لوحات فنانين . استوحى الفنانون فيها المعارك التي خاضها الشعب . الشهداء وهم يسقطون تحت وابل من رصاص الانجليز . مظاهرات الشعب الصاخبة وهي تهاجم ثكنات الاحتلال . الجماهير تحمل شهيدا مغطى بعلم مصر وتزف منه الدماء . فرسان البدو فوق جيادهم يهاجمون السيارات المصفحة في دمنهور . من كل مدينة منظر بطولة . من كل قرية مشهد فداء . كل مصري يحاول أن يعبر عن شعوره : الذي لا يعرف كيف يخطب الجماهير يكتب منشورا . والذي لا يعرف كيف يكتب المنشور يرسم لوحة . والذي لا يجيد الرسم ينحت تمثالا . هذا تمثال نصفي لسعد ، وهذا تمثال له وهو يخطب . وهذا تمثال ثالث له والانجليز ينتزعونه من بيته . وهذا تمثال لمصر تبعث من قبرها . تماثيل مختلفة الاشكال والاحجام . بعضها بدائي وبعضها منحوت بيد مثال موهوب . النساء يصنعن الاعلام . يطرزن على القماش صورتى سعد وصفية . وخريطة لوادى النيل ، سيدات طنطا جنن بقطعة قماش حريرية طرزت عليها جملة دخلت التاريخ وهي « عائشة أم المؤمنين وصفية أم المصريين » . وهذه اللوحة هي التي جعلت صفية زغلول أم المصريين ، وما كادت الجماهير تراها في أيدي سيدات طنطا في احدى المظاهرات حتى أصبح الاسم الجديد على كل لسان !

وفي الشوارع المحيطة ببيت سعد ولدت الاناشيد الوطنية . كان النشيد الوطني قبل الثورة نشيدا سخيفا يقول « افندينا دخل الديوان ، والعسكر

ضربوا له سلام .. وفجأة سارت مظاهرة يقودها معلم موسيقى قصير القامة اسمه أحمد خيرت ، وتسار وراءه أطفال يحملون الطبول والمزامير ويعزفون نشيد « يحيى سعد » وفي يوم وليلة اختفى نشيد أفندينا دخل الديوان والعسكر ضربوا له سلام . وأصبح نشيد يحيى سعد هو النشيد الوطني الذي يعزف في كل مكان وتبدأ به المسارح وتنتهى حفلاتها !
ووضع الشاعر مصطفى صادق الرافعي نشيد « اسلمى يا مصر إننى الفدا .. ذى يدى إن مدت الدنيا يدا » . وانطلقت الجماهير تنشد النشيد الجديد من القاهرة الى أسوان .

وعندما بدأ الانجليز يقابلون المظاهرات بالرصاص ويسقط منهم شهداء خرج سيد درويش بنشيد « اليوم يومك يا جنود . ماتجعليش للروح ثمن . يوم المدافع والبارود . ماليكيش خلافة فى الزمن » .
ووضع شاعر مجهول فى أثناء إحدى المظاهرات أغنية ترددها الجماهير تقول : « باردون ياونجت . بلادنا خربت . قتلوا ولادنا . نهبوا بلادنا . نفوا رئيسنا . أكلوا دريسنا . باردون ياونجت . بلادنا خربت . ! » وكان وينجت هو السير وينجت نائب ملك بريطانيا فى مصر أثناء قيام الثورة . وانتشرت هذه الأغنية بالذات انتشرا ذريعا فى القرى والكفور فى أنحاء البلاد . وحول مجهولون من أفراد الشعب أغانى الفولكلور المصرى إلى أغان وطنية وأغانى ثورية . فعندما بدأت الحرب العالمية الأولى جمعت السلطة البريطانية العمال والفلاحين المصريين بالقوة واستخدمتهم قسرا فى ميادين الحرب فى أوربا . نظم بعض العمال المجهولين أغنية تقول « يا عزيز عينى . وأنا بدى أروح بلدى . بلدى يابلدى والسلطة أخذت ولدى » .
وعقب قيام الثورة ونفى الانجليز سعد تبذلت الأغنية فى المظاهرات على الفور وأصبحت تقول « يا عزيز عينى وأنا بدى أحرر بلدى ! بلدى يا بلدى . والسلطة نفت سعدى » ! بلدى يا بلدى وكل مصرى وفدى ! بلدى يا بلدى . بلدى يا بلدى . ربنا معايا وانجلترا ضدى ! بلدى يابلدى . اديهم جامد إدى ! يا عزيز عينى لازم أحرر بلدى ! »

وحولت الجماهير أغنية : يا وابور الساعة ١٢ يا مجبل ع الصعيد « إلى أغنية تقول : يا وابور الساعة ١٢ يامجبل على مالطة .. هات لى معاك بلطة . اكسر بها قيودى . أرجع مجد جدودى . ياوابور الساعة ١٢ يامجبل على مالطة . طمن لنا زغول ، قول له البلد بتقول . الواد ماسك طوية . والحرمة فى ايدها بلطة .. والراجل ماسك فاسه . والافندى ييشغل راسه . والأمة يد واحدة .. وما عملناش ولا غلطة .. والانجليز بقوا سلطة .. يا وابور الساعة ١٢ يامجبل على مالطة ! »

وجاء الشاب حسن فاليق الى بيت الأمة وغنى للجماهير أغنية تقول :
« مدد يا رفاعى مدد . ملك الأفاعى يا اسد . مين زيننا احنا فى البلد ناكل
رصاص من غير عدد دا احنا ولدنا من جديد . زى الحديد . الأب والأم والوليد
صبحوا رجال من غير عدد . مدد يا رفاعى مدد ! قلنا محال . يبقى احتلال
يا نعيش كرام . يانموت كرام . من غير عدد . نموت نقول . يعيش زغلول .
مدد يا رفاعى مدد . ملك الأفاعى يا اسد » .

وفى فترات كان يبدو للجماهير كان الثورة قد توقفت . نزلت الضربات على
الثوار فانكفا البعض منهم على وجوههم . يمسح جراحه . أو يحمل قتلاه .
أو يجفف عرقه . اشتد البطش . وضعت المدافع فى الشوارع . نصبت
المشائى فى الميادين . ضاقت السجون بالأحرار . أطفئت الأنوار . قطعت
الأسلحة . الشعوب دائما لها حكاية مع الظلام . الأسقف الواطئة التى يجتمع
تحتها قادة الثورة تجعلهم يبدون أمام الجماهير وكأنهم احتلوا ظهورهم تحت
ضربات السياط . همساتهم وهم يلتقطون أنفاسهم ليضربوا ضربة جديدة
تبدو للجماهير كأنها حشرة الموت قبل أن تلفظ الثورة نفسها الأخير ! ولم
تكن الثورة قد تراجعت . ولكن الجماهير القلقة توجست خيفة . فخرجت
الاناشيد تهاجم المترددين ، تشجع الخائفين . تشدق قوى الضعفاء . توبخ
الجبناء . وتندفع مظاهرات تنشد أغنية جديدة من تلحين سيد درويش ونظم
بديع خيرى ، تقول : « قوم يا مصرى . مصر دايم بتناديك . خذ بناصرى .
نصرى دين واجب عليك . يوم ما « سعدى » راح هدر قدام عنيك ! عيد لى
مجدى الى ضيعته بإيديك اهشو فى قبورهم ليل نهار . من جمودك كل عضمة
بتستجار . صون أثارك يالى ضيعت الآثار ! .. دول فاتوا لك مجد خوفو لك
شعار ! » ولم يكن شعب مصر يستحق كل هذا التوبيخ . فقد كانت المظاهرات
تغنى هذا النشيد احتجاجا على أن الشعب ترك سعد زغلول فى المنفى ثلاثة
اسباع ! وكانت الشوارع مغطاة بجثث الشهداء . وكان المعارك فى كل قرية
وفى كل شارع بين شعب سلاحه الطوب وجيش اكبر امبراطورية فى العالم
يحمل المدافع . وكان الوف المصريين فى السجون . ولكن كل هذا لم يكن يكفى
الشعب الغاضب . كلما أعطى ، أراد أن يعطى أكثر . كلما بذل من دم .
استرخى الغداء . كلما كسب خطوة فى الطريق . طالب بالاندفاع الى نهاية
الطريق ! لم تكن عظام قدماء المصريين تستغيث كما قالت أغنية سيد
درويش . وإنما كانت ترقص اعجابا بقوة هذا الشعب الاعزل الذى انقض
فجأة على غاصبيه ووضع قدمه فوق رأس ظالميه !
ولكن الثورة مثل الخمر كلما شربنا منها كاسا زدنا شوقا إلى كئوس جديدة

إن حماس الشعب سبق أحلام الثوار ، فإن الذين تظلموا الثورة أشبه بالذين صنعوا القنبلة الذرية ، فإن انفجارها كان أقوى مما قدروه . وكان أعظم مما تمنوه ، كانوا يحملون بأن يوقظوا الشعب الذى تام عشرات السنين . ولكنه لم يستيقظ فقط ، وإنما تحول الى مارد جبار . كانوا يعدونه ليدافع عن نفسه فإذا بهم يجدون أنفسهم فى يوم وليلة أربعة عشر مليوناً من الثوار ! وجزع بعض الناس الذين يسمون أنفسهم عقلاء من هذا الشعب المجنون ! هذا الشعب الذى يهزأ بالرصاص ، يعانق المدافع . يهزأ بالقنابل . يتزاحم لينال شرف الاعداء بإيدى الانجليز . لا يخيّفهم احراق قراهم . لا يرهيبهم فرض الغرامات على أهل القرى الثائرة ، لا يجزعهم أزيز الطائرات وهى تقتلهم بالقنابل والمواد الحارقة ! اشفقوا على الشعب الذى يموت وهو يغنى . أو اشفقوا على أنفسهم من أن تاكلهم نار الثورة التى امتدت الى كل قوى الظلم والاستبداد فى البلاد . وهنا خرجت أصوات « عاقلة » تدعو الى التعقل . ناسية أن صوت العقل فى أثناء المعركة هو صوت الجنون ! خرجت أصوات « حكيمة » تدعو الى الحكمة ، متغافلة عن أن نداء الحكمة لشعب يقاتل دفاعاً عن حياته هو صوت الهزيمة !

خرجت أصوات تنادى بالسلام .. والسلام بين الذئب والشاة هو الاستسلام ! . ونشرت مقالات بهذا المعنى فى جريدة الأهرام . وكانت هناك أغنية شعبية تقول « خذ البزة واسكت خذ البزة ونام ! أمك السيدة ، وابوك الإمام ! » وقلبها المتظاهرون إلى أغنية ساخرة بدعاة التردد والهزيمة تقول : « خذ البزة واسكت . خذ البزة ونام ! ياواد يالى بتقرا جرنال الأهرام ! »

وحدث أن كتب الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية نداء دعا فيه الشعب الى الهدوء والامتناع عن العنف ، واستشهد فى نداءاته بآيات من القرآن والحديث الشريف ! .

وإذا بالجماهير تخرج فى اليوم التالى بمظاهرات تغنى أغنية من نظم الشاعر محمود بىرم التوشى ، يغنونها على انغام الربابة وهى تبدأ ببيت يقول : « أول ما نبدى نصلى على النبى . نبى عربى يلعن أبوك يا بخيت ! » وبعد تلك الأغنية لم يعد مفتى الديار المصرية يدعو الى الهدوء والسكينة ! وكان أكثر ما يزعج الانجليز وحدة الشعب فى أثناء الثورة . ونجاح سعد فى أن جعل الصليب والهلال يتعانقان فى علم الثورة . وأصبح المشايخ يخطبون فى الكنائس . والقساوسة يخطبون فى المساجد . وبدأ الانجليز يحاولون إثارة الفتنة بين المسلمين والأقباط ، محاولين تمزيق وحدة الأمة . مدعين أنهم

يحتلون مصر ليحافظوا على أرواح الاقباط من مذابح المسلمين . وكان سعد يقاوم هذه الفتنة في خطب ونداءات . وكان من بين خطبه المشهورة قوله : أحذروا هذه الدسيسة . واعلموا أن ليس هناك أقباط ومسلمون . ليس هناك الا مصريون فقط . ومن يسمونهم أقباطا كانوا ولا يزالون أنصارا لهذه النهضة . وقد ضحوا كما ضحيتم . فاجتثوا التراب في وجوه أولئك الدساسين . لولا وطنية في الأقباط . وإخلاص شديد ، لتقبلوا دعوة الأجنبي لحمايتهم ، وكانوا يفوزون بالجاء والمناصب ، بدل النفي والاعتقال ، ولكنهم فضلوا أن يكونوا مصريين معذبين محرومين من المناصب والجاء والمصالح . يسامون الخسف ، ويدققون الموت والظلم على أن يكونوا محميين بأعدائهم وأعدائكم » .

وترجم نجيب الريحاني المسيحي خطاب سعد الى أغنية . وخرجت فرقته . وهو على رأسها ، تمشى في الشوارع والجماهير تردد وراءها أغنية تقول : « أوع يمينك ! أوع شمالك ! أوع الفتنة توقف حالك ! إن كنت صحيح بدك تخدم . وعاوز مصر تتقدم . لاتقول نصراني ولا مسلم . ولايهودي ياشيخ اتم ! الى أوطانهم تجمعهم ، عمر الأديان ماتفرقهم » !

وأصبحت هذه الأغنية على كل لسان ، الرجال والنساء والأطفال يرددونها ، الفلاحون والعمال يترنمون بها . لم تحملها اليهم اذاعة ، ولم تنشر في صحيفة . ولم تطبع على اسطوانات ، ولكن شعبا بأسره كان يغنيها في كل مكان . وكان الملايين كانوا يرددون في وقت واحد ردا حاسما على الفتنة التي دبرها الانجليز !

وذاث يوم أصدر القائد العام البريطاني أمرا عجيبا ، وهو يقضى بأن يحكم بالسجن خمس سنوات على كل من يذكر اسم « سعد » أو ينشره في جريدة ، أو يردده في مكان عام ، أو يشير اليه في منشور وكان الانجليز يتوهمون أنهم إذا منعوا اسم سعد أن ينساه المصريون لأن مصر بلد كل شيء فيه ينسى بعد حين !

وخطرت لصفية زغلول فكرة عجيبة . فقد أحضرت « ختما » من الكاوتشوك كتبت عليه « يحيا سعد » وأصبحت تطبع هذه الكلمة على كل ورقة من أوراق البنكنوت ! واشتركت السيدات في هذه العملية وأصبحت مئات الألوف من الجنيهات والخمسين قرشا والعشرة القروش عبارة عن منشور يحمل كلمة « يحيا سعد » وإذا بالمصريين جميعا يكتبون على كل ورقة بنكنوت في جيوبهم كلمة « يحيا سعد » !

وفوجيء الانجليز بأن كل مصري في جيبه ورقة مكتوبا عليها « يحيا

سعد « وصدر الأمر بطبع ورق بنكنوت جديد .. ولكن هذه العملية احتاجت الى عدة شهور !

وفجأة خرجت المطربة منيرة المهدية باغنية من نظم الأستاذ محمد يونس القاضى يحتال فيها على تذكير الشعب بسعد ، تذكير الذين لا يملكون في جيوبهم « ورق بنكنوت » وكانت الأغنية تقول : « يا بلح زُغلول يا حليوه يا بلح ! يا بلح زُغلول ! عليك بنادى ! فى كل وادى . وأقول يا بلح ! يا بلح زُغلول ! » وخرج الرجال والنساء والأطفال يحملون على رؤوسهم سلات فيها البلح ويغنون فى الشوارع أغنية يا بلح زُغلول ! واسقط فى يد الانجليز . وكتب مستر ريجنالد ديلينى مراسل رويتر : « أن الذى يمشى فى شوارع مدن مصر وقرأها يخيل اليه أن جميع أهلها من رجال ونساء وأطفال تحولوا الى باعة متجولين . يبيعون بلحا اسمه بلح زُغلول ! » وفى تلك الأثناء خرج نشيد « اسلمى يامصر » من نظم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، وتلحين الأستاذ صفر على .

وتحولت المسارح الى مسارح ثورية ! اختفت هزليات ما قبل الحرب ، اختفت مسرحية « ياستى ماتمشيش كده عريانه » « وخلى بالك من امبلى » . وبدأت تظهر مسرحيات وطنية تؤيد الثورة وتطالب بالاستقلال ! فى يوم وليلة تحول مؤلفو الفودفيل والمسرحيات الساخرة الى مؤلفى مسرحيات تثير حماس الشعب ، وتؤيد الثورة وتهاجم الانجليز ! وأمر رسل باشا الحكمدار الانجليزى بمنع المسارح من تمثيل المسرحيات الوطنية ، وتحليل الفنانين ، واتجهوا الى الرمز ، وظهرت روايات بزيئة المظهر . ولكنها فى الحقيقة تسخر من الطغيان وتحدث عن حق الضعفاء فى الحرية والحياة ! وقد بدأت صلة الطفلين الصغيرين بالفن فى تلك الأيام . حفظا الأغاني والمثلوجات والأناشيد ، أن اذن الطفل تلتقط هذه الكلمات البسيطة ، هذه الألحان الساذجة ، كانت لعبتهما ، ثم أصبحت هوايتهما ، لم يعرفا الفنانين كمرجرين ، وإنما عرفاهم كاساتذة فى الوطنية ، كابطال يحركون الجماهير ، كقوى جبارة من قوى الثورة ونضالها ، أن هذه الصلة بالفن بدأت مبكرة ولكنها لم تنقطع قط ، وهكذا أصبح الفن جزءا من حياتهما ، سرى فى دمهما . امتزج باحلامها وامانيهما وفى هذه السن المبكرة عشقا للفن ، وسيطر على تفكيرهما . وحدث فى تلك الأيام أن غادرت صافية زُغلول مصر الى باريس لتلتحق بزوجها بعد أن أرغمت الثورة الانجليز على الافراج عنه . وخرج الشعب الى الشوارع يغنى ويرقص على أنغام أغنية وضعها حسن فايق تقول : « ايه اللي جرى النهارده يا حاج ياسين . بلادنا بتلاى وناسها مزقطين . رايات ترفرف وحاجات تفرح يامحمدين ! »

وكانت القاهرة قبل ذلك مدينة مقربة الجبين ، ولكنها في ذلك اليوم كانت المدينة الضاحكة الراقصة ، مواكب لا أول لها ولا آخر تمشي أمام بيت الأمة . لاتمشي .. إنما ترقص ! عجائز يرقصون . أطفال يرقصون ! كل المدينة ترقص على لحن « إيه الى جرى النهارده يا حاج ياسين » .

ورأت أم الطفلين أن تعود بهما الى مدينة دمياط بعد سفر صافية زغلول الى باريس . وما كاد يصل الطفلان الى دمياط حتى خطر ببالهما خاطر غريب وهو أن يقيما مسرحا في المدينة ، وأن يتولى الطفلان إلقاء المنولوجات والانشيد التي سمعها في بيت الأمة أثناء الثورة . ووجدا خرابة بجوار البيت وقررا أن يطبعا تذاكر ، كل تذكرة بقرش صاغ ، وأهل دمياط مشهورون بالحرص ، ولكنهم اقبلوا على شراء التذاكر من الطفلين الصغيرين وصديقهما جلال الدين الحمامصي . واستأجروا مقاعد وأقاموا سرادقا وجاءوا بأكواب النور ، وبنوا مسرحا .. كل ذلك وعمر كل واحد منهم هو خمس سنوات وبضعة شهور ! وأقيمت الحفلة ووقف الأطفال الثلاثة يغنون الاناشيد الوطنية والجماهير ترددها وراءهم !

واكتشفت أم الطفلين أنهما ليسا نائمين في سريرهما كما أوهماها ، لقد دخلا السرير واطفئت الأنوار . ثم انسل الطفلان حافيين الى مكان الحفلة ولحسن الحظ لم يحدث هذا الاكتشاف الخطير الا في نهاية الحفلة ، والا لتفرج المتفرجون على علة ساخنة نالها الفنانان الصغيران من أمهما . لم تشفهما من مرض الفن . وإنما زادت من هيامهما وعشقهما لهذا الفن الجميل ! ولهذا لم يكن غريبا أن يكون أول ما لفت نظر الطفلين من المجلات هي المجلات المسرحية ، مجلة المسرح لصاحبها عبدالمجيد حلمي . مجلة روزاليوسف محررها محمد التابعي . مجلة الحياة الجديدة . مجلة الميكروسكوب . مجلة الممثل . مجلة النجوم . كل هذه مجلات مسرحية متخصصة . وكانت التقاليد في تلك الأيام أن كل مجلة تصدر في مصر ترسل نسخة منها هدية لسعد زغلول . وكانت تتكدس في بيت سعة مئات من هذه المجلات . بعضها يصدر في مصر ، وبعضها يصدر في البلاد العربية . وبعضها يصدر في أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية باللغة العربية . ولم يجتذب اهتمامهما بين المجلات السياسية ، والمجلات الأوروبية والمجلات القصصية شيء منها . المجلات المسرحية هي التي جذبتهم . وبدأ الطفلان يؤلفان مجموعات من هذه المجلات وبتابعان النهضة المسرحية من تلك السن المبكرة !

وعندما انشئت فرق مسرحية في مدارسهما انضما على الفور إليها . وعندما انشئت في المدرسة الثانوية الملكية فرقة للموسيقى يديرها محمد عبدالوهاب

كانا أول من انضم إلى هذه الفرقة . وعندما اصدرا وهما في سن الثمانية أول مجلة لهما باسم « الحقوق » مكتوبة بالقلم الرصاص . كان في المجلة صفحة كاملة تتحدث عن الفن والفنانين !

وبعد ٤٠ سنة من ثورة ١٩١٩ فصلت الفرقة القومية الممثلة زينب صدقي بلامعاش ، وقامت أخبار اليوم بحملة واسعة بعنوان « ادفع ثمن تذكرة رواية لن تشهدها » . وجمعت من قرائها مبلغا ضخما سلمته لشركة مصر للتمارين التي تعهدت بدفع معاش للنجمة التي انطفت ، معاش إلى آخر يوم في حياتها ! وكانت الحملة كبيرة ، والمبلغ كبيرا . وتساءل الناس ما هي الصلة التي تربط زينب صدقي بالتوامين ؟ ولم تكن زينب صديقة لهما . فذهبت تسالهما كيف وقفوا بجوارها في الوقت الذي تخلى عنها فيه آلاف المعجبين ومئات الأصدقاء .. وقال لهما مصطفى : اننا رايناك في سنة ١٩١٩ على رأس مظاهرة الممثلين والممثلات في بيت الأمة وراينا فرقة من الجنود الانجليز تهاجم المظاهرة وإذا بك تتقدمين نحوها وتهتفين : يحيا الاستقلال التام لمصر والسودان ! قد تنسى دورك في عادة الكاميليا . ودورك الرائع في مجنون ليلى . ولكن لا يمكن أن تنسى أبدا دورك على رأس المظاهرة تواجهين بندق الانجليز ! وتأثر الطفلان بدور الفنان في ثورة ١٩١٩ عاش معهما ، فإن مصطفى مثلا لعب دورا هاما في تحويل أم كلثوم من غناء القصائد الغرامية إلى القصائد الوطنية . ففي عام ١٩٤٥ اختار لها أغنية سلوا قلبي . التي جاء فيها بيت من الشعر هو « ومانيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا » . فهذا البيت هو بيت القصيد في القصيدة كلها . وعندما انشدته أم كلثوم تحول إلى شعار للشعب في مظاهراته التي تطالب بالجملاء .. وقد اشترك بعد ذلك مع أم كلثوم في اختيار أغلب قصائدها الوطنية . وهو صاحب فكرة الأغنية المشهورة : « مصر التي في خاطري وفي دمي . من منكمو يحبها مثلي أنا ؟ » وقد كتب كلماتها نثرا . وتولى الشاعر أحمد رامى تحويل النثر إلى نظم .

وكان الممثلون والممثلات دائما أقرب الأصدقاء إلى قلوب التوامين ، كل هذا لأنهما تشبا على صوت أناشيدهم في ثورة ١٩١٩ وحفظاهما ورددها . ولم يكن صوتهما جميلا ولكنهما مع ذلك كانا يشعرا بأنهما استطاعا أن ينقلا هذه الأناشيد إلى أهل مدينة دمياط . وأن يجعلوا الآلاف يرددونها ، وأحسا بفخر كأنهما استطاعا أن يوزعا منشورات ثورية . كأنهما ، وهما في الخامسة من عمرهما وضعا قتال تحت أقدام الانجليز ! لقد كنت تسمع الأغاني الوطنية في أثناء الثورة والفلاحين يغنونها خلف المحاريط والسواقي والشواذيف ! ولم تكن أصوات الفلاحين جميلة . ولكن الصديق كان يعطيها جمالا وحلاوة

ليست في أعظم المطربين . فالفن العظيم هو الفن الصادق ! صوت بسيط أجش ولكنه يؤمن بكلمات الاغنية فيطرب ويؤثر في النفس أكثر مما يؤثر صوت ملائكى يغنى على أنغام اكبر فرقة اوركسترا عالمية ! ولا يؤمن بالكلمات التي يؤديها !

لقد انتشرت في اثناء الثورة الحان للمحنين مجهولين ولؤلفين مجهولين . اغان تعزف على تصفيق الأيدي لا على أنغام الآلات الموسيقية ، أنغام بسيطة ولكنها حلوة ، مسارحها هي الشوارع . الكورس الذي يريدها هو الملايين . ولكنها الحان صادقة خرجت من القلب فدخلت الى كل القلوب . وكانت الجماهير تغير في كلمات الاغنية أو تعدل فيها حسب الظروف والمواقف . فهي تختار النغمة الصحيحة لكل موقف . وتختار « الطبقة » بحيث تقترب طبقة القائد العازف من طبقة الوف المردددين والمنشدين . وبذلك لم يحدث « نشان » بين الثوار وأغانيهم . فالأغنية الوطنية أشبه بقائد المظاهرة اذا تقدم أكثر مما يجب فقد الذين يتبعونه في الطريق . واذا تأخر أكثر مما يجب تاه صوته دون ان يصل الى مسامعهم . فإذا استطاعت أغنية ان تجعل شعبا يرقص على أنغامها كان هذا دليل أصالتها وصدقها . واذا استطاع لحن ان يوقظ النائمين وينبه الغافلين تحولت أنغامه الى صوت أعلى من صوت المدافع !

ولم يكن للثورة وزارة ثقافة تنظم الفن . فعندما ينتظم الفنانون يحولون الى طوابير تمشي بخطوات عسكرية . والخطوات المنتظمة ليس فيها رنين اللحن الحلو الذي يدخل القلوب بغير استئذان . الخطوات المنتظمة قد تهرب وقد تخيف . ولكنها بغير نبض وبغير روح . وقيمة الفن الأصل هي بقدر ما فيه من نبض روح . وهو يستمد نظامه من فوضاه . القيد لا يلهمه وإنما يحدد خطواته ويوقف انطلاقه . فالناس قد تفعل أى شئ بقرار . ولكنها لايمكن أن تغنى بقرار . أو أن تحب بقرار ! ولعلمهم لهذا السبب يسمون أدنى « طبقة » في السلم الموسيقى العربى بالقرار !

فالثورة ألهمت الفنانين فنا جديدا . أخرجت الذين تحت الأرض منهم . هيات لهم جو الحرية فالفن لا يستطيع ان يتنفس ويعيش الا من خلال الحرية ولكنها لم تضع في أفواههم ما يقولون . لم تدق لهم لحنا واحدا وطلبت اليهم ان يرقصوا على نغماته . تركت لهم ان يعبروا عن احساسهم . جعلت الشعب هو الرقيب الذى يبيح ما ينشد وما لاينشد .. فالأغاني التي احبها الشعب ردها كتب لها الحياة . والأغاني التي ماتت .. ماتت على شفاه الملايين !

ولكن الثورة صنعت شيئا للفن . انها منحت الفنان اعتباره لأول مرة في تاريخ مصر ! كان الفنان محتقرا . واذا بسعد زغلول يسمح لفنان مثل حسن

فايق ان يقف بجواره على منبر الخطابة . ويدعوه ليلقى متلوجه قبل أن يلقي خطابه السياسى ! كان الفنانون يغنون للخاصة . وأصبحوا يغنون للشعب . كانت المسارح وقفا على الوجهاء فإذا بها تصبح للملايين . فليس غريبا أن يطرأ ما طرأ على الفرق المسرحية ، فبعد أن كانت تغلس مرة كل شهر قبل الثورة . إذا هى تتحول بعدها مباشرة الى مؤسسات محترمة . وبعد أن كان الممثل يتقاضى مرتبه يوميا ، أصبح لأول مرة فى حياته يتقاضى مرتبا منتظما كل شهر . وبعد أن كانت القاهرة تعمل فيها ثلاث فرق غير منتظمة أصبح عدد الفرق المسرحية فيها أكثر من عشر . وتآلفت فرق مسرحية فى جميع المحافظات والأقاليم .

وجاءت وزارة سعد زغلول ولأول مرة فى تاريخ المسرح المصرى قررت أن تمنح مكافآت سنوية لأبرز الممثلين فى فنون الدراما والتراجيدى والكوميدي والغناء والغناء المسرحى وقررت ادخال التمثيل فى المدارس ! ولم يكن فى مصر قبل الثورة مجلة مسرحية واحدة ، فأصبح فيها عشرات المجلات المسرحية . ولم تكن المحاكم الشرعية تقبل شهادة الممثل بحجة انه يمتن مهنة حقيرة ولايجوز قبول شهادة الممثل . فإذا بنجيب الغرابلى وزير الحقانية فى وزارة سعد زغلول يكتب الى النائب العام يطلب منه التنبيه بقبول شهادة الممثل والممثلين لأنها مهنة محترمة تعترف بها الدولة وتمنح المتفوقين فيها جوائز حكومية .

ولم يقف اثر الثورة على الفنون المسرحية والتشكيلية ، بل انها بعثت فى النحت من جديد .. والهت الثورة المثال محمود مختار الذى كان يدرس فن النحت فى باريس أن يصنع تمثال نهضة مصر .. ويعرضه بمتحف جريفيين . وكان فن تحت التمانيل قد توقف فى مصر منذ أيام قدماء المصريين . حتى انه لم يكن فى مصر كلها تمثال صنعه مصرى !

وزار ويصا واصف عضو الوفد المعرض ورأى تمثال نهضة مصر وهو مصنوع بالطين . فاعجب به وقال انه على يقين من أن الأمة التى تنهض وتريد نصيبها فى الحياة إنما تنهض فى كل مظاهر الحياة سياسية واقتصادية وعلمية وفنية . وذهب ويصا الى سعد وصحبه لمشاهدة التمثال . وما كاد سعد يرى التمثال حتى أعجب به . وكان أكثر ما أعجبه . وهو الفلاح المعتر بانة فلاح . إن التمثال اظهر أن فلاحة مصرية هى التى توقظ أبا الهول !

وقال سعد : هذا التمثال يجب أن يوضع فى اكبر ميدان فى القاهرة ! فقال مختار : لا يمكن أن توافق الحكومة التى عينها الانجليز على أن تقيم تمثالا يعبر عن ثورة الشعب ضد الانجليز !

قال سعد : هذا التمثال يجب أن يقام في أكبر ميدان في القاهرة ، انه يمثل ثورتنا . انه يربط مجد هذا الشعب اليوم بمجده القديم ممثلا في أبى الهول . وقيمة هذا التمثال أن فيه رائحة الأرض . أن الطين فيه يقول شعرا ويحكى تاريخا ويرسم واقعا ويصور أملا !

قال مختار : ولكن لكي يقام هذا التمثال يجب أن يحول من طين الى حجر . ويجب أن تخصص له الحكومة ميدانا ليقام فيه ، ومن غير المعقول أن الانجليز الذين يضربون بالرصاص كل من يقول تحيا الثورة . يسمحون باقامة مظاهرة دائمة يرمز لها التمثال في المخزن ، وعندما تحصل مصر على استقلالها تقيم هذا التمثال ، فإن تحويله الى حجر سيتكلف عدة ألوف من الجنيهات ومن غير المعقول أن تدفع الحكومة التي عينها الانجليز مليما واحدا من أجل تمثال نهضة مصر .

وسكت سعد قليلا ثم قال : الشعب هو الذى سيدفع ثمن هذا التمثال .. وبهت مختار وقال : هل تتصور معاليك أن الشعب سيدفع ثمن تمثال لم يره .. ان المبلغ المطلوب يتجاوز بضعة ألوف .

قال سعد : إننى ساوجه اليوم من باريس نداء الى الشعب في مصر اطلب منه أن يتبرع بالمبلغ الكافى لاقامة هذا التمثال العظيم !

وعندما اجتمع سعد بزملائه أعضاء الوفد وأبلغهم بفكرته . اعترض البعض منهم خشية أن يتعرض الوفد لمسألة كهذه من الممكن أن تحدث انقساما في الأمة ! وقالوا أن الدين الاسلامى ضد اقامة الاصنام . وما تمثال مختار الاصنام من هذه الاصنام التي لعنها القرآن ! وقد ينتهز السلطان هذه الفرصة فيوعز لبعض أصدقائه من رجال الدين ليعلنوا أن دعوة المسلمين لبناء صنم كفر . وأن كل من يدفع لاقامة الصنم هو كافر وزنديق !

قال سعد : في هذه الحالة نقول لهم لماذا لم تعترضوا على تمثال محمد على في الاسكندرية وتمثال ابراهيم باشا في القاهرة ! اهدموا التمثالين فنعدل عن اقامة تمثالنا ! ان ثورتنا تقدمية قامت لتحطيم الاصنام .. وتمثال نهضة مصر هو صورة شعب يستيقظ ليحطم الاصنام !

وأرسل سعد زغلول برقية يدعو الشعب للاكتتاب لصنع تمثال نهضة مصر وانهاالت التبرعات على جريدة الأخبار لسان حال الوفد ، وفي أيام قليلة غطى الشعب المبلغ الكبير المطلوب !

ولم يجرؤ صوت واحد أن يرتفع ويعترض على جميع الاموال لاقامة تمثال نهضة مصر ..

كان ذلك في عام ١٩٢٠ ولكن التمثال بقى ثمانى سنوات مسجوناً في أحد المخازن ! وكان الانجليز معترضين على اقامة التمثال !

وكان سعد يسمى تمثال نهضة مصر « المسجون السياسى الوحيد الذى لم يفرج عنه بعد » !

ثم قرر مجلس النواب برئاسة سعد زغلول تأليف لجنة برلمانية للتحقيق فى سر تعطيل العمل فى التمثال ..

ولم يَزح الستار عن التمثال الا بعد وفاة سعد بعدة شهوره !
ولم يكن سعد يتصور أن ما أصاب تمثال نهضة مصر سوف يصيب تمثاليه هو ! فلا يصبح تمثال نهضة مصر المسجون السياسى الوحيد ، بل يحمل تمثاله هو أيضا لقب المسجونين السياسيين أيضا !

ففى اليوم التالى لوفاة سعد اجتمع مجلس الوزراء وقرر أن يقام لسعد تمثال فى القاهرة وتمثال فى الاسكندرية ، وقرر أن يتولى التمثال محمود مختار صنع التمثالين ..

وكان الملك فؤاد فى ذلك الوقت غائبا فى أوروبا ، وكان عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء غائبا فى أوروبا كذلك .. ورأس مجلس الوزراء جعفر والى باشا وزير الحربية واقدم الوزراء .

وكانت الوزارة وزارة ائتلافية يشترك فيها الوفديون والاحرار الدستوريون . ولكن الذى تقدم بهذا الاقتراح لم يكن أحد الوزراء الوفديين ولا الوزراء الدستوريين . بل كان الوزير المستقل فى الوزارة ، كان احمد زكى ابوالسعود باشا وزير العدل .. واقترح بعض الوزراء ان يؤجل نشر القرار الى ان يستأذن الملك الغائب فى أوروبا وثار احمد زكى ابوالسعود باشا فى الوزير الذى اقترح استئذان الملك وقال :

— من العار أن نستأذن فى تكريم زعيم امتنا .

ولم يكف زكى ابوالسعود بهذا الاقتراح بل اضاف اليه قرارا باقامة ضريح لسعد وأن يكون بيت الأمة متحفا وطنيا . وبأن يكون البيت الذى ولد فيه فى قرية ابيانة ومتحفا وطنيا ..

وكان موقف زكى ابوالسعود فى مجلس الوزراء غريبا . وقد ايده الوزراء بالاجماع ولكنهم سالوه عن سر حماسه هذا ..

فقال لهم : ان سعد زغلول هو الذى عيننى ، وهو رئيس للوزراء . عضوا فى مجلس الشيوخ . وعند افتتاح البرلمان القى سعد خطاب العرش ، ولم يعجبني الخطاب . وقررت ان اهاجمه ..

وفارت بينى وبين سعد زغلول مناقشة عنيفة فى مجلس الشيوخ . لوح فيها سعد بالاستقالة . فلم اتردد فى المضى فى انتقاده .. وكنت اول صوت ارتفع لمعارضته فى مجلس الشيوخ .. وقال لى محمد سعد باشا وزير المعارف : كيف تعارض سعد وهو الذى عينك فى مجلس الشيوخ ؟ ..

قلت له : لو كان عينتى لاكون « نمرة » لاهانتى ! ولو قبلت أن اكون
« نمرة » فأنتى أهينه لسوء اختياره !

قال محمد سعيد باشا : إنك بهذا الموقف أضعت مستقبلك السياسى الى
الأبد !!

وعندما ألف عدلى يكن باشا وزارته الائتلافية فوجئت به يعرض على منصب
وزير العدل !

قلت له : ان سعد باشا هو زعيم الأغلبية ولا يمكن أن يوافق على
اختيارى .

فابتسم عدلى باشا وقال : ان سعد باشا هو الذى رشحك وهو الذى أصر على
اختيارك ، وهو الذى اختار لك وزارة العدل ، وعندما سألت سعد عن سبب
إصراره عليك قال : لأنه عرف كيف يخرجنى وأنا رئيس للوزارة ! إنه قال نفس
الكلام الذى كنت سأقوله لو كنت فى مكانه ! وأعجبنى أكثر رده على محمد
سعيد باشا عندما وبخه لأنه عارضنى !

وعندما أرسل القرار بتخليد ذكرى سعد الى الملك فؤاد فى أوروبا ليوقعه ،
هاج الملك وماج ، واستدعى رئيس الوزراء ثروت باشا الى فيشى وقال له : كيف
يقام لرجل من الرعية تمثالان .. وأبى الخديو اسماعيل ليس له تمثال واحد !
وعندما عاد الملك فؤاد بحث عن الوزير الذى اقترح إقامة التمثالين وعلم
أنه أحمد زكى أبوالسعود ، وقرر الملك الا يدخله أى وزارة ما دام على قيد
الحياة .

وفعلا لم يدخل أحمد زكى أبوالسعود بعد ذلك الوزارة الى أن مات !
واتم محمود مختار صنع تمثالى سعد .. وتقرر وضعهما فى مخازن وزارة
الأشغال ..

ورفع مختار عدة قضايا على الحكومة يطالب بالافراج عن التمثالين اوبقى
التمثالان مسجونين ١١ عاما !!
وتوفى الملك فؤاد .. وأصبح الافراج عن التمثالين المسجونين أحد المطالب
التي ينادى بها الشعب !

ولم يزح الستار عن التمثالين الا فى عام ١٩٣٨ وفى عهد وزارة محمد محمود
باشا الثانية فقد أصبح تمثالا سعد جزءا من دستور الشعب . يعطل الدستور
فيعطى العمل فى التمثالين ، ويلغى الدستور فيلغى الاعتماد المخصص لإقامة
التمثالين ، ويعود الدستور فيعود العمل فى التمثالين !

ولكن أراحة الستار عنهما لم تمر بهدوء .. فقد اقترنت بإزمة عنيفة .. فقد
راى الملك فاروق أن يعتذر للشعب عن موقف أبيه من التمثالين ويزيح بنفسه
الستار عن تمثال سعد فى الاسكندرية .

ودعا الملك صفية زغلول لحضور الاحتفال . وقبلت ام المصريين الدعوة ، ولكن قبل الحفلة علمت انها لن تجلس عن يمين الملك . كما جرت العادة في أوروبا عند إزاحة الستار عن تماثيل العظماء .. بل انه سيخصص مكان للحريم تجلس هي فيه !

ورفضت صفية أن تجلس في الحريم وقالت ان ثورة سعد قامت لالغاء الحريم .. وجلوسها في الحريم هو اهانة لمبادئ سعد الذى يحتفلون بإزاحة الستار عن تماثله ! وأبلغ محمد محمود باشا الملك أن صفية زغلول ترفض حضور هذا الاحتفال .

وأوفد الملك فاروق إلى رئيس الوزراء محمد محمود باشا ، على ماهر باشا رئيس الديوان الملكى يقول له ان الملك لا يستطيع أن يجلس بجواره سيدة في احتفال رسمي لأن ذلك سيثير رجال الأزهر والبلاد الاسلامية ! وقالت صفية زغلول :

« قولوا لجلالة الملك .. انه يشرفه كثيرا ان يجلس الى جوارى ، ولا يشرفنى كثيرا ان أجلس الى جواره !

فقبل لصفية ان إصرارها على رفض حضور الاحتفال الملكى بإزاحة الستار عن تماثيل سعد ، قد يؤدى الى غضب الملك ، وعدوله عن حضور الاحتفال .. قالت صفية : إن سعد زغلول دخل التاريخ من باب الشعب ، ولا يهمه أن يدخل من الباب الملكى ..

وأخفى على ماهر باشا رئيس الديوان الملكى عن الملك رسالة صفية زغلول العنيفة الموجهة إلى الملك ، حتى لا يثير غضبه ! وحضر الملك فاروق الاحتفال ، وراح يتلفت حوله ، فوجد مقعدها خاليا في المكان المخصص للحريم ..

والتفت الملك إلى رئيس الوزراء وقال له :
ان رأس صفية هانم ناشف مثل رأس زوجها ! كان أبى يقول ان رأس سعد كان « أنشف » رأس فى المملكة ! ورفع الملك رأسه . ونظر الى رأس التمثال مصنوع من الجرانيت !

وكانه كان يقارن بين صلابة التمثال وصلابة الرجال ! وسقطت حكومات ، وتالفت حكومات ، وقامت دول وهوت دول ، وانهارت عروش وتوالى حكام .. وبقي التمثالان . بضعة احجار من الجرانيت صمدت لكل معاول الطغاة والمستبدين !



● الفصل الثانى عشر ●

أغلقت رتيبة غرف بيت الأمة ، وتركت غرف السلامك مفتوحة لتبقى مقرا للوفد ، وحملت حقائبها ، وقررت الانتقال الى دمياط ، شعرت بأن نفقات إدارة بيت الأمة باهظة ، فى الوقت الذى يحتاج فيه خالها سعد لكل قرش ينفقه على الحركة الوطنية فى باريس . ولم يسافر الطفلان وأمهما وأبوهما من القاهرة الى دمياط بالقطار ، كانت المواصلات مقطوعة بين العاصمة وكل مدن الدلتا ، الثوار خلعوا قضبان السكك الحديدية فى كل مكان . استقلوا مركبا شراعيا من روض الفرج . أصبح النيل وحده طريق المواصلات المفتوح . المركب مزدهم بالركاب . ياكلون ويشربون وينامون وهم فوق مقاعدهم . قطع المركب مسافة الطريق الى المنصورة فى عدة أيام كان الانجليز يستقلون لنشأت بخارية . أوقفوا المركب أكثر من مرة على طول فرع الدلتا يبحثون عن أسلحة ومنشورات . وفى كل مرة يفتش الجنود الانجليز الركاب ، يعذبون بامتعتهم . ثم يسمحون لهم بالمرور . كان الانجليز يفتشون الأطفال ولا يفتشون النساء ، لم يكن يدور فى المركب غير الحديث فى موضوع واحد هو الثورة . كل راكب يروى قصص البطولة والغذاء التى رآها بعينه . كل راكب يتحدث عن المعارك التى اشترك فيها . كل قروى يفاخر بصمود أهل قريته أمام عسف الانجليز . كان المركب أشبه بمظاهرة متنقلة . أو كأنه وكالة أنباء متحركة . يتوقف أمام كل قرية على شاطئ النيل ينقل الى القرى على الجانبين أنباء المقاومة . أو ينقل منهم أخبار المقاومة الى قرى أخرى .

كانت الصحف ممنوعة من نشر أخبار الثورة . أصبح الناس جرائد حية تحمل آخر الأنباء والتعليقات وأوامر قيادة الثورة الى الثوار . أصبح كل فرد من الشعب له دور يقوم به . كان مخرجاً سحريا وزع ادوار القصة على ١٤ مليوناً من المصريين . كل مصر واقفه على مسرح الثورة ، لا أحد يتفرج . المصرى لا يستطيع أن يتفرج على شعبه وهو يقاتل ويموت . كل قرية على الطريق لها قصتها . لها معركةها مع الاحتلال لها أبطالها ، لها شهداؤها . لا فضل لقرية على قرية إلا بعدد قتلاها ! ولم تكن هذه أولى معارك هذه القرى الصغيرة مع الانجليز بعد الاحتلال . قبل قيام الثورة بأربع وعشرين سنة هاجم سبعة من الوطنيين فى منطقة عمود السوارى بالاسكندرية بحارة السفينة الحربية البريطانية (سكوت) . وجرح بعض البحارة . وقامت

الدنيا وقعت وجوكم السبعة الوطنيون وصدر الحكم عليهم بالسجن . وفي نفس العام هاجم اهل حى السيدة زينب طابورا بريطانيا وضربوه بالطوب . وقبض على مئات من الاهالى وحكم على بعضهم بالسجن . وبعد ذلك بعامين هاجم الفلاحون فى قليوب طابورا انجليزيا وقذفوه بالطوب وحاصر جيش الاحتلال قليوب وقبض على مئات من الفلاحين ونفى بعضهم الى السودان .

ولكن كل هذه المعارك كانت حوادث متفرقة متناثرة . اما اليوم فهذه هى المرة الاولى التى يتحرك فيها الشعب كله ، وفى وقت واحد ، كانه كان ينتظر عشرات السنين امرا بالانقضاء . وعندما صدر الامر تحركت كل قوى الشعب فى وقت واحد !

والقمع والضغط والارهاب لاتطفىء الثورات الحقيقية . فالطغيان بالنسبة للثورات . كالريخ بالنسبة للنار ، تطفىء الحرائق الصغيرة . وتشعل الحرائق الكبيرة ! كانت الثورة تنتقل من قرية الى قرية بالعدوى . ولكنها كانت تحتاج دائما الى من ينقل العدوى . الارض كلها مغروشة ببتروى السخط عود ثقاب واحد يكفى لاندلاع النيران . كانت المنشورات هى اعواد الثقاب . وكان كتاب المنشورات فى بيت الامة شخصيات غريبة تجتمع فى بدروم البيت . كثيرا مارأى الطفلان رجلا معهما له شارب كبير يكتب المنشورات . انه الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى صاحب القصيدة المشهورة التى هاجم فيها الخديو يوم عودته من السفر ومطلعها :

يا ب ، ولكن لا أقول سعيد

وكان بينهم الاستاذ عبدالرحمن البرقوقى صاحب مجلة البيان . وقد اختارها سعد فى لجنة كتابة منشورات الثورة . وضمنا اليهما بعد ذلك الاستاذ احمد امين الذى اصبح فيما بعد صاحب مجلة الثقافة . والاستاذ احمد حسن الزيات الذى اصبح فيما بعد صاحب مجلة الرسالة . كانت المنشورات اقوى من القنابل . كانت كل كلمة فيها تحرق وتشعل وتثير وتضىء . ومما يؤسف له أن عمليات التفتيش المتواصلة والمصادرات والحكم باعدام كل من يحمل منشورا ، لم تترك اثرا لهذه المنشورات . وبذلك خسر الادب العربى ادبا ثوريا رائعا كان من الممكن أن يخلد على مدى الايام .

وكان المركب الذى استقله الطفلان مليئا بالمنشورات ! وكانت ثياب النساء هى ملجأها الامين . وكانت ام الطفلين تربط المنشورات حول بطنها ، وبدأت فى ملاعتها السوداء بديئة جدا لا تستطيع الحراك ، ولم يشعر الانجليز الذين فتشوا المركب عدة مرات بان نصف وزن السيدة البديئة هو منشورات

ثورية ، فقد كانت أكثر السيدات في تلك الأيام بدينات ! وكان الدهن هو نصف الجمال !

ووصل المركب الى مدينة المنصورة بعد بضعة أيام . وإقاموا ليلة في بيت الأستاذ عبدالرحمن الرافعى شريك والدهما في مكتب الحمامة ، وتسلم جزءا من المنشورات . ونقص وزن أمهما وأصبحت لأول مرة . منذ بداية الرحلة ، تستطيع أن تمشى وتحرك بسهولة !

ثم استأنفوا السفر بالقطار الى بورسعيد . وكان الانجليز قد استطاعوا في اليوم السابق اصلاح الخط الحديدى بين المنصورة وبورسعيد . وسمع الطفلان عبدالرحمن الرافعى يقول لوالدهما . وهو يودعهما على رصيف المحطة ، ان هذه هى آخر رحلة لهذا القطار ، لأن الثوار يسحطون القضبان في اثناء الليل !

ووصلوا الى بورسعيد . نزلوا في بيت الأستاذ احمد الصاوى قاضى المدينة وعضو الجهاز السرى ، والذي أصبح فيما بعد مفتشا بوزارة التجارة والصناعة . المظاهرات لا تنقطع في المدينة . صوت الرصاص يدوى طوال الليل . معارك في كل شارع وفي كل حى بين الوطنيين والانجليز . كانت الثورة قد كلفت مدينة بورسعيد بمهمة غريبة . هى أن تطبع منشورات بلغات مختلفة تعلن للعالم تصميم الشعب على الاستقلال . تروى قصة الثورة . تحكى فظائع الانجليز وجرائمهم . كان البمبوتية يحملون هذه المنشورات الى السفن التى تمر بالقناة ويسلمونها للبحارة والخدم الهنود . وهؤلاء يحملونها الى اقاصى آسيا وافريقيا والى موانئ أوروبا . وبذلك استطاعت الثورة أن توصل صوتها الى انحاء الدنيا . ورغم الحصار المضروب عليها . وبرغم الرقابة الصارمة على البرقيات والبريد . وكان على لهيطة بك الذى أصبح فيما بعد نائبا لبورسعيد . والشيخ يوسف عطا الله الذى أصبح فيما بعد شيخا لبورسعيد ، هما اللذين يشرفان على عملية توزيع المنشورات على البمبوتية ! وكانت السلطات البريطانية تحاول عبثا أن تعرف أين تطبع هذه المنشورات . كانت تحاصر مداخل المدينة وتفتش كل حقيبة وكل صندوق قبل دخوله بورسعيد . كما كان الانجليز يفتشون بيوت بورسعيد بيتا بيتا بحثا عن المطبعة السرية ، ولكن عبثا استطاعوا أن يضعوا أيديهم عليها .

كانت بورسعيد ملتفة بالوطنية . لا يكاد الانجليز يفرقون مظاهرة حتى يفاجأوا بمظاهرة جديدة . وكان أكثر ما يغضبهم أنه كلما رست سفينة أجنبية في ميناء بورسعيد . انشقت الأرض وخرجت مظاهرة تهتف كالرعد امام السفينة بسقوط الانجليز . فإذا كانت السفينة انجليزية سمع ركبائها هتافا باللغة الانجليزية ! وإذا كانت فرنسية سمع ركبائها هتافا بالفرنسية . كان أهل

بورسعيد يجيدون اللغات الأجنبية في تلك الأيام . ولهذا استطاعوا أن يلعنوا
الانجليز بجميع اللغات !

وكانت المطبعة السرية التي حيرت الانجليز في بيت الأستاذ أحمد الصاوى
قاضى بورسعيد ! وكان القاضى يمضى الليل كله في طبع المنشورات بمساعدة
وكلاء النيابة ، وفي الصباح يتوجه الى المحكمة . ويقدم له البوليس
البريطانى عددا من المقبوض عليهم ويطلبون محاكمتهم لأنهم هم الذين
يطبعون المنشورات السرية ! وكان أحمد الصاوى يستجوبهم . ويتشدد في
التحقيق معهم . ثم يأمر باطلاق سراحهم لعدم كفاية الأدلة !

وحدث مرة أن جاءه بورسعيدى معترف بأنه يطبع هذه المنشورات !
وذهل القاضى الصاوى من هذا الاعتراف الغريب ، وتصور أن الانجليز
عذبوا المتهم البرئ حتى إدان نفسه . ولكن المتهم أصر على أن أحدا لم
يعذبه ، وأنه فعلا هو الذى يطبع المنشورات ! وقال أحمد الصاوى لوالد
الطفل أن القاعدة القانونية أن القاضى لا يحكم بعلمه ، وإنما يحكم بالأوراق
التي أمامه ، ولكنه اضطر أن يخرج على هذه القاعدة القانونية ، لأنه هو
القاضى والجانى معا ، وأصدر قرارا بالإفراج عنه . ثم استدعا إلى غرفة
المدولة وساله لماذا ادعى أنه هو الذى يطبع المنشورات . فقال الرجل
ببساطة : - أن بورسعيد كلها تتحدث عن بطولة الرجل الذى يطبع هذه
المنشورات فأردت أن أكون هذا البطل !

واستقل الطفلان مع والديهما باخرة من بورسعيد ، تسير بالمحرك . عبرت
هما بحيرة المنزلة ، ومن هناك استقلوا عربة حانطور الى دمياط ، استغرقت
رحلة من القاهرة الى دمياط سبعة أيام !

وماكادت أمهما تصل الى مدينة دمياط حتى عادت الى رشاقتها . فقد كانت
وَزَعَت ماتحمل من منشورات طوال الطريق !

وبدت مدينة دمياط مدينة صغيرة جدا بالنسبة الى القاهرة . الناس
لا يتكلمون وإنما يتهامسون . لا يضربون الأرض بأقدامهم وإنما يسرون كأنهم
يرقصون العاليه ، مدينة تنام من المغرب ، لاسمارح ولا دور سينما
ولا قهوى . وكان البيت الذى سكنوه كوخا بالمقارنة الى بيت سعد الضخم .
كان البيت مكونا من ثلاثة طوابق . الطابق الأول فيه مكتب والد الطفلين
للمحامة . والطابق الثانى فيه جدتهما أم والدهما . والطابق الثالث
لاسرتهما . وكان البيت في الواقع جميلا . يطل على النيل . ولكنهما لم يريا هذا
الجمال ، ولم تبهرهما القوارب البيضاء وهى ترقص فوق مياه النهر ،
ولا صوت المراكب الجميل وهم ينشدون أغاني البحر ، أن هذه المناظر
الطبيعية تلهم الشعراء أجمل قصائدهم ، ولكن الطفلين لم يكونا

شاعرين . كان خيالهما هو الواقع الذى عاشا فيه . هذا الهدوء يدوى فى أذانها كأنه ضوضاء . هذه الأغاني الغرامية لاتطربهما . لقد تعودت أذانها على سماع الاناشيد الوطنية . لم يجدا حديقة فى البيت ، تحسرا على حديقة بيت الأمة الواسعة . أين الشرفات الواسعة المتعددة التى كانا يطلان منها على مواكب المظاهرات . لقد عاش الطفلان عدة شهور يستيقظان على مشهد المعارك . ويناومان على صوت اطلاق الرصاص . ولكنهما أمضيا عدة أيام بغير أن يشهدا مظاهرة واحدة ! غير أن انتظارهما لم يطل . فجأة سمعا الصوت الذى يطربهما ويشدهما : صوت الجماهير وهى تهتف . الجزمجية فى دمياط خرجوا فى مظاهرة صاخبة . لقد انتقلت العدوى الى دمياط . وتوالت المظاهرات . ولكن المظاهرات لاتقف أمام بيتهما كما كانت تقف أمام بيت سعد . انها تذهب الى المحافظة وتضربها بالطوب ثم يفرقها البوليس ، ثم تتجمع من جديد . وتهاجم المحافظة من جديد . ويطلق الرصاص ويسقط جرحى ، وتحمل المظاهرات الجرحى اما القتلى فإنها لاتحملهم الى بيتهم كما كان يحدث فى القاهرة أن بيتهم هنا عادى مثل كل البيوت . فليس فيه حديقة تسجى عليها جثث الشهداء ملفوفة بأعلام الثورة . أن بيتهم فى دمياط ليس قلعة . الفرق بين الحياة فى البيت . والحياة فى القلعة ، أشبه بالفرق بين السفح والقلعة ، كانا من قبل يعيشان فى صميم الأحداث ولكنهما الآن يعيشان على هامشها ، لا يريان كل المظاهرات وانما يسمعان اخبارها . لا يشهدان المعارك وانما يلتقطان انبعاثها .

وبدا الطفلان يضيقان بدمياط . ولكنهما ما لبثا أن احباها . لقد نزلأ الى الطابق الثانى حيث تقيم أم إبيهما . وجدا ابن عمتهما الطالب بمدرسة دمياط الابتدائية . انه يطبع على مطبعة « البالوظة » منشورات كيف لم يعلما انهما ينامان فوق مطبعة سرية ! عرضا على ابن عمتهما أن يشاركاه فى عملية طبع هذه المنشورات . انهما شاهدا نفس العملية فى بدروم بيت الأمة . ولكن احدا لم يدعهما للاشتراك فى عملية الطبع . تصورا أن سنهما الصغيرة تجعلهما غير صالحين لعمل شئ . اما الآن فقد هبطت عليهما هذه الفرصة الذهبية للاشتراك الفعلى فى المغامرة ، سوف يصحان ثوارا صغارا . وكانت العملية بسيطة : يكتب المنشور بالحبر الزفر على ورقة . ثم يطبع على مادة فى طبق اسمها البالوظة . ثم يؤتى بعد ذلك بورق أبيض ويلصق بالبالوظة فينطبع عليه المنشور . وهوى الطفلان العملية . المنشورات ساذجة ليس فيها اسلوب المنفلوطى ، ولا بلاغة احمد حسن الزيات ، ولا اناقة احمد أمين ، ولكنها اعواد كبريت .. منشورات فيها هتافات بسقوط الانجليز وبحياة الثورة . فيها دعوة للاضراب . فيها تحريض على مهاجمة الانجليز .

نقلا بعض عبارات من المنشورات التى حملتها أهمها من القاهرة . امتلات مدينة دمياط بالمنشورات . كان ابن عمتها يخرج فى الليل ويلقى بهذه المنشورات من تحت أبواب البيوت المغلقة . وبدأت مدينة دمياط تتحدث عن هذه المنشورات . ولم يخطر ببال أحد أن الذين يطبعونها ثلاثة أطفال .. وكم ابتهج الطفلان عندما سمعا والدهما يقول لأمهما أنه يعتقد أن بالمدينة خلية ثورية مجهولة توزع منشورات . وأن هذه الخلية غير تابعة لقيادة الثورة . أنها تابعة للحزب الوطنى !

وهكذا أصبحت الحياة لذيدة لأول مرة فى مدينة دمياط . فيها أسرار ومغامرات وطبع منشورات وتوزيع منشورات . لعبة الذككرا من لعبة عسكر وحرامية التى يلعبها الأطفال . الطفل يشعر بسعادة عجيبة عندما تصيح له لأول مرة أسرار يخفيها . ويحافظ عليها . عندما يجد الناس حوله يتحدثون عن بطل مجهول ويعرف أنه هو ذلك البطل المجهول !

وكان الناس يستوقفون الطفلين فى الشوارع ويسالونهما : هل انتما من أقارب سعد باشا ؟

ويرد الطفلان بالإيجاب

ويلتف الناس حولها ، ويلمسونهما بأيديهم وكأنهم يتباركون بلمس قطعة لحم لمسها النبى الجديد !

أن كل الناس فى دمياط يريدون أن يسمعوا عن المعبود الذى لم يروه . بعضهم يتصور أنه مارد قادر على أن يفتك بيديه بالوف الأعداء ! بعضهم يؤكد أنه نبى . وأن الرسالة التى يبشر بها جاءت إليه من السماء . آخرون يقولون أنه قديس . ينسبون إليه معجزات لم يصنعها ، وكرامات لم يظهرها ، وخوارق لم يات بها ! كل واحد يضفى عليه الصفة التى يحبها ، يصوره كل فريق بخياله ويرسمه بهواه . وكان الطفلان قد شهدا أحداث الثورة يوما بيوم . وعاشاها ساعة بساعة ، ولكنها وصلت الى دمياط مكبرة ومضخمة ومبالغ فيها حتى بدت كأن معارك الثورة أكبر من معارك الحرب العالمية الأولى . أن اهل دمياط يتصورون أن الثورة لها جيوش جرارة ، ولها مدافع . وعندها طائرات ، وأن جيوشا أخرى تتحرك من ايطاليا وتركيا والسودان وليبيا تحتشد لنجدتها . وكل متحدث يؤكد معلوماته ، ويقسم على صحتها . ويروى تفاصيل معارك لم تحدث . ويضطر الطفلان الى السكوت . فليس من الحكمة أن يلقى دوش الحقيقة الباردة على نيران المبالغات التى يرقص حولها هؤلاء البسطاء الطيبون .

ولكن مبالغاتهم تتضاعف عندما يتحدثون عن قائد الثورة . إنهم يسالون الطفلين أسئلة غريبة . هل سعد يتحدث كما يتحدث الناس ؟ هل صحيح

أن صوته وهو يخطب أجمل من صوت المطربة منيرة المهدية والمطرب الشيخ سلامة حجازي ؟ هل يأكل كما يأكل الناس ؟ لقد قيل لنا أنه لا ينام أبداً بل يسهر طول الليل يعد للثورة . ويفتح « على » فمه ويقول : ان الغرفة التي كان ينام فيها سعد أمام غرفة نومه . وأنه كان يشهد سعد ينام كل ليلة ، ويبتسم السامعون غير مصدقين ، ويقولون : طبعاً لن تقول لنا الحقيقة لأن هذه أسرار الثورة ! وهل صحيح أنه عندما جاء الضباط الانجليز المسلحون للقبض على سعد قاومهم وأطلق عليهم الرصاص وفروا أمامه هارين . واضطروا أن يجثوا بالجيش البريطاني كله ومدافعه وطائراته حتى استطاعوا أن يقبضوا عليه ؟ وعندما يقول مصطفى أن سعد بشر ، وأنه شاهد عملية القبض عليه وأن سعداً لم يقاوم الضباط ، يصاب السامعون بخيبة أمل . أن خيالهم صور لهم صورة صنعوها لسعد بأحلامهم . رسموها له بأمالهم ، لونها بأمانهم . تصوره بطلا كالزير سالم ، أو سيف بن ذي يزن أو عنتر بن شداد . إنه في أذهانهم أسطورة ، الرجل الذي يحارب وحده امبراطورية ، المصري الذي انتصر على أقوى جيش في العالم . وهم لا يطيعون ولا يريدون أن يسمعوا أنه رجل عادى مثلهم ، واحد منهم . وأنه يستمد بطولته من بطولتهم ، ويقاوم الامبراطورية مستنداً إليهم . وترتفع قامته لأنهم وضعوه فوق رؤوسهم . وأصبح بائع البسبوسة يرفض أن يتقاضى منهما ثمنها لأنه عرف أنها من أقارب سعد باشا . وبائع الشوكولاته يضاعف لهما الكمية التي دفعها فيها خمسة مليمات لأنهما من أقارب سعد باشا . وبائع الهريسة يقسم أن يأكلا ما يريدان مجاناً حباً منه في سعد باشا .

وشعر الطفلان لأول مرة بأهميتهما ! وخشيت عليهما أمهما من الغرور . واشفقت على بطنيهما من هذه الأطعمة المجانية ، وفشلت في إبقائهما في داخل البيت . وكان عمرهما أقل من السن القانونية لدخول المدارس الابتدائية . لقد تركت رتيبة بيت الأمة اقتصاداً للنفقات لأنها اعتقدت أن خالها في احتياج إلى كل قرش لينفقه على الحركة الوطنية في باريس . ولهذا أخذت قراراً بأن تنتقل إلى دمياط ، ولكنها تشعر بانها ستفقد ولديها في دمياط . أن أهل دمياط مشهورون بالحرص الشديد ، ولكنهم لا يكادون يرون الطفلين حتى يملأوا بطنيهما بالماكولات والحلوى . ويعتبرون هذا العمل مساهمة منهم في الحركة الوطنية !

والواقع أن أهل دمياط تغلبوا على طبيعة الحرص التي اشتهروا بها وسرعان ما تبادروا في التبرع للوفد . وكان المبلغ الذي تبرعت به مدينة دمياط للوفد أضاعف أى مبلغ تبرعت به مدينة أخرى في عدد سكان دمياط . فما أسرع ما تغير الثورة الناس . تحول الحريصون إلى كرماء ، تحول المترددون

الى مندفعين ، تحول الضعفاء الى اقوياء . انها أشبه بتيار كهريائي . لا يلمس
اى شىء حتى يحركه . الساكن يتحرك . المظلم يضيء . الصامت يتكلم . القاعد
على الأرض يطير في الهواء ! ولكن هذا الكرم الديمياطي اشقى رتيبة ام
الطفلين ، ولهذا فكرت في ان تعود بالطفلين الى القاهرة وتدخلهما الى روضة
اطفال قصر الدوبارة ، لأن دمياط لم يكن فيها روضة اطفال ..
وكانت ناظرة مدرسة البنات في دمياط صديقة حميمة لرتيبة ، وعندما علمت
بمتماعها . خطرت بباليها فكرة ، ان شعر على ومصطفى طويل ينسدل خلف
راسيهما . فقد كانت المؤضة يومئذ ان يترك شعر الاولاد طويلا . ويمكن ان
يرتدى الطفلان مريلة . ويتسمى على عليه . ومصطفى صفية ، ويدخلان
مدرسة البنات الابتدائية على انهما من البنات ! واعجبت رتيبة بالفكرة التي
سوف تخلصها من شقاوة الطفلين ، ومن ملء بطنيهما الصغيرين بكرم اهل
دمياط ! ونهت الام على الطفلين بان اسميهما الجديدين هما عليا وصفية ..
وذهب الطفلان الى مدرسة البنات . وجلسا في فصل السنة الاولى .. ومرت
الحصة الاولى بسلام ولم يكتشف احد حقيقتهم .. ومرت الحصة الثانية
بسلام ..

وجرت العادة انه بعد الحصة الثانية يصطف طابور في حوش المدرسة على
هيئة مربع .. فتقف السنة الاولى وامامها السنة الثانية وعلى يمينها السنة
الثالثة وعن يسارها السنة الرابعة .
وتقف ناظرة المدرسة والمعلمات في وسط هذا المربع لالقاء التعليمات على
التلميذات . ووقفت التلميذتان عليا وصفية في نهاية طابور السنة الاولى
بجوار طابور السنة الرابعة .

واذا بتلميذات السنة الرابعة يصرخن في فزع : ولد ! ولد !
وتتبعهن تلميذات السنة الثالثة ويولولن : ولد ! وصرخت تلميذات السنة
الثانية : ولد ! . ولد ! وصرخت تلميذات السنة الاولى : ولد .. ولد !
وظهر ان « على » رفع مريلتها ، وقام في الطابور بما كان يجب ان يقوم به في
دورة مياة المدرسة !

وعاد الطفلان على الفور الى بيتيهما ، ولم يعودا الى مدرسة دمياط الابتدائية
للبنات بعد ذلك ! وصممت الام على ان تحبس الطفلين في البيت ، والا يخرجوا
الا معها ، وضاقَت الدنيا في وجه الطفلين ، وبدا كل واحد منهما يشعر كانه
سعد زغلول ، وان امهما هي بريطانيا التي سجنَت سعد زغلول ! ولكن
ضيقهما وتعاستهما وخيبة املهما في دمياط لم تلبث ان انتهت . فقد كانت
جارتهم في البيت المجاور ، صديقه حميمة لأمهما ، وكان لهذه الصديقة بنتان
صغيرتان في سنهما : الكبرى اسمها حسنية والصغرى اسمها سعاد ،

وكانت الجارة تجيء بابتنتها كلما زارت أمهما .. وحينئذ تطلب الأم من الأطفال الصعود الى السطح واللعب هناك .. وكان الولدان يحدثان البننتين عن الثورة التي شاهداها . والمغامرات . والمعارك ، والقَتلى والجرحى ، وهى احاديث لا تهم بنتين في هذه السن الصغيرة ، ولكن حسنية وسعاد كانتا مبهورتين بما تسمعان . وكانتا تعجبان بالولدين الذين شاهدا كل هذه الاحداث الغريبة المثيرة .

وتوطدت الصداقة بين على الصغير وحسنية الصغيرة ، وبين مصطفى وسعاد . ثم أصبح الأربعة يلعبون لعبة « عريس وعروسة » . وفى كل مرة يتزوج على من حسنية ، ويتزوج مصطفى من سعاد ! ويكون كل عروسين بيتألهما ، ويزور كل عروسين العروسين الآخرين في بيتهما ! وسمعت أم الولدين وأم البننتين باللعبة اليومية التي يمارسها أطفالها . ولم تبد الوالدتان اعتراضا . بل على العكس كانت رتيبة لا تنادى سعاد الا بلقب عروسة مصطفى . وكانت أم الطفلتين لاتنادى على إلا بلقب عريس حسنية ، وصدق الأطفال الدعابة .

وتطورت اللعبة الى حب حقيقى . كان مصطفى يهرب من الحمام البارد ، ولكنه بدأ يقبل عليه في انتظار عروسه سعاد ! كان الطفلان لايعتبان بملابسهما ثم بدأ كل منهما يناقش أخاه في العناية بملابسه وفى المحافظة على نظافتهما ، حتى تراه العروس فى أحسن الحالات ! وأصبحت أمهما تتوعدهما اذا ارتكبا ذنبا بانها ستبلغ الأمر إلى « العروسين » . فيحرص الطفلان على عدم ارتكاب الذنوب خوفا من الفضيحة امام « العروسين » .

ومن الغريب أن قلب الطفل يتحرك بالحب في سن الخامسة ، يحس بلوعة الشوق . يتالم لمرارة الفراق ، يسعد في لحظة اللقاء . يبذل كى يكون دائما محل اعجاب الطفلة التي احبها ، وانشغل الطفلان بهذا الحب . ملك عليهما حواسهما . جعلهما هذا الحب لأول مرة يتحدثان عن شيء اسمه المستقبل . كانت احاديثهما قبل هذا الحب تدور على الماضى والحاضر . ولكنها فجأة أصبحت تتناول الغد .

إن انتقال تفكير الطفل من اليوم الى الغد . يحدث تغييرا كبيرا في حياته . يجعله يكبر بسرعة كأنه يحاول أن يسبق الزمن . يجعله يفكر في عوالم جديدة . كأنه يسافر في رحلات الى المجهول . بما فيه من خبايا واسرار وغموض . تجعله يفكر تفكيراً جماعياً ، كانت هذه اللعبة له وحده . ولكنها الآن أصبحت لعبته ولعبتها . كانت هذه هى حياته وحده . ولكنها الآن أصبحت حياته وحياتها . كانت احلامه لذيله لأنها تقبل القسمة على واحد . اما الآن فقد أصبحت احلامه اكثر لذه لأنها تقبل القسمة على اثنين . وعندما

يشعر الطفل الصغير بأن هناك طفلة صغيرة تحبه وتهتم به يحس لأول مرة بشئ كبير لم يشعر به من قبل يحس بالثقة في نفسه . هذه الثقة تقوى عموده الفقري . كأنها تشعره برجولة مبكرة . كأنها تطيل قامته . فالحب هو عملية تدليك نفسى . انها تربي عضلات لصفاتها . تقوى الضعف فينا . تمنى أحلامنا . وليس صحيحا أن الحب الحقيقي دواء مخدر . إنه على العكس دواء منشط . يحول الخامل الى عامل . والكسول الى نشيط واليأس الى حالم . وعندما يتحرك القلب الطفل تنبض معه مشاعر كثيرة ، رغبة في التفوق ، إرادة في أن يكون دائما محل إعجاب وتقدير الطفلة التي يحبها ، لتكون فخورة به ، فلا تشعر بالخجل لأنها تحب طفلا تافها لا قيمة له . وربما لو كان هذا الحب في الظلام لما احس الطفل كثيرا بهذا الشعور . ففي الظلام لا يستطيع العشاق أن يريا مزايا كل منهما . بينما شعور الطفلين بأن أسرتهما على علم بهذا الحب يجعلها حريصين على أن يكونا موضع إعجاب الأسرة ، فالطفل يريد أن تباهى حبيبته به . يريد أن تسمع من أمه ثناءها على خلقه وطاعته . يريد أن يحس كل من حولها بأنه جدير بها . ولهذا فهو يبذل جهدا كى يحتفظ بهذا الإعجاب ، ولا يحس بأنه يبذل جهدا ، بل هو على العكس يشعر بلذة وهو يتصرف في كل امر بطريقة تجعله موضع إعجابها .

ولاشك أن الحب الصغير اثر في على ومصطفى . ارفه احساساتهما . نمت مشاعرهما . وقبل كل شئ خلق لهما أحلاماً حلوة يعيشان فيها . بقى هذا الحب يعمر قلبيهما طويلا . فعندما كتبا لأول مرة في الصحف كانا يتساءلان : هل قرأت حسنية وسعاد ما كتبا ! وكل امرأة عرفاها بعد ذلك كانا يقرانها دائما بالطفلة الأولى كان هذه الطفلة أصبحت المتر الذى تقاس به كل نساء العالم ! ومع أن هذا العرس اليومي لم يستمر سوى بضعة شهور . الا انه طبع في داخلها وشما ، لم تستطع أن تمحوه السنوات !

وكانت امهما تقوم أحيانا بدور هادمة اللذات ومقلقة الراحة فتعكر عليهما صفو احتفالاتهما اليومية بالزفاف البريء . وتدعو العرسان الأربعة لمتنحهم في الاملاء العربى ! وكانت هواية امهما أن تكون دروس الاملاء هى خطاب سعد زغلول وبيانات سعد زغلول .

وكان الطفلان يجبان خطاب سعد زغلول وبياناته دون أن يفهما كثيرا مما تعنيه عباراتها .. ولكنهما كانا يجبان أيضاً الاحتفالات التى يقيمانيها يوميا مع « العروسين » .. ويجلس الأطفال الأربعة في غرفة الطعام . وتوزع الام عليهم اقلاما واوراقا بيضاء .. وتبدأ في املاء اقوال لسعد . وكانت دائما تملى عليهم عبارة من خطاب سعد زغلول .. وهى كلمة « مروءات » ! وكان لهذه الكلمة قصة هامة في تاريخ الثورة !

كانت الكلمة التي تختارها مهما في امتحان الاملاء هي : يجب الا يتخلل
الثوار عن مروءاتهم ! الثوار بغير مروءات يصبحون اشبه بقطاع الطريق !
وكانت هذه هي النصيحة التي يكررها سعد لشبان الثورة قبل قيامها وبعد
قيامها . كان مهماً بان يكون للثائر خلق الفارس في القرون الوسطى ، ولهذا كان
يهتم اهتماماً كبيراً بخلق الثوار الشخصى . وكان لا يستطيع ان يفرق كثيراً بين
الخلق الخاص والخلق العام .

وكان هذا التزمّت بضاييق بعض زملائه اعضاء الوفد . فكثيراً ما اعترض
على ضم اعضاء للوفد بسبب سلوكهم الشخصى . فقد اعترض في اول الامر على
دخول اسماعيل صدقى في عضوية الوفد ، بسبب واقعة ضبطه وهو وزير في
عوامة مع ابنة احد الوزراء . وكانت سيدة متزوجة . فانتحرت . واضطر
السلطان الى طرده من منصب وزير الاوقاف . هذا في الوقت الذي كان ينادى
فيه بان الناس ولدوا يوم الثورة . ويجب ان يحاسبوا على اعمالهم بعد قيامها
لا باعمالهم قبلها وان بداية الثورة هي بداية حياة جديدة لكل المصريين ، وان
الدم الذي يراق في سبيلها يظهر المصريين من كل ذنوبهم !

وكان لطفى السيد يجد في هذا الموقف تناقضاً . فكيف يقول سعد ان الوطن
غفور رحيم . ويعارض في ضم اسماعيل صدقى الى الوفد . ولا يغفر له ذنباً
ارتكبه قبل قيام الثورة باعوام . وكانت حجة سعد ان الانضمام للثورة يغفر
الذنوب التي اقترفت قبلها . ولكن ليس معنى ذلك ان يوضع المذنب السابق في
القيادة ، لا مانع من ان يكون جندياً من جنود الثورة ، اما الممنوع فان يكون
في قيادتها ، لان وجوده في القيادة يعطى مثلاً سيئاً للناس . وبعد مناقشات
طويلة اضطر سعد ان يخضع لرأى الاغلبية ويضم اسماعيل صدقى الى
عضوية الوفد .. ولكنه بقى طول حياته يندم على انه اضطر للخضوع الى رأى
الاغلبية في هذا الضم ! ولكنه تشبث بالا يقع استثناء لهذه القاعدة التي
وضعها لاعضاء الجهاز السرى للثورة ، وكان يقول ان الثوار الشبان يجب ان
يكونوا اشبه بالرهبان . وان العمل الفدائى هو دخول في معبد مقدس . ويجب
الا يدخله الا المطهرون ..

وكان هذا الشرط يجعل عبدالرحمن فهمى يدقق كثيراً في اختيار الشبان
الذين يدعوهم للانضمام الى الجهاز السرى . وكان يقول إننى ادرس كل شاب
وكانه سيتقدم للزواج من ابنتى الوحيدة ! ومن الطريف ان عبدالرحمن فهمى
رزق اولاداً ولم يرزق بنات !

وأغرب تعليمات سعد للثوار انه يجب الا تبدأ بالعنف ! ولكن نرد على
العنف بالعنف . ولهذا السبب لم يقع حادث عنف واحد منذ تأليف الوفد
المصرى من نوفمبر سنة ١٩١٨ الى ٨ مارس سنة ١٩١٩ . العنف بدأ في اليوم

التالى للقبض على سعد زغلول باعتباره ساعة الصفر . وكانت نصيحته الى الجهاز السرى أن يتفادى قتل المصريين من خصوم الثورة . يجب أن نعطي لكل مصرى فرصة كى يعود الى الصف الوطنى . نريد فقط أن نهرب كل من يخرج على الصف لكى يعود اليه . فليس المصريون هم أعدائنا .. أعداؤنا هم الانجليز وحدهم . إننا فى حاجة الى كل مصرى . نحذر المتردد ولكن لا نحكم عليه بالإعدام . نلوم الضعيف ولكن لانقتله نحاصر المتخاذل ونمنحه الفرصه ليقف على قدميه بدلا من أن ندفعه لكى يرتدى فى احضان خصومنا . لا نأخذ الناس بالشبهات . بل نعتمد على الاقناع والمنطق مع المصريين . ونعتمد على الحزم مع الانجليز . المصرى تكسبه الرحمة . والانجليز تقنعه القوة . وكان يطالب الثوار بأن يحافظوا على النساء والأطفال . حتى ولو كانوا من الانجليز « لا أريد أن يتعرض طفل أو امرأة لآى اعتداء » . « لا أريد أن تقتل انجليزيا مجردا من السلاح » . « حتى ولو تخلى العدو عن شرف الحرب فيجب أن يلتزم ثوارنا بشرف الحرب » .

والتزم الثوار بهذه النصائح . فخلال الثورة المصرية كلها لم تقتل سيدة انجليزية واحدة . ولقد كتب اللورد اللنبى نائب ملك انجلترا فى مصر فى تقرير الى الحكومة البريطانية : « كانت سيدة انجليزية تركب عربة مفتوحة وهاجمها الرعاع ورموها بالحجارة يوم الجمعة فى حى بولاى . وقد نجت من الاذى البليغ بأن اتخذت من مظلتها مخابا . فمزقت الأحجار المظلة . وهذه اول مرة اعتدى فيها على امرأة فى كل السنوات الثلاث الماضية » .

ومعنى تقرير اللورد اللنبى انه بالرغم من أن الانجليز قتلوا برصاصهم عشرات النساء المصريات وعشرات الأطفال المصريين . وبعد أن حاول جنود الجيش البريطانى الاعتداء على النساء الفلاحات فى قرية العريزية ومدينة البدرشين فى مديرية الجيزة . وقتلوا بعض النساء اللاتى دافعن عن أعراضهن . بعد ثلاث سنوات من الفظائع والجرائم التى ارتكبتها الانجليز لم تصب امرأة انجليزية واحدة وكل ما حدث انه اعتدى بعض الأطفال على امرأة انجليزية بالطوب ولم تصب بأذى . ولا نجد فى تاريخ الثورات الشعبية فى العالم ، على مدى التاريخ ، أن ثورة واحدة حافظت على نساء أعدائها كما فعلت هذه الثورة . أن المصريين هاجموا فى ديروط ودير مواس قطارا مسلحا وقتلوا الضباط والجنود الانجليز الذين كانوا فيه ، قتلوا عشرات من الانجليز المسلحين . ولكنهم لم يمسوا امرأة واحدة بسوء .

وليس سرا أن « المروءات » التى ألزم بها سعد الثوار قيدت حركتهم ، وافسدت عليهم كثيرا من عملياتهم ، وعرضت بعضهم لأخطار كان من الممكن ألا يتعرضوا لها لولا هذه الشروط التى التزموا بها ..

كان في اماكن الثوار أن يحصلوا بسهولة على القنابل عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى ..

ولكن التعليمات التي كانت لدى الثوار هي ألا يقتلوا الذين تلقى عليهم القنابل من الوزراء ورؤساء الوزراء المصريين ، بل العمل على اربابهم فقط ليستقيلوا من مناصبهم . ولا يجد الانجليز وزيراً مصرياً يعمل في ظل الحماية البريطانية !

ولهذا صدرت التعليمات الى عبدالحى كيرة عضو الجهاز السرى أن يصنع قنابل « نظيفة » .. قنابل تدوى ولكن لا تقتل ! وكان عبدالحى طالباً في مدرسة الطب ، وكان ناظر المدرسة انجليزياً متعصباً استعمارياً متطرفاً ، هو الدكتور كيتنج .. وكان يفخر بأنه يعرف كل ما يجرى في مدرسة الطب .. في كل شهر .. في كل بوصة من أرض المدرسة !

وصحيح أنه كان يعرف ما يجرى في كل بوصة .. ما عدا البوصات التي يتكون منها معمل مدرسة الطب ، الذي تحول إلى مصنع لانتاج قنابل الثوار ، واشترك في هذه المؤامرة عدد من الطلبة وعدد من الأساتذة المصريين ! وتم صنع قنابل « نظيفة » .. والقيت فعلاً قنابل على محمد سعيد باشا رئيس الوزراء فاستقال . وعلى يوسف وهبة باشا فاستقال . وكذلك محمد شفيق باشا فاستقال . وعلى كل من محمد توفيق نسيم باشا . فاستقال وحسين درويش باشا فاستقال ..

كانت القنابل النظيفة تحدث أثرها المطلوب ! تدوى ولا تقتل تزه الدولة ولا تجرح المجنى عليهم !

وحدث مرة أن كلف الدكتور محمد سيد باشا عضو الجهاز السرى بأن يلقي قنبلة في حديقة منزل القائد العام البريطاني في القاهرة . وتذكر الدكتور محمد سيد باشا في ملابس كناس .. واستطاع أن يصل الى سور حديقة القائد العام .. ونظر من خلال السور فوجد القائد العام جالساً .. وأخرج القنبلة يلقيها على القائد العام وفجأة وجد طفلاً انجليزياً يجرى في الحديقة منجهاً نحو القائد . وتذكر الدكتور سيد باشا التعليمات التي لديه بالمحافظة على أطفال العدو . فعاد القنبلة إلى السلة التي يحملها ، وانتظر قليلاً حتى ينصرف الطفل الصغير .. ولكن الطفل لم ينصرف وبقي يلعب بجوار القائد لعام .. ثم وقف القائد العام وامسك الطفل من يده . وعاد به الى داخل البيت . انصرف الدكتور محمد سيد باشا حزيناً تعساً أسفاً على الفرصة الذهبية التي ضاعت منه .

وكان أحد رجال الجهاز السرى يراقبه فكتب تقريراً الى قيادة الجهاز ما حدث . وتقرر اعادة المحاولة في اليوم التالي .

وفي اليوم التالي فوجئوا بحراسة مشددة حول بيت القائد العام .. وتعذر تنفيذ الخطة .. وتصور الدكتور محمد سيد باشا انه ارتكب خطأ لا يغتفر .. ولكنه في اليوم التالي تلقى تهنئة من قيادة الجهاز السرى لأنه فضل ان ينجو القائد البريطانى العام على ان يقتل طفلاً انجليزياً بريئاً !
وفي يوم آخر تقرر اللقاء قنبلية على محمد شفيق باشا وزير الاشغال والحربية ، وحدد الموعد للقيام بالعملية ، وكلف بها الطالب عبدالقادر شحاته عضو الجهاز السرى . وكان من الممكن تنفيذ المهمة . ونجاة عضو الجهاز السرى . لأن الشارع في تلك اللحظة كان خالياً من المارة ..
ولكن عبدالقادر شحاته فوجيء بزميله المكلف بمراقبة وزير الاشغال . والمكلف بان يتقدم سيارته وهو يركب موتورسيكل . ليعطى اشارة الضرب ، فوجيء به يشير إليه ان يتوقف ! ولم يلق عبدالقادر شحاته القنبلية . وعرف السبب بعد ذلك ، فقد كان مع وزير الاشغال في السيارة ابنته الصغيرة !
وتحدد موعد آخر .. وكان وزير الاشغال في هذه المرة في سيارته ومعه مدير مكتبه المهندس حسين سرى الذى اصبح فيما بعد رئيساً للوزارة ، واعطيت الاشارة بالضرب ..

واطلق الشاب الرصاص على السيارة .. لا على الوزير .. ولا على مدير مكتبه .. وتصادف وجود بعض جنود البوليس البريطانى في الشارع في اثناء الحادث . فانطلقوا وراء عبدالقادر شحاته حتى تمكنوا من القبض عليه . وحوكم ، ودخل السجن .. وفضلت الثورة ان تضحي بأحد شبابها على ان يطلق الرصاص على برىء !

وليس ادل على قوة التنظيم ودقته ، من التزام الشعب كله ، طوال الثورة ، بهذه « المروءات » على الرغم من تباين الامزجة واختلاف الثقافات ، وعلى الرغم من الضغوط الهائلة التى كان يتعرض لها الثوار ، وهم يرون الانجليز يهدمون فراهم وينسفون بيوتهم ، ويعلقونهم على المشانق ، ويربطونهم في ذيول الخيل ويجلدونهم في الشوارع . ويواجهونهم بكل انواع البطش والطغيان والجبروت والعدوان ، مما يدل على طبيعة الشعب المصرى ، فهو يغضب ولا يفقد مروءته . ويثور ويحتفظ بانسانيته . وهو لا ينسى السياط التى جلد بها . والسياط لا ذاكرة لها لا تذكر الذين انهالت عليهم ، ولكن الذين جلدوا بهذه السياط لا يمكن ان ينسوها ابداً . تماماً كما ان المدين ضعيف الذاكرة دائماً ، ولكن الدائن لا ينسى ابداً . وعندما جاء الوقت الذى اراد فيه الشعب ان يسترد الدين . ابى ان يفعل ما فعله شيلوك في قصة تاجر البندقية . ابى ان يقتطع من اللحم الحى . كان كريماً في عملية الاسترداد . ابى ان يضرب في الظهر .

كان في امكانه أن ينتهز فرصة انشغال بريطانيا في الحرب العالمية الاولى وينقض عليها من الخلف ، ولكنه انتظر حتى انتهت الحرب واصبحت بريطانيا اقوى دولة في العالم وسيدة البحار . والامبراطورية التي لا تغرب الشمس عن ممتلكاتها .. وعندئذ فقط أعلن عليها الحرب ! وهى فروسية عجيبة من شعب استعبد الاف السنين ، ولكنه لم يتحول يوماً الى عبد . ديس بالاقدام على مر التاريخ . ولكنه لم يحاول شراء خلاصه من العذاب بتقبل اقدام الذين داسوه . وقد قامت ثورات شعبية في بلاد اخرى فلم ترحم الاطفال . ولم تشفق على النساء . ونشرت حمامات الدم ، واقامت المذابح ، وفرشت الارض بالجثث والجماجم والاشلاء .

واعتذر التاريخ عن هذه الجرائم بأن الشعوب عندما تثور تفقد راسها وتدوس على قلبها وتحول الى حيوان كاسى ، ولكن شعب مصر لم يفقد راسه ، ولم يدس على قلبه . ولم يتحول والضربات الوحشية تنهال على راسه الى حيوان كاسى !

ويتصور بعض المؤرخين السذج أن هذا موقف غير ثورى ، وان الثورة هى ثورة على كل شئ .. والواقع أن الثورة النموذجية هى ثورة على قوانين الحاكم الظالم ولكنها ليست ثورة على العدل . ثورة على نظام الحكم وليست على مبادئ الاخلاق . ثورة على المحتلين وليست ضد نسائهم واطفالهم . وعندما يتحول الثوار من فرسان الى اعضاء عصابة تفقد الثورة قداستها وطهارتها وانسانيتها ، وهذه الصفات هى التى تميز رسالات الانبياء . وهى الاوتاد التى تغرسها في الارض ، وتجعلها قادرة على الصمود امام العواصف والانواء .. ووقع في اثناء الثورة خلاف شديد بين قيادة الثورة واحد فروعها .. امتدت الثورة إلى كل مديريات الوجه القبلى . إلى كل مدينة وقرية . احتل الشعب مراكز البوليس . انقطعت المواصلات بين القاهرة والوجه القبلى . انضم عدد كبير من رجال البوليس الى الثوار ، بعد نفى سعد باسبوع عقد القائد العام البريطانى في القاهرة اجتماعاً في القيادة للبحث في اجلاء الجيش البريطانى عن الصعيد كله . تقرر استدعاء قوات من السودان وقوات من فلسطين .

ارسل قطار بريطانى مسلح الى الصعيد لتأديبه . اصدر القائد العام امراً الى السكان « بأن كل مصرى يجب ان يحيى بالتعظيم كل ضابط بريطانى يمر عليه » .

اعلنت بريطانيا انها سوف تستعمل منتهى القسوة والشدة والعنف والبطش مع كل من لاينفذ اوامر الجيش البريطانى ، اذيعت بمختلف وسائل النشر والمنشورات الحكومية تهديدات بريطانيا بسحق الثوار ، تصور

الانجليز ان قطارهم المسلح القادم من السودان سيخيف الصعيد وسوف يستسلم بغير مقاومة . وقدم قطار آخر مهمته اصلاح السكة الحديدية والقضبان التي دمرها الثوار ، وما كاد القطار المسلح يصل الى منفطوط حتى انقض عليه الفلاحون والفلاحات وذبحوا جميع ضباطه وجنوده !
ووصل القطار الى محطة ملوى يحمل جثث الضباط والجنود الانجليز .
وخرج سكان مدينة ملوى على بكرة أبيهم يستقبلون القطار . الرجال والنساء والأطفال . كانوا يهللون ويصفقون ويكبرون . والنساء يزغردن .
سمع اهل ملوى نبأ هجوم الثوار في منفطوط على القطار المسلح سمعوا بهزيمة المنتصرين ، بذبح الفاتحين ، فارادوا أن يحتفلوا بهذا النصر الكبير .. ووجدوا أن بين الضباط والجنود أحد الجنود الانجليز وقد اختبأ في دورة المياه ، فكان هو الوحيد الذى نجا من ركاب القطار المسلح .. وكان يحمل مدفعاً رشاشاً . ويتهيا لاطلاقه على الجماهير . عندما يتحرك القطار .. وهاجت الجماهير على الجندي . وجرت الى خارج عربة القطار ، وقتلوه وسط تهليل الرجال وزغاريد النساء !

ولكن امرأة واحدة خرجت على اجماع هذا الشعب الغاضب الثائر الذى كان ينتفض غيظاً على الجنود الانجليز الذين قتلوا رجاله . ونسائه . واطفاله .
الذين هدموا قراه واحرقوا بيوته لقد أراد هذا الشعب الثائر بهذه المذبحة أن يرد على القائد البريطانى بأنه يجب على كل مصرى أن يحيى بالتعظيم كل ضابط بريطانى يمر عليه . كانت هذه هى طريقتهم في تحية ضباط جيش الاحتلال !

ولكن امرأة واحدة خرجت على هذا الاجماع وصرخت : لا تقتلوه ! وتقدمت تحاول حماية الجندي من الشعب الغاضب . وازاحتها الجماهير جانباً . ومضت تفكك بالجندي ، وتقدمت المرأة مرة أخرى وشقت طريقها بين الجماهير ، تحاول أن تمسح عن وجه القتيل الدم بثوبها . وضربت الجماهير وأبعدتها . ثم حملت جثة الجندي الانجليزى القتل ومضت في الشوارع تهتف « بستين فضة بالحلم انجليزى » . وظهر أن المرأة الوحيدة التى خرجت على اجماع الشعب هى عاهرة معروفة في ملوى اسمها « هانم عارف » . واهتم الانجليز بموقف المرأة الوحيدة . واعتبروها بطلة ، لأنها تحدث الثوار ، واصدروا أمراً باستدعائها الى القاهرة لمكافاتها على موقفها النبيل .
واتهمت هانم عارف بحدوث سرقة وقبض عليها واعترفت بجريمتها ووضعت في سجن ملوى ولكن الانجليز اعتبروا سجنها عملاً يدل على التعصب ، وإن القضية ملفقة ، اشترك في تلفيقها المصريون من رجال البوليس والنيابة والقضاء للانتقام من العاهرة البطلة !

وأمر القائد العام البريطاني بأرسال محقق بريطاني ليعيد التحقيق من جديد ، ويفرج عن العاهرة البتلة ، وفوجئ القائد العام بأن المحقق البريطاني يؤكد أن التهمة ثابتة وأن « هانم عارف » معترفة بالسرقة ! ومع ذلك صدر أمر القائد العام البريطاني بالإفراج عنها ، وجمعت الجالية البريطانية أموالاً للتبرع للعاهرة البتلة ! وصدر أمر باحضار هانم الى القاهرة لتتسلم التبرعات وتتلقى شكر القائد البريطاني العام .

وسمع الثوار بما حدث فاندثروا هانم بانها إذا سافرت الى القاهرة فسوف يذبحونها . ولكن هانم كانت فرحة بالمكافأة المالية على خروجها على اجماع الشعب المصرى الثائر ، فاستقلت القطار الى القاهرة في حراسة أحد الضباط . وماكادت تجلس في مقصورة في الدرجة الأولى حتى رأت عيوناً تنظر إليها شزراً من نافذة القطار ثم تختفى ، وتكرر هذا في عدة محطات وأصبحت هانم بالذعر ، فانتبهت وقوف القطار في محطة الواسطى ، وهربت من القطار ، وعندما اكتشف الضابط هروبها أوقف القطار ، وصدرت الأوامر بالقض عليها . فقبض عليها وأرسلت الى القاهرة لتتلقى شكر القيادة البريطانية !

وفي هذه الأنباء أرسل الثوار في ملوى الى قيادة الجهاز السرى في القاهرة يطلبون اليه الموافقة على ذبح هانم عارف وجاء الرد بالرفض لأن تقاليد الثورة هي الا تقتل النساء . ويكفى أن من خرج على اجماع الشعب الثائر في ملوى كان امرأة عاهرة !

ولم يعجب هذا رأى ثوار ملوى ، فإرسلوا وقدأ الى القاهرة ليلبلغ أن ما فعلته هانم عارف هو إهانة لكل امرأة ورجل في ملوى ، وأنه لا يغسل هذه الإهانة إلا دمه .

وأصرت قيادة الجهاز السرى على موقفها . ونجت هانم عارف من الموت بخل وسط وهو أن تترك الصعيد كله . وفعلت غادرت هانم ملوى ، ولم تعد إليها بعد ذلك !!! ومن أجل مبدأ التمسك بالمروعات رفضت قيادة الثورة اقتراحات بعض الثوار المتحمسين ، بأن تؤلف الثورة محاكم سرية تحاكم المصريين الذين يخرجون عليها ، أو الذين تشكل في ولائهم ، وكانت حجة سعد زغلول في هذا أنه كان قاضياً . وأن الثورة يجب أن تكون عادلة حتى مع خصومها ، وأن أى محكمة ثورية لا يمكن أن تتوافر فيها ضمانات العدالة . وعندما يتحمس القاضى يهتز ميزان العدالة في يده . والمحاكم التى يعقدها الثوار ، هى بطبيعتها محاكم سرية ، وضمان العدالة في علنية الجلسات ، وفي حرية المتهم في الدفاع عن نفسه ، وفي وجود المحامين والشهود ، وفي أن تكون احكام المحكمة قابلة للطعن والاستئناف ، وكل هذه الضمانات لا يمكن أن تتوافر في هذه المحاكم المخصوصة .

وحدث نفس هذا الخلاف مرة أخرى عندما قام عبدالظاهر السمالوطى بدور شاهد الملك فى قضية الجهاز السرى التى عرفت باسم قضية عبدالرحمن فهمى فقد اعترف عبدالظاهر السمالوطى على كل من يعرفهم من أعضاء الجهاز السرى ، وأدت اعترافاته الى القبض على عدد منهم والحكم عليهم بالاعدام . وكان من رأى بعض الثوار انه يجب قتل عبدالظاهر السمالوطى عقاباً له على خيانتة للثورة ، ولم تأخذ قيادة الثورة بهذا رأى ، بل رأت أن يعاقب بأن يمنع كل مصرى عن محادثته والتعامل معه ، وعاش عبدالظاهر السمالوطى طول حياته منبوذاً ، واضطر عدد من شهود الملك أن يتركوا مصر كلها وأن يهاجروا الى السودان ، وأن يغيروا أسماءهم . وإن تسند اليهم حكومة السودان وظائف لأنهم لم يطبقوا أن يعيشوا حياتهم منبذين من أبناء وطنهم .

وكان هذا التسامح الملائكى يضايق كثيراً من الثوار الشباب المتحمسين ، الذين كانوا يرون أن هذا التسامح والصفح والغفران يضعف الثورة ، وكان سعد يعتقد انه يقويها ..

فعندما بدأت حركة توكيلات الشعب للوفد برئاسة سعد غلoul . وقع جميع المستشارين فى محكمة الاستئناف التوكيل .. ولكن مستشاراً واحداً خرج على اجماع الشعب وكان هو المستشار محمد توفيق نسيم .. ووضع الثوار اسم توفيق نسيم فى القائمة السوداء ! وعندما طلب سعد من جميع المصريين أن يرفضوا تولي الوزارة فى ظل الحماية البريطانية ، خرج توفيق نسيم على اجماع الأمة وتولى رئاسة الوزارة وخرجت المظاهرات تغنى أغنية تقول « أحيه يانسيم .. يا أبو عقل تخين بتلاته مليم » !

ثم حدث أن عرف سعد زغلول فى منفاه . بأن توفيق نسيم قدم مذكرة الى الحكومة البريطانية يطالب فيها باجابة مطالب الشعب فى الاستقلال التام . واستقال من منصبه عندما رفض الانجليز مطالبه .

وصرح سعد زغلول بأن « توفيق نسيم يستحق تقدير الوطن » ! وعضب كثير من أنصار سعد على هذا التصريح الغريب ، فقد كان صدمة للرأى العام الذى كان يلعن توفيق نسيم ، لأنه كان يجهل أمر المذكرة التى تقدم بها الى الانجليز وقد سعد أن الوطن غفور رحيم .. ولم يكتف بذلك بل رشحه .. عضواً فى مجلس الشيوخ على احدى دوائر القاهرة . ثم اختاره وزيراً للمالية فى وزارته .. وكان سعد يعتقد أن صك اغفران الذى منحه لتوفيق نسيم سيكفل له البقاء فى صفوف الشعب .

ولكن ما كاد يقع الصدام بين سعد رئيس الوزراء والملك فؤاد حتى استقال

توفيق نسيم من وزارة سعد وأصبح بعد ذلك رئيساً للديوان الملكي .
وحدث بعد ذلك بسنوات . أن رأى سعد أن اختلاف الأحزاب أدى إلى
طفحان الملك وسيطرة الانجليز ..
ورأى أن وحدة الشعب تقطع الطريق على الملك والانجليز ، فحرب بالتحالف
الأحزاب وأبدى استعداداه لأن يضع يده في أيدي خصومه الذين حاربوه
وأذوه وتأمروا عليه .

وكان بين هؤلاء عبدالخالق ثروت باشا ، وكان أعنف هؤلاء الخصوم . رغم
أنه كان صديقاً حميماً لسعد زغلول ، وهو الذى اكتشف كفايته خلال توليه
وزيراً للحقانية ، واستطاع أن يعينه نائباً عاماً رغم معارضة زملائه في مجلس
الوزراء . ولكن عندما قامت ثورة ١٩١٩ وقف عبدالخالق ثروت ضد سعد ،
واتهم بأنه هو الذى حرّض الانجليز على بغيه ، وبأنه هو الذى دبر مؤامرة
محاولة قتل سعد في أسبوط ، وعندما كان رئيساً للوزارة بطش بالحركة
الوطنية ، وملاً السجون بالثوار .

وعارضت صفية زغلول في أن يضع سعد يده في يد ثروت !
وقالت انها لا يمكن أن تنسى جرائمه في حق سعد زغلول !
وقال لها سعد إن مصلحة البلد في أن أنسى الجرائم التى ارتكبت في حقى .
فقالت له : ولكن هذه جرائم ارتكبت في حق البلد .

فقال سعد : ان الوطن هو إله .. ومن صفات الآلهة الغفران !
وسمع الطفلان حديث سعد عن ثروت وعجبا ، لقد أمضيا سنوات وهما
يسمعان اسم ثروت « في البيت مصحوباً باللعنات .. فكان اسمه دائماً شبيهاً
باسم البعيع وابورجل مسلوخة والغول والعفريتة ففى قصص الاطفال ..
شخصية رهيبة مكروهة .

وطلب ثروت مقابلة سعد في بيته .. وحدد سعد موعداً لهذا اللقاء .. وثارت
صفية . وقالت انها لا يمكن أن تبقى في بيت سعد ، أثناء وجود ثروت فيه ..
وانضمت رتيبة الى صفية وقالت انها هي الأخرى لن تبقى في البيت أثناء
وجود ثروت فيه . وفعلاً غادرت صفية ورتيبة البيت قبل حضوره . ولم تعودا
اليه بعد أن اتصل سعد بصفية في بيت شقيقتها وأفهمها أن عبدالخالق ثروت
غادر البيت !

ولكن الطفلين لم يغادرا البيت . لقد حرصا على البقاء ليشهدا الحدث
التاريخى ..

ولم يكن سعد يتأثر كثيراً بعواطف زوجته . فقد حدث بعد استقالة عدلى
يكن من رئاسة الوزارة الائتلافية . أن اختار سعد عبدالخالق ثروت باشا
رئيساً للوزارة !

لقد نسي بسرعة كل إساءة لحقته على يد ثروت ، ولكن صفية لم تنس وكان سعد يداعب صفية ويقول وهو يضحك :

— كلما زهقت منك ... دعوت ثروت باشا ليجيء لزيارتي .. وبذلك تخرجين من البيت !

وعندما توفي سعد ، ذهب ثروت الى بيت الأمة . عقب عودته من الخارج . وقابل صفية وبكى بكاء حاراً .. وقالت له صفية : ان دموعك غسلت قلبي ! اما رتيبة فقد اصررت على موقفها وغادرت البيت عندما دخل ثروت ! وكان تسامح سعد مع عدوه ثروت يدهش كل من حوله ! فقبل هذا الموقف بأقل من عامين عاد سعد زغلول من منفاه في جبل طارق عودة الأبطال الفاتحين ، وخرج الشعب على بكرة أبيه يستقبله ويضع على رأسه أكاليل الغار ، واختفى خصومه في الجحور ، وأدرك ثروت بذكائه ودهائه انه راهن على الحصان الخاسر ، فادى بتصريح يقول فيه ان يقترح ان يحتكم هو وسعد الى امراء البيت المالك ، ليحكموا بينهما .. وانه اذا ثبت انه اخطأ في حق سعد فإنه مستعد للاعتذار .. وكتب ثروت الى سعد خطاباً بهذا الاقتراح . واذا بالامراء يقولون انهم على استعداد لأن يكونوا بين ثروت . وسعد زغلول . وغضب سعد من هذا الاقتراح السخيف وقال للأمير عمر طوسون الذي عرض عليه فكرة التحكيم : ان الانتخابات لأول مجلس نواب مصرى على الأبواب .. واذا أراد ثروت ان يحتكم ، فليحتكم الى الشعب . ليختار اى دائرة انتخابية ويتقدم فيها وأرشح نفسى امامه .. اى دائرة في القطر .. حتى الدائرة التى فيها املاكه ومزارعه واقاربه .. والشعب هو الذى يحكم بيننا . ولكن ثروت كان اذكى من ان يقع في هذا المازق . فهو يعلم ان سعد سوف يكتسحه في اى مكان في البلد ، ولهذا اصر على ان يكون الاحتكام للامراء . والحال ان الامير عمر طوسون على سعد في ان يقبل الاحتكام ، وكتب سعد الى عبدالخالق ثروت يرفض فيه الاحتكام الى الامراء ويقول : « امامك الصحف فاكتب بها اذا وجدت قارئاً . امامك المجالس فتحدث بها اذا وجدت سميعاً . امامك المنابر فاخطب بها اذا وجدت منصتاً .. اما التحاكم الى الامراء فشراف لا يناله الا الأكفاء »

ولم يجرؤ عبدالخالق ثروت ان يرشح نفسه في اية دائرة انتخابية في انتخابات سنة ١٩٢٤ وتوقع الجميع ان سعد سيبطش بثروت بعد ان يتولى الشعب الحكم .

وعندما الف سعد الوزارة - وزارة سنة ١٩٢٤ - اقترح نجيب الغرابي باشا وزير العدل في مجلس الوزراء . ان تؤلف محكمة تحاكم عبدالخالق ثروت باشا على جرائمه بصفته عدو الشعب رقم واحد وبهت الوزراء عندما

لم يوافق سعد على هذا الاقتراح وقال ان الحكم الذى أصدره الشعب فى الانتخابات أفسى على خصومه من احكام الاعداء ..
قال نجيب الغرابى باشا : ولكن الدستور ينص على تاليف محكمة لمحكمة الوزراء .

قال سعد : الدستور صدر بعد استقالة ثروت من الوزارة . وليس من العدل ان تحاكم رجلا على جريمة لم ينص عليها القانون عندما وقعت الجريمة . ان الفرق بين النظام الديمقراطى والانظمة الاستبدادية ان الحكام فى الانظمة الاستبدادية يحاكمون خصومهم ، اما فى النظام الديمقراطى فإن محاكم الشعب هى الانتخابات .. وهى المقصلة ! ولا أريد أن أبدا عهد الدستور فى مصر بان اقيم المشانق لخصومى ! ان الانتخابات اسقطتهم جميعاً ، والضرب فى الميت حرام ! لا أريد أن ادخل التاريخ كرجل استغل ثقة الشعب لكى يقدم خصومه للمحاكمة ، ويحكم عليهم ، فاكون انا المدعى والقاضى وشاهد الاتبات !

قال وزير العدل : ولكن هؤلاء ليسوا خصوما لك . انهم خصوم الشعب . والشعب هو الذى يريد محاكمتهم وهو يرد الحكم عليه ..
قال سعد : ولكن العالم يعرف اننى زعيم الشعب ، انا زعيم المجنى عليهم . ان العدالة تمنع أن يكون المجنى عليه قاضياً ! أنا لا أرضى أن احاكم موتى !

وانقسم مجلس الوزراء فى هذا الرأى . ولكن الأغلبية أيدت سعداً بعد الحكم الذى أصدره الشعب فى الانتخابات لايجوز لمحكمة أن تحاكم احداً من هؤلاء الوزراء .. لأنه طبقاً لرأى سعد لايجوز قانونا محاكمة الرجل مرتين على جريمة واحدة !

وكان مكرم عبید وقد لازم سعد فى سيشيل يقول انه كان من رأى سعد وهو فى منفاه ضرورة محاكمة ثروت على جرائمه فى حق الثورة ، وانه كان يمشى الليلالى مع زملائه المنفيين يكيف التهم التى يقدم بها ثروت الى المحاكمة . ولكنه ما كاد يسحق خصومه فى الانتخابات ، ويتولى الحكم حتى أصبح أميل إلى الصفح والنسيان ، فالرجل المظلوم فى زنتانته يتوعد دائماً بان يبطش بظالميه ، ولكن الرجل الكريم بعد أن يغادر هذه الزنتانة . ويتولى السلطة ، يميل الى العفو أكثر من الانتقام ، وإلى الرحمة أكثر من الشدة ، فالطغيان والبطش ليسا من صفات الرجل القوى ، انهما دائماً صفة الرجل الضعيف . الذين يبطشون بخصومهم هم الذين يخافونهم ويهربونهم . والذين يعفون عن خصومهم هم الذين يشعرون بأنهم أقوى من خصومهم .

وقد يقال : لو أن الثورة في سنة ١٩٢٤ ، عندما تولت الحكم ، بطشت بخصوصها لما مكنتهم من الانقضاض عليها ، فلو أن مصر حأكمت مثلاً أول وزارة اعتدت على الدستور ، لما جروُ مصرى على تعطيل الدستور بعد ذلك ، ولكن الرد على هذا هو أن الثورات الأخرى التى بطشت بخصوصها ، كالثورة الروسية مثلاً ، أو الثورة الفرنسية ، لم تتخلص من خصومها ، بل على العكس ضاعفت من عددهم فإن البطش الذى بدأ ببضعة أشخاص انتهى بالبطش بالملايين ، وقامت مذابح سقط فيها الملايين ، ثم أن طبيعة الشعب المصرى أنها تكره العنف ، وتحترق الانتقام ، وتمقت الطغيان ، فإن الشعب عندما يرى رجلاً فى الطريق ينهال على رجل آخر بالضرب ، ينضم تلقائياً للمضروب ، دون أن يسأل عن سبب المشاجرة ، وقد يكون المضروب هو المعتدى ، وقد يكون لصاً ومجرماً ، وقد يكون الضارب هو المجنى عليه الحقيقى ، ولكن كل هذا لايقنع الناس ألا يعطفوا على المضروب .. فلبست مروعات الثورة فروسية فقط من الثوار ، وإنما هى قبل كل شئ تلاق مع روح هذا الشعب ومزاجه وطيبته وطابعه الانسانى الذى لم يتخل عنه قط وفى أخرج الظروف وأهلك الأزمات . لهذا كان سعد يقول دائماً :

- يجب ألا يتخل الثوار عن مروعاتهم .. الثوار بغير مروعات يصبحون أشبه بقطاع الطريق !



● الفصل الثالث عشر ●

وصلت إلى رتيبة في دمياط رسالة من باريس . إن
صفية تدعوها إلى أن تترك دمياط فورا ، وتعود إلى
القاهرة ، وتفتح البيت من جديد . أن خالها سعد
زغلول غاضب لأنها أغلقت البيت ما عدا السلامك
حيث مكاتب الوفد . غاضب لأن شقيقها سعيد زغلول
ترك البيت وأقام في بيت فتح الله باشا بركات وهو
ابن أخت سعد أيضا . البيت يجب أن يبقى مفتوحا كما كان . يجب أن
يستقبل الناس في كل غرفة فيه كما كان يحدث في وجود سعد . إن هذا البيت
لم يعد بيتنا . إنه بيت الأمة . لم نعد نملك حرية التصرف فيه . ما دامت
الأمة في مصر فيجب أن يفتح البيت على مصراعيه . السلامك وحده ليس بيت
الأمة . البيت كله هو بيت الأمة . يجب أن تفتح رتيبة البيت للناس جميعا
كما كانت تفعل صفية . يجب أن يقدم الطعام للزائرين والزائرات والسكرتارية
كما لو كان « سعد » لا يزال مقيما به . رتيبة يجب أن تستقبل زوجات وأمهات
الشهداء في البيت باستمرار . عليها أن تذهب كل يوم خميس لتضع الزهور على
قبور الشهداء باسم سعد وصفية . يجب أن يشعر الذين يترددون على البيت
بان شيئا لم يتغير . إذا لم يكن لديكم ما يكفيكم من نقود فاقترضوا . فإذا
لم تجدوا من يقرضكم فبيعوا نفائس البيت !
أسرعت رتيبة بتنفيذ الأوامر . حملت طفلها وعادت إلى القاهرة في نفس
اليوم . إن رتيبة لا تستطيع أن تقول « لا » لصفية أبدا . كانت رتيبة سعيدة
وفخورا بالمهمة التي كلفت بها صفية . لم يسعد الطفلان بهذه المهمة الوطنية
التي نيطت بامهما . حزنا على فراق دمياط . حزنا على فراق صديقيهما
الصغيرتين حسنية وسعاد . حزنا على فراق سطح بيتهما الذي كان يشهد
يوميا حفلات عرسهما . كان الطفلان مبهودين إلى الطفلتين لحظة الفراق .
أحس الأطفال الأربعة لأول مرة في حياتهم لصغيرة بمعنى كلمة فراق . أنها
مزيج من الضنى والحسرة والتمزق والعذاب . تصور الأطفال الأربعة أن
علاقتهم ستعيش إلى الأبد . ولكن الأبد كان عمره بضعة شهور مرت بسرعة .
الأيام الحلوة تتركب البرق والأيام المؤلمة تتركب السلحفاة .
كان حبهام أشبه برحلة قصيرة إلى الجنة . وهامهم يخرجون من جنة اللقاء
إلى جحيم الفراق .

وحلت ساعة الوداع . وجاءت أم الطفلتين تودع أمهما . ووقف الأطفال الأربعة يتبادلون النظرات في لوعة وأسى . أجسادهم ترتعد . شفاهم ترتعش . قلوبهم تتمزق . أصيبوا بالكم فلزموا الصمت . أصيبوا بالشلل فلم يستطيعوا أن يمدوا أيديهم مودعين . ورات أم الطفلين وأم الطفلتين شحوب الأطفال العشاق وتعاستهم وحيرتهم فأنفجرتا ضاحكتين . بدا لهما منظر العشاق الصغار منظرا مضحكا كأنه مشهد كوميدى فى إحدى هزليات نجيب الريحانى أو على الكسار !

وما كادت والدتان تنفجران بالضحك حتى انفجر الأطفال الأربعة بالبكاء والعيول ! وصاح على وهو يضرب الأرض بقدمه : لا أريد أن أسافر إلى القاهرة . اننى أريد أن أبقى مع حسنية فى دمياط . ومسح مصطفى دموعه بكفيه وقال : وأنا أيضا أريد أن أبقى مع سعاد فى دمياط . وتشبثت الطفلتان الصغيرتان بالولدين الصغيرين وقالتا : ونحن لن نتركهما يسافران إما أن نسافر معهما أو يبقى معنا !

وذهلّت والدتان . هل انقلب العيب إلى جد ؟ هل تحولت اللعبة إلى حقيقة . ماذا يعرف هؤلاء الأطفال عن الحب ؟ يمكن لأطفال فى هذه السن أن يعشقوا ويضنّهم الحب ويشقّيقهم الهوى ، ويعذبهم الفراق . يمكن للحب الصغير أن يحول الوادعين المطيعين إلى ثوار صغار يثورون على أوامر آبائهم . ولم تتمالك رتيبة نفسها فضربت الولدين عقابا على قلة أدبهما ، وضربت والدة الطفلتين ابنتيهما على قلة حيائهما !

وبكى الأطفال الأربعة من قسوة الضرب المبرح ، واطمأنت والدتان لأن الأطفال سيكون من الضرب ، ولا يكون من الحب ! ولكن هذا الضرب المبرح لم يشف العشاق الأربعة من هواهم المبرح ، بل أنه على العكس غرسه فى قلوبهم الصغيرة ، جعل له جذورا قوية فى أفئدتهم . أن الحب يحتاج دائما إلى أن تضربه على رأسه ليثبت على الزمن . أنه مثل المسمار ، كل ضربة على رأسه تثبته فى الجدران !

كان من الممكن أن ينسى الأطفال الأربعة الحب مع الأيام ، ولكنهم لم ينسوه ، لأنهم لم ينسوا العلة التى ارتبطت به . فالآلم هو الصمغ الذى يلصق ذكرياتنا فينا . الأيام الحلوة تطير من ذاكرتنا ، والأيام المؤلمة ترسب فى قلوبنا . دموعنا هى حبر ثابت تكتب به الأمانا . وآلامنا تحفر فى نفوسنا أثارا تعجز عن محوها أفراننا . الفواجع تهز أعماقنا . ترسب فيها . فالحب الباسم يمضى كما يمضى النسيم . إما الحب العاصف فهو يقتلع أشياء منا كما تفعل العاصفة . ينتزع أشياء كثيرة . يغير كل ما يمر به . ولهذا عاش الحب

الصغير في قلب الطفلين أكثر مما عاش أى حب في حياتهما . وإذا كانت العاصفة تقتلع الأشجار الكبيرة وتعجز عن اقتلاع الأشجار الصغيرة . فإن الفراق قد يقتل الحب في قلب كبير ، ولكنه يثبت الحب في القلب الصغير . وعاد الطفلان إلى القاهرة ليعيشا في دوامة الثورة من جديد . ولكن الطفلين لم يبهرا بالبيت الكبير هذه المرة . ولم يتلهيا بالحركة الدائمة . كانا يحملان حسرتهم معهما . كانا يحسان أنهما تركا قلوبهما الصغيرين في دمياط . وإذا انفردا معا في غرفة نومهما تهامسا عن حسنة وسعاد . هل ستراهما مرة ثانية ؟ هل سنعلم معهما لعبة العروس والعريس ؟ هل تذكرنا الحبيبتان الصغيرتان كما نذكرهما ؟ إن المسافة بين العشاق الصغار لا يلهث فيها الحب ويسقط فيها منهوك القوى .. كلما ابتعد العشاق الصغار اقتربوا . كلما طال فراقهم قصرت المسافة بينهم . حب الأطفال فيه عناد يشبه الصمود . فيه براءة تمنحه قوة . فيه سذاجة تحول به إلى شيء مثل الإيمان .

ولم يكن شقاء الطفلين في الحب وحده . كان شقاؤهما في السياسة أكثر من شقاؤهما في الحب ! كانت الحيرة تعذبهما . يذهبان إلى سلامك بيت الأمة ويختطان بالثوار والوفود التي تتردد على البيت ويسمعان كلاما .. ويدخلان البيت ويسمعان كلاما مختلفا . كأنهما في خطوات قليلة ينتقلان من عالم إلى عالم .

كان زعماء الثورة يتحدثون إلى الناس الذين يفدون إلى مكاتب الوفد بلغة الورد . إن كل شيء عال . كل شيء يسير على ما يرام . الوفد في باريس يسير من انتصار إلى انتصار . الاستقلال التام على الأبواب . إن أعضاء الوفد كتلة واحدة مترامصة في مواجهة الانجليز . ان الزعيم سعد زغلول متفائل جدا . انه سيفز قريباً إلى الأمة بشرى النصر العظيم !

ثم يرى الطفلان أهمهما داخل البيت حزينه مقهورة . تتكلم وكأنها تبكى . تحاول ان تخفي زفارتها في بسماتها ، ولكن صوت الضحكات المجروحة كانت اشبه بالتهنيدات . انهما يسمعانها تهمس في اذن شقيقها سعيد زغلول بان صفيه كتبت لها من باريس ان سعدا تعس . انه يمضى ليالي كثيرة يتقلب في فراشه لا يغمض له جفن . انه يمضى اليوم كله بغير طعام . انها تلج عليه ان ياكل لكي يعيش ، ولكنه يقول لها انه يفضل ان يموت . الأرق والقلق والحزن والشقاء تكاد تقتله . ان كمية السكر في جسمه تتضاعف . الطبيب وجد عنده زللا . ان ابواب مؤتمر الصلح مغلقة في وجهه . الدول كلها اعترفت بالحماية البريطانية . رؤساء الدول الكبرى يرفضون مقابلته لسمعوا وجهة نظر مصر . حتى الأمير فيصل بن الشريف حسين رفض ان يقابله حتى لا يغضب الانجليز . ارسل له الأمير فيصل صديقه مختار باشا العابد يقول له

ان الأمير فيصل ينصحه بأن يقبل شروط الانجليز ، وان كل شيء بيد الانجليز . وان مصر أخطأت بالثورة ضدهم . ويثور سعد على مختار العابد باشا ويقول : الفرق بيننا وبينكم .. انكم تبخثون عن العرش ، ونحن نبحث عن الاستقلال . الانجليز يمنحون العروش ، ولكن الشعوب تنتزع الاستقلال .

وتثور بينهما مشادة يفقد فيها سعد اعصابه ! وأعضاء الوفد بدأوا يباسون . أصبحوا يقولون لا فائدة . الذين تزعموا الثورة على الانجليز أصبحوا يتزعمون فكرة التصالح مع الانجليز ! كان عدلى يكن هو رسول الوفد عند الانجليز ، فانقلب وأصبح رسول الانجليز عند الوفد . كان سعد قد كلفه بأن يقنع الانجليز بأن تكون المفاوضات على أساس إلغاء الحماية البريطانية ، وجاء هو يقنع سعدا بأن تكون المفاوضات على أساس بقاء الحماية البريطانية .

كان سعد يتصوره رسوله لدى العدو ، فإذا به يكتشف انه أصبح رسول الأعداء لديه !

وتقول صفية ان سعدا كان يمكن ان يحتمل هذه المفاجأة ، لولا ان أعضاء الوفد انضموا الى عدلى ضده . استهواهم في عدلى يكن منطق رجل الدولة ، ونفرهم من سعد حماسة الثوار ، مشوا وراء سعد خطوات في الطريق . تحملوا فيها النقي والتشريد والبطش والتهديد . وقد لهثوا من الطريق الطويل الشاق ، وأدمت الأشواك اقدامهم ، وهم يعتبرون ثورة مصر معجزة ، والمعجزات لا يمكن ان تتكرر . الشعب لا يمكن ان يبذل أكثر مما بذل ، ولا ان يضحى أكثر مما ضحى ، انه أعطى الكثير ولم يبق لديه ما يعطيه . والانجليز يعرضون علينا نصف الرغيف ، فلنسارع الى اخذ هذا النصف . إننا لم نحلم قبل الثورة بأن نحصل من اقوى دولة في العالم على ما تعرضه علينا . فلنسارع إلى قبوله قبل أن تسحب نصف الرغيف !

وكان سعد يعتبر هذا منطق المهزمين . إن نصف استقلال هو حماية كاملة . كما ان نصف الحرية هو عبودية كاملة . إن كفاح الشعوب هو فضيلة من الفضائل . فكما انه لا يمكن ان نرضى بامراة نصف فاضلة ، ولا يمكن ان نحترم رجلا نصف شريف ، كذلك الشعوب فإنها ترفض نصف الحرية وثانى نصف الاستقلال ، ان امراة نصف فاضلة هي مومس مسترة ، ورجلا نصف شريف هو لص مختبئ من البوليس ! وعدلى التركي لا يعرف الشعب المصرى ، ولكن سعد الفلاح يعرفه . يعرف انه قادر على الصمود ، مستعد للتضحية . البذل لا يصد نفسه عن الكفاح وإنما يفتح شهيته للجهاد . انه إذا تحرك لا يمكن ان يقف . وإذا اندفع إلى الامام فلن يرضى بالتقهقر .

إن سعدة يشعر بقوة هذا الشعب لأنه واحد منه ، من صميمه ، لأنه شرب من التربة ، لأنه غاص في الطين ، لأنه رأى هذا الشعب يثور في أيام عرابي . ومن أجل ذلك يصم أذنه عن سماع منطق لطفي السيد ، وعن بلاغة عبدالعزيز فهمي ، وعن دهاء اسماعيل صدقي ، وعن حكمة عدلي يكن ، وعن فصاحة محمد علي علوية ، وعن حجج محمد محمود . وهم يتهمونه جميعا بأنه رجل مستبد لا يخضع لرأي الأغلبية . ويرد عليهم بأن الأغلبية ليست هي أغلبية الوفد وإنما أغلبية الشعب . يوم يتحول الثوار الى حكماء تلفظهم الثورة . منطلق الثورة اندفاعها . بلاغتها في الدم الذي تريقه . دهاء الثورة في تسديد ضرباتها الى العدو لا في الاستسلام والتسليم . حكمة الثورة في جنونها . فصاحة الثورة في عدد شهدائها . حجبها هي معاركها !

وأعضاء الوفد يتهمون سعدة باشا بأنه قد جن ! ان هتاف الجماهير أفقده انزاهه . ان تصفيق الملايين سلبه عقله . انه سكر بخمرة التأييد الشعبي ولا يريد أن يفيق .

وسعدة يعترف بأن الشعب عندما رفعه فوق أعناقهم جعله يغيش في سماء الخيال . ولكنه يرى انه وهو يستند الى هذا الشعب يقف على أرض صلبة . ان الواقفين لا يستطيعون قيادة الأمم ! الخيال هو الذي يلهمها قوتها ، أحلام النصر هي التي تصنع صمودها . ان الخيال هو الآب الشرعي لكل عمل عظيم . ولولا خيال العباقرة لما تطور العالم . ولولا خيال العلماء لما حدثت الاستكشافات والاختراعات التي بدلت الحياة . ولولا هذا الخيال لما قاد سعدة زغلول ثورة ١٩١٩ . ولو ان الذين فجروا الثورة كانوا واقعيين لما دبروها ، ولما تحركوا ، ولما ندفعوا يحاربون أقوى دولة في العالم في اليوم التالي لإعلان انتصارها الساحق في الحرب العالمية الأولى .

ولكن هذا الكلام الخيالي لا يعجب أغلبية أعضاء الوفد . ويتالبون على سعدة ويهددونه بالاستقالة ، ويتطاولون عليه ويسبونونه ! ويحتمل سعدة تطاولهم وسبابهم ويمضى في عناده . وكل ما يهمه أن يبقى الوفد كتلة واحدة ولو ظاهريا حتى لا يشجع انقسامه العدو على ضربها ، وهو يكتب الى لجنة الوفد في القاهرة يؤكد لها ان الوفد كتلة واحدة ، وهو يعلم انه أصبح كتلتين . وينفي كل ما يشاع عن انقسامه وهو يرى بعينه الشرخ في الوفد يزداد اتساعا . وان كل فريق يتكلم لغة لا يفهمها الآخر .

وروى الأستاذ محمد كامل سليم سكرتير سعدة في مذكراته عما حدث في إحدى جلسات الوفد عن هذا الخلاف .. قال :

« عبدالعزيز فهمي قال لي : ان بريطانيا مزهوة بنفسها ، وهي الآن أقوى

دولة في العالم ، وخرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى ، ونفوذها بين الدول ساحق ماحق ، ولا ينازعها منازع ، ومصر أضعف دولة في العالم ، وواقعة بين برائن هذا الغول البريطاني ، ونحن هنا شحاذون نشحت منها استقلالنا وحريتنا !

« .. وقال لي سعد : ما رأيك فيمن يقول نحن هنا شحاذون ، وعلينا أن نطيل بالنا ؟ »

« فاظهرت دهشة ساخطة مستنكرة وقلت : من قال هذا ؟ »
« قال سعد : انه عبدالعزيز فهمي سمعته عند انصرافه (من اجتماع الوفد) يقول هذه الكبيرة الى أحد زملائه ، فغضبت أشد الغضب ، ولم أشأ أن أعود اليه لاناقلشه الحساب ، وأثير معركة جديدة . يكفي ما نحن فيه من معارك وكرب وبلاء »

وهنا اطلق سعد مفكرا مهموما ثم قال :

— لا يجوز أن تكون هذه الروح الوضيعة في رجل كريم على نفسه ، لقد كان عزيزا على أن افلوض هنا ، وأبناء وطني ينكل بهم في مصر تنكيلا ، ويعذبون ظلما وعدوانا . ان ذكرى الشباب المصري الذين يعرضون صدورهم للرصاص ، ويموتون شهداء ، وعلى الستتهم الهتاف باسمي واسم الوفد واسم الوطن ، تكفي لملء نفوسنا باعظم أنواع الشجاعة واشد أنواع السخط والمقت لأولئك المستعمرين ، الذين سطوا على بلادنا كما يسطوا القتلة ، والصوص على الأبرياء الأمنين . نحن شحاذون ؟ ! كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذبا . ان ما شعرت به وأنا أخاطب هؤلاء الانجليز ، كان كما يشعر القاضي حين يخاطب اللص ، يطالبه برد الأمانة التي سرقها ويطالبه بالاستقامة بعد أن حاد عنها ، ويطالبه بتنفيذ الوعود التي قطعها على نفسه . وعود الشرف الذي التزم بها ، ليرد الى حقي الذي اغتصبه ، فإذا كان هناك من يخجل ويشحت فهم الانجليز ، وإذا كان هناك من يطالب بشجاعة وفخار فهم المصريون . ومتى كان المطالب بحقه شحاذا ؟ ومتى كان المطالب بماله ضعيفا خجولا ؟

والله إنني لأعجب كيف يجرؤ ملنر (اللورد ملنر وزير المستعمرات البريطاني ورئيس وفد المفاوضات البريطاني مع سعد) وهؤلاء المستعمرون أن ينظروا في وجهي ، وأنا أطلبهم بأن يكونوا شرفاء ، فينفذوا عهودهم ووعودهم بالجلاء ، لكي ينفذوا شرفهم وسمعتهم من العار والشنار ، ويتركوا بلادى التي سرقوها بالحيل الشيطانية وبالحديد والنار ، هذه روحى وأنا أخاطب هؤلاء القوم ، وتلك هى روح عدنى وأصحابه المهازيل ، وهذا في الواقع هو سر الخلاف بيننا ، وسر البلاء .

ثم سكت سعد واطرق قليلا وقال في انفعال حزين :
— ما حيلتي في رخاوة بعض الأعضاء ؟ ان مصيبتى في ضعفهم وهزالهم .
ان الواحد منهم ليفرح إذا دعاه عظيم من الانجليز لتناول الغذاء معه ، وأنا
والله لا افرح ولا اقبل أرفع نيشان يأتينى من ملك هذه البلاد ، وما لبيت
دعوة إلا كنت لها كارها ، وعليها ساخطا ، لأننى اعتبرها نفاقا في نفاق ، وأتية
من قوم هم خصومى واعدائى ، وأنا عدوهم اللدود .
وما حيلتى الآن وقد أخذ بعض الأعضاء لا يدخلون حين يظهرون اللين ،
ياسا ، أو طمعا في دخول الوزارة الجديدة التى سيكون عدلى رئيسا لها بكل
تاكيد ؟ ان نفوسهم قد هزلت ، وهذا شر ما يصيب الرجل ، والرجل المجروح
في كرامته وكرامة أمته لا يثور ، وهو رجل مسكين يستحق الرثاء والاحتقار ،
ولا يرجى منه خير على الإطلاق ..

هذا هو ما نقله سكرتير سعد عن الخلاف بينه وبين أعضاء الوفد ، وقد
يكون سعد قسا عليهم عندما اتهمهم بانهم يتساهلون لانهم يريدون أن
يصبحوا وزراء ، والواقع ان أحدا منهم لم يدخل وزارة عدلى بعد الاتهام الذى
وجهه لهم سعد زغلول . ولكن الخلاف الحقيقى هو ان سعد كان مؤمنا بقدرة
الشعب على الكفاح ، وأغلبية أعضاء الوفد كانت تتوهم أن الشعب أعطى
وليس لديه بعد ذلك ما يعطيه ، وكان هذا سبب سخط سعد على صديقه
عبدالعزیز الذى قال عنه يوما : إذا حال حائل بينى وبين الوفد فلا آمن عليه
إلا عبدالعزیز فهمى .

وكثيرا ما تخيل الوطنى ان أمته عاجزة فإن الذى يقرأ خطابات مصطفى
كامل من باريس الى صديقه الحميم فؤاد سليم الحجازى فى القاهرة ، يجد أن
مصطفى كامل يقول فى خطاباته السرية غير ما يقول فى خطبه العلنية .
فبينما مصطفى كامل يقول فى خطاباته المشهورة « لو لم أكن مصريا لوددت
أن أكون مصريا » و« لا ياس مع الحياة » نجده يقول فى خطاباته السرية
عبارة مثل : « دعنى بالله عليك من هذه الأمة التى بلانى الله بأن أكون واحدا
من ابنائها ، لا أستطيع الاعتماد على أحد من أبناء جنسى . إذا صورت يوما
بأى صورة كانت ، لا أجد من أمتى عضدا أو نصيرا . أمتنا التى تسب من
أولها لأخرها ويسب أميرها وأعز المدافعين عنها ، ويهان عرضها وشرقتها من
غير أبناء جنسها .. وهى لا تتحرك . أمتى هى التى بالغت فى الكرم حتى
جعلته جبنا . أقرب الناس منى يخاف اليوم مراسلتى فكيف مساعدتى ؟ أمتى
قليل لما أعلم من ضعف الهمم عندنا وخور العزائم . أمة تريد أن تأتيتها
الحرية وهى نائمة فتوقظها من نومها . أمة لا تثبت فى أمهاتها شهرا ولا فى ياسها
شهرا . انها لعمر الحق أمة تباع وتشترى كالأغنام . لولا والله انى

كما تعلم يا فؤاد كثير الثبات في المبدأ ، فخور بدفاعي عن عهد الحرية والحقيقة ، لتركت هذا الميدان الذي أنا فيه ، محتقرا لقومي وعشيرتي محتقرا لأناس أذافع عنهم وأناضل عن مصلحتهم ولا يقابلونني بغير الطعن والانتقاد على . لا وجود للمصرى ولا حق له من الحقوق البشرية ما دام بهذا الضعف والخلول . مصر لم تبرز على أنها حية تستحق نوال حقوق الحياة المدنية والسياسية كغيرها من الأمم والشعوب المستقلة . تأكد يا صديقي العزيز اني لن أمكث في مصر بعد عودتي دون أن أرى القبر . سوف أنتحر ولا أعيش في وسط أمة جاحدة .

إن ما كتبه مصطفى كامل دليل على أن كثيرين من الوطنيين يصابون في أوقات معينة بلحظات يأس ، تجعلهم يقللون من قيمة شعوبهم ، ويستهنون بقوتها ، ويسخرون من قدرتها على الصراع والتضحية والاستمرار . وعندما تطول لحظات اليأس يتحرك الوطني الى معتدل ، يتصور انه يخدم بلده بنصف الرغيف وبنصف الحرية وبنصف الاستقلال . ولكن الاعتدال في أثناء الثورة أشبه بربط الفرملة فجأة في أثناء اندفاع السيارة ، فهي تنقلب على وجهها ، وكما أن رجل الدولة لا يستطيع أن يكون ثائرا ، فإن الثائر لا يستطيع أن يكون رجل دولة . ولا يجوز أن يجتمع في ثورة واحدة الثائر ورجل الدولة ، فاجتماعهما أشبه بأن تدوس على الفرملة والبنزين في وقت واحد ! ومن هنا كان لابد للشعب المصرى أن يختار بين البنزين والفرملة ، بين الثورة والاعتدال ، بين سعد زغلول وعدلى يكن !

وقد كان الباب الخشبي الذي يفصل بين سلامك بيت الأمة وبين غرفة المائدة فيه ، يفصل بين عالمين مختلفين . عالم الوهم وعالم الحقيقة . انصار الوفد يصدقون رسائله الرسمية بأن كل شيء في باريس على ما يرام ، ورتيبة وشقيقها سعيد يعلمان من خطابات صفية أن كل شيء زفت وقطران ! باب خشبي يفصل بين الزغاريد والدموع - بين البسمات والتهنيدات . بين الاحلام الوردية والوقائع السوداء ، بين الأمان الخيالي والخطر الحقيقي . وكان سعد حريصا على أن يطلع الجهاز السرى في القاهرة على الحقيقة كاملة ، وكان رسله يفدون من باريس ويبلغون عبدالرحمن فهمي حقيقة ما يجري هناك .

وفجأة قبض الإنجليز على عبدالرحمن فهمي رئيس الجهاز السرى . وكان يوم القبض عليه مناحة في بيت الأمة . أحس الجميع أن أكبر قلعة سقطت في يد الإنجليز . وقال سعد زغلول : ان القبض على عبدالرحمن فهمي أخطر من القبض على سعد زغلول ! القبض على سعد أشعل الثورة والقبض على عبدالرحمن سوف يطفئها ! انه الدينمو السرى للثورة . انه قائد جيوش

الظلام فيها . ان كل الأجهزة التى تعمل تحت الأرض تتبعه شخصيا . وعاش البيت فى حزن ووجوم وأسى وقلق . انها ضربة لسعد فى الصميم ، فى الوقت الذى تخلى فيه عنه أغلبية أعضاء الوفد . وجاء مصطفى النحاس الى البيت وهو يضحك ويقهقه . أنه أحد أعضاء الوفد القلائل الذين بقوا مع سعد . ان متفائل دائما ويزداد تفاؤله فى الليالى السوداء . وقال النحاس لرتيبة ان كل شئ عال . ولم تصدق رتيبة ان كل شئ عال . وهمس النحاس بأن أحمد ماهر والنقراشى سيتولين عمل عبدالرحمن فهمى وانه أرسل يستاذن سعد فى ذلك ، وان الانجليز لم يعرفوا أغلب الأجهزة السرية ، وان عبدالرحمن فهمى أشبه بابى الهول ، ولا يمكن لأحد ان يحصل منه على أى سر من أسرار الوفد .

وعاد الابتسام الى وجه رتيبة ، ولم يعرف الطفلان وقتها ما قال النحاس لأمه ، كل ما عرفاه ان النحاس كان يضحك ويقهقه ويقول : ان كل شئ عال !

ولكن رسالة النحاس السرية لم تصل الى سعد فى الحال .. كان سعد وقتئذ فى لندن يفاوض لورد ملنر . ان النحاس بعث بالرسالة السرية مع رسول خاص استقل الباخرة من بورسعيد الى لندن فى رحلة استغرقت ١٢ يوما . اما الرسالة المكشوفة بالقبض على عبدالرحمن فهمى فارسلها بالتلغراف العادى .

وما كاد يصل الى سعد نبا القبض على عبدالرحمن فهمى حتى قرر قطع المفاوضات احتجاجا على القبض على عبدالرحمن فهمى .

وثار عليه أعضاء الوفد : وعجبوا لهذا الرجل المجتوئ الذى يقطع مفاوضات الاستقلال من أجل القبض على سكرتير لجنة الوفد المركزية فى القاهرة ! لقد سبق أن قبض على عبد من كبار الوفديين ، فلم يقطع سعد المفاوضات فلماذا يقطعها الآن ؟ وما هى أهمية عبدالرحمن فهمى .

وكان أغلب أعضاء الوفد لا يعرفون شيئا عن الجهاز السرى ، ولا يعرفون ان عبدالرحمن فهمى هو رئيس الجهاز السرى ، ولا يعرفون شيئا عن التعليمات التى كان يرسلها سعد الى الجهاز السرى !

لقد أخفى سعد عليهم جميعا هذه التفاصيل ، وأخفى عليهم انه ام بخطف عبدالرحمن فهمى من السجن وفشل الجهاز السرى فى تنفيذ الخطة . وكانت حجته ان مثل هذه المسائل السرية الدقيقة تقتضى الكتان التام . وانه لا يضمن ان يخرج عليه بعض هؤلاء فى منتصف الطريق ، ومعهم اخطر اسرار الثورة .

وكان هذا الكتمان سببا في وقوع أزمات بين سعد وأعضاء الوفد . محمد علي علوبه أمين صندوق الوفد يريد أن يعرف تفاصيل المبالغ التي ينفقها سعد . وإبراهيم سعيد باشا أمين صندوق الوفد في القاهرة يريد أن يعرف تفاصيل عن المبالغ التي ينفقها عبدالرحمن فهمي ! ومبدأ الكتمان يقضى بإخفاء كل شيء عن أمناء الصندوق !

وأعضاء الوفد في عجب من تفاهة سعد زغلول الذي شغل نفسه بمسألة القبض على عبدالرحمن فهمي .. ولم يبد هذا الاهتمام عندما قبض الانجليز على بعض الباشوات من أعضاء الوفد !

وحدث مرة أن قال محمد محمود باشا لسعد زغلول : ان من رايه ان تلقى بعض القنابل لهز الانجليز .

وقال سعد لمحمد محمود : انه ضد سياسة العنف ! وصدق محمد محمود ما قاله سعد ولم يعرف الحقيقة إلا بعد ذلك بعشرين عاما من عبدالرحمن فهمي نفسه !

فعلى الرغم من ثقة سعد بمحمد محمود وقتئذ فلم يطمئن الى ان يضمه الى السرى الكبير !

ويقرا أعضاء الوفد في الصحف الانجليزية التهم الخطيرة الموجهة الى عبدالرحمن فهمي وفيها خلع السلطان واغتيال الوزراء الانجليز ! ويسألون سعدا عن هذه التهم فيقول إنها غير حقيقية . ويختلف أعضاء الوفد مع سعد على مشروع ملنر .

لورد ملنر قدم مشروعا بنصف استقلال .. وأغلبية أعضاء الوفد تقبله ، وسعد وثلاثة أعضاء يرفضونه ، ويشدد الصراع بين الفريقين ويتم الاتفاق على استفتاء الأمة . ويقول سعد انه إذا قبل الشعب هذه الحماية فسوف يستقبل من رئاسة الوفد ويعتزل السياسة .

وكان سعد يقول : ما وثقت بى الأمة لأغرى بها ، بل لكى أسلك بها سواء السبيل . لقد نفرتها من الحماية فنفرت ، ورغبتها في الاستقلال فرغبت ، وحملتها على كثير من الضحايا فضحت ، وإن لمن أكبر الجرائم أن أصولها ، بعد ذلك كله ، الحماية في صورة الاستقلال ، وإن أحملها على ما تكره . لا أريد أن يقول التاريخ عنى « سعى الى الاستقلال فايد الحماية »

وسافر عدد من أعضاء الوفد الى القاهرة لاستفتاء الأمة ، وفوجئ سعد بأنهم يحبذون للأمة قبول الحماية ! فأرسل الى النحاس خطبا يطلب اليه أن يبلغ الشعب حقيقة موقفه .

وبعث برسالة أخرى الى الدكتور أحمد ماهر بهذا المعنى .. وإذا بالشعب

يعترض على مشروع ملتر ويصر على وضع التحفظات التى طلبها سعد زغلول .

وبدا أعضاء الوفد يعودون الى القاهرة وقد صمموا على خلع سعد زغلول من رئاسة الوفد إذا رفض أن يؤيد عدلى باشا فى المفاوضات ! وترك سعد لخصومه أن يسبقوه ليمهدوا لرايهم بين الجماهير ! ولكن قبل وصولهم الى الاسكندرية بيوم واحد ابرق سعد من باريس الى امين الرافعى بك مدير جريدة الأخبار لسان حال الوفد فى تلك الأيام قال فيها : « لما أبت لجنة ملتر أن تبحث معنا التحفظات التى أبدتها الأمة فى مشروعها ، وأشارت الى مكان بحثها فى المفاوضة الرسمية التى تكون على أساس هذا المشروع ، صرحنا لها انه لا يمكن لنا ولا لى انسان ، يكون للأمة أقل ثقة فيه ، أن يدخل فى هذه المفاوضة على أساس هذا المشروع قبل تعديله بالتحفظات المذكورة »

« وقد استحسنت الأمة هذه الخطة ، وأقربتنا عليها ، وجددت بنا ثققتها ، كما جددنا العهد لها بالمثابرة عليها »

« غير أن فكرة نبئت الآن فى بعض النفوس ترمى الى أن الوفد مع تمسكه بهذه الخطة فى خاصة نفسه ، لا يمنع الغير من الدخول فى المفاوضة على خلاف هذا الشرط ، بل يلزمه أن يؤيده ، ويعلن ثقته به ، من كان من أصدقائه . وهى فكرة أقل ما فيها انها غير مفهومة ، ولا قابلة للفهم ، ولا يترتب على العمل بها ، إلا افساد خطة الوفد نفسه .

« ولهذا اظهرت لجميع أبناء وطنى اننى لا أوافق على هذه الفكرة أصلا ، واحذرهم منها ، ومن تصديق أى قول لم يصدر منى بقبولها . وانى لا ادخل فى أى مفاوضة على أساس مشروع ملتر قبل تعديله بالتحفظات ، ولا أؤيد من يدخل بدون هذا الشرط ، مهما كانت علاقته بشخصى ، ومهما كانت ثقته به » « وأمل فى وطنية كل مصرى أن يفهم المركز الدقيق الذى نحن فيه ، وأن يحافظ على الاتحاد الذى هو أساس قوتنا ، والمعول عليه فى نجاح قضيتنا ورجائى فى الله قوى فى أنه ما دام هذا الاتحاد فينا فلا بد أن نصل الى تحا الآمال »

وما كادت تنشر « الأخبار » برقية سعد حتى دوت كالكبيلة . هزت الشعب من أعماقه . انتشر السخط فى كل مكان على أعضاء الوفد الذين اختلفوا مع سعد . لطختهم البرقية بالطين . هزت صورهم فى الراى العام . هوت بهم من مكانهم فوق القمة الى السفح . بدأت الجماهير تمزق صورهم . كان الشعب يحتفظ بصور أعضاء الوفد كأنهم نجوم السينما . ووصل أعضاء الوفد

الى الاسكندرية وهم لا يعرفون شيئا عن العاصفة التى سبقتهم ووقف
تنتظرهم على الميناء !

وكان أعضاء الوفد واثقين انهم سيكسبون المعركة مع سعد زغلول .
الم يسبقوه الى مصر . سوف يتفردون بالمنابر . سوف يحتكرون الاحاديث فى
الصحف . وسيسيطرون على لجان الوفد . ويستاثرون بالرائى العام . سوف
يستعينون بقوة الدولة وسلطانها . انهم قادرون فى هذه الفترة وسعد لا يزال
فى الخارج على أن يقصوا ريش النسر فيتحول الى دجاجة ، وأن يعزلوه عن
قوى الشعب ويجمعوه حولهم ، حتى إذا عاد سعد الى مصر يعود مهبط
الجنح ؛ مقلم الأظافر ، أسدا يغير أنياب ، أو فارسا يغير جواد ، ولا يبقى
أمامه إلا أن يخضع لأغلبية الوفد ويؤيد عدلى ويسير فى الطابور ، أو يعاند
فتعزله الأغلبية من رئاسة الوفد وتنتخب عدلى يكن رئيسا له ، ويغيب سعد فى
زوايا النسيان !

كانت هذه هى احلام أغلبية الوفد ، والباخرة تقترب من شواطئ
الاسكندرية .

ورأت لجنة الوفد المركزية فى القاهرة ، أن ترسل الى الاسكندرية وفدا
برئاسة فتح الله بركات باشا ، ابن أخت سعد ، لتمهيد أعضاء الوفد للمقابلة
السيدة التى تنتظرهم !

وقبل أن يفتح فتح الله بركات فمه ليشرح الموقف الخطير ، فاجأه
عبدالعزیز فهمى بك بقوله :

— الحمد لله ! خلصنا من خالك ! الحمد لله وصلنا لبر السلامة ، وبعدنا
عن وجه خالك ! لن يجد خالك رجلا واحدا يحييه بعد أن يسمع الشعب
ما سنقول ضده !

وابتسم فتح الله بركات وقال :

— مهلا يا عبدالعزیز بك . هدى أعصابك .. اسمع أولا الحكاية !
وصاح عبدالعزیز فهمى :

— أنا لا اسمع ! اسمعوا انتم الحكاية ! وعندما ستسمعون ستخرجون
على سعد الذى يريد أن يتحكم فى أغلبية الوفد !
وتركه فتح الله بركات يصرخ بكلمات عصبية .

وما كاد أعضاء الوفد يضعون اقدامهم على أرض ميناء الاسكندرية حتى
فوجئوا بعشرات الآلاف من الجماهير تهتف سعد . سعد . سعد . لا رئيس
إلا سعد !

إنهم راوا نفس هذه الجماهير منذ عامين تهتف لهم ، وتحملهم على
الأعناق ، وتضع على رؤوسهم أكاليل الغار . ماذا دهمى هذه الجماهير ؟ كيف

تحولت الهتافات الى لعنات ؟ كيف تحولت الايدى الملوحة والأكف المصفقة الى ايد مهددة والى اكف متوعدة ! اختلفى من العيون الحب ، وتصاعد منها الشرر . الالفة التى كانت تعبد ، أصبحت فى يوم وليلة اصناما تحطم ! وفى كل محطة وقف فيها القطار من الاسكندرية الى القاهرة احاطت الجماهير بأعضاء الوفد تهددهم وتوعددهم وتقول لهم انها مع سعد ضدهم . انها ترفض سياسة نصف الرغيف . الاستقلال التام او الموت الزؤام !

واصيب أعضاء الوفد بالذهول من هذا الاستقبال الغريب . كان بعضهم يختفى فى دورة مياه القطار فى اثناء وقوفه فى المحطات . كان بعضهم يضطر الى أن يهتف بحياة سعد ليشتري سلامته ، كانوا فى دهشة من أن تفعل برقية سعد بهم كل ما فعلت . أن تحولهم فى يوم وليلة من معبودى الجماهير الى منبوذين .. واصيب عبدالعزیز فهمى بحالة هستيريا وراح يرمى بطربوشه فى الأرض ويقول ان سعدا استحل دمنا بهذه البرقية !

ووصل القطار الى القاهرة ، وإذا بالمصيبة فى محطة القاهرة افدح من كل محطة أخرى على الطريق . الجماهير المحتشدة تهتف بحياة سعد وسقوط أعضاء الوفد . ثم جاءت الأنباء اليهم بأن الشعب حاصر باب المحطة وهو مصمم على الفتك بهم وجر جنّتهم فى الشوارع وأن قوات البوليس الهائلة عاجزة عن حمايتهم من ثورة الشعب الغاضب . واضطر أعضاء الوفد الى الهروب من باب خلفى فى المحطة ، وهرعوا الى سيارات مغلقة مسدلة الستائر استقلوها الى بيوتهم ! ولم تتركهم الجماهير فى بيوتهم ، بل تقاطرت عليهم الوفود والمظاهرات تطالبهم بتأييد سعد . واضطر حمد الباسل باشا ومحمد محمود باشا ومحمد على علويه باشا أن يلقوا كلمات فى الجماهير يعلنون فيها تأييدهم لسعد . ولكن هذه الخطب لم تهدئ الجماهير الغاضبة ، واستمرت المظاهرات تطوف بيوت أعضاء الوفد تهتف بسقوطهم وتهدهم بأن تهدم بيوتهم فوق رؤوسهم !

واضطر الأعضاء الى الاجتماع وإصدار قرار أعلنوا فيه انهم متمسكون بالنهاية بالغاء الحماية الغاء صريحا ، وجميع تحفظات الأمة التى اتخذ الوفد شرطا أساسيا لدخول المفاوضات .

وكان واضحا من هذا البيان أن أغلبية الأعضاء ترجعت عن رأيها واصبحت تؤيد رأى سعد زغلول الذى سبق أن هاجمته وسخرت منه . ولكن الجماهير الناضجة لم تقتنع بهذا البيان . ان البيان لم يذكر اسم سعد زغلول ! انها مناورة أراد بها أعضاء الوفد أن يتبنوا رأى الشعب ، لينقضوا على زعيم الشعب !

وخرجت المظاهرات تقول : ليعلن أعضاء الوفد انهم يؤيدون سعد

زغلول ! واضطر الاعضاء الى أن يصدرُوا قرارا في يوم ٢٩ يناير سنة ١٩٢١ يقولون فيه :

« انه نظرا لما لوحظ من أن البعض أراد أن يفسر قدوم الاعضاء الذين حضروا اخيرا من أوروبا تفسيراً لا يتفق مع الواقع . رأينا أن نصرح بأن الوفد بأكمله ، وعلى رأسه رئيسنا الجليل سعد زغلول باشا ، على اتم وفاق : « وانه ثابت كل الثبات ، ومتشدد كل التشدد في التمسك بما قرره من انه لا يدخل المفاوضات الرسمية إلا إذا قبلت التحفظات التي طلبتها الأمة ، وفي اولها النص على الغاء الحماية ، لتكون من القواعد الأساسية التي تبني عليها المفاوضات . وانه لا يؤيد أى هيئة أخرى تتقدم للمفاوضات الرسمية إلا إذا كانت متفقة معه على المبدأ والخطة »

ووقع البيان محمد محمود باشا وحمد الباسل باشا وعبدالعزیز فهمى بك وأحمد لطفي السيد بك ومحمد على بك وحافظ عفيفى بك وعبدالخالق مذكور باشا وهم الأغلبية التي وقفت ضد سعد ، وويصا واصف وجورج خياط بك ومصطفى النحاس بك ، وهم الأقلية التي أيدت سعد منذ أول الأمر . وافقت الأغلبية على اصدار هذا القرار الذى تراجعت فيه عن كل مواقفها لتكسب وقتا . رأت أن سعدا الغائب كسب المعركة الأولى . غلبهم من باريس . وهم في القاهرة . سحقهم وهو وحده وهم أغلبية . وتصوروا أن بريقته الى جريدة الأخبار كانت هي الضربة القاضية في الجولة الأولى .. فليؤجلوا المعركة العلنية ، وليبدأوا في تنظيم أنفسهم ، وفي تدبير خطتهم ، وعندما يعود سعد الى القاهرة ، وتنتهى الغمرة العاطفية التي سيطرت على الشعب نحو زعيمه الغائب . عندئذ تبدأ الجولة الثانية .

وهذات الجماهير الغاضبة ، وتوقفت المظاهرات الصاخبة ، وسكتت الهتافات بسقوط أعضاء الوفد .

وآلف عدل يكن باشا الوزارة ، وأعلن انه يؤلفها بالتفاهم مع الوفد ، وخرجت المظاهرات ترقص في الشوارع متوهمة بأن ما حدث هو انتصار للشعب !

وكان أول ما فعله عدلى يكن بعد تأليفه وزارته ان أرسل الى سعد زغلول برقية يبلغه فيها تأليف وزارته وسأله رأيه في المفاوضات وكيف يجب أن تكون .

ورد سعد بأنه قادم الى مصر .

واسقط في يد عدلى وأغلبية الوفد . لقد تصوروا أن تأليف عدلى للوزارة سوف يسحب البساط من تحت قدمي سعد . سوف يقوى مركز أغلبية أعضاء الوفد الذين تساندتهم سلطة الحكم . كانوا يريدون أن يضعوه أمام الأمر

الواقع وهو موجود في باريس .. ولكنه فاجأهم بأنه قادم الى القاهرة . وروت صفة فيما بعد للطفلين وأمهما أن سعد زغلول كان خالي الذهن من أسلوب الاستقبال الذى أعده له الشعب عند عودته الى بلاده . صحيح انه عرف كيف تائب الشعب على خصومه وأدخلهم الجحور ، ولكن الموقف قد يكون تغير . مضت بضعة شهور منذ تلك الأيام التاريخية . حكومة عدلى في يدها الحكم والسلطان . تعز من تشاء وتذل من تشاء . السيف في يمينها والسوط في يسارها . وهو لم يأت للشعب بالاستقلال الذى تمناه . والسلطان فؤاد ضده ، والانجليز خصومه الألداء . والدولة تتربص به . وأغلبية الوفد انطلقت في ظل الحكومة الجديدة تبشر بآرائها وتسفه آراء سعد . عدلى يعد بالمناصب وسعد يعد بالدم . عدلى يعتمد على الوزراء وسعد يعتمد على الشهداء . عدلى يبشر بإيام من الرخاء وسعد يعد بإيام من التضحية والبذل والفداء . عدلى معه الأغنياء القادرون والملوك الموسرون والأسر الكبيرة ، والاقطاعيون المسيطرون وسعد معه الفقراء والمحرومون والمعدمون .

وفي الليلة السابقة لوصول الباخرة الفرنسية الى الاسكندرية أقام القبطان مادبة عشاء فاخرة تكريما للزعيم المصرى ، وغرس في الخراف والديوك الاعلام المصرية . وانتزعت صفة علمين ، وأخذتهما معها الى قمرتها ، وزينت بهما ققص العصفورين « زغلول » و« منصور » وهما عصفوران أهداهما لها الشعب في اثناء المظاهرات .

وعاد سعد الى القمرة ، وما كاد يرى العلمين فوق القفصين حيث غضب وهاج وقال لها : كيف تزينين القفصين بالاعلام . اننى لا أعرف كيف سيقابلنى الشعب .. انزعى العلمين فورا ؟ وقامت صفة ونزعت العلمين . وعاد سعد يقول لها :

— كيف أعود برفة .. ماذا سيقول الناس ؟ يقولون انه يحتفل بنفسه عندما وجد أن احدا لا يحتفل به . ويرفع الاعلام عندما رأى أن احدا لا يرفع له الرايات !

وما كادت السفينة تصل الى ميناء الاسكندرية حتى بهت سعد مما رأى . في عرض البحر وجد الوف القوارب والسفن مزينة بالاعلام . كانت هذه اول مظاهرة بحرية تراها مدينة الاسكندرية . حتى السفن الاجنبية الراسية في الميناء زينت بالاعلام المصرية . القوارب مسارح متنقلة فيها مطربون ينشدون الاناشيد . فيها راقصون يرقصون . فيها فرق موسيقية تعزف نشيد حيا سعد . أرصفة الميناء مغطاة بمئات الألوف من المستقبليين الهاتفين ، أقواس

النصر في كل شارع ، البيوت ترفع الأعلام ، الشوارع مزينة بالشرقيات ، خرجت الاسكندرية كلها والمدن التي حولها تهتف وترقص وتزغرد للزعيم الذي استنكر ان تضع زوجته علمين على قفص العصفورين زغول ومنصور ! وعلى طول الطريق من الاسكندرية خرجت مصر كلها . لم يبق أحد في بيته إلا اعضاء الوفد .. !

فلاحات يزغردن وينشدن الأناشيد : « يا سائلة يا سلامة . سعد رجع بالسلامة » الفلاحون تركوا حقولهم وحملوا غصون الأشجار . الأطفال يهللون ، توقفت القطارات على طول الطريق ، الأرض مفروشة بالناس ، صوت القطار لا يغطي على هتاف الملايين على جوانب الخط الحديدي تهتف لسعد بصوت كالرعد . القاهرة لم تشهد من قبل في حياتها مثل هذا الزحام . لا أماكن في الفنادق . الجماهير التي قدمت من الريف تنام في الحدائق والطرقات . النوافذ على طول الطريق الموكب تؤجر للناس . الكراسي في فندق شبرد وفندق الكونتنتال يؤجر بجنيه ! اللصوص أعلنوا الاضراب عن السرقة لمدة ثلاثة أيام احتفالاً بعودة الزعيم . لم تسجل محاضر الشرطة في خلال ثلاثة أيام حادث سرقة واحدا ، ولا حادث نشل واحدا . وقد تكون هناك سرقات ، ولكن الضحايا رفضوا التبليغ عنها حتى لا يشوهوا جلال الاجماع . تسلق الناس مصابيح النور فوق الأشجار ليقلوا نظرة على الزعيم المعبود . تحولت الدنيا الى فرح كبير . كل من فيها يرقص ويفغى ويهتف . عندما يحب هذا الشعب يتحول صوته الى أحلى الأصوات . هتافه فيه موسيقى . صياحه يتحول الى غناء . تصفيقه يطرب الأذان كأنه أعذب الألحان . الناس في الشوارع كالسكارى . النساء خرجن الى الشوارع يزحمن الرجال . أمة تغنى لحنا واحدا ليس فيه صوت واحد نشاز . الشباب يتعانقون في الشوارع . لم يسبق لشعب من الشعوب أن استقبل زعيما أو ملكا أو فاتحا كما استقبل الشعب سعد زغلول في تلك الأيام . إن مراسل جريدة التيمس في القاهرة ابرق الى جريدته يقول ان سعد زغلول اليوم هو اعظم رجل في العالم . كتب ابراهيم عبدالقادر المازني وصفا رائعا لهذا الاستقبال في جريدة الاخبار . ان أمة بأسرها خرجت تعانق رجلا واحدا . تحمله على أعناقها . لم يكن لقاء شعب وزعيم وإنما كان لقاء عشاق بعد فراق طويل !

.. وأبت مصر أن تستقبل سعد في يوم واحد ! أصرت على أن يستمر الاستقبال عدة أيام . مواكب تسير أمام بيت الأمة بالنهار والليل . كل قرية في مصر جاءت بنسائها ورجالها وأطفالها لتحيا الزعيم . كل صناعة لها موكب خاص بها . القضاة والمستشارون ورجال النيابة باوسمتهم في موكب . الممثلون والممثلات في ملابس مسرحياتهم في موكب . الموسيقيون والمطربون في موكب .

مرضى مستشفى قصر العيني أصروا على أن يتركوا فراشهم ويمشوا في موكب
لتحية الزعيم تتقدمهم سيارة اسعاف !

وفي صباح اليوم التالي لوصول سعد جلس مع صفية ومعه رتيبة وزوجها
أمين يوسف وشقيقها سعيد وطفلاها على ومصطفى يتناولون طعام الافطار .
وقال سعد : أن هناك زيارة هامة يجب أن يقوم بها ذلك اليوم .

وسئل سعد : هل سيزور السلطان ؟

وابتسم سعد وقال : لا .. أهم من السلطان !

وذهل الجميع وبدت الحيرة في وجوههم .. من هو الذى سيزوره سعد وأهم

من السلطان ؟

وقال سعد : أنه يريد أن يبدأ بزيارة قبور الشهداء . وطلب من أمين يوسف
أن يصحبه معه في هذه الزيارة لأنه يعرف هذه القبور ، فقد كان يذهب مع
رتيبة ليضع الباقات على القبور باسم صفية وسعد .

وطلب سعد من أمين يوسف ألا يخبر أحدا بهذه الزيارة ، لأنه يريد أن يقف
مع كل شهيد على انفراد .

ولكن أمين يوسف لم يطق أن يكتم الخبر ، فقد شعر أن هذا لقاء يجب أن
يسجله التاريخ . فأبلغه الى صديقه الكاتب ابراهيم عبدالقادر المازنى وقد كان
يقيم يومها في مقابر الامام الشافعى . ووصف المازنى يومها هذا اللقاء
التاريخى بين زعيم الثورة وشهدائها في مقال رائع . وبقي المازنى طول حياته
يقول ان هذا كان أهم نصر صحفى حصل عليه في حياته الصحفية .

وأصبح سعد في يوم وليلة أقوى رجل في مصر ، أقوى من السلطان
والحكومة والانجليز وأعضاء الوفد مجتمعين . كان استقبال الشعب لرعيمة
استفتاء شعبيا حرا حصل به على الاجماع . تضاعل خصومه أمامه . العمالقة
أصبحوا أقزاما . أغلبية الوفد الساجقة أصبحت أقلية مسحوقة . أصبح
الشعب سلطانا . أصبح صاحب الدولة . أصبح صاحب الفخامة .

وتهاوى عظمة السلطان . تهالك صب الدولة عدلى يكن باشا رئيس
الوزراء . أصيب صاحب الفخامة اللورد اللنبى نائب ملك بريطانيا بخيبة
أمل ، وراح يصرح بأنه نادم على أنه أشار في يوم من الايام على الحكومة
البريطانية بالافراج عن سعد زغلول !

وبدأت المعركة بين سعد والسلطات الثلاثة : سلطة السلطان وسلطة
الحكومة وسلطة الحماية البريطانية !

وبدأت المعركة بحفلة أراد الموظفون اقامتها تكريما لسعد . وحاول الوزراء
بالضغط على لجنة الاحتفال أن تعدل عن عزمها . وأصر الموظفون على

موقفهم ، وتحذوا الحكومة واقاموا الحفلة واحالت الحكومة في اليوم التالي
اعضاء لجنة الاحتفال التسعة الى المحاكمة التأديبية !

وبدأت الحكومة تبطش بأنصار سعد ، تضطهدهم وتشردهم وتنكل بهم ..
وفي تلك الايام سافر سعد ليستريح في قرية مسجد وصيف وأخذ معه الطفلين
على ومصطفى .

وكان الحديث الوحيد الذى يتناقله الجميع في القرية يدور حول اضطهاد
الحكومة للشعب الذى ينادى بالاستقلال التام .

و ذات يوم سال الطفل مصطفى جده سعد :

— أريد ان أسالك يا جدى سؤالاً . ألا تقول حكومة عدلى انها تسعى
للحصول على الاستقلال ؟

قال سعد : نعم انها تقول ذلك .

قال مصطفى : كيف إذن تقبض هذه الحكومة على الذين يطالبون
بالاستقلال !

وأعجب سعد بسؤال الطفل . وألقى خطابا عنيفا ذكر فيه سؤال الطفل له ،
وهاجم حكومة عدلى هجوما قاسيا عنيفا .

وأصر عدلى على أن يتولى المفاوضات برغم معارضة سعد .

ووقف الشعب كله مع سعد ضد عدلى .

واجتاح المظاهرات البلاد كلها تؤيد سعد . وقاومت الحكومة المظاهرات
واطلقت النار على المتظاهرين وسقط مئات القتلى والجرحى .

واستمر سعد طوال ثلاثة شهور يخطب كل يوم . يهاجم عدلى ويطالب
بالاستقلال التام .

و ألف عدلى يكن وفدا رسميا برياسته وسافر الى لندن للمفاوضة برغم ان
أغلبية الشعب وقفت ضده .

ولكن شيخ سعد برغم عدم اشتراكه ، ظل مسيطرا عليها باعتراف أعضاء
الوفد الرسمي .

كان كل نص يعرضه الانجليز على الوفد الرسمي يقرأونه ويقولون : ترى
ماذا سيقول سعد عن هذا النص !

واضطروا أن يقطعوا المفاوضات مع الانجليز خوفا من سعد .

وكان عدلى يكن يتصور انه وقف موقفا تاريخيا بقطع المفاوضات ، وكان
يعتقد ان الشعب سيخرج لاستقباله ، وانه سوف يسترد الأرض التى
فقدوها .. وبدأت حكومته في القاهرة تعد له استقبالا شعبيا .

وكان من رأى الثوار الوفديين ان يهاجموا موكب أعضاء الوفد الرسمي
ويفتكوا بهم عند وصولهم الى القاهرة .

ولكن سعدا اعترض على هذا واكتفى بأن وجه الى الشعب نداء قال فيه :
« مهما اقام خصومكم من الزينات والاقواس ، التي ما تكون إلا اقواس
خزى ، فلا تمدوا أيديكم اليها . واتركوا البعثة الخائنة تمر في الشوارع وهي
خالية ، كما تمر الجنائز العادية ، واعتصموا دائما بشعارنا الذى هو
الاستقلال التام أو الموت الزؤام »

ومر موكب عدلى باشا في المدينة . وإذا بها قد تحولت الى مدينة للموتى .
مدينة خلت فجأة من سكانها . الشوارع مهجورة . الحوانيت مغلقة . النوافذ
مغلقة . لا عربة ترام . ولا سيارة نقل . ولا سيارة خاصة . لا عربة حانطور .
كان العاصمة المزدهمة هجرها أهلها فجأة . انشقت الأرض وابتلعتهم . صمت
كالموت وسكون كالقبور .

وتلفت عدلى حواليه في موكبه الرسمى يبحث عن الناس فلم يجد أحدا .
حتى الشحاذون في القاهرة اضرَبُوا في ذلك اليوم واختفوا . لا نساء ولا رجال
ولا اطفال .

وسال عدلى : أين ذهب سكان القاهرة ؟

فقال له ثروت باشا وزير الداخلية : أن سعد زغلول أمرهم بإخلاء القاهرة
يوم وصول عدلى ، فاستجابوا جميعا للنداء .

وانكسر قلب عدلى ، أحس بأنه هزم في المعركة . عرف لأول مرة أن الشعب
أقوى من السلطان وأقوى من الحكومة وأقوى من الانجليز .. سمع الصمت
كانه الرعد . رأى في هذا السكون القاتل ثورة هذه الشوارع الخالية الميتة أشد
قوة من هتاف الملايين بسقوطه !

واسرع في اليوم التالى وقدم استقالته من رئاسة الوزارة الى السلطان .
وهكذا لأول مرة في التاريخ أصبح الصمت بلاغة وعملا ثوريا دونه المعارك
في الشوارع والقتال بين الشعب وقوات الطغيان !

ولم يفرح الطغران الصغيران فقط بالاستقبال الذى أحيط به جدهما
الكبير ، ولكنهما فرحا أيضا أن زحف مصر الى القاهرة لاستقبال سعد جاء معه
بالطفلتين حسنية وسعاد من دمياط مع أمهما ليشهدن يوم الاستقبال العظيم .
التقت العيون الصغيرة . اجتمع الاطفال العشاق الأربعة من جديد . تحولت
الحدوة الى قصة . أصبح فيها فراق ولقاء . قلوب يلهيها الشوق ويحرقها
القرب .. ووقف الاطفال الأربعة في شرفة الدور العلوى في بيت الأمة يشهدون
مواكب الجماهير . كان الأفراح تقام لحبهم الصغير . كان الناس يرقصون
للقاتم . كان الموسيقىات ترفهم . أن لقاء العشاق في عزلة عن الناس له طعم
السكر في الشفاء . ولكن لقاء المحبين في أعياد الشعوب له طعم الرحيق
الخالد ! .. المحبون العاديون هم الذين يذكرون الزهور التى أحاطت بهم .

والأشجار التي ظللتهم ، ولكن عندما يكون اللقاء في لحظات تاريخية تثبت صورة الحب كان الجماهير كانت تحملها على أكتافها ، كان هذا الهوى أحد الأعلام التي تحملها الملايين . تكبر الصورة من حجم بطاقة البريد الى حجم السينما سكوب بكل روعتها وضخامتها وألوانها . وكان القدر شاء أن تكون حياتهما مظاهرة . حياة صاخبة كأنها مظاهرة مستمرة . أصبحا يشعلان أنهما جزء لا يتجزأ من هذه الملايين ، يعيشان لها ومعها ، يتجاوبان معها كثيرا ، أصبحت حياتهما من طفولتهما لها طابع عام . حتى حينهما امتزج بحبهما لهذه الملايين .

العشاق يلتقون في غفلة من الناس وهم يلتقون أمام مئات الألوف . وخيل اليهما في طفولتهما الساذجة ان الجماهير تبارك حبيهما ، وتهتف لهو هما الصغير ، وتلوح بأيديها للعيسان الأربعة . ولم يستمر هذا الحلم طويلا فقد عادت الطفلتان الى دمياط بعد ثلاثة أيام . وتجدد الشوق وتضاعف الهوى وزادت الآلام !

ولم يكن ألمهما مقصورا على الحب فقط ، فقد أمر سعد بإدخالهما الى المدرسة الابتدائية ، وكلف عاطف بركات بك بأن يختار لهما المدرسة التي يذهبان اليها ، وكان عاطف بك مشهورا في الأسرة بالشدّة والحزم . يخافه أطفال الأسرة ويرهبه شبانها . كان قبل ذلك ناظرا لمدرسة القضاء الشرعي . ثم أصبح عضوا في الوفد ، وبينما كان شقيقه فتح الله مشهورا في الأسرة بالطف والسماحة ، كان عاطف بك مشهورا بأنه يعامل شباب الأسرة كأنهم تلاميذ في مدارس ابتدائية . يلقي عليهم في دخوله وخروجه محاضرات في آداب السلوك ، وينتقد جلستهم إذا جلسوا ، ومشيتهم إذا مشوا ، وحديثهم إذا تحدثوا ، ويمتحنهم في دروسهم أثناء تناولهم الطعام . ويوبخهم إذا ابتسموا ، ويعنفهم إذا ضحكوا ، ويؤنبهم إذا تأخروا دقيقة عن موعد الطعام .

وفجع الطفلان عندما عرفا أن جدهما اختار عاطف بك بركات بالذات ليختار لهما المدرسة الابتدائية التي يلتحقان بها . وبات الطفلان عدة ليال في رعب . أي مدرسة سيختارها لهما عمهما عاطف بك ! اختار مدرسة الأحداث التي يودع فيها المجرمون الصغار ! اختار لهما أحد السجون ؟ وعاد عاطف بركات وقال لسعد أنه اختار لهما مدرسة المثيرة الابتدائية لأن ناظرها هو ابن أخته الأستاذ نجيب حتاتة . وبذلك تعرف الأسرة يوميا أخبار الطفلين وتصرفاتهما .

وكان نجيب حتاتة مرييا ممتازا . تخرج في إنجلترا . وكان شابا أنيقا له شارب أحمر طويل ، يرتدى ملابس أنيقة ، ويغطي حذاءه « بجيتير » أبيض ،

ويبدو أشبه بنظار المدارس في إنجلترا ، وقد حاول أن يجعل من مدرسة المنيرة مدرسة نموذجية . ولكن المصيبة الكبرى انه قريبهما . انهما لن يستمتعا بالحرية في المدرسة . ستكون كل خطواتهما مراقبة . ستعرف أمهما يوميا كل أخطائهما وحماقاتهما الصغيرة .

ولم تكن مخاوف الطفلين وهما ! ان قرابتهما للناظر كانت لعنة حلت عليهما . جميع المدرسين تلقوا تعليمات بأن يمتحنوا الطفلين في كل حصّة . أن يضعوهما تحت الرقابة الشديدة . أن يعاملوهما بحزم وشدة . أن سعد زغلول يشرف على دراستهما بنفسه ، فيجب أن يكون التلميذان التواضع عنوانا على مستوى المدرسة العالي . وكان مدرسو المدارس من أشد أنصار سعد زغلول . فاعتبروا كلام الناظر أمرا لهم بأن يحاولوا أن يصنعوا من الطفلين الصغيرين عباقة صغارا ! وكان هذا كارثة على الطفلين . التلاميذ يمتحنون ثلاث مرات في العام . وامتحانها وحدهما كل يوم ، بل كل حصّة ! طول قامتها يؤهلها ليجلسا في آخر الصفوف ، وبذلك لا يراها المدرس وهما يلهوان أثناء الحصّة أو يتحدثان متغافلين عن الدرس . ولكن هذا الأمر جعل مقعديهما في الصف الأول تحت عين المدرس وملاحظته ومراقبته المستمرة . التلاميذ الآخرون يخطئون فيتسامح المدرس ، فإذا أخطأ أحدهما ضربه المدرس بالمسطرة الخشبية وقال له « ستفضحنا أمام سعد باشا » ! كل التلاميذ يستطيعون أن يزوغوا من الحبيب ، أو يستأذنوا في الذهاب الى دورة المياه ولا يعودون ، أو يتظاهرون بالمرض فيودعون في العيادة المدرسية ، ولكن الطفلين التواضع وحدهما لا يستمتعان بحرية من هذه الحريات ! كان المدرسون يتنافسون في حشو راسيهما الصغيرين بالدرس فإذا جاءت الفسحة وخرج التلاميذ للعب استبقاهما أحد المدرسين ليشرح لهما الدرس من جديد . وكان المدرس الوحيد الذي لا يعاملهما بشدة وصرامة هو هلال افندى معلم الحساب . كانت له طريقة غريبة في تعلم جدول الضرب . فقد لحن جدول الضرب على شكل أغنية ، وراح يعلمه للتلاميذ فيغنون معه . وبذلك استطاعت الأرقام المربعة أن تستقر في رؤوسهم أما باقي المدرسين فكانوا ينفذون أمر سعد باشا وهو الحزم والعزم .. وانه ما دام ففى الكتاب كان يضرب سعدا باستمرار ، فيجب على مدرسى المدرسة أن يضربوا على ومصطفى باستمرار !

وذات يوم دخل الأستاذ (رامى مدرس الترجمة ..
وبدا الحصّة بان نادى مصطفى وراح يمتحنه في المعنى العربى لبعض
الكلمات الانجليزية .

واجاب مصطفى على السؤال الاول والثانى والثالث والرابع . الى التاسع
اجابة صحيحة .

وساله الأستاذ رامى ما معنى كلمة FULL
واجاب مصطفى على الفور : مجنون .. يا افندى !
وصاح الأستاذ رامى غاضبا :

— معناها ملوء وليس مجنوناً يا حمار !

ثم رفع يده وهوى بكفه على وجه مصطفى . وقفز طربوش مصطفى من أول
الغرفة الى آخرها . اسودت الدنيا في وجهه . رأى نجوما سوداء وحمرات
تتراقص امام عينيه . احس بقوة الصفعة . تهاوى وكاد يسقط على الأرض .
ولكنه تمسك بالمقعد واستند اليه واخفى مكان الصفعة بيده الأخرى والدموع
تنهمر من عينيه .

كانت الصفعة مؤلمة . بقى مكانها محمرا على وجه مصطفى . عاد الى بيت
الامة . ذهب الى امه وشكا لها الأستاذ رامى فقالت له انه يستحق هذه الصفعة
لانه لم يحفظ الدرس . ذهب الى جده وروى له ما حدث . وتصور ان جده
الذى يحبه سوف يسخط على الأستاذ رامى ويهاجمه كما يهاجم عدو يكن .
الا يغضب سعد ويثور عندما تضرب الحكومة الشعب .. اليس هو جزءا من
الشعب ؟ اليس الأستاذ رامى جزءا من الحكومة ؟ ولكنه فوجيء بسعد
يخذه . لا يثور ولا يغضب . وإنما يبتسم ويقول :

— ان معنى ذلك انك ستنبغ في اللغة الانجليزية ! اننى سوف اشكر عاطف
بركات لانه عرف كيف يختار المدرسة التى يضحك فيها .

عاد مصطفى الى غرفته باكيا . رفض ان يتناول العشاء . احس لأول مرة ان
الدنيا تخلت عنه حتى سعد زغلول تخلى عنه ! الا يقول سعد انه يحارب
الطغيان . يحارب استبداد القوى بالضعيف ! اليس الأستاذ رامى طاغية !
الم يضرب ضعيفا . لو كان اكبر مما هو لامسك بخناق الأستاذ رامى . ولكنه
اقصر منه . بل ان الصفعة جعلته يتضائل امامه . ان الذين يضربوننا يبدون
في اعيننا دائما عمالقة . وكلما عجزنا عن رد العدوان طالت قامتهم في
مخيلتنا .. ولقد كان مصطفى يتصور ان سعدا ضخم جدا . كأنه أشبه
بالجبل . ولكن عندما أبى سعد ان ينتقم له من الأستاذ رامى تضائل حجم
سعد في نظره . بدا اقصر من الأستاذ رامى . بدا قزما بجوار الأستاذ العملاق .
واحس مصطفى انه لا يبيكى نفسه فقط ، انه يبيكى سعد زغلول أيضا ! إذا
كان سعد لا يقوى على الأستاذ رامى فكيف سيقوى على الانجليز ؟

لم يبق لمصطفى نصير يأخذ بيده سوى الله ! انه اتجه الى الله ! ترى

هل يجيء الله الى بيت الأمة ! وإذا جاء فهل سيجلس في الصالون الكبير المخصص لكبار الزائرين ؟ أم سيجيء الى غرفة نومه ؟ هل من المعقول أن يدخل الله الى غرف نوم الأطفال ! ولكنه مؤمن بما قالته أمه بأن الله يزور كل الناس يزور الفقراء أكثر مما يزور الأغنياء . يزور الضعفاء أكثر مما يزور الأقوياء . يزور المظلومين أكثر مما يزور الظالمين . وهو فقير فعلا . أنه لا يملك دراجة ! ضعيف فعلا أمام قوة الأستاذ رامى . مظلوم فعلا لأنه أجاب على تسعة أسئلة ولم يخطئ إلا في سؤال واحد .

ومضى الطفل مصطفى طول الليل يطلب من الله أن يأخذ الأستاذ رامى ! يأخذه من مدرسة المنيرة !

وفي صباح اليوم التالى ذهب مصطفى وعلى الى مدرسة المنيرة .. وحلت حصة الترجمة ولم يحضر الأستاذ رامى .. وبهت الطفلان ! إن الله استجاب الى دعاء مصطفى وأخذ الأستاذ رامى ! سمع صلاة مصطفى وأخذ روح الأستاذ رامى !

وسأل مصطفى المدرسين أين الأستاذ رامى فقالوا انه لن يجيء بعد اليوم . وستكتوا .

وتأكد مصطفى أن يد الله صفعت الأستاذ رامى ! أن يد الله أقوى طبعاً من يد الأستاذ رامى . لابد أن صفعة الله كانت قوية فقصت عليه قضاء مبرماً ! وعاش مصطفى عدة سنوات وهو يؤمن بأن الله أخذ الأستاذ رامى انتقاماً له .

وبعد أربع سنوات ذهب مع والده الى صالة سانتى بديقة الازبكية ليسمع أم كلثوم .

وفوجئ بالأستاذ رامى على قيد الحياة ! فوجئ به يقف في الاستراحة وهو يداعب أم كلثوم وتداعبه .

وعلم عندئذ فقط بأن الله لم يأخذ الأستاذ رامى الى جهنم .. وأن سر انقطاعه عن مدرسة المنيرة انه أوفد في بعثة دراسية الى باريس لدراسة اللغة الفارسية ! وأنه بعد ذلك أصبح شاعر الشباب .

ووجد مصطفى أن رامى ليس العملاق الذى صورته له الصفة المؤلمة . وإنما هو رجل رقيق الجسم . نحيف القوام ، ليس فيه أى شبه بالمصارعين والملاكمين !

وأصبح الضارب والمضروب فيما بعد صديقين حميمين ! وكلما التقى مصطفى برامى على مر السنين ذكره بالصفعة .. فيضحك رامى ويقول :

— حذار .. أن تضربنى الآن ! .. إننى لا أحتمل لكمة من أصبع !

ولكن شعور الطفلين بأن الله استجاب لدعاء مصطفى وأخذ الأستاذ رامى جعلهما يؤمنان بأن هناك قوة غير عادية في السماء . قوة أكبر من قوة جدهما سعد الذي كان يبدو لهما أنه أقوى رجل في مصر . قوة أمسكت بأيديهما الضعيفة عندما تخلت عنهما كل الأيادي . انهما اعتقدا الى سنوات طويلة بأن الله دخل غرفتهما . انه سمع صلاتهما . انه استجاب اليهما . صحيح ان الله لم يستجب الى دعائهما حرفيا ويأخذ الأستاذ رامى الى السماء ، وإنما أخذه الى باريس . المهم انه أخذه من مدرسة المنيرة . لو أن مصطفى التقى به بعد هذا القلم لأحس بهوان ما بعده هوان . لشعر بالصفعة كلما وقعت عيناه عليه . وقد أحس بأن الله بهذا التصرف إعاد اليه كرامته المهجرة . إعاد اليه اعتباره المفقود . ان أسوأ ما يشعر به الولد الصغير أن يحس بأنه مظلوم ، وأن أحدا لم ينصفه . الشعور بالظلم يملأ نفسه بالعقد . يجعله يتصور ان الدنيا ظالمة . سوداء ليس فيها شعاع من نور . مغلقة لا ينفذ اليها نور الحقيقة . انه أحس بالمرارة عندما لجأ الى أمه فإذا بها تحبى ما اعتقد انه ظلم واستبداد . أحس بالعدم عندما سمع جده محامى كل المظلومين يؤيد الظلم الذى وقع عليه ويباركه . وعندما يستبد به لباس يجد أن يد الله امتدت اليه لتأخذ من تصور انه ظالم .. ان المظلوم لا يعنيه أن يؤخذ الظالم الذى يدوس على عنقه بقدمه ويوضع في السجن بقدر ما يهمه أن يرفع الظالم قدمه من فوق عنقه . ما قيمة أن يعاقب الظالم بغير أن يرفع الظلم نفسه . ما قيمة أن أرى ظالمى الذى وضعنى في الزنزانة معلقا في مشقة ، وأنا مازلت سجين زنزانتي .

ولم يكن الأستاذ رامى هذا الظالم المستبد الجبار الذى صورته الصفعة في عيني الولد الصغير ، فقد كان ينفذ تعليمات ناظر المدرسة بأن يشتد مع التلميذين الصغيرين ليخلق بينهما تلميذين ممتازين . ولكنها كانت بالنسبة لمصطفى أول مرة في حياته يشعر بأن ظلما وقع عليه . ولا يستطيع أن يدفعه ، ولا يجد من ينصره ، ولقد احتمل قبل ذلك ضرب أمه وضرب المدرسين ، ولكنه كان في كل مرة يعتقد انه يستحق هذا الضرب ، ولكن هذه المرة هى المرة الأولى التى اعتقد فيها انه مظلوم وأنه لا يجد من يرفع الظلم عنه . ولهذا عندما تصور أن الله مد يده وأخذ الأستاذ رامى ، عاد الى قلبه الصغير إيمانه بالعدالة ، وبأن الحق لا يمكن أن يموت ، وأنه مهما تأمرت على هذا الحق كل قوى البغى والعدوان ، فإن يد الله قادرة على أن ترفع الظلم عن المظلوم .

وحدث ذات يوم أن أمطرت السماء بغزارة قبل أن يذهب الولدان الى مدرسة المنيرة في الصباح .

وخرج الولدان من بيت الأمة فرأيا عربية سعد الحانطور واقفة على الباب .
ودفعهما الريح الى داخل البيت من جديد . واتجها الى سعد يستأذنانه في أن
يركبا العربية الحانطور الى المدرسة بسبب الرياح والأمطار .
وكان سعد لا يزال جالسا يتناول الإفطار مع صفيّة ورتيبة .
وقاطعتهما أمهما وقالت ان خالكما سعيد زغلول كان يذهب يوميا الى
المدرسة السعيدية في الجيزة ماشيا على قدميه ! ليس لدينا أولاد يذهبون الى
المدرسة في عربات أو سيارات !
واستنجد الولدان بسعد ولكنه قال في حزم :

— يجب أن تتعلما المشى على أقدامكما وسط الأمار والرياح .. حتى إذا
كبرتما استطعتما السير وسط العواصف ! ان كل الذين يذهبون الى المدارس في
سيارات وعربات وهم صغار ، يمشون على أقدامهم وهم كبار !
قالها سعد بعنف لم يتعوداه منه وأخس الولدان بأن لا جدوى من
المناقشة !

ومشى الولدان يغوصان في الوحل والمطر ينهمر عليهما وهما في دهشة من
قسوة جدهما وأمهما .

ان العربية الحانطور واقفة بلا عمل . والعرجى الأسطى داود على
استعداد لأن يوصلهما الى المدرسة . وسعد لن يخرج من البيت قبل الساعة
العاشرة . والعربية يستعملها أحيانا الحاج أحمد خادم سعد الخاص لشراء
لوازم البيت من السوق . كيف يحق للخادم أن يستعمل العربية ، وتحرم على
إبناء البيت ؟ ان كثيرين من زملائهما من تلاميذ مدرسة المتبرة يحضرون الى
المدرسة في سيارات وفي عربات وبعضهم له دراجة خاصة به .. ولماذا يحرم
عليهما وحدهما ما يستمتع به الآخرون .. وما معنى أن يكونا أحفاد سعد
باشا وتصر أمهما ويصمم جدهما على أن يذهبا ويعودا من المدرسة مشيا على
الأقدام ؟

وكان هذا الحرمان يعكر عليهما صفو طفولتهما . انهما في تلك الأيام
لم يفهما حكمة سعد من هذا التصرف الذي بدا لهما تصرفا قاسيا غريبا من
الرجل الذي اعتاد دائما أن يغمرهما بكل الحب والحنان ؟
وما لبث الولدان أن أحبا المشى الى المدرسة . كانا في طريقهما اليها يشوطان
كل حجر يصادفانه في الطريق ، وفي عودتهما كانت هوايتهما أن يضغطا على
أزوار أجراس البيوت ، ويعدوا ، قبل أن يفتح الباب !
وضاق سكان شارع الفلكي بالولدين اللذين يدقان الأجراس ويعدون ..
ورفع السكان مكان الجرس بحيث لا تستطيع أيديهما الصغيرة أن تصل
اليه .

وضاق الولدان بما فعله السكان .
 وحدث أن رأى مصطفى رجلا طويلا يمر في الشارع فناداه وطلب منه أن
 يديق أحد هذه الأجراس .
 وتصوّر الرجل الطويل بحسن نية أن هذا هو بيت الولدين . فتقدم من
 الجرس وضغط على الزر .
 وعندئذ قال له مصطفى وعلى وهما يجريان مبتعدين عن البيت :
 — إجر بقى ! احسن يمسكوك أصحاب البيت !



●● سعد باشا وحسين رشدى فى إفتتاح جمعية الاسعاف
 المصرية ..

● الفصل الرابع عشر ●

كانت القاهرة في أوائل العشرينيات تختلف عن القاهرة التي نعرفها الآن . كانت شوارعها أضيق كثيرا . ميادينها أقل اتساعا . وحدائقها أكثر مما هي الآن . السيارات أقل فلا تزحم الشوارع . عربات الحانطور يجرها حصانان . الشبان الأثرياء يركبون « دوكار » وهي عربة بعجلتين يجرها حصان . الملاية اللف السوداء في كل مكان ، وبراقع سوداء من الكوريشه فيها قصبه من الذهب تغطي أنف المرأة . نساء الطبقة المتوسطة والطبقة العالية يرتدين جبة سوداء .. تتألف من قطعتين ، ويضعن على وجوههن براقع بيضاء . الفساتين طويلة تصل الى القدمين . لا ترى أذرها عارية في الشارع . قص شعر المرأة لم يكن معروفا في تلك الأيام . فتاة من المنيا قصت شعرها فاودعها أهلها مستشفى الأمراض العقلية في العباسية . لا أحد يمشى في الشارع حاسر الرأس . الطرابيش فوق رؤوس كل الطلبة والموظفين . العمائم فوق رؤوس رجال الدين وطلبة الأزهر . الطواقى واللاسات فوق رؤوس أولاد البلد والفلاحين والعمال . نسبة الجلابيب الى البنطلونات عشرون الى واحد . الأغنية المنتشرة في الأحياء البلدية هي « لابس بنطلون ليه يا أفندى وتنشخ منين ؟ » العمامة ليست محترمة . الأطفال يجرون وراء المعممين وهم ينشدون « شد العمة شد ! تحت العمة قرد ! » كثيرا ما ترى رجلا معهما يجري وراء أطفال ليضربهم عقابا على هذا النشيد الغريب . لم يكن « الأتوبيس » دخل المدينة . كانت عربات الترام شبه خالية . كثيرون كانوا لا يملكون أجر الركوب وهو ستة مليمات للدرجة الثانية وعشرة مليمات للدرجة الأولى . سيارات التاكسي قليلة . كان أول رقم يسجله العداد هو ثلاثة قروش . عربات الكارو في كل مكان . المقعد في العربة الكارو يكلفك مليما واحدا في مشوار من الجيزة الى العباسية . دور السينما قليلة . سينما متروبول وراء شيكوبيل وسينما عباس مكان سينما كوزمو في شارع عماد الدين حيث يوجد عدد من المسارح والأندية الليلية والبارات ، ومحل ساندوتش كبير ، وهو المكان الذي كان يقصده التوامان مرة كل اسبوع ليأكلا واحد ساندوتش بالزبد والمربى ويدفعان فيه قرشا واحدا ! كرسى اللوج في سينما متروبول في الحفلات النهارية بأربعة قروش ، وأجر المقعد في الصفوف الامامية قرش صاغ لا غير ، ثم البذلة الجاهزة للرجل مائة قرش ، وللطفل ثلاثون قرشا ، وغداء فاخر

عند الحاتى لا يكلف الفرد الواحد أكثر من تسعة قروش مع البقشيش . ثمن الجريدة خمسة مليمات ، أجر الخادم بين العشرين والخمسة والعشرين قرشا . كان مصروف على ومصطفى في تلك الايام قرشا صاغا في الاسبوع ! كانت متعة الطفلين أن يذهبا مرة كل ثلاثة اشهر الى مدينة الملاهى في مصر الجديدة في مكان سينما روكسى الآن والأرض التى حولها . كانت مليئة بالالعاب . قوارب تقفز من علو شاهق الى الماء . قطار سكة حديد يخترق ادغالا ويمشى تحت الماء . صينية تدور بسرعة ويقفز الواقفون فوقها الى الأرض . برج عال يتحلق عليه الأطفال فوق حصيرة عشرات الامتار . محلات لاصابة الهدف توزع هدايا عديدة . وكان لوناياك مصر الجديدة من اكبر مدن الملاهى في العالم في تلك الايام . وكانت كل هذه الألعاب لا تكلف الطفل أكثر من ثلاثة قروش !

وكان الطفلان يذهبان مرة كل شهر مع الحاج احمد خادم سعد الخاص الى « الباتيناج » وكان في المكان الذى تشغله الآن حديقة الأندلس على ضفاف النيل في الجزيرة . وكان اجر الدخول قرشا واحدا . وكانت منطقة الدقى والجزيرة مزارع خضراء يزرع فيها الخضار الذى تاكله مدينة القاهرة ، وكانت البيوت متناثرة في حى الزمالك ، وكان اغلب سكان الحى من الانجليز ، وكان عدد البيوت قليلا جدا في الجزيرة . وكان طاهر اللوزي بك زوج وهيبه ابنة أخت صفية زغلول يملك بيتا في الجزيرة فيه حديقة من عدة أفدنة ، كان الولدان يذهبان اليها ويلعبان فيها من وقت الى آخر . ولم تنجب وهيبه اولادا وكانت تغمر بحنانها وحبها واهتمامها كل طفل في الأسرة ، وكان لديها في حديقتها ألعاب ومراجيح تسعد الأطفال ، وكان الطفلان يعتبران ذهابهما الى هذا البيت يوما من ايام الاعياد . وفي الزمالك كانت تقيم السيدة عليبة ابنة عم صفية وزوجها على فؤاد سعد الديك بك . وكان اطفالها زكى وجاذبية وكمال وسعد اعز اصدقاء الولدين . وكان الأطفال في هذه الزيارة يتحولون الى شياطين صغيرة ، فكانت العابهم هى التسلق على مواسير المياه ، والقفز من النوافذ ، والملاكمة والمصارعة وكانوا يخرجون من هذه الزيارة السعيدة دائما بالجروح والخدوش .

وكان من السهل إذا رأيت الطفلين وهما في ضمادات كمشوهي الحرب أن تعلم انهما كانا في زيارة زكى سعد الدين وأشقائه . اما إذا كانت الزيارة في بيت الأمة فلا تحدث خسائر ولا خدوش ولا إصابات ، فلم يكن في استطاعة الأطفال أن يقوموا بالعباب طرزان في مركز قيادة الثورة ، حيث كانت تتابعهم باستمرار عيون صفية ورتيبة فيجلس الأطفال هادئين مؤدبين ، وقد ربعوا أيديهم فوق صدورهم متظاهرين بأنهم الملائكة الاطهار !

وكان الولدان يتربدان على حديقة حيوانات الجيزة . وكانا يقفان بذهول أمام قفص الأسد . وكانا يريان في ملامحه شيئا عجيبا بجدهما سعد . العينان تشبهان عيني سعد . الجبهة تشبه جبهة سعد . الأذنان صورة طبق الأصل من أذني سعد . مشية الأسد ذهابا وإيابا في قفصه تشبه مشية سعد في غرفته وهو مستغرق في التفكير . النظرة الغاضبة . النظرة الحزينة . حتى زئير الأسد تذكرهما بخطب سعد وهو يلقي خطبه الثائرة . وكان سعد يضحك كثيرا عندما يذكران له ملاحظتهما التي استرعت انتباههما في قفص الأسود . وكان يطلب اليهما أحيانا مازحا أن يحاولا أن يجدا شبيها في حديقة الحيوانات لكل فرد من أفراد الأسرة .

وعاد الولدان ذات يوم من حديقة الحيوانات وذهبا الى سعد وقالوا انهما وجدوا أن القرد يشبه أحد أفراد الأسرة .. وسالهما : من هو هذا الشبيه ؟ فقالا : تيزة أمينة هانم . واغرق سعد في الضحك . وكانت أمينة هانم صديقة عزيزة للأسرة . وكانت إذا زارت البيت جعلت كل شيء فيه يضحك . الرجال والنساء والأطفال . كانت سيدة خفيفة الروح تحمل البهجة الى كل مكان تجلس فيه . لا تكف عن الضحك والمداعبة والسخرية . ومن يسمع هذه السيدة تتكلم يتصور أنها أسعد امرأة في العالم . وكان والدها أغنى رجل في مصر . ورثت عنه قصرا كان يحتل المكان الذي بنى فيه ضريح سعد ، وجميع العمارات التي حوله الى شارع مجلس الأمة ! ثم تزوجت رجلا أضعاف هذه الثروة الطائلة على المائدة الخضراء ، واضطرت أمينة هانم أن تقيم في شقة صغيرة بإيجار زهيد . وانتقلت في ليلة واحدة من مليونيرة الى معدمة . ولم يحتل الزوج هذه الكارثة فمات كمدا . أما هي فقد استقبلت المصيبة الفادحة بسخرية الفيلسوف ! كانت تتحدث عن الثروة التي فقدتها كأنها أضاعت تذكرة ترام بستة مليمات . وعندما كانت في الستين من عمرها كانت روحها في العشرين . وكانت تقول ان لا شيء في العالم يساوي دمة واحدة من عينيها . وان الضحك يطيل عمر الإنسان والدموع تقصفه . وكانت تؤكد أنها سعيدة في غرفتها الصغيرة اضعاف ما كانت سعيدة في قصرها البائخ . وأنها سعيدة وهي تطهى طعامها وتخدم نفسها أكثر مما كانت سعيدة ولديها ثلاث وثلاثون خادمة وجارية وأغا . بل أنها سعيدة وهي أرملة أكثر مما كانت سعيدة وهي عروس ! وكانت فلسفتها ومرحها الدائم وضحكاتها التي لا تنقطع تسعد الذين يعيشون في بيت الأمة ، كأنهم يحملون هموم الأمة فوق رؤوسهم . وكان سعد يسأل عنها إذا غابت . ويستفسر عن صحتها إذا مرضت . وكان يقول فيها صمود ألف رجل !

و ذات يوم جاءت الى بيت الامة وقالت لسعد ان شابا من اصدقاء الاسرة
جاء لزيارتها في بيتها ، وانها دهشت لانه كان « يبصبص » لها !
واهتم سعد وسألها من هو هذا الشاب المجنون !
فكانت انه محمد خيرى .. وكان محمد خيرى هو ابن أحمد خيرى باشا
وكان صديقا حميما لسعد ورئيسا لتحرير جريدة الوقائع المصرية في عهد
اسماعيل ، وكانت امه صديقة حميمة لصفيّة . وماتت الام تاركة محمد وأخته
نعمت ، وكانت الاسرة تسميها « نيني » وكانت فتاة رائعة الجمال تعتبر في
تلك الأيام أجمل فتاة في مصر . ودهش سعد من ان شابا مؤدبا حسن التربية
« يبصبص » لامينة هانم وقد كانت في عمر جدته .
ومضت امينة هانم تقول -جادة :

— لقد كان محمد خيرى في أوروبا ، وزارنى لمناسبة عودته من السفر ،
ولاحقت طوال جلوسه معى انه كان ينظر الى ، وعيناه « تبصبسان » لى ،
وقلت له وانا اضرب يدى على صدرى :

— يا ندامة يا محمد .. اتعلمت البصبصة في أوروبا !

ولم يرد محمد ، بل استاذن وانصرف .

وغضب سعد وارسل في استدعاء محمد خيرى .. وما كاد يراه حتى أغرق في
الضحك كان محمد خيرى قد أصيب بحالة عصبية اثناء وجوده في أوروبا
جعلته يفتح عينيّه ويغلقهما باستمرار ، فاعتقدت امينة هانم انه
« يبصبص » لها ! وكان محمد خيرى شاعرا ممتازا باللغة الفرنسية .
ثم حدثت في الوقت نفسه مأساة هزت بيت الامة ، فإن شقيقته نعمت خيرى
تزوجت شابا من الاثرياء هو عزيز علوى بك ، وكانت تسافر معه كل عام الى
أوروبا . وكانت تهوى مثل شقيقها نظم الشعر باللغة الفرنسية .
وفي مدينة لوزان بسويسرا ، وفي فندق سافوى ، قدم الشاعر محمد خيرى
صديقه الشاعر الألماني رينر ماريا ريلكه الذى أصبح فيما بعد من اعظم
شعراء القرن العشرين الى شقيقته نيني !

وما كاد الشاعر ريلكه يرى عيني نعمت علوى حتى جن بهما ، ودعاها الى
ان ترقص معه رقصة الغالس ، وقال لها وهو يخاصرها على انغام الموسيقى
الهادئة « هاتان العينان هما اللتان كنت ابحث عنهما طول حياتي » !
والتصقت نعمت به وهى تسمعه يتكلم ! لم تعد تسمع الموسيقى ،
وإنما كانت تسمع شعرا في جمال عينيها ، وعندما انتهت الرقصة كانت قد
أحبته ، وكان قد عبدها !

وقالت له انها أحبته قبل أن تراه . أحبته من قصائده . أحست كأنه كان
يحدثها هى .

ولم ينم الشاعر الليل . في الصباح كان يدق باب نعمت ومعه قصيدة يصف فيها جمالها . ومعه قصيدة أخرى قال لها انها طلب استخدام في وظيفة خادم في قصر قلبها الملكي ! وفي القصيدة يقول :

في اجفائي عرق نبل خالد . نظرتني الحالة فيها جزع طفولتي . تواضعي اسم مستعار لابائي . اضع نفسي في خدمة فائتة ساحرة . في تواضع ليس تواضع خادم صغير النفس . في كبير صامت . وانفاسي تنطق بالهوى والحب . جبينى مرفوع ولكنه ينحني للجمال في صمت وكنمان !

ولكن الشاعر لم يبق طويلا خادما في قلب المصرية الحسنة . انه اصبح صاحب الجلالة حاكم القصر الوحيد . وقررت نعمت على الفور ان تتطلق من زوجها المصري الثرى ، وتعيش مع الشاعر العاشق !

ووصل النبا الى سعد فاعتقد ان نينى قد جنت ! وذهب شقيقها محمد خيري اليها يقول لها ان سعد باشا غاضب اشد الغضب ، وانه يامرها بان تعود فورا الى القاهرة ، وهو يطلب هذا باعتباره صديق والذما ، وباعتباره زعيم الأمة . ولان فرار فتاة مصرية من اسرة كبيرة مع شاعر الماني فيه اهانة لتقاليد المصريين ودينهم .

وقالت نعمت : ان حبي هو زعيمى ! ولو ان سعد باشا ذاق الحب لما طلب منى هذا المستحيل !

وغضب سعد لهذه الاجابة واصدر امره الى الاسرة بالا ترد على اى خطاب ترسله نعمت ، وكانت نعمت تراسل الاسرة اسبوعيا !

ثم حدث ان كان سعد وصفية في باريس ، وذهبت نعمت الى الفندق الذى يقيمان فيه لتقابلهما ، ولكنهما رفضا مقابلتها ! ولم تهتم نعمت بغضب زعيم الأمة فمضت في حبها وعشقها للشاعر الماني .

ومات الشاعر فجأة في عام ١٩٢٦ . واصيبت نينى بصدمة عصبية ، وخاصة عندما قيل انه مات بمرض حملته إليه من زوجها السابق . واعتكفت الفتاة الجميلة لا تقابل احدا ولا تتكلم مع احد . وحدث ان رآها الممثل السينمائى شارلى شابلن فجن بعينيتها . واراد ان يتزوجها ، وكان في ذلك الوقت صاحب ملايين ، وصاحب شهرة عالمية ، ولكنها رفضت ان تتزوجه . وقالت ان الجسد الذى التصق بالشاعر ريلكه لن يلتصق ببرجل آخر مدى الحياة ! وكتب شارلى شعرا وقطعة موسيقية اهداهما الى نعمت ، ولكن قلب نعمت بقى مغلقا .

ثم ادمنت فجأة شرب الخمر ، وكانت تقول انها تشرب لكي تموت وتلتحق بحبيبها الشاعر ، ولكنها لم تمت ، ثم عرفت اميرا روسيا اسمه الامير نيكولاى منشرسكى . واحبت فيه انه كان معجبا مثلها بالشاعر ريلكه !

وتزوجته ، وبعد أسابيع قامت الحرب العالمية ، ومات فيها ، وبقيت نعمة
في أوروبا تعيش مع صوره وقصائده الى أن لفظت النفس الآخر . وكانوا
يسمونها في نورماندى « الشاعرة المصرية المجنونة » ، إذ كانت لا تتكلم
إلا بقفات من قصائد ريلكه التى وصف فيها حبهما !

كان سعد يعتبر نينى قد ماتت يوم طلبت الطلاق ، فقد كان الطلاق في نظره
جريمة كبرى ، وكان يفخر بأنه لم يقع حادث طلاق واحد في أسرته منذ مائة
عام ! وكان لنينى عدة صور في بيت الأمة أحرقت كلها ، وأصبح ذكر اسمها
محزنا ، فإن حب امرأة مسلمة لرجل مسيحي كان في تلك الأيام دليلا على أن
يوم القيامة قد اقترب ، وأن هذا من علامات الساعة .
وفي تلك الأيام وقع حادث آخر .

كان لصافية زغلول ابنة أخت هى منيرة ابنة إسماعيل سرهنك باشا وكيل
وزارة الحربية سابقا وتقدم لخطبتها الشاب على كامل فهمى ، وكان مليونيرا ،
بل كان يعتبر أغنى شاب في مصر في تلك الأيام . وتمت الخطبة . وكانت
التقاليد يومها أن يحتفل بتقديم الشبكة .

ويذكر الولدان كيف أن العريس لم يحضر وحده يحمل الشبكة بل أحضر
معه عشرين خادما ، كل خادم يرتدى بذلة الرونجات ، ويحمل صندوقا من
الفضة فيه بعض المجوهرات . وبدا كان الشاب المليونير اشترى محلا كبيرا
للمجوهرات وقدمه لمنيرة كشبكة !

ثم جاء من يقول لسعد انه رأى الخطيب الشاب في سيارة واحدة مع إحدى
ممثلات كشكش بك وهو الاسم الذى كان يطلق على نجيب الريحاني . وقامت
الأسرة وقعدت . كيف يجرؤ الخطيب على الظهور مع امرأة في الطريق العام
بعد أن خطب ابنتهم . وليست امرأة فقط بل إحدى ممثلات فرقة كشكش بك !
وتقرر فسخ الخطبة . وجن جنون الشاب المليونير . وطلب مقابلة سعد
لفرض مقابلته . وأرسل الوسطاء لمحاولة اقناع الأسرة باستمرار الخطبة ،
وعرض أن يتبرع بمبلغ ضخم جدا للوفد ، ولكنه أجيب بالرفض البات ،
واعيدت اليه كل مجوهراته وكل هداياه !

ولم يطق على كامل فهمى الحياة في مصر بعد هذه الصدمة ، فسافر الى
باريس ، وهناك التقى بسيدة انجليزية اسمها مرجريت ، وقرر أن يتزوجها ،
على أن تعتنق الدين الاسلامى ، وتسمى نفسها « منيرة » باسم الفتاة المصرية
التي فسخت خطبتها له بالرغم منه .

وبعد شهور قليلة تشاجر على كامل فهمى مع زوجته الانجليزية فأخرجت
مسدسا وقتلته وقدمت القاتلة الى المحاكمة .. وإذا بالمحكمة تتحول من

محاكمة القاتلة الى محاكمة القتل ، واستطاع المحامى الانجليزى الكبير سير مارشال أن يثير المحلفين على وحشية المصريين وحيوانيتهم وإذا بالمحاكمة تقر براءة القاتلة ! وضابق هذا الحادث سعد ، وكان يتساءل دائما بعد ذلك ، ترى لو كانت الاسرة صفحت عن على كامل فهمى لهذا النزق العارض لما انتهت حياته بهذه النهاية المفجعة !؟

ولكنه مع ذلك بقى مصرا على انه لا يجوز للشباب بعد ان يخطب امرأة ان يخرج الى الشارع مع امرأة اخرى .

كانت التقاليد صارمة في تلك الايام . وكانت صفية ورتيبة مثلا تعتبران الفناة التى تشرب فنجان قهوة او تدخن سيجارة فتاة قليلة الادب .. ولكن بعد الزواج من حقها ان تشرب فنجان قهوة وتدخن سيجارة ! وكانت صفية ورتيبة لا تدخن ، وكان سعد مدمنا على التدخين ، ثم قال الطبيب ان التدخين مضر بصحته فاشعل سيجارة ثم اطفأها وهو يقول هذه آخر سيجارة ادخنها في حياتى ! ومكث بعد ذلك عشرين عاما لا يدخن سيجارة واحدة الى ان مات ! ولكنه كان لا يطيق ان يرى احدا يدخن سيجارة وهو جالس معه ، فقد كان يشعر بالاختناق ، او لعل ارادته كانت تهتز عندما يستنشق دخان السجائر !

وكان من التقاليد الصارمة انه لا يجوز لفاتة ان تضع ساقا على ساق في حضرة من هم اكبر منها . فإذا فعلت ذلك فهو فعل فاضح في الطريق العام . وهو دليل اكيد على سوء سلوكها وفساد خلقها ! وإذا حدث ان دخلت سيدة كبيرة السن الى الغرفة فيجب ان يقف كل من كان اصغر منها تحية لها . فإذا كررت الدخول والخروج عدة مرات تحتم ان يتكرر الوقوف عدة مرات . وقد كان من عادة صفية ان تدخل وتخرج من الغرفة عشرات المرات ، وكان الولدان في بعض الاحيان يقفان تحية لها ثلاثين مرة في الساعة الواحدة ! ويتكرر نفس الشئ مع امهما ، ومع كل افراد الاسرة الذين يكبرونهما في السن !

ومن العادات التى كانت شائعة أيضا انه لا يجوز للمرأة ان تمشى وحدها في الشارع . يجب ان يتبعها خادم ، فإذا كانت مع زوجها ، تعدد ان يمش أمامها ، وتمشى هي وراءه ، ولكن نعرف كيف كان مركز المرأة بالنسبة للرجل ! تلك الايام ، نذكر ان صورة الزفاف لسعد وزغلول وصفية قد ظهر فيها العريس سعد جالسا على مقعد والعروس صفية واقفة وراءه ! وكل صور سعد التى التقطها مع صفية في مصر كانت هي واقفة وهو جالس .. ولكن بعد الثورة بدأت صفية تظهر في الصور الفوتوغرافية وهي جالسة بجوار سعد ! وعندما رفع سعد الحجاب عن وجه ابنة الشيخ على يوسف في احدى حفلات بيت

الامة انطلقت السيدات الى تقاليدھا فرفعن الحجاب ، ولم يصدق الرجال أن سعد زغلول رفع بيده الحجاب ، ومن ثم بدأت الخلافات تدب في كل بيت مصرى بين كل زوج وزوجته وابنته بسبب هذا الحجاب الذى بدأت السيدات وبناتهن يتخلصن منه ! وسمع سعد بهذا الخلاف فانتھز احتفالا كبيرا حضره عشرات الألوف في سرادق كبير بجوار بيت الامة .

ووقفت الأنسة فكرية حسنى تلقى خطابا وعلى وجهها حجاب .. وتقدم سعد امام الألوف ، ورفع الحجاب عن وجه فكرية ولم تتمالك الجماهير نفسها أن صفتت استحسانا .. وأصبح هذا امرا من قائد الثورة بنزع الحجاب !

وعندما وقع الصراع بين عدلى وسعد ، انضمت النساء الى سعد زغلول ، حتى ان على شعراوى باشا انضم الى عدلى .. وإذا به يفاجأ بان زوجته هدى شعراوى تؤيد سعد وتهاجم خصومه ومنهم زوجها !

والواقع أن انصار سعد على عدلى في هذا الصراع اذهل خصوم سعد ، فقد حدث أن انضم عبدالفتاح يحيى باشا الى مؤيدى عدلى ، وإذا به يفاجأ بابيه احمد يحيى باشا يعلن تأييده لسعد ! ورفض محمود سليمان باشا أن ينضم الى ابنته محمد محمود باشا في تأييد عدلى ، وبقي مؤيدا لسعد .. واشتد الخلاف بين الابن وابيه ، وإذا بمحمود سليمان باشا يستقل ذهبيته من القاهرة الى اسبوط ويبقى فيها عدة سنوات لا يغادرها الى القاهرة إلا بعد أن اثكلت محمد محمود باشا مع سعد في عام ١٩٢٦ وتركت بعض الزوجات بيوت أزواجهن احتجاجا عليهم لأنهم أيدوا عدلى !

وحدث أن ذهب عبدالعزيز فهمى بك أحد زعماء المنشقين من أعضاء الوفد ليتناول غداء في مطعم « يونيون » في الاسكندرية .

وطلب عبدالعزيز فهمى من أحد الخدم النوبيين طعاما .. وإذا بال خادم النوبى يقول : انا لا اقدم لرجل يهاجم سعد زغلول !

وثار عبدالعزيز فهمى على الخادم النوبى ، وجاء اليونانى صاحب المطعم يعتذر لعبدالعزيز فهمى وينهر الخادم الذى اصر على موقفه .. ويهدده صاحب المطعم بالطرد ولكن الخادم النوبى تمسك براهيه واصر على رفض خدمة عبدالعزيز فهمى .

وخرج عبدالعزيز فهمى ثائرا من المطعم . وصدر امر محافظ الاسكندرية بإغلاق مطعم « يونيون » ، وبقي المطعم مغلقا ثلاثة ايام الى أن تدخل قنصل اليونان في الاسكندرية ففتح المطعم من جديد !

وادى موقف الشعب الى فشل السلطان واللورد اللبني في تأليف وزارة مصرية بعد استقالة عدلى يكن .. فلم يجرؤ مصرى واحد على أن يؤلف

وزارة ، وراح السلطان فؤاد يقول للورد اللنبى : لم اعد سلطانا ! ان سعد زغلول أصبح هو السلطان ! اصبخ نائب الملك ! انه هو الذى يعين الوزارات ويقتل الوزارات !

وطلب اللورد اللنبى من عبدالمخالق ثروت باشا تاليف الوزارة فقال له : لا أستطيع ! كل وزير اعرض عليه الوزارة يرفض ويقول ان إشارة من اصبح سعد قادرة على اسقاط أى وزارة ! لا يمكن ان أولف وزارة وسعد فى مصر ! ويعترف اللورد اللنبى فى رسالته لوزير الخارجية البريطانية بأن سعد زغلول يكسب باستمرار !

ويستطرد فى رسالته قائلا : « كان إستقباله فى القاهرة اعظم استقبال لرجل فى القرن العشرين . ان ضربة كضربة عرابى متوقعة من سعد زغلول الآن ! اننى أريد اعتقاله ونفيه الى بعض الاملاك البريطانية وراء البحار . لا ينبغي ان نسمح له بالذهاب الى أى مكان فى أوروبا . امس كانت القاهرة مسرحا للاضطرابات بمناسبة عودة مكرم عبيد من لندن . ذهب سعد وقابله فى المحطة . هتفت الجماهير بحياة سعد وسقوط بريطانيا . فى المساء ضرب جنديان انجليزيان فى القاهرة . مات احدهما . وجرح الثانى . عجزنا عن القبض على القتلة . ساعد اليوم امرا بمنع سعد زغلول من كل اشتراك فى السياسة . اصدرت امرا الى كبار انصاره ان يلزموا بيوتهم »

كان ذلك فى يوم الخميس ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢١
اضرب طلبة مدرسة المعلمين العليا وخرجوا فى مظاهرة الى بيت سعد . وكانت مدرسة المنيرة الابتدائية ملاصقة لمدرسة المعلمين فإذا اضرب طلبة المعلمين العليا اضرب معهم تلاميذ مدرسة المنيرة دون ان يسالوهم لماذا يضربون ؟ وكانت المظاهرة تهتف بحياة سعد والثورة وسقوط الانجليز . ومشى الولدان فى المظاهرة يرددان بقوة الهتافات .. وذهب المظاهرة الى بيت الامة وهتفت لسعد فخرج اليها ودعا الشعب لاستئناف الثورة على الانجليز .. وعندما رأى سعد الولدين بعد ذلك سالهما : لماذا تركا المدرسة ؟

فقال الولدان : اضرب التلاميذ فاضربنا !
وضحك سعد وقال : ألم تسالا عن سبب الاضراب ؟
قال الولدان : إتنا لم نرد ان نخرج على الاجماع !
قال سعد : من الغريب ان الأطفال لا يريدون يخرجوا على الاجماع ، وبعض الرجال يخرجون على هذا الاجماع !
وجاء الحاج احمد خادم سعد الخاص يقول له ان ضابطا انجليزيا يقول انه وكيل حكمدار بوليس القاهرة يطلب مقابلته . ونزل سعد من الطابق العلوى وذهب الى السلاسل وهو يضحك ويقول :

— لقد وحشنا الانجليز ! مضى على مدة طويلة لم أرهم ! لابد انه جاء ليقبض على ! الشعب محتاج لبطش جديد ليحدث انفجار جديد ! وعندما دخل مكتبه طلب من سكرتيه الخاص أن يسأل وكيل الحكمدان عن سبب حضوره .. وبعد دقائق صعد سعد الى الطابق العلوى مرة أخرى وفي يده خطاب وهو يهقه بصوت عال ! ووقف سعد يقرأ لزوجه ورتيبة والولدين الخطاب الذى يجعله يضحك حتى تدمع عيناه من الضحك . وإذا بالخطاب يقول :

« سعد باشا زغلول ممنوع بهذا الامر من القاء الخطب ، ومن حضور الاجتماعات العامة ، ومن استقبال الوفود ، ومن الكتابة في الصحف ، ومن الاشتراك في السياسة وعليه أن يغادر القاهرة فوراً . وأن يقيم في مسكنه بالريف تحت مراقبة مدير المديرية »

قالت له صفية في دهشة : وما الذى يضحكك ؟

قال سعد : ان اللورد اللبني وقع هذا الانذار بقوله : « ولى الشرف أن اكون خادكم المطيع - اللبني » ! هذا هو النفاق الانجليزى الاصيل ! يقبض بيديه على عنقي ليخنقنى ويؤكد لى فى الوقت نفسه انه خادى المطيع !

قالت صفية : وبماداً سترد على خادك المطيع !

قال سعد : ليس عندى سوى الرد الوحيد وهو الرفض !

وكتب سعد على الفور رداً يقول فيه : « ان هذا أمر ظالم أحتج عليه بكل قوتى ، إذ ليس هناك ما يبرره ، وبما انى موكل من قبل الامة للسعى فى استقلالها ، فليس لغيرها سلطة تخلينى من القيام بهذا الواجب المقدس . ولهذا سابقي فى مركزى ، مخلصاً لواجبى ، وللقوة أن تفعل بنا ما تشاء افراداً وجماعات ، فإننا جميعاً مستعدون للقاء ما تاتى به ، بجنان ثابت ، وضمير هادىء ، علماً بأن كل عنف تستعمله ضد مساعيئنا المشروعة إنما يساعد البلاد على تحقيق امانئها فى الاستقلال التام »

وكان الأستاذ عبدالقادر حمزة قد حضر اللحظة التاريخية التى رفض فيها الانذار البريطانى وكتب يقول : « دخلنا على الرئيس فوجدناه جالسا على كرسى فى وسط القاعة ، والى يمينه وأصف بك غالى واقفا يداعب سلسلة ساعته كما هى عادته ، وإمامها مصطفى النحاس بك جالسا الى منضدة فى وسط القاعة ، يكتب ما يمليه عليه الرئيس ، وبجانبه صادق بك حزين واقفا يتكئ بيده اليسرى على كرسى النحاس بك ، ويتابع بعينه ما يخط القلم . ولقد كنا كلنا شاعرين برهبة الموقف ، وكان سعد باشا منصرفاً الى الاملاء ، فلم نحى ، ووقفنا صفاف بين النافذة والباب الصغير ، فكان على يمينى فتح الله باشا بركات فالأستاذ نجيب الغرابى ، فعاطف بك بركات ، وكان على يسارى الأستاذ

أمين عز العرب ، فسينوت بك حنا . لكن هذا الاخير لم يقف إلا قليلا ، ثم اخذ كرسيا وجلس قريبا من المنضدة ، والنحاس بك .

« لم نحى ، ولكن الرئيس نظر الينا ساعة دخولنا ، وقال تعالوا اشتركوا معنا ، ثم استمر يملئ ، وما كانت هذه اول مرة رأيته فيها يملئ ، فكاننا تسكت الطبيعية من حوله لتنصت ، ولكننى فى هذه المرة شعرت كاننا يحيط بنا سكون هو الخشوع ، ولا غرو فقد كان ظاهرا أن السياسة البريطانية ، وقد توعدت فى تبليغها أن تحارب الحركة الوطنية حتى تقتلها ، شهرت اليوم سيفها ، ليس بين اللورد اللتنبى وسعد باشا ، بل بين انجلترا ومصر . انجلترا بكل ما فى يدها من بطش القوة المادية ، ومصر بكل ما فى قلبها من الايمان بحقها ، وما فى نفوس ابنائها من العزم والجلد .

« كانت ساعة ينطق فيها سعد باشا « بنعم » فيسجل على روح مصر الغلبة والرضى بالخوف والهزيمة ، او ينطق « بلا » فينزهاها عن الضعف ويثبت لها القوة والشمم . ولقد اجاب سعد فقال « لا » فكان بطلا . وكانت به مصر شهمة ، كتب التاريخ لها فى يومها ذاك سطرا من ذهب .

« ولعل كثيرا من الذين يقفون بعيدا يقولون وهل كان لسعد باشا أن يجيب بغير ما اجاب به حتى تكون فى جوابه بطولة . فهؤلاء انما يقولون ذلك لانهم واقفون بعيدا لا يسهم ضر . ولا تنزل بهم نازلة ، اما لو انهم كانوا مكان سعد باشا ، وهو يعلم انه الهدف الذى تريده السياسة البريطانية ، وتنتحل الاعذار كلها لضربه ، ثم هو شيخ ضعيف البنية ، مضطر أن يعيش بنظام طبى خاص ليحافظ على صحته ، أقول لو أن هؤلاء الواقفين بعيدا كانوا مكانه ، ثم فكروا فى أن كلمة « لا » معناها فتح الباب واسعا لظلمات مجهولة ، لا يعرف لها كنه ولا حد ، لعلموا مقدار ما فى جوابه من الرضى بالتضحية ، ولكن الجواب ليس تضحية فحسب ، بل هو فوق ذلك بسالة ، وقفت بها مصر الصغيرة العديمة النصير ، المجردة من السلاح ، امام انجلترا المسلحة وسيدة العالم ، تهزأ بقوتها وسلاحها وتقول لها ما كنت لاجبن ولا لأخضع . « أمل سعد باشا ، ثم لما كانت فكرتى أن يكون الرد احتجاجا ، يتلوه فيما بعد السفر الى العزبة ، ظهر غرضى هذا فى ملاحظاتي . وحينئذ توقف سعد باشا عن الاملاء ، لأن كل الموجودين تقريبا جادلونى بسرعة ، وانى اقول تقريبا لانى لم اجد غير واحد هو الذى وافقنى ، وقد كانت موافقته لى سلبية محضة ، لا يصاحبها شيء من التأييد .

« أما الرئيس فانتظر كيف كان موقفه ، انه رفع راسه كمن يتقدم لمصادمة الحوادث ، ويأبى أن يعتريه فى مصادمها وهن أولين وقال :

— انتم شبان لا ياخذكم الضعف الذى قد ياخذ الشيوخ فى ملاقاته
الخطوب ، فالراى لكم ، وانا عندما تتفقون عليه ، ولكن اعلّموا اننى
لا يمسنى ضعف ، ولا تميل نفسى لأن أستبقى بقية من التضحية الواجبة .
« جرت المناقشة ، وكانت قصيرة فقال النحاس بك وسينوت بك فى صوت
واحد : يجب ان يكون الجواب رفضا محضاً ، وعلى اللورد اللئبى ان يتخذ
امره بالقوة .

قلت : الاتخشيان ان يعد الرفض مخالفة لأمر صادر من السلطة
العسكرية ؟

فقالا بشدة : ليكن ذلك فليس فى وسع الرئيس ان يجيب بغير الرفض .
« وانضم اليهما الباقيون كلهم ، إلا فتح الله باشا فقد بقي ساكناً ، وهو
الذى قلت انه وافقنى فى كلمة اسرها إلى ، ولكنه لم يؤيدنى .
« وافق ان امر واصف بك امامى فقلت له همسا : ألا ترى ان هذه آراء
خطرة ؟

« فاجاب واصف غائى بلا تردد : وهل نحن هنا إلا لذلك ؟
« وفى هذه اللحظة دخل الأستاذ مكرم عبيد فالتقى فى الموضوع براهى حاسماً
قوياً ، وبه انتهت المعركة واقتل الجدل .. قال وكأنه يخطب فى قوم يريد ان
ينقل الى صدورهم ما فى صدره من النار المتقدة :

« لا جواب غير الرفض . ان العالم هنا وفى أوروبا يتقرب الآن ما يفعله
الرئيس . ليات الجنود ، ولينتزعه بسلاحهم من دأره ، كى يكون التضحية
المائلة فى كل وقت إتمام أمته .

« وبعد كل هذا لم يبق إلا ان يقول الرئيس كلمته ، فتأله ما عشت لا أنسى
نظرته إلينا إذ ذاك ، نظرة الجندى الفتى ، لا نظرة الشيخ المتعب ، وهو
يقول بصوت مملوء حزماً وقوة :

« شكراً لكم .. لقد أصبتم ما فى نفسى ! فلنكتب الجواب ، وليذهب به
الرسول ،



عاش الولدان أربعاً وعشرين ساعة غريبة . كان سعد مرحاً أكثر مما كان فى
يوم من الأيام . كأنه طفل صغير فى طريقه الى مدينة الملاهى ، وليس رجلاً مسناً
مهتماً مريضاً فى طريقه الى رحلة الموت . ان الخطر بالنسبة اليه أشبه بجرعة
من اكسير الشباب . التجاعيد اختفت من تحت عينيه . صوته المتهدج أصبح
صوتاً شاباً . لم يعد يصعد درجات السلم وهو يتكىء على الدرابزين . كان يدا
سحرية خلقتة من جديد . لأول مرة لم ينم بعد الظهر . كان كل حديثه

الساخر عن « خادمه المطيع » الذى سيجىء ليقبض عليه ويذهب به الى
المجهول . جلس يبدل ويغير فى القائمة التى كتبها قبل الثورة لأسماء الطبقات
التي يتألف منها الوفد . بعض الأسماء التى وضعها قبل الثورة شطبها . أنهم
خذلوه وانضموا الى عدلى وفريق المعتدلين . كتب قائمة جديدة . وضع فيها
أسماء سبعين فردا . يؤلفون عشر طبقات للوفد ، كل طبقة مؤلفة من سبعة
اعضاء . إذا أعدم طبقة أو نقيت أو سجن حلت على الفور الطبقة التالية .
كتب أسماء على ماهر ومصطفى النحاس وفتح الله بركات وعاطف بركات
وسينوت حنا ومكرم عبيد . وواصف غالى وويصا واصف وجورج خياط وحمد
الباسل باشا ومراد الشريعى بك وعلى الشمسى ومحمد علوى الجزار
وعبدالقادر الجمال باشا ومرقص حنا بك والمصرى السعدى باشا والسيد
حسين القصبي وفخرى بك عبدالنور والدكتور حسن كامل ومحمد صدقي باشا
المستشار فى محكمة الاستئناف وعبدالستار الباسل بك ومحمد نجيب الغرابلى
وسلامة ميخائيل بك وصادق حنين بك وأمين عز العرب والشيخ مصطفى
القاياتى والدكتور محبوب ثابت وحسن حسيب باشا والأميرالاي محمود
حلمى اسماعيل وأبراهيم راتب بك وراغب اسكندر وعبدالحليم الببلى
ومصطفى بكير بك وغيرهم .

وسلم سعد القائمة الى الدكتور أحمد ماهر وقال له انه لم يضع اسمه
ولا اسم النقراشى ، لأنه يريد أن يبتعد زعماء الجهاز السرى عن التنظيمات
العلنية للوفد .

ولم يصبح كل هؤلاء أعضاء فى الوفد ، فإن على ماهر بك مثلا رفض أن يبقى
فى الوفد ، وكان سعد يعتقد انه لن يخرج من الوفد فى يوم من الأيام ، وكان
يتصور انه سيكون رئيسا للوفد بعد وفاته ! ولم يغفر سعد بعد ذلك أبدا لعل
ماهر انه خرج على الوفد ! واعتذر عبدالقادر الجمال باشا « سر تجار مصر »
من عدم دخوله الوفد لكثرة أعماله التجارية ، واعتذر محمد صدقي باشا من
عدم دخول الوفد أيضا لأنه لا يريد أن يذهب بقدميه الى المشنقة ، واعتذر
محمد يوسف بك كذلك لأن حالته الصحية لا تسمح له بالنفى والاعتقال ،
وكان سعد يقدره كثيرا فقد كان محاميا فى مكتبه عندما كان يشتغل بالمحاماة
وكان وكيله فى قضاياها ، وكان شقيقه عثمان يوسف بك القاضى من انشط
اعضاء الجهاز السرى .

ورفض أعضاء الوفد قبول عضوية صادق حنين بك وأمين عز العرب بك
اللذين أوصى سعد باختيارهما ، لأنهما قبل الانذار البريطانى ولزما داريهما .
وجضر الدكتور محبوب ثابت جلسة واحدة فى الوفد ثم اختلف مع الأعضاء
وسافر الى الاسكندرية .

وكان الذين اختارهم سعد هم الذين لعبوا أدوارا بارزة في أثناء ثورة ١٩١٩ والذين وقفوا بجواره خلال المعارك المتوالية . وبعد أن انتهى سعد من كتابة قائمة أعضاء الوفد كتب خطابا عاطفيا إلى جاره حمد الباسل باشا يدعو إلى العودة إلى الوفد ، ورياسة جلساته ، ويناشده أن ينسحب الخلاف الذي بينهما ، ويقول له أنه مطلوب من الوفد الجديد أن يبدأ ثورة جديدة تدعو إلى سياسة عدم التعاون مع الإنجليز ومقاطعتهم كأفراد ، وتجاهلهم في الوزارات والمصالح ، ومقاطعة البضائع الإنجليزية والبنوك الإنجليزية والسفن الإنجليزية وشركات التأمين الإنجليزية والتجارة الإنجليزية ، وكلف سعد خادمه الحاج أحمد أن يسلم هذا الخطاب إلى حمد الباسل باشا ولا ينتظر ردا .

ثم قابل سعد بعد ذلك رجلا غريبا . رجلا معمما في الستين من عمره . له لحية بيضاء ويرتدي الملابس البلدية . وسلمه مذكراته السرية فربطها على بطنه . وظهر فيما بعد أن الرجل الذي ائتمنه سعد على هذه المذكرات هو الشيخ جاد الله العامل في العنابر ، والذي تبين بعد ذلك في قضية الاغتيالات أنه كان رئيس خلية العمال التي تغتال الإنجليز أثناء الثورة ! وبينما كان سعد يضع خطة الثورة لمن يجيئون بعده ، شق الهدوء صوت كالرعد القاصف . أن شارع سعد زغلول والشوارع المجاورة سدت بعشرات الألوف من الرجال والنساء يهتفون بحياة سعد وسقوط الإنجليز . ارتفعت الأصوات تقول : « نحن فداء سعد ! نحن وراءك يا سعد ! .. مصر كلها تقول معك للإنجليز لا » !

وذهل سعد . كيف عرفت هذه الألوف المؤلفة بالإنذار البريطاني وبرفضه الإنذار . أن النبا سرى في المدى كالبرق . فخرجت القاهرة ترتجف كلها إلى بيت سعد . الأصوات ترتفع غاضبة . الأيدي تلوح مهددة متوعدة . الهتافات تعلن الإنجليز وبرادع الإنجليز . الألوف ينادون بالثورة . الثورة . الثورة ! وخرج سعد إلى الجماهير وقال لها :

البركة فيكم ! أنى عرفت مصيرى ، ولست مهتما إلا بكم . أنتم الذين ستعاونون الشدائد . أننى واثق كل الثقة برجولتكم . الإنجليز يستطيعون أن ينفوا سعدا ولكن لن يستطيعوا أن ينفوا شعبا بأكمله . يستطيعون أن يقتلوا سعدا . ولكنهم لن يتمكنوا من أن يقتلوا أمة بأسرها . ولو بقي في هذا الشعب فرد حر واحد فلن يستطيع الإنجليز أن ينتصروا على مصر ، كل ما أريد منكم أن يكون شعاعكم هو الاستقلال التام أو الموت الزؤام ! ثم أدار سعد ظهره ورجع إلى البيت وقد أصيبت الجماهير بحالة من الهستيريا والجنون وهي تنادى :

— الشعب سوف ينتقم لك يا سعد !

وفجأة ارتفعت الهتافات من جديد . ان حمد الباسل باشا وكيل الوفد الذى انشق على سعد ، جاء ماشيا على قدميه ، بعباءته البدوية ، وبطربوشه المغربى ذى الزر الأزرق ، وهو يشق طريقه الى باب بيت الأمة . وما ان رآه سعد حتى عانقه وقال له حمد الباسل :

لولم ترسل لى رسالتك لجئت اليك أيضا ! لقد جئت إليك فى ساعة الخطر ، لأننى اعتبر الاعتداء عليك هو اعتداء على هذا الشعب كله ، فانت زعيم الأمة ، وأنا اضع نفسى تحت تصرفك .

وانطلقت المظاهرات الغاضبة تهتف للثورة ، تحطم مصابيح النور ، تحطم عربات الترام ، تخلع الأشجار من الشوارع ، تحملها تلوح بها داعية للانتقام .

وخرج الانجليز فى طوابير مسلحة ومعهم الأميرالاي محمد شاهين بك يقود فرقة من الفرسان ، وهاجمت المتظاهرين ، وسقط قتلى وجرحى ، وبعد ساعات كان جرس التليفون فى بيت الأمة لا يكف عن الرنين يحمل انباء من كل القطر بأن مظاهرات قامت تحتج على ائذار لورد اللبى الى سعد ، الذى لم ينشر فى الصحف ، ولم يطبع بعد فى منشورات !

كانت سرعة تحرك الشعب فى ذلك اليوم غريبة ! لقد احتاج فى عام ١٩١٩ الى يوم كامل حتى يتحرك ، ولكن كيف تحرك الشعب هذه المرة بسرعة مذهلة ، بعد دقائق من رفض سعد للانذار البريطانى .

وكان سعد جالسا يسمع انباء الثورة .. وفى اول الامر اخفوا عليه الانباء خشية ان يتأثر .. ولكن لم يلبث ان عرف بانباء سفك الدماء فقال :

ان هذا الرصاص الذى يطلقه الانجليز أشبه بالموسيقى !
ان كل شىء عظيم يجب أن تسبقه طلقات المدافع ! كل رصاصة يطلقها الانجليز سوف تصيب نفوذهم وهيبتهم وقوتهم فى هذه البلاد !
اهلا بالرصاص ! انه بداية النصر !

ونامت القاهرة فى الظلام . لا يوجد صباح واحد مضى ! لا توجد شجرة فى شارع ! اختفت الحياة من المدينة . نزلت المدينة كلها تحت الأرض لتعد للثورة القادمة !

وفى صباح يوم الجمعة ٢٣ ديسمبر حاصر الجيش البريطانى منطقة الانشا حيث يوجد بيت الأمة . سيارات مصفحة تمنع المرور . جنود انجليز يحملون المدافع يسدون الشوارع وقد اتجهوا بفوهة بنادقهم نحو السائرين فى الطريق . كتيبة انجليزية تقف بمدافعها وبنادقها فى شارع القصر العينى

على ناصية شارع سعد زغلول . كتيبة ثانية تحتل شارع الفلكي ، كتيبة ثالثة في شارع ناظر الجيش خلف بيت سعد . كتيبة رابعة تحتل الأرض الفضاء المجاورة لبيت سعد . الجنود بملابس الميدان . كان الجيش البريطاني كله خرج ليقبض على رجل واحد !

ووقفت سيارات عسكرية أمام بيت الأمة ، نزلت منها قوة من الجنود الانجليز تحمل المدافع الرشاشة ، يتقدمهم عدد من الضباط يحملون المسدسات وتقدم ضابط برتبة كولونيل الى الحاج احمد وقال له انه يطلب مقابلة سعد باشا .

وصعد الخادم الى الطابق العلوى ، وكان سعد لا يزال بملابس النوم ، فقام على الفور ليرتدى ملابسه ، ورفض الضباط الانجليز أن ينتظروا حتى يتم سعد ارتداء ملابسه ، فصعدوا الى الطابق العلوى فنزل معهم .. ونزلت صفية ورتيبة والولدان وراءه .. وكان سعد قويا ثابت الجنان .. ولكن حدث فجأة أن قالت صفية :

لن أترككم تأخذونه وحده ! يجب أن اذهب معه .. انه رجل مسن مريض وهو يحتاج لعنايتي ! لن تأخذوه وحده !

واجاب الضابط الانجليزى : ليس لدينا تعليمات بأن نأخذك وفجأة فقدت صفية ثباتها وقوة اعصابها فانهمرت الدموع من عينيها وقالت : لا .. لا .. لن تأخذوه وحده ! إن يموت وحده .. أريد أن أموت معه !

وهنا نظر اليها سعد بغضب وحزم وقال :

— صفية .. يكفى هذا !

وماتت الكلمات على شفتى صفية . وجفت الدموع في عينيها . تسمرت في مكانها لا تتحرك ولا تقول شيئا !

وتطلع الطفلان في هلع الى جدهما .. « سعد » ولكنه لم يلتفت بعد ذلك خلفه ، واتجه الى السيارة العسكرية في خطوات ثابتة ، مرفوع الرأس ، بارز الصدر ، وعلى شفثيه ابتسامة ساخرة !



● الفصل الخامس عشر ●

انفجرت الثورة من جديد . كانك ضغطت على زر كهريائي ، فاشتعل قلوب كل المصريين غضبا . معارك في الشوارع بين الشعب والانجليز . البلد كله تحول إلى ميدان قتال . في كل مدينة معركة . في كل شارع مظاهرة . في كل دقيقة قتيل أو جريح . السجون امتلأت بالثوار . المستشفيات ضاقت بالجرحى . كان لورد اللنبى قد وعد حكومة لندن بأنه إذا قبض على سعد زغلول فسوف تموت الثورة . أنه اليد التى تحمل الكبريت وتشعل النار فإذا قطعنا هذه اليد فلن تشتعل النار . ها هو ذا قد قطع اليد ، وإذا بالنار في كل مكان . كان أربعة عشر مليوناً خرجوا فجأة وفي يد كل واحد منهم علبه كبريت !

ويحاول لورد اللنبى أن يخفف صورة الموقف الخطير حتى لا يزعج حكومته ، ولكنه يضطر أن يكتب إلى وزير الخارجية بعد نفي سعد ويقول « المدارس جميعها مضرية . الموظفون اعلنوا الاضطراب لمدة ثلاثة ايام . القتلى في القاهرة ١١ قتيلا . والمقبوض عليهم ١٨٦ فيها ، وقبضنا على ٢٨٩ ثائرا في الاسكندرية . قامت مظاهرة مسلحة في بورسعيد . وقعت معركة بين الجنود الانجليز والمتظاهرين . سقط مصري واحد قتيلا وثلاثة جرحى . استولى الجيش البريطانى على مدينة السويس . قامت مظاهرة قتل فيها مصرى واحد وجرح ثلاثة » .

قبض الانجليز على فتح الله بركات ومصطفى النحاس وعاطف بركات وسينوت حنا ومكرم عبيد . ووضعوا في معتقل مع سعد زغول في السويس ، لم يبق من أعضاء الوفد بلا اعتقال إلا اثنان هما واصف غالى وويصا واصف !

وأصدر الاثنان بيانا باسم الوفد بتوقيعهما وحدهما . قالوا فيه « أننا مصممون على أن نواصل العمل ، وأن نثابر حتى نصل إلى غايتنا منه بعون الله . ولئن ضربنا الخصم نحن أيضا ، فليقومون غيرنا ، لأننا لن ندع علم مطالبنا يسقط من أيدينا ، أن في ميدان الضحايا المتسعا للجميع » .

وجاءت الأنباء في يوم ٣٠ ديسمبر بأن سعد واصحابه وضعوا في نقالة حربية حملتهم إلى عدن . وهز النبا الشعب . وخرجت المظاهرات تهتف : لا مفاوضة إلا بعد عودة سعد لا وزارة إلا بعد عودة سعد .

وفوجئت صافية بأن أغلبية أعضاء الوفد التي انشقت على سعد حضرت
فجأة إلى بيت الأمة وطلبت مقابلتها .

وكانت صافية ترفض أن تستقبلهم . أنهم خرجوا على سعد . نكدوا عليه
الحياة في باريس . قسموا الأمة بالخلاف . لولا اعتماد الانجليز على انقسام
الأمة لما جرؤوا على نفى سعد زغلول .

قال لها واصف غالي : ولهذا السبب يجب أن تستقبلهم . أن سعد زغلول
عانق حمد الباسل عندما عاد إليه . وعليك أن تفعل مافعله سعد !

قالت صافية وهي تضحك : استقبلهم .. ولكن لا أعانقهم ! .. لو عانقتهم
فسوف اخنقهم !

ودخل أعضاء الوفد المنشقون ، وتمالكت صافية أعصابها وقالت :

— لقد طلبت من الانجليز أن أصبح سعدا ، ولكنى رأيت أن أبقي في مكاني
لأجهد مع المجاهدين ، إن الوطن محتاج لجميع بنيهِ ، وأنا من أجل هذا اضع
يدي في أيديكم ، وأدعوكم إلى الأخذ بيد بلادكم متكاتفين في هذه اللحظات
التاريخية من حياة الشعب . وأنا لا أدعوكم إلى المجد ، وإنما أدعوكم إلى
الموت . أدعوكم إلى المناق والمشانق والسجون !

ورد عليها عبدالعزيز فهمي بك بالنيابة عن أعضاء الوفد المنشقين :

— إننا في هذه الأزمة الشديدة نتقدم إلى الخطر ، مقتفين أثر رئيسنا
المحبيب سعد باشا ، ومستمدين من قوته ما يكفل لنا نجاح مسعانا .

وخنقت العبرات عبدالعزيز فهمي فبكى ..

وهتف محمد علي علوبة بك : لتحيا أم المصريين . ليحيا سعد ليحيا
الاتحاد .

قالت صافية : بل اهتفوا نموت وتحيا مصر !

ولكن الجماهير المتحمسة قابلت عبدالعزيز فهمي بكلمات نابية ، وصاح
أحدهم في وجهه : « إلا من تاب » وغضب عبدالعزيز فهمي وأقسم أنه لن
يعود إلى بيت الأمة ، وبعد خروج أعضاء الوفد الذين أعلنوا ولاءهم لسعد
قالت صافية :

— أن قلبي غير مستريح لهم ! إن دموع عبدالعزيز فهمي لم تؤثر في ، إننى
أعتقد أن توبتهم غير صادقة !

ولامها الذين حولها على تشاؤمها ، فقد راوا دموع عبدالعزيز فهمي
وسمعا أعضاء الوفد المنشقين على سعد وهم يهتفون بحياة سعد !

وعقد الوفد بكامل هيئته وأذاع نداء للأمة وقعه جميع أعضائه يعلن فيه
عودة الوفد إلى وحدته .. وفرح الشعب باتحاد الصفوف .. وبدأ الوفد يعقد

جلساته في بيت الأمة لوضع خطة العمل ..

وإذا بالخلاف يدب من الجلسة الأولى ..
 حمد الباسل باشا والأعضاء الذين بقوا مع سعد يطالبون بأن يصدر الوفد بياناً للأمة يعلن فيه مقاطعة البضائع الانجليزية وعدم التعامل مع الانجليز طبقاً للرسالة التي كتبها سعد إلى حمد الباسل يوم القبض عليه .
 أما الأغلبية من الذين انشقوا على سعد فقد عارضوا البيان وقالوا إنه عمل جنونى ، وأنه سيؤدى إلى اعدام كل من يوقع هذا البيان !
 وحمد الباسل والأعضاء الذين أيدوا سعد طالبوا بأن يتبنى الوفد مبادئ به المظاهرات الشعبية في كل البلاد بأن لا مقاوضة ولا وزارة إلا بعد الإفراج عن سعد وأصحابه ..
 وأعضاء الوفد المنشقون قالوا ان نفى سعد شيء ، والعمل لقضية مصر شيء آخر .
 وانقسم الوفد : الأغلبية تطالب بالاعتدال .. والأقلية تصر على التطرف والمضى في الثورة إلى النهاية نفس المشكلة التي قامت في باريس .
 وجرى التصويت ..
 وإذا بنتيجة التصويت رفض مقاطعة الانجليز بأغلبية تسعة أصوات ضد خمسة أصوات ..
 وكانت الأغلبية مؤلفة من عبدالعزيز فهمى بك وعلى شعراوى باشا ومحمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد وعبد اللطيف المكباتى بك وعبد الخالق مذكور باشا ومحمد على علوبة بك والدكتور حافظ عفيفى وحسين واصف باشا .
 والأقلية مؤلفة من حمد الباسل باشا وعلى ماهر بك وجورج خياط بك ووإصف غالى بك والأستاذ ويصا واصف ..
 وهنا قال حمد الباسل : إن نتيجة التصويت هي ١٤ مليون صوت ضد تسعة أصوات .. ان سعد زغلول هو صاحب هذه السياسة ، وسعد يؤيده ١٤ مليوناً وهذه هي الأغلبية الحقيقية ..
 وغضب أعضاء الوفد المنشقون ، وعادوا إلى موقفهم المنشق من جديد ، منسحبين من عضوية الوفد ..
 وأعلن عبدالعزيز فهمى بك اعتزاله السياسة .
 وضم أعضاء الوفد الخمسة إليهم ثلاثة أعضاء هم : محمد علوى الجزار ومراد الشريعى ومرقص حنا بك .
 وأصدر الوفد الجديد بياناً من نار يعلن مقاطعة البضائع الانجليزية وعدم التعاون مع الانجليز ..

وفي اليوم التالي قبض الانجليز على حمد الياسل وعلى ماهر وواصف غال
وويصا وإصف ومراد الشريعى وعلوى الجزار وجورج خياط .
وعلى الفور ظهر وقد جديد من المصرى السعدى باشا والسيد حسين
القصبى وفخرى عبدالنور بك ومحمد نجيب الغرابى وسلامة ميخائيل بك
والشيخ مصطفى القاياتى وراغب اسكندر .

ثم أخرج عن أعضاء الوفد الثانى .
واختفى أعضاء الوفد الثالث ينتظرون دورهم ، ولم يطل انتظارهم ، فقد
اصدر أعضاء الوفد الثانى بيانا يدعون الشعب إلى الثورة ، وقبض الانجليز
عليهم ، وحكموا عليهم بالاعدام وعدل الحكم إلى السجن مع الاشغال الشاقة
لمدة سبع سنوات ..

واصدر الوفد الثالث بيانا يحتج على مظالم الانجليز واستبدادهم ويعلن
تصميم الشعب على الثورة ، فقبض الانجليز عليهم أيضا وأودعهم قسلاقي
قصر النيل ..

وظهر الوفد الرابع بعضوية حسن حسيب باشا وعبدالحميد البيل وعطا
عفيفى ومصطفى بكير والأميرالاي محمود حلمى اساعيل .. يحمل علم الثورة
من جديد !

وقامت المرأة المصرية بالدور الاول فى معركة مقاطعة البضائع الإنجليزية
ورأى الولدان الصغيران صنفية زغلول واستر فهمى ويصا ومنيرة ثابت
وجيدة ثابت وشريفة رياض وهديّة بركات وعطية أبو أصبع وجميّة عطية
واحسان القوصى وتمامى صبرى وهن يتولين إعداد قائمة كبيرة باسم كل محل
انجليزى او شركة انجليزية او مطعم انجليزى أو بنك انجليزى من
الاسكندرية إلى أسوان وطبعت من هذه القائمة مئات الألوف من النسخ .
وكان إقبال الشعب على المقاطعة رائعا .. وبدأت تغلس أكبر المحلات
التجارية البريطانية في القاهرة . أفلس محل « ستاين » ثم محلات « مورنج »
وكانا أكبر المحلات التجارية في القاهرة ، ثم توالى إفلاس المحلات التجارية
واحدا اثر واحد .. وبدأت البنوك البريطانية تغلق فروعها ، ثم تغلق
أبوابها . خرج الناس ينفذون المقاطعة بارار غريب . كانت بعض المحال
التجارية البريطانية تخفض أسعارها إلى النصف لتغرى الفقراء ومتوسطى
الحال بالخروج على قرار المقاطعة وصمد المصريون للاغراء ، فضلوا أن
يشترى البضائع غير البريطانية الغالية على البضائع البريطانية الرخيصة .
طلب الوفد من الشعب أن يسحب أمواله من البنوك البريطانية ويودعها في
بنك مصر . وفي يوم ليلة خرجت الملايين من الخزائن البريطانية ودخلت

بنك مصر . نشطت الصناعات المصرية أصبح كل مصرى يتباهى بأنه يرتدى حرير اللوزى أو قماشاً من صنع المحلة .

أصبح محل تجارة حامد المواردى فى العتبة أعظم محل تجارى فى القاهرة ، كبر فجأة وتغلب على شيكوريل وشملا والبون مارشيه وأورزدى باك . فشلت كل محاولات لورد اللنبى والحكومة لافساد المقاطعة . ويصاب الانجليز فى مصر بالانهيار ، ويلحون على لورد اللنبى بضرورة التسليم للثوار ويبرق اللورد إلى حكومته فى ذكر « أن الثورة تزداد اندلاعا . هذا الموقف الخطير لا يمكن أن يستمر . إما أن نضم مصر العنيفة العداء للامبراطورية . وإما نستسلم استسلاماً تاماً ! » .

وانتهمت الحكومة البريطانية أكبر قوادها . وفتاح القدس بأنه تخاذل أمام الثورة وبأنه يصوب مسدسه إلى رأس الحكومة البريطانية ! وعيناً حاول الانجليز أن يعرفوا أين تطبع منشورات المقاطعة ، ولم يتصوروا أن نساء مصر هن اللاتى يتولين هذه الحرب الخفية .. ولم يتصوروا أن مقابلات السيدات فى بيوت مختلفة فى الصالونات هى اجتماعات سرية توضع فيها خطط المقاطعة .

ان المرأة المصرية التى عاشت مئات السنين فى الحريم تحولت فجأة إلى امرأة فدائية ، بطلة تهزأ بالخطر ، وهذه المرأة التى كانت تنهار أمام أى صدمة أصبحت أشبه بالجيل لا تهتز ولا تتزعزع ولا تضعف . احكام الاعدام والسجن على أزواجهن وأبائهن وأخوتهن لاتسلم النساء المصريات إلى البكاء والعيول ، بل كانت على العكس تضاعف من حماستهن ، المطارق التى تنهال على رأس المرأة المصرية لا تجعلها تهوى تحت ضرباتها بل تزيدها اندفاعاً لتنفذ من جديد ، كأنها كرة من المطاط كلما القيتها بقوة إلى الأرض وثبت بنفس القوة إلى السماء . بعض هؤلاء النساء كان يخفى المنشورات فى الكورسيه ويمشى بثبات عجيب أمام الجنود ، بعضهن كان يضع المسدسات فى حقيبة أيديهن مع المناديل وعلبة البودرة ، وزجاجة لكحل ، بعضهن كان يكتب بيده ائذارات القتل لخصوم الثورة ويوقعها بأضياء جمعية اليد السوداء ! وذات يوم أقبلت سيدة هى أم أحد ضباط البوليس إلى بيت الأمة ، ودخلت وقالت وهى تلتقط أنفاسها أن ابنها علم بأن النية متجهة إلى تفتيش بيت الأمة بحثاً عن منشورات الثورة ، وأن ابنها طلب إليها أن تبلغ أم المصريين لتتخذ الاحتياطات !

وإبلغت صافية الأمر إلى السيدات الموجودات ، وعلى الفور اندفعن جميعاً إلى اخفاء الكميات الكبيرة من المنشورات داخل الملاء السوداء ، وغادرن

بيت الأمة وبطونهن منتفخة ، وكان منظرا مضحكا أن ترى عشرين سيدة كلهن في الشهر التاسع يخرجن من البيت في وقت واحد ! وبعد ساعة من انصراف السيدات الحبال أحاط البوليس ببيت الأمة من جميع جوانبه ..

ودخل عدد من ضباط البوليس الانجليز والمصريين إلى البيت ، وبدأوا يعيئون بكل شيء فيه . يفتحون الدواليب ، ويحفرون أرض الحديقة بحثا عن مخابىء ، ويدقون على جدران الغرف يبحثون عن مستودعات سرية .. وفتشوا الخدم . ثم جاء ضابط انجليزى وفتش الولدين الصغيرين تفتيشا دقيقا ، وطلب إليهما أن يخلعا حذاءيهما وانبطح أحد الضباط تحت الفراش الذى ينامان عليه ليبحث عن المنشورات السرية . ثم دخل الضباط غرفة نوم صافية وسعد وفتشوها ، ثم دخلوا غرفة جانبية تستعملها للزينة . ووجدوا في أحد الدواليب صندوقا مغلقا من الحديد « شكجية » .. وهمس الضابط الانجليزى في اذن مأمور السيدة زينب بكلمة ، واتجه المأمور إلى صافية وقال :

— نريد مفتاح هذا الصندوق ..

واحتضنت صافية الصندوق وقالت :

— لن أدعكم تمسسون هذا الصندوق ! لقد تركتكم تلوثون بأقدامكم غرفة نومي ، ولكنى لن أسمح بأن تلوثوا بأيديكم هذا الصندوق . ان فيه خطابات زوجى لى . ولهذه الخطابات قداسة خاصة . لن أسمح ليد أن تمتد إليها وأنا على قيد الحياة !

ورأى الضابط الشرر يتطاير من عيني صافية . كانتا انقلبت إلى لبؤة مفترسة تدافع عن عرينها . وكأنها ستموت فعلا ولا تسلم هذا الصندوق .. واتصل مأمور السيدة زينب تليفونيا باللواء أبلت مساعد الحكمدار الانجليزى وأبلغه ماحدث ..

واتصل اللواء اللورد اللنبى وأبلغه موقف أم المصريين وبعد ذلك اتصل اللواء أبلت بمأمور السيدة زينب في بيت الأمة وقال له :

— مادامت أم المصريين تقرر أن في هذا الصندوق خطابات زوجها إليها فاتركوا الصندوق .

وانصرف الضابط والجنود دون أن يجدوا منشورا واحدا في بيت الأمة ! وتصور الولدان وهما يشهدان صراع صافية ودفاعها عن الصندوق أن فيه مستندات سرية تتعلق بالثورة خشيت أن تقع في يد الانجليز .. ولكن ظهر لهما أن الصندوق لم يكن فيه فعلا إلا خطابات سعد الغرامية إلى زوجته !

وكان موقف لورد اللنبى واحترامه لخطابات عدوه الخاصة ، وهو موقف القائد النبيل ، والجندى الشريف ..
ولكن لورد اللنبى وهو يقف هذا الموقف النبيل كرجل ، كان يقف موقفا آخر كناشب ملك انجلترا فى مصر .. كان يصدر أوامر يومية بأعدام المصريين ، وبقتلهم رميا بالرصاص !

* * *

أحس الولدان فى هذه الأيام بقسوة نفى سعد أكثر مما أحسا بها عندما نفى للمرة الأولى فى عام ١٩١٩ . أحسا بلوعة أمر ، وبشوق أكبر ، وبقلق أشد . وقد يكون طول مدة نفىه فى المرة الثانية هو السبب ، وقد يكون ملاحظاته من مرضه وشيخوخته فى أيامه الأخيرة هما السبب ، وقد يكون السبب الحقيقى أنهما أصبحا أكبر سنا وإدراكا مما كانا . ففى المرة الأولى كان عمرهما أكثر من خمس سنوات وفى المرة الثانية كانا أقل من ثمانى سنوات . فكلما كبر الطفل أصبحت مشاعره أكثر حساسية . فالطفل لا يرى النكبة بالضخامة التى يراها الولد ، فالذى يحزنه وهو طفل ، يبكى وهو ولد ، ويشقى وهو شاب ، ويعذبه وهو رجل ويقتله وهو شيخ ، إن إحزاننا تكبر معنا ، بعكس أفراننا ، فإنها تكتمش مع أعمارنا ، فالذى يرقصنا فى طفولتنا يسعدنا ونحن أولاد ، ويجعلنا نبتسم ونحن شباب ، وقد لا يحركنا ونحن شيوخ !
وكانت الأنباء التى ترد من جزيرة سيشيل إلى بيت الأمة تضاعف إحزاننا ، إنها جميعا تؤكد إن صحة سعد تسوء ، وإن جو الجزيرة الحار وسوء المعاملة يجعلان حياته لا تطاق ، وكان الجو فى البيت كئيبا حزينا ، كل واحد فيه يعتقد أن هذه الرحلة لن يعود منها سعد حيا !
وكانت صفة بشخصيتين مختلفتين : شخصية المرأة ، وشخصية البطلة ، وكانت المرأة فى الدور العلوى تبكى وتصلى ، وكانت البطلة فى الدور الأول تغرس الأمل فى قلوب اليائسين ، تملأ أرواح الثوار بشعاع من التضحية والدعاء . ولم تكن صفة ممثلة بطيعها ، كانت صريحة فى ملامحها وفى حديثها . ولكنها كانت إذا رأت الثوار تحولت إلى قائدة لهم ، وإذا اختلت بنفسها أو بأقاربها عادت امرأة تتعذب لفقد رجلها ، يذويها الشوق ، وتقلقها أنباء صحته ، ويدمى قلبها غيابيه .

وذات يوم جاءت سيدة انجليزية إلى البيت وطلبت مقابلة صفة ، وقالت إنها قادمة من جزيرة سيشيل ، وتريد أن تخبرها عن الحالة هناك ، وأسرعت صفة إلى استقبالها ، وإذا بالسيدة الانجليزية تنبئها بأن سعدا على وشك الموت . إن صحته فى انهيار مستمر . إن الجو فى سيشيل أشبه بالجو فى

جهنم . إن البيضة إذا وضعت في الشمس تسلق بغير حاجة إلى إشعال وقود .
وأفاضت السيدة في وصف العذاب الذي يتعرض له سعد في منفاه ..
وسكتت السيدة ورأت الدموع في عيني صفية فقالت لها :
— إن من رأى أن تكتبى إليه تنصيحته بأن يعلن اعتزال السياسة !
وبهذه الطريقة وحدها يمكن أن يفرج عنه ، ويبقى حيا !
وتحولت صفية فجأة إلى نمرة مفترسة وقالت لها :
— ماذا تقولين ؟ ! إننى أفضل أن يموت سعد وهو زعيم الثورة ، على أن
يعيش وقد تخلى عن الشعب الذى وثق به ، ومات شبابه وهم يهتفون
باسمه ..

وبذلت السيدة الانجليزية كل جهدها في محاولة لإقناعها ، فطردها صفية
من البيت .
وعرف بعد ذلك أن هذه السيدة لم تكن غير رجل من المخابرات البريطانية
تكر على هيئة امرأة ليقوم بهذه المهمة . ونشر بعد ذلك أن هذه السيدة هي
الجاسوس البريطانى المشهور لورنس !
وشاهد الولدان هذه السيدة في أثناء هذه الزيارة ، وعندما نشر بعد ذلك
بسنوات أنها كانت لورانس راحا يتاملان صورة لورنس ويقارنان بينه وبين
الصورة التى في ذاكرتهما لهذه المرأة المجهولة ، فوجدا فعلا أن الشبه بينهما
كان غريبا ..

وكثيرا ما مر بالبيت أيام سوداء ، فجأة يخلو البيت من الناس .
لا مظاهرات ولا وفود ولا زائر واحد . لا انباء عن حركات ثورية في الأقاليم .
انقطعت المنشورات التى كانت تنهمر كالطرر . البيت الذى كان أشبه بخلية
النحل هدا وسكن سكوت القبور ، وبحسب السذج أن الشعب قد استسلم
لغاصبيه ، وأن الثورة قد انتكست ، وأن الحماسة قد خمدت . وفجأة ينفجر
البركان . ويتملى البيت بالمظاهرين ، وتعود المعارك إلى الطرقات ، وتدوى
طلقات الرصاص في كل مكان .

إن هذا الشعب شعب غريب ، لا تعرف متى ينهض ومتى يتقاعس . أين
ينفجر وأين يهدأ . متى يثنر ومتى ينقض . يغمض عينيه ولا ينام ، يتراجع
فجأة ليستعد للوثوب . يرفع يديه فتحسبه يستسلم ، وإذا في يديه المرفوعتين
قنبلة يلقىها على العدو . العصفير تخيفه ولكن المدافع يحرك فيه أقوى
ما يملك من شجاعة وإقدام . صوت الريح يفرعه ، ولكن زفير العاصفة يبدو في
أذنه كأنغام التشديد الحماسى . نقطة الدم ترعبه وعندما يرى بحرا من الدم
يسبح فيه ..

ان الأيام والسنين لم تستطع أن تمحو من ذاكرة الولدين صورة معركة شاهدها في تلك الأيام أمام بيت الأمة . الجنود الانجليز في سياراتهم المصفحة وفوقها المدافع ، وفي أيديهم البنادق والرشاشات والجماهير في أيديها الطوب والأحجار وجذوع الأشجار . أطفال صغار يهاجمون السيارات المصفحة . شبان يواجهون بصدورهم الرصاص . صفوف تسقط تحت وابل الرصاص ، وصفوف أخرى تحل مكانها ، أرض شارع سعد زغول مغطاه بالجثث والدماء . كلما سقط شاب يحمل العلم . تقدم شاب ثان وحمله . وجاءت الامدادات الانجليزية والشعب الأعزل صامدا في المعركة ويتراجع الانجليز عندما نفذت ذخيرتهم . وهلت الجماهير لأنها أجبرت الأقوياء على الانسحاب ، ولم يروعا الثمن الفادح الذي دفعته من الجثث والجرحى من أجل هذا الانتصار .

وكثيرا ما ثار سعد وغضب عندما يتلقى الأخبار بأن مجهولا سقط في المعركة قتيلًا ! كان حينئذ يطالب بضرورة البحث عن اسم كل قتيل وعنوانه والتعرف عليه .

وكان في بعض الأحيان يقول :

— يجب أن تحتفظوا بأسماء كل الشهداء . سيجيء يوم تسمى شوارع المدن بأسمائهم . سيجيء يوم تسمى قرى باسم الذين اعدموا منها . ستطلق أسماءهم على المدارس والمستشفيات ! سيقام تمثال لكل شهيد في المكان الذي سقط فيه !

وبعد خمسين سنة من ثورة ١٩١٩ لم يكن قد أطلق اسم واحد من شهداء ثورة ١٩١٩ على حارة أو شارع في أى قرية في مصر ! ولم يكن هذا هو الحلم الوحيد لسعد الذى لم يتحقق ، إن الولدين يذكران ذات مرة وكان سعد جالسا على مائدة الطعام . إذ قال احمد مظلوم باشا إنه سمع عدلى باشا يقول إنه ما دامت انجلترا امبراطورية فإن الجيش البريطانى سيبقى محتلا لمصر ، وإن انجلترا ستبقى قوية لمدة ألف سنة !

وقال سعد : لا توجد امبراطورية عاشت في التاريخ ألف سنة ! إن شعورى أن ثورة مصر هي بداية انهيار هذه الامبراطورية . سوف تقلدنا عدة شعوب في المطالبة بالحرية كل يوم ستكسب الحرية انصارا .. وستفقد الامبراطورية نفوذًا . المهم الانباس ولا تلقى السلاح . إننى مؤمن إيمانا كاملا بأنه سيجيء يوم يخرج فيه الانجليز من مصر والسودان وستقوم دولة عظيمة اسمها دولة مصر والسودان . تنتخب حاكمها . لها عاصمتان هما القاهرة

والخرطوم . رئيسها مصرى ونائب رئيسها سودانى . وبعد خمس سنوات
يصبح رئيسها سودانيا ونائب رئيسها مصرى . دولة تعطى مثالا للديمقراطية
والحرية فتحتذى بها بقية الدول المغلوبة على أمرها ..
وضحك مظلوم باشا وأشار إلى . السفرجى النبوى محمد وقال :
— إن محمد السفرجى سيكون حاكما لمصر والسودان ..
قال له سعد جادا :

— لا تضحك .. سيأتى يوم يصبح فيه هذا السفرجى أو غيره حاكما لمصر
والسودان ! إن الشعوب هى التى تختار حكامها ..
وتحقق مع الأيام جزء من حلم سعد زغلول . فخرج الجيش البريطانى من
مصر والسودان ، وأصبح الشعب هو الذى يختار رئيس الجمهورية ،
وتحررت كل البلاد التى كانت تحتلها بريطانيا ، وسقطت الامبراطورية
البريطانية .. ولكن مصر والسودان لم تصبحا دولة واحدة كما كان يؤمن
ويؤكد ويجزم دائما .

ولعل التاريخ لم يكشف حتى الآن عن سر غريب ، فقد كان سعد يقول
لأسرته انه كان من خطة الثورة أن يحدث الانفجار فى مصر وفى السودان فى
وقت واحد ، وكان لسعد بعض أصدقاء يثق بهم فى السودان ، فكتب إليهم
خطابات سرية يشرح لهم أهداف الثورة ، وقد سلم هذه الخطابات إلى ضابط
فى الجيش من أصدقاء عبدالرحمن فهمى بك ، وكان الضابط يعمل فى الأورطة
المصرية المعسكرة فى مدينة الخرطوم ، وكانت مهمة الضابط المصرى أن يبلغ
السودانيين شفويا عن ساعة الصفر التى تحدت للثورة وهى ساعة القبض
على سعد زغلول ..

وانفجرت الثورة فى مصر ، ولم تنفجر فى السودان !
وتبين سعد فيما بعد أن الضابط المصرى ما كاد يصل إلى الخرطوم حتى
استدعى على الفور لمقابلة الحاكم العام .. واعتقد الضابط المصرى أن السر
انكشف ، فدخل إلى دورة المياه ومزق كل الخطابات .. وفعل حدث ما توقعه
الضابط المصرى فقد تم تفتيشه فى قصر الحاكم العام ، ولم يعثر معه على
شئ ، ولكن أمرا أصدر . إليه بأن يعود إلى مصر فى نفس يوم وصوله إلى
الخرطوم .

وهكذا تأخرت ثورة السودان المنتظرة خمس سنوات عن موعدها المقرر ،
ولم تنفجر إلا فى عام ١٩٢٤ .
وكان سعد فى دهشة كيف انكشف هذا السر الوحيد من أسرار الثورة ،
وكان سعد يشك فى أن الضابط المصرى ، وقد كان معروفا بأنه مدمن على
٢٦٦

الخير ، شرب كثيرا في اثناء رحلته من القاهرة إلى الخرطوم ، وراح يهذى بكلمات تسربت إلى الحاكم العام ، فوقعت هذه المأساة !
ولكن إذا كان هذا السر هو الوحيد الذى تسرب ، فإن كثيرا من أسرار الثورة الخطيرة ، بقيت مكتومة ومطوية عشرات السنين ، وأكثر منها ذهبت مع أصحابها إلى القبور .

ولم يفكر واحد منهم فى أن يفتح فمه ليعلن للتاريخ قصص بطولته وأمجاد فدائيته . وقد كان فى هذه الثورة أبطال كثيرون . أبطال بلا أسماء وبلا عناوين !

أبطال سجنوا وعذبوا ، وقتلوا ، أو أعدموا ، واستشهدوا وراحوا فى طى النسيان .

لم يذكرهم أحد ، ولم يشكرهم أحد ، كل ما أخذوه من تضحياتهم الجحود والتكران .

يذكر ولدان فى تلك الأيام أن منشورا ظهر فى اليوم التالى لإعلان فؤاد نفسه ملكا فى ظل الحماية البريطانية ، ظهر منشور عنيف عنوانه « عرش الخيانة » . كان المنشور يهاجم السلطان فؤاد ويقول إنه باع مصر ليشترى لقب ملك مصر ، داس الشعب بقدمه ليضع التاج على رأسه . كان المنشور يلعنه باسم الوف الشهداء والمسجونين والمنفيين . كان يتوعد بانتقام الشعب ، ويقول له إنه أقام عرشه فوق جماجم القتل ، وأن الرمل الأحمر الذى فرش أمام قصره هو دم المصريين الذى سفكه من أقاموه ملكا على مصر بالرغم من إرادتها ..

وقامت السيدات بطبع المنشور على ماكينة رونيو فى بيت الامة ، ووزع المنشور فى كل أنحاء البلاد والقى وراء أسوار قصر عابدين ..
وهاج الملك الجديد ، وهاج معه اللورد اللبى ، وصدرت الأوامر بإجراء تفتيش كامل فى جميع أنحاء القاهرة للبحث عن المطبعة التى تولت طبع هذه المنشورات ..

وتولى ثروت باشا رئيس الوزراء ووزير الداخلية بنفسه الاشراف على عمليات التفتيش الكبرى ..

وفوجئ بيت الامة بمئات الجنود والضباط الانجليز والمصريين يحاصرون البيت .. وكانت هذه أول مرة يحدث التفتيش بغير أن يتلقى بيت الامة تحذيرا سريا من الجهاز السرى للثورة بالاستعداد للتفتيش .. ودخل الضباط الانجليز ومعهم بعض الضباط المصريين وقاموا بتفتيش دقيق .. ثم نزل عدد منهم إلى البدرام ..

واقترب ضابط شاب برتبة الصاغ من غرفة المكوى .. ووضع يده على قبضة الباب .. وما كاد يضع يده حتى تعلقت بها قلوب كل أهل البيت .. فقد كان في غرفة المكوى مطبعة المنشورات وكمية هائلة منها لم توزع بعد .. وضغط الضابط على قبضة الباب فلم يفتح الباب .. فقد كان مغلقا بالمفتاح ..

فسال الضابط : أين المفتاح ؟

وأجاب أحد الخدم : أنه مع المكوى .. والمكوى غير موجود ! وهنا دفع الضابط الباب بقدمه بعنف فانفتح .. ودخل الضابط المصرى الغرفة وبقي فيها خمس دقائق ، ثم خرج منها الضابط بهدوء ، وأغلق الباب وراءه ، واتجه إلى الأميرالاي أبليت بك مساعد الحكمدار الذى كان يرأس التفتيش وقال له : لا يوجد شيء في هذه الغرفة سوى غسيل !!

وبقى ضابط البوليس المصرى واقفا أمام الباب يحرس المنشورات إلى أن انتهى التفتيش ، وصعد الضباط إلى الطابق العلوى .. وأسرع ولدان إلى صفية يخبرانها بما حدث . فطلبت من الحاج أحمد أن يسأل هذا الضابط المصرى الغدائى عن اسمه . واقترب الحاج أحمد منه وقال له إن الست تريد أن تعرف اسمك . قال الضابط : اسمى ضابط مصرى ! ورفض الضابط أن يذكر اسمه !

وتصورت صفية أن الضابط خشى أن يذكر اسمه ، حتى لا يتسرب الاسم ، وتعرف الحكومة بالتصرف الجريء الذى اتخذته .. ومضت الأيام وأصبح سعد رئيسا للوزارة ، وصاحب السلطان ، ولم يتقدم هذا الضابط ، ولم يطلب مكافأة عما فعل ، وفشلت كل المحاولات في العثور عليه !

وحدث في تلك الأيام أن أطلق مجهول الرصاص على محمد بك بدر الدين مدير الأمن العام . وكان بدر الدين خصما غنيا للثورة ، ينكل بالثوار ويعذبهم ، وكان الثوار يسمونه « السفاح » ..

ووقع إطلاق الرصاص في ضوء النهار في شارع الدواوين ، في لحظة دخول الموظفين إلى مكاتبهم ، وهى لحظة يمتلئ فيها الشارع بالطلبة والموظفين والعمال ..

ولكن أحدا لم يقبض على الجانى ، ولم يتقدم فرد واحد بشهادته عما رآته الآلاف باعينهم .

واعلنت الحكومة أنها تدفع خمسة آلاف جنيه لمن يقدم معلومات ترشد عن الجاني .
وجاء إلى بيت الأمة عامل صغير يرتدى الجلابية ، وكانت جلابية قذرة ،
حافي القدمين وقال إنه يرغب في مقابلة أحد المسؤولين في بيت الأمة لأمر هام
جدا ..

وكانت الساعة مبكرة من الصباح ولم يكن أحد من السكرتارية أو أعضاء
الوفد قد حضر بعد إلى البيت ..

وقابلته رتيبة فقدم لها طربوشا وهو يقول :
— هذا الطربوش سقط من الشاب الذي أطلق الرصاص على محمد بدر
الدين عندما كان يبعدو في الشارع بعد إطلاق الرصاص .. إنني خشيت أن يقع
هذا الطربوش في يد البوليس ، ويعرف من اسم الطرابيشي صاحبه فيقبض
عليه .. ولهذا جئت بالطربوش إلى بيت الأمة !
وسألته رتيبة عن اسمه فقال أحمد عبدالمعين الفقى نجار بعمارة البابلي
بالسيدة زينب ..

وسألته رتيبة عن أجره ؟ فقال : قرشان صباغ ونصف في اليوم .
قالت رتيبة : وهل تعرف ما هي المكافأة التي تدفعها الحكومة لمن يدلي إليها
بمعلومات عن الجاني .

قال النجار : طبعا أعرف .. إنها خمسة آلاف جنيه !
ونظرت رتيبة إلى قدميه الحافيتين وإلى جلبابه الممزق وقالت له :
— لا أستطيع أن أكافئك بشيء سوى أن أعدك بأننى سأقول لسعد باشا
عندما يعود من المنفى كل شيء عنك !

فقال النجار بسذاجة : قد يبلغ سعد باشا عنى البوليس !
قالت رتيبة وهى تضحك : لا .. أعدك أنه لن يبلغ عنك البوليس !
وعندما عاد سعد من منفاه روت له رتيبة قصة أحمد عبدالمعين الفقى
فكلف عاطف باشا بركات أن يبحث عنه ، ويجيء به لمقابلته ..
وعاد عاطف باشا بعد أيام وقال إن أحمد عبدالمعين الفقى النجارات .. إذ
أصيب بالسل بسبب سوء التغذية وترك عمله ثم مات بعد عدة شهور !
وبكى سعد زغلول .. بكى على النجار الذى رفض خمسة آلاف جنيه ..
وفضل أن يموت شريفا من الجوع !

عاش الولدان في لعبة تشبه لعبة « عسكر وحرامية » التى كان يلعبها
الأطفال في تلك الأيام . مع فارق أن اللعبة كانت كبيرة ، وكل الذين

يلعبونها من الكبار . كان « الحرامية » هم الاشراف الثوار الذين قاموا
بحاربون الاحتلال البريطاني ، وكان « العساكر » هم قوى البطش والظلم
التي تمثل الانجليز وحزب الانجليز . الاشراف يزج بهم في السجون ،
ويعلقون في المشانق ، وينفون خارج البلاد . واذناب المحتلين وعملاؤهم
ينعمون بالمراكز ويشغلون المناصب وتغدى عليهم الاوسمة والنياشين . الذي
يطالب باسترداد حقوق بلاده هو مجرم يطارد في كل مكان . والذي يطعن
الثورة بخنجر في ظهرها ويدعو إلى الاستسلام ويبارك التردد والهزيمة هو
نصير القانون ..

ما اتعس القانون في يد الظالمين . إنه يتحول إلى مقصلة للعدالة . يصبح
قناعا تخفى وراءه وجوه الطغاة . ينزل من مكانه فوق الرؤوس ليكون
ممسحة تنظف أذى المستبدين . القوانين في يد الجبابة تتحول إلى سياط
تلهب ظهور المظلومين . مواده تتحول إلى مطاط يتسع ويضيق كما يريدون
ويهوون ، تعميم القوة ويسكرهم السلطان فلا يرون إلا ما يرضى شهواتهم ،
هزائم الشعب تصبح انتصارات لهم ، وفجيعة هي أفراسهم ، وجنازات
شهداءهم هي مواكب أمجادهم .

وكان الولدان في أول الأمر يشهدان هذه اللعبة المثيرة بلذة . ولكنها عندما
تكررت بدأت المرارة تنفذ إلى مشاعرهما .. تحولوا من متفرجين إلى ضحايا .
الذين ينفون إلى خارج البلاد هم قطعة منهما ، والذين يعلقون على المشانق هم
من معارفهما ، وكثيرا ما رأياهم في بيت الأمة ، والذين يزج بهم في السجون هم
أصدقاء أسرتهما . وغير صحيح أن القلوب تتحجر كلما رأت صنوفا من المأسى
والأهوال . بل إنها تذوب فتصبح أكثر حساسية وارق شعورا . في أول الأمر
كان منظر سقوط الشهداء يذهل الطفلين .. ولكنه ما لبث أن أصبح يدمى
قلبيهما . يحسان كان الجثة المضرجة بالدم هي جثة واحد منهما . وأن الذي
علق على المشنقة هو أحدهما . وأن الذي زج به في السجن هو بعض منهما .
كان الموت يبدو في أول الأمر مشهدا بطوليا ، ولكنه أصبح مع تكراره صورة
حزينة كئيبة تملأ عيونهما بالدموع ، وقلبيهما بالأسى ، وروحيهما بالسواد .
إن صور الظلم المتكررة تملأ قلب الولد الصغير بالظلام ، تملأه تعاسة
وشقاء ، تجعله كأنه أصيب بالعمى الكامل . يتحسس طريقه إلى منفذ
للخروج فلا يجد الباب ، تبحث عيناه عن ضوء فلا تجد الشعاع . وكلما
ازداد الظلم أحس المظلوم بالاختناق ، شعر بأن يدا قوية تضغط على عنقه
فيعجز عن التنفس ، ويبدأ أخرى تقبض عليه فلا يستطيع أن يتحرك ، ويبدأ
ثالثة تغلق فمه فلا يستطيع أن يتكلم ، الظلم يخول الظالم إلى عملاق ،
ويحول المظلوم إلى قزم ضئيل . الطغيان قيد للذين هم خارج السجون ،

فالطغاة أقل حرية ممن هم في داخلها ، إن كل واحد منهم يتحرك داخل زنزانه متنقلة ! إنه يحس كأن في يديه وقدميه أغلالا غير منظورة . يشعر كأن فوق فمه كمامة تمنعه من الكلام . الطغاة تطرق أذانهم ضربات السياط كأنما تلهب ظهورهم دون أن يروا هذه السياط ، يشعرون بحبال المشانق تلف حول أعناقهم دون أن يعلقوا فيها . تتحول حياتهم إلى جحيم . رجال الطاغية هم الزبانية . وظلم الظالم هو النيران ، في بعض الأحيان يحس المظلوم بوحدة قاسية . وما أشقى الذي يشعر بوحدة قاتلة وهو يعيش بين الناس . في لحظات يحس أنه بلا أصدقاء ، وبلا أعوان . كأنه في جزيرة يحيط بها الظلم من كل مكان . كأنه في ليل بلا آخر ، كأنه في قبر النسيان . والمظلوم يغذى نفسه بالأمل ، ولكن عندما يبتلع كثيرا من شراب الأمل ، يحس بالثخمة ، ويتحول الأمل في شفتيه من شهد إلى صاب ، ومن غسل إلى حنظل ، الأنباء المتفائلة التي كانت في أول الأمر تضمد جراحه ، أصبحت تنكا هذه الجراح ، وتنفتح القبح .

في تلك الأيام اتجه الناس إلى المعابد والكنائس والمساجد هربا من الواقع الظالم .

تصوروا أن الله وحده هو القادر على أن ينقذهم من هذا البلاء .. فهم يرون يد الظالم تشد وأيديهم تضعف ، المدفع في يده يكبر والطوب في أيديهم يتضاءل . الحق على الصليب ، والظلم فوق العرش . أصوات الثوار تحولت إلى هسمات ، وخصوم الثورة الذين كانوا ينفتون كالأفاعى أصبحوا يزارون كالأسود . اسم سعد أصبح ممنوعا من أن ينشر في الصحف . ولكن صحف الحكومة وحدها كان مباحا لها أن تذكر اسمه كل يوم . توجه إليه التهم وتتحداه أن يجيب والشيخ العجوز مكمم الفم في منفى سحيق في جزيرة سيشيل في المحيط الهندي . الخطابات تفتح وتصل إلى أصحابها مفتوحة . ثم تتواتر الأنباء بعد ذلك بأن صحة سعد تدهور ، وأن عددا من أطباء الانجليز أجمعوا على أنه إذا بقي في جو هذه الجزيرة الملعونة فلا يمكن أن يعيش بضعة أسابيع ! واللورد اللنبى ينصح بأن يبقى سعد حيث هو ليموت وتموت معه الثورة !

وفجأة يتحرك الشعب السجين في زنزاناته ، ويطلق زئيرا يتحول إلى عاصفة هوجاء ، وتنهال البرقيات على الحكومة الانجليزية من جميع أنحاء البلاد تقول للوزراء الانجليز « أيها القتلة ! أنكم مسئولون عن حياة سعد . لو مات هذا الرجل في منفاه فلن يبقى في مصر انجليزى على قيد الحياة » . وتطلق المظاهرات تدق الدفوف وتنشد : يا عزيز .. يا عزيز .. كبة تاخذ الانجليز ..

وتنطلق رصاصات مجهولة .. ويسقط عدد من الجنود الانجليز قتلى في الشوارع والميادين .. ويصاب الانجليز بالذعر .. وتكتب الجالية البريطانية إلى رئيس وزراء بريطانيا تحذره من الموقف في مصر إذا مات سعد زغلول في سيشيل ..

وإذا باللورد اللنبي يبلغ صفيّة زغلول في يوم ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٢ أنه بناء على أمر الحكومة البريطانية نقل سعد من جزيرة سيشيل يوم ١٦ أغسطس ، إلى جبل طارق ، حيث أعد له منزل وخادمة وطاهية ، وأن لها الحرية في اللحاق بزوجها إذا شاءت .. ورات صفيّة أن تسافر إلى جبل طارق لتشرف بنفسها على حالته الصحية ، وطلبت من رتيبة أن تلازم البيت مع ولديها ..

وسافرت صفيّة إلى جبل طارق وخرج الشعب المصري يودعها عند سفرها وداعاً راعياً لم تشهد مثله امرأة في العالم ، لم يبق في القاهرة طفل ولا رجل ولا شيخ ولا امرأة إلا وخرج إلى الشارع ليحيى أم المصريين التي ستسافر لتشارك زوجها في منفاه . خرج سكان القوي على الخط الحديدي من القاهرة إلى بور سعيد : النساء يزغردن لها والرجال يزفونها بالطبول والمزامير . القطار نفسه كان مغطى بالأجساد البشرية التي تسلفت فوق ظهره ترفع الأعلام . كان الناس يلقون بأنفسهم أمام القطار ليوقفوه ويحملوا صفيّة رسائلهم إلى سعد . الفرسان خرجوا بخيولهم والفلاحون فوق جمالهم يسرون بجوار القطار . والقطار يتمهل ويتمهل إلى سلحفاة حتى يتفادى أن يصدم هذه الألوف المؤلفة التي احتشدت فوق القضبان . كان البعض يحيى في هذه المرأة قيادتها للثورة في غياب زوجها . والبعض الآخر جاء يحملها رسائل الحب إلى الزعيم الغائب . والجميع يعتبرونها أم المصريين .. أهم جميعاً ذاهبة لتعنى بابيهم جميعاً . وكان بعض الفلاحين يستحلفونها أن تعنى به ، وأن تسهر على راحته ، وأن تعود به سالماً . ولم ير الولدان صفيّة سعيدة في حياتها كما كانت سعيدة في تلك الساعات . كانت سعيدة لأن الحب الذي رآته في ذلك اليوم لم يسبق أن رآته في حياتها . الملايين تريد أن تقبل اليد التي ستلمس سعد . أو تضع أيديها على ثوبها الأسود للترك به . نساء يزغردن ورجال يبكون . بعضهم يتحسر لفراق المرأة التي كانت تعطي للثورة جمالاً رومانسياً ، وبعضهم سعيد لأنها ستلقى زوجها بعد غياب طويل عانت فيه من الفراق والحرمان . وكلهم يريد بهذا الموكب أن يكون رداً على الانجليز وخصوم الثورة الذين توهّموا أنهم قضوا على الثورة بالبطش والإرهاب ، والضغط والجبروت .. وكانت صفيّة تقول لهذه الجماهير من نافذة القطار :

— في يدكم وحدكم أن تجعلوا سعدا يعيش ويعود ! إذا استمرت الثورة فسوف يعيش ويعود .. وإذا ماتت الثورة فسوف يموت في منفاه ولن يعود ! وكانت هذه الجملة البسيطة تشبه البترول يلقي على النار ، كأنها كانت تفرش الطريق بالبترول من القاهرة إلى بورسعيد ! وما كادت الباخرة تتحرك من بورسعيد تحمل صفية إلى جبل طارق حتى تحركت الثورة من جديد . اضطرابات في كل مدرسة ومصنع ، مظاهرات في المدن والقرى ، معارك عنيفة بين الشعب والسلطة .. وضاعفت السلطة من بطشها وطفغانها . كل يوم أحكام بالاعدام والسجن المؤبد . كل يوم ينفي عدد من أعضاء الوفد وزعماء الثورة إلى المعسكرات البريطانية في الصحراء كل يوم مئات من الموظفين يشردون من وظائفهم ويفصلون من أعمالهم ، كل يوم يزج بأبرياء في السجون ويعاملون معاملة المجرمين ..

وفي جبل طارق عرف سعد كثيرا من أسرار الثورة .. وفي جبل طارق عرفت صفية سرا كان خافيا عليها وهو أن الإنجليز عرضوا عرش مصر على سعد وهو في منفاه في عدن ، وقد رفض العرش باحتقار .. وفي جبل طارق عرض الجهاز السري في القاهرة بواسطة الأستاذ محمد الأنصاري سكرتير سعد ، خطة لخطفه من منفاه ، وتهريبه إلى مكان أمين في أوروبا ، وكانت خطة محكمة ، ومرسومة بدقة ، ولكن سعدا رفض أن يهرب من المنفى ، وكان رايه أنه أقوى وهو في منفاه ، منه وهو مطارد في أوروبا .. وفي جبل طارق بدأت الاتصالات السرية بين سعد زغلول والاشتراكيين الإنجليز برياسة رامزي ماك دونالد ، واستطاع سعد وهو في المنفى أن يشتري عددا كبيرا من أسهم جريدة الديلي هيرالد لسان حزب العمال البريطاني .. وكانت هذه أول مرة في تاريخ مصر استطاع فيها مصريون أن يشتروا أسهما في جريدة بريطانية كبيرة ، ومن خلالها يحاربون سياسة بريطانيا في مصر .

وفي جبل طارق حدثت واقعة تاريخية خطيرة ، لم تكشف عنها بعد كتب التاريخ الحديث ..

فقد روى سعد لأسرته أن الزعيم الشيوعي لينين أرسل له في منفاه في جبل طارق اثنين من الزعماء الشيوعيين ، تنكرا في زي باعة متجولين ، ودخلا القلعة البريطانية التي كان معتقلا بها ..

وإلغاه بأن لينين يعرض عليه الانضمام إلى الحركة الشيوعية وفي مقابل ذلك تؤيد الشيوعية العالمية مصر في حركتها ضد الإنجليز بالممال

والسلاح والدعاية ، ورفض سعد هذا العرض ، وقال إن الشعب المصرى مؤمن متدين ، ولا يمكن أن يشتري حريته ويفقد إيمانه ، وأنه لا يؤمن شخصيا بدكتاتورية البروليتاريا بل يؤمن بالديمقراطية ، ويرى أن الحرية معناها حرية كل فرد فى الشعب لا حرية طبقة واحدة فيه . وأنه يرحب بالتأييد الشيوعى بغير قيد ولا شرط . ولم يكن سعد وقتئذ قرأ كتب لينين . ولم يقرأها إلا بعد ذلك بسنوات ، فى كتب أعطاه إياها أحمد لطفى السيد .

* * *

جن جنون السلطة البريطانية للمظاهرة التى أقامها الشعب وداعا لصفية زغلول عند سفرها إلى جبل طارق . أحست أن كل ما اتخذته من طغيان وجبروت واستبداد لم يؤدب هذا الشعب ، ولم يصرفه عن المطالبة بالاستقلال التام ، ولم يزعزع ثقته بزعمائه المنفيين والذين أودعوا السجون والمعتقلات . فمضت السلطة تضاعف من تنكيلها بالأبرياء . وتتفنن فى تعذيب الثوار ، وتمعن فى البطش والاستبداد . لم تشهد مصر عنفا وطغيانا كالذى شهدته فى أيام الثورة وكانت جرائم دنشواى البشعة ، تبدو عملا إنسانيا إذا قورنت بما تعرض له الشعب فى تلك الأيام ..

كانت الثورة ترفع كلمة ماثورة لسعدى : « الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة » . ورأى الولدان كيف عيشت السلطة بهذا الشعور ، فالقوة الغاشمة هى التى تدوس على الحق الأعزل بحذائها والحكومة المستبدية هى التى تنقض على الأمة الراغبة فى الحرية تكتم أنفاسها ، ولكن الألم هو الذى يصنع الأمم . الجراح التى تصاب بها الشعوب فى نضالها هى أوسمة على صدرها . وكلما أشد التنكيل بشعب تضاعفت مقاومته ، وازداد صموده . وكانت كل قرية ومدينة فى مصر قد أصيبت بجرح فى الثورة . إن الفظائع التى ارتكبتها الانجليز فى « العريزية » و « البدرشين » ونزلة الشوبك لم تخدم ثورة الفلاحين فيها ، بل على العكس زادت ثورتهم اشتعالا إنهم لا يستطيعون أن ينسوا ما فعله الجيش البريطانى بهم عندما أمرهم بأن يحفروا حفرة كبيرة ، ووضعهم فيها إلى نصف قامتهم وراح الجنود الانجليز يخزنونهم بستان السونكى حتى الموت . إنهم لا ينسون كيف سبيت النساء أمام أعينهم . كيف أرادوا الاعتداء على عرض امرأة فرفعت طفلها الصغير بين ذراعيها استرحاما ، فاردوه قتيلا بطلقة مسدس ، ثم اعتدوا عليها وجثة طفلها إلى جانبها غارقة فى بركة من الدم ..

إن سكان أبى المطامير لا ينسون كيف جاءت الطيارات البريطانية ودمرت بيوتهم بالقنابل المحرقة ، وقتلوا عشرين منهم لأنهم قاموا بمظاهرة تنادى بالاستقلال ..

إن سكان المنزل لا ينسون كيف حاصر الجيش البريطاني إحدى القرى ، وأمروا بإخراج الرجال من القرية ، وحاولوا اغتصاب النساء فيها فهب رجال المنزل مدافعين عن شرف زوجاتهم وأمهاتهم وأخواتهم وبناتهم ، وقتل منهم في هذه المعركة ٤٦ شهيدا ، وجرح منهم مئات ، ونهبت القرية !
إن سكان ضاحية المطرية بمدينة القاهرة يذكرون كيف دخل أحد الضباط الانجليز ومعه كريمة المستر الكسندر بيرد ، وكان العمدة جالسا أمام داره ، فأمره الضابط الانجليزى أن يقف لتحية مس بيرد .. ورفض العمدة الوقوف ، فأمر الضابط بحصار المطرية وتولى الجيش البريطانى نهبها ، وسبى النساء فيها ، وجلد رجالها !

إن سكان مدينة قنا لا ينسون ما حدث للدكتور محمد والى الذى أصبح فيما بعد استاذ علم الحيوان فى كلية الطب ، وعضوا فى المجمع اللغوى ، كان جالسا على قهوة فى أكبر شارع فى المدينة ، عندما مر ملازم فى الجيش البريطانى ، ولم يهب الدكتور والى لتحيته ، فأمر الضابط بجلده علنا ، مع أن شقيقه جعفر والى باشا كان وقتئذ وكيل وزارة الداخلية ..

إن سكان كفر الشيخ لا ينسون أبدا كيف كان الانجليز يرغمون العمدة على أن يقدموا لهم كل يوم ثلاثين رجلا ليجلدوهم فى الطريق العام !
كل قرية فى مصر فيها جرح لا يلتئم كل شارع فيه شهيد . كل بيت فيه مصاب ، الذى لم يقتل سجن ، والذى لم يسجن جلد ، والذى لم يجلد فصل من وظيفته ، والذى لم يفصل شرد من عمله ، ولم ينكب الثوار فقط ، بل أن النكبة شملت الثوار وخصوصا الثورة ، فقد حدث أن وقف بعض الأرمن ضد الثورة ، وهاج الشعب عليهم ، وخشيت الجالية الأرمنية على حياة نسائها وبناتها ، فلبان إلى المعسكر البريطانى فى هليوبوليس ، وإذا بالجنود الانجليز يعتقدون على أعراض جميع النساء الأرمنيات اللاتى لبان إلى حمايتهن . وكانت فضيحة ! ووقعت معارك بين الرجال الأرمن والجنود البريطانيين واضطر الأرمن إلى مغادرة المعسكر والاعتصام بكنيسة الأرمن فى هليوبوليس !

صحيح أن بعض الأعيان من المصريين لم يتحمل هذه الحرب التى لا هوادة فيها ولا رحمة . لم تحتل أعصابه المعارك التى لا تتوقف ، وسيل الضحايا الذى لا ينقطع ، رأى أن القوة تنتصر على الحق ، والحكومة يشتد بطشها بالامة يوما بعد يوم . ورأى أن الطوب لا يمكن أن يتغلب على المدافع ، فأثر السلامة بالاستسلام ، ولكن هؤلاء كانوا اقلية مسحوقة . لم تلبث أن داستهم الثورة فى انطلاقها ، ولم يفاجأ سعد بتخاذلهم ، فقد رأى صور هذا التخاذل من قبل فى أول الثورة عندما أرسل نداء الى الأمة من باريس يطلب

اليها أن تستمر في الثورة ، وإذا به يفاجأ بأن اللجنة المركزية للوفد في القاهرة تعدل بعض كلماته الثائرة ، وتحذف أو تخفف من لهجتها العنيفة !
كان سعد يقول في بيانه للمواطنين : « صممتم على أن تستقلوا أو يكون الموت خيرا لكم » فحذفتها اللجنة واستبدلت بها جملة : « غير عابئين بالشدائد التي تنزل بكم » !
ومحت لجنة الوفد من البيان كلمة « ثورة » وضعت بدلا منها كلمة « نهضة » !

ويثور سعد في باريس على هؤلاء الضعفاء المتخاذلين ، ولكنه يعرف بعد ذلك أنهم لا يمثلون أغلبية الشعب المصممة على الموت والبذل والغداء .. وهكذا تمضى الثورة عنيفة كما أرادها الشعب ، تسترخص التضحيات ، وتستعذب الموت ، وتستهن بالآخطار ..

و ذات مساء كان الولدان نائمين في فراشهما بالدور العلوى في بيت الامة .. وفجأة رأى الولدان غرفة نومهما الواسعة قد امتلأت بالجنود والضباط . وتصورا أنهما يحلمان ، ولكن يدا قاسية جذبتهما من الفراش . واقبلت سيده انجليزية وفتشت أمهما ، ثم فتشتها ، وبعدها بدأ تفتيش دقيق في كل غرفة من غرف البيت ..

وتصور الولدان أنه تفتيش كالذى تعودا عليه عشرات المرات قبل ذلك .. وإذا بضابط إنجليزي يتكلم العربية بلكنة إنجليزية يأمر الولدين وأمهما بمغادرتيبيت الامة كما هم ..

واعترضت أمهما وطلبت منحها وقنا حتى تخلع ملابس النوم وترتدى ثوبها .. وأن يحذو الولدان حذوها وكلاهما بجلابية النوم ويرتديان ثياب الخروج ..

ولكن الضابط البريطاني اصر على أن يخرج الثلاثة من البيت كما هم ، لأن التعليمات أن يتركوا كل شيء دون أن يمس !

وبعد مناقشة طويلة قبل الضابط الانجليزي أن تضع أمهما معطفا فوق قميص النوم !

وخرجت الام إلى الشارع وولداها يتعلقان بها ..
ورأيا الضباط الانجليز وهم يغلقون البيت ويختمونه بالشمع الأحمر .. وكانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل ، وكان الجو باردا ، والرياح تهب بالجلابية البيضاء ، وتصفع الطفلين ، فيرتعشان ، في زمهرير الشتاء .. وكانت الام حائرة لا تعرف ماذا تفعل وإلى أين تذهب في هذه الساعة المتأخرة من الليل . كان والد الطفلين في دمياط ، وكان شقيقها سعيد زغلول في أسبوط ..

إنها المرة الأولى في حياتها التي تمشي وحدها في شارع في القاهرة ! إنه لم يسبق لها أن ذهبت إلى فندق .. وكيف تسير في الشارع بعد انتصاف الليل وتدخل فندقا وهي يقيمص النوم ؟ وكيف يقبلها الفندق وليس معها امتعة ، فإن الضابط الانجليزى لم يسمح لها بأن تحمل حقيبة يدها وكيس نقودها ! وكان الولدان قد مدا أيديهما إلى لعبهما وكتبهما المدرسية وحقيبتى الكتب . ولكن يد الضابط الانجليزى القاسية كانت أسبق ونزعت من الولدين اللعب والكتب والحقيبتين . كان الضابط يمسك مسدسه في يده .. ولكن الولدين في فزعهما رابا المسدس في عينيه وهو ينظر شزرا ، كما راياه في شفتيه وهو يتكلم بعنف ..

وفي أول الامر حزن الولدان على كرة القدم وعلى مضارب التنس ، أكثر مما حزننا على طردهما من البيت ، ولكن عندما وجدا نفسيهما في الشارع ، ورأيا نظرة الحسرة والجزع في عيني أهمها نسيا اللعب ، وشعر الثلاثة أنهم يواجهون مصيرا مجهولا . أنهم طردوا من بيتهم وأصبحوا مشردين في الشارع بغير مأوى . الشارع مظلم مخيف . كل الشوارع حول البيت مظافة الأنوار . فقد حطمت المظاهرات كل مصابيح الشوارع . وانصرفت السيارات التي حملت الجنود والضباط الذين هاجموا البيت . وعاد الهدوء إلى الشارع ، هدوء موحش رهيب مخيف . ولم يعد ثم صوت إلا أصوات الجنود المكلفين بحراسة الدار ..

مشى الثلاثة يتعثرون . الريح تصفعهم ، الظلام يطعنهم ، الصمت يخيفهم ، الليل حبيب العشاق وعدو اليؤساء . الظلام جنة المحبين وجهنم المشردين . لم يعرف الولدان من قبل قيمة السقف الذى يأوى الناس تحته ، إلا عندما هطلت الأمطار عليهما ، ولم يجدا سقفا يحميهما مع أهمها ، لم يعرفا قيمة الجدران إلا عندما أخذت الريح بتلابيبهما ولم يجدا من يقيهما منها . كانا ننعسان ، يرغبان في النوم ، ولكن الخوف ترك عيونهما مفتوحة . إذ عندما نشعر بالأمان نغمض عيوننا ، وعندما نحس بالخوف يتضاعف عد العيون في رؤوسنا .

وخطر ببال الأم أن تجلس على رصيف الشارع ، فهم يمشون على غير هدى ، لا يعرفون إلى أن يذهبون ، الصدمة عطلت تفكيرها ، جعلتها عاجزة عن أن تفكر في مكان تذهب إليه ، نسيت الطريق إلى كل بيت تعرفه . وإذا ذكرت بيتا عجزت عن الاهتمام إليه في الظلام الكثيب المخيف ..

وجلست الأم على الرصيف المجاور لبيت سعد على شارع الفلكي ، واجلست حولها ولديها ، وأرادت أن تخلع معطفها لتغطيها به ، ثم تذكرت أنها

تردى قميص نومها تحت المعطف ، فاكثفت بأن احتضنت الولدين وغطتهما بطرفه . وطلبت منهما أن يحاولا النوم ، أن الشمس تتأخر في الشتاء عن الشروق .. وحاولت أن تشجعهما على احتمال البرد القارس وقالت لهما إن هناك مئات من الأولاد لا يجدون مكانا يآوون إليه .

وجاء جندي إنجليزي ، وفي يده بندقيّة ، وفي طرفها السونكى ، ودفعها بكعب البندقية وطلب إليها الابتعاد لأنه ممنوع الجلوس في هذا المكان ! ولم تنفجر الأم في الجندي الوقح كما توقع الولدان ، بل ظهر في عينيها الذعر والغزع ، ولعلها تذكرت ما فعله الانجليز بالنساء في العريضة والبدرشين ، وانتفضت الأم من مكانها ، وجذبت الولدين بيديها ، وانطلق الثلاثة ينعثرون في الظلام ، إلى أن وجدوا بيت فتح الله بركات باشا ابن خالة أمهما .

وراحوا يطرقون الباب ، وما من مجيب . وتناوبوا الطرق على الباب . ظلوا ساعة كاملة يطرقون الباب بلا جواب . وشعروا باليأس وهموا بالانصراف ، ثم سمعوا خطوات بطيئة متناقلة تقترب من مدخل البيت ، ثم ظهرت خادمة عجوز تحاول أن تفتح عينيها باصابعها !

لا أحد في البيت . فتح الله بركات باشا منفى في جزيرة سيشيل . زوجته في منية المرشد . أولاده يهوى الدين بركات وأخوته خارج القاهرة . كل هذا والخادمة لم تفتح عينيها بعد . وتعرف أن التي أمامها هي رتيبة .. كانت لا تزال تحاول أن تفتح عينيها باصابعها .. وفجأة ضربت الخادمة يدها على صدرها وقالت :

— ست رتيبة هانم ؟ .. لقد ظننت أنكم متسولون !

وأسرعت تفتح الباب المؤارب على مصراعيه . كانت طوال الحديث قبل ذلك حريصة على أن تبقى الباب مؤاربا ، وتطل من فتحة صغيرة فيه وتسمع لأصابعها التي تحاول أن تفتح بها عينيها !

وقالت لها رتيبة وهي تبسم : فعلا .. نحن شحاذون ! لا نجد ماوى لنا نبيت فيه ! لقد طردونا من بيت الأمة واغلقوا الباب ..

وأسرعت الخادمة فاضاعت الأنوار وفتحت أبواب الغرف ..

وحملت إليهم الخادمة الأغذية والبطاطين والطعام ..

ولكنهم لم يشعروا بحاجة إلى الطعام .. إنهم طلبوا كل ما في البيت من أغذية وبطاطين ..

فقد كانت حاجتهم إلى الدفء .. والأمان .. أكثر .. من حاجتهم إلى الطعام !

* * *

● الفصل السادس عشر ●

إن قصة غرام التوامين الصغيرين بالصحافة بدأت في بيت الأمة . الجو المثير حولهما هو الجو الملائم لولادة الصحف . الصحافة هي أخبار وفكر . هي ثورة وحركة . هي شيء جديد كل يوم . هي دول تقوم ودول تسقط . هي معارك وحروب هي تاريخ يكتب صباح كل يوم . هي قصص الانتصارات ومآسي الهزائم . هي ناس يصنعون الأحداث ، وأحداث تصنع الناس . هي مزيج من وظيفة المؤرخ ووظيفة النبي !

وهل يوجد خير من مركز قيادة ثورة ليكون المكان الذي يولد فيه الصحفي . يعيش مولدها . ويعرف أبطالها . يشهد معاركها ويحيا صراعا . يرقص في أفراسها ويبكي في ماتمها . الصحفي الذي يتفرج على الثورة لا يستطيع أن يتغلغل إلى أسرارها وخباياها ، أما الصحفي الذي يشارك فيها فهو وحده الذي يستطيع أن يعرف الفرق بين طعم الحبر الذي تكتب به قصتها ، والدम الذي تسطر به حقيقتها .

وقد شب التوامان الصغيران لا يسمعان إلا حديث الصحف . ما قالته الصحف اليوم وما ستقوله غدا . ما نشرته وما منعت الرقابة الانجليزية نشره ! ما قاله الصحفيون تأييدا للثورة فظهر مكانه مساحة بيضاء في الجريدة ، وما كتبه خصوم الثورة فنشر كاملا بالعناوين الكبيرة . كل كلمة في الصحيفة عن الثورة تعنى شيئا ! لا يمكن أن يفوت الناس ما بين السطور فيقرأوه ، وما بين الكلمات فيلهموه . يحاولون أن يستنطقوا المساحات البيضاء لتتكلم وتحكى الأسرار والأخبار الممنوعة . كتاب الثورة أشبه بالفرسان . صحفهم هي جيادهم . أقلامهم هي حراهم ومدافعهم . مغامراتهم مع سلطة الاحتلال ومع الحكم الظالم أشبه بالحلقات الشائقة في سلسلة سينمائية . لهم بطولات وغزوات . كلماتهم تدوى كالقنابل . مقالاتهم بنار كالسيوف عبراتهم يرددها الناس ويحملونها كأنها مشاعل في الظلام . وفي سنة ١٩٢٢ أصدر التوامان مجلتهما الأولى . أطلقوا عليها اسم مجلة الحقوق . ولم يقع اختيارهما على هذا الاسم إشارة إلى حقوق الشعب التي قامت الثورة لاستردادها . ولا للدفاع عن حقوقهما التي كانا يتصوران أن اسرتهما اغتصبتها عندما منعتهما من الذهاب إلى المدرسة بالعربة الحانطور ، ولا لرفضها أن تزيد مصروفهما أكثر من قرش في الأسبوع ، ولا لأصرار

أهمها على أن يشرب كل واحد منهما كوبا من اللبن قبل أن يمد يده إلى الطعام
الشهي على مائدة الإفطار . ولكنهما اختارا هذا الاسم لأن خطهما كان رديئا !
ووجدوا عند والدهما مجموعة من مجلة قديمة اسمها مجلة الحقوق . وكان اسم
« الحقوق » مكتوبا بخط بديع ، فنزعاها عن المجلة والصقاها على ورقة الكراس
التي تتكون منها المجلة !

وكانت المجلة كلها مكتوبة بالقلم الرصاص . صفحة بخط على وصفحة
أخرى بخط مصطفي . وكانت المجلة تحوى أخبار البيت ! ولكن أخبار البيت
كانت أخبار مصر كلها !

ان الانجليز نفوا جدهما ! وجدهما هو زعيم الثورة . ان مصابهما العائل
أصبح مصاب الأمة كلها . انه الحدث الذى أدى إلى انفجار الثورة . إلى آلاف
القتلى والجرحى . إلى قيام معارك دامية في كل شارع وكل قرية . إلى قطع
السكك الحديدية . إلى تعليق الشهداء في المشايخ . إلى ملء السجون بعشرات
الآلاف من الوطنيين ! هذا الخبر الذى نشره التوامان في مجلتهما الحقوق ،
بالقلم الرصاص منعت كل صحف مصر من نشره .. ان مجلتهما ذات النسخة
الواحدة سبقت صحف مصر بالنبا الخطير !

والخبر الصغير الذى نشره عن نفى ابني خالة أهمها إلى سيسيل . هو خبر
هم مصر كلها . لأنه تصادف ان ابني خالة أهمها هما فتح الله بركات وعاطف
بركات عضوا الوفد ومن زعماء الثورة .

والخبر البسيط عن مصادرة السلطة البريطانية لأموال والدهما ، لم يكن
خبرا له أهمية عائلية فقط ، فإن اسم والدهما كان من بين أسماء رجال الوفد
الذين قررت السلطة البريطانية مصادرة أموالهم وأموالهم ..

والخبر الذى نشره عن طردهما من بيتهما ، لم يكن خبرا شخصيا ، فقد
تصادف أن كان بيتهما هذا هو بيت الأمة مركز قيادة ثورة ١٩١٩ .

وهكذا أصبحت أخبارهما الشخصية هي أخبار الوطن ، ومأسيمهما الخاصة
هى مأسى شعب بأكمله ، فلم تكن مجلتهما الأولى مجلة أسرة وإنما جريدة
أمة . ولم تكن أخبار ولدين صغيرين وإنما أنباء شعب كبير . فقد امتزجت
واختلطت واندمجت حياتهما بحياة هذا الشعب في محنة ومأسية .

وحدث مرة أن تقرر أن يلقي سعد زغلول خطبا سياسيا في نادى سيروس .
وطلب التوامان الصغيران من جدهما أن يسمح لهما بحضور هذا الاجتماع
فوافق . وتصادف في هذا اليوم بالذات ان أعلن تاليف حزب الأحرار
الدستوريين . وتوقع الذين حضروا هذا الاجتماع أن يكون خطاب سعد عن
هذا الحزب الذى تألف خصيصا لمحاربة سعد زغلول .

وأعد لسعد منبر للمخاطبة يصعد إليه على سلم مؤلف من عشر درجات .
ووقف سعد وخطب ثلاث ساعات كاملات ، وهاجم الإنجليز والاحتلال ،
وانتهى من خطابه دون أن يذكر حزب الأحرار الدستوريين بكلمة واحدة .
وذهل الشعب أن يغفل الزعيم الحزب الجديد . ثم هبط من السلم درجة ، ثم
درجة ثانية ، ثم درجة ثالثة ، ثم درجة رابعة ، ثم درجة خامسة ، ثم درجة
سادسة . وفجأة أشار بيده الى الشعب الذى يدوى صوته بالهتاف والتصفيق
أن يصمت .

وسكتت الجماهير .. وفجأة قال سعد ، وهو على الدرجة السادسة للسلم :
نسيت أن أقول لكم أنه تألف حزب اسمه حزب الأحرار الدستوريين !
ثم مكث ساعتين كاملتين يهاجم الحزب الجديد .. وفهم الشعب من هذه
الإشارة أن الزعيم أراد أن يقول للجماهير أنه حزب تافه حتى أنه نسى أمره ،
ولم يذكره إلا بعد أن انتهى من خطابه . وأنه تعمد أن ينزل ست درجات من
سلم المنبر ليقول للشعب أنه أراد أن يهبط ليتحدث عن هذا الحزب إمعانا فى
احتقاره .. وجنت الجماهير بهذه الحركة التمثيلية وقالوا أنه قتل بها الحزب
الوليد !

وانتهز مصطفى إصدار العدد الجديد من مجلة الحقوق وكتب يصف ما
سمعه فى الحفلة وما قاله الناس ، وحمل هو وعلى عدد المجلة المكتوبة
بالرصاص الى سعد .. وقرأ سعد الوصف وضحك وقال :

— أبدا .. أنا فعلا نسيت أن حزبا تألف اسمه حزب الأحرار الدستوريين !
وكان المقال مليئا بالأغلاط النحوية والأغلاط الإملائية واسم « كان »
المنصوب ، وإسم « إن » المرفوع ، ومضى سعد يصلح الأخطاء كأنه يصحح
مقالا سيقروء مئات الألوف لا مقالا لا يزيد توزيعه على نسخة واحدة بالقلم
الرصاص ! ولم ينتقد سعد خط التوأمين لأن خطه كان أقيح من خطهما ..
ولكنه انتقد قول مصطفى أن سعد لم يكن يخطب وإنما كان يغنى ! والواقع
أنه كان أخطب رجل عربى فى القرن العشرين . كان يخطب وكأنه يغنى ! وكان
بعض الذين يسمعون لا يتمالكون أنفسهم فيهتزون طربا وكأنهم يسمعون
لحنا راقصا . وكان يحرك الجماهير وكأنه مايسترو يعزف لحنا موسيقيا . كان
يتسلط على سامعيه وكأنه يسحرهم ، أو ينومهم تنويما مغناطيسيا لقد بلغ
من تأثيره أنه كان قادرا على أن يبكيهم ويملا عيونهم بالدموع ، ثم يجعلهم
ينفجرون بالضحك فى نفس الوقت فهو حاضر البديهة يأخذ من الجماهير
ويعطيها ، يناجيها ويداعبها ، ويهز المقاعد من تحت الجالسين ، فيحول
القاعدين الى نائرين . والهادئين الى متنمرين والمستسلمين الى منقضين
منذفعين .

ولم يكن الميكروفون معروفا في تلك الأيام ، ولم يكن صوت سعد صاخبا ، كان على العكس يبدأ ضعيفا وكأنه صوت رجل مريض لا يقوى على الوقوف على قدميه . ولكنه كان قادرا على أن يسمع هذا الهمس لعشرات الألوف ، فما يكاد يقف ويرفع يده حتى يصاب الألوف بالبكم ، فلا تسمع حركة ، ولا يزعجك صوت ، يتحول السامعون الى أشبه بالمصلين الخاشعين . يكاد كل منهم يكتم أنفاسه ليلتقط كل كلمة من فم الخطيب حتى السعال يحاولون حبسه داخل أفواههم حتى لا ترتفع نغمة نشاز في اللحن الموسيقي الذي يسمعون . ثم يرتفع صوته تدريجا فيختفى فيه الرجل المريض ويظهر الخطيب الجبار يتوارى الحكيم المسن ويبدو البطل الشاب . كانت عباراته بليغة فيها سحر وروعة وبيان . وكان يقطعها بكلمات عامية أو بنوادر يترجم بها أحداث الساعة الى قصص ساخرة وأمثال سائرة مما يتردد بين أولاد البلد والفلاحين ، وكانت خطبه السياسية أشبه بمباراة للملاكمة . كأنه هو بطل العالم يصارع هواة الملاكمة فيبدأ ضرباته برقة ، وكأنه يحاورهم ، ثم يحاصرهم ، ثم ينقض عليهم بالضربة القاضية . وكان الشعب يشهد هذه الخطب كما يشهد المتفرجون مباراة في الملاكمة يثيرهم ما فيها من مفاجآت ، ويهزم فن الملاكم المتمكن من فنه ويطربهم انتصاره الدائم في كل معركة . وكان المرحوم عثمان الأعصر باشا عمدة المحلة من خصوم سعد الأداء ، وكان يقول أنه يرفض أن يذهب الى أى مكان يخطب فيه سعد خشية أن يقتنع ا وكان خصومه يتهمونه بأنه ينوم سامعيه بالتنويم المغناطيسى ، بدليل أنهم لا يكادون يجلسون اليه حتى يفقدوا ارادتهم ، ويسيروا الى حيث يريدهم أن يسيروا ، ويحركهم كما يهوى ويشاء .

والواقع أن قوة سعد زغلول لم تكن في كلماته فقط ، ولا في إشاراته ، ولا في طريقة خطابته إنما في صوته في نبرات هذا الصوت كانت تكمن قوة غريبة في الاقتناع ، كان هذه النبرات تجرد السامع من مقاومته ، إذ كانت تتميز برنة صدق غريبة . إن الصوت في بعض الأحيان يفضح الناس . إن كلمة واحدة يقولها شخصان مختلفان فتصدق أحدهما وتكذب الآخر . هناك صوت يدخل القلب وصوت يدخل الأذن . صوت يشجيك ولا يقتنعك ، وصوت يطربك ويقتنعك . مطرب يغنى للحب فتهتز رأسك ومطرب يغنى للحب فيهتز قلبك ، ويعيش اللحن في أذنك وتحس كأنه يغنى لك وحده ! ولكن لا يكفي أن تكون محطة الإرسال قوية ، حتى تستقبل الخطبة جميع محطات الاستقبال . إن الخطيب العظيم يجب أن يكون مقتنعا ليقنع ، يجب أن يؤمن بما يقول لينتقل إيمانه الى الملايين . النبرات المؤمنة الصادقة وحدها هى محطات الإرسال القوية ، أما النبذة غير المؤمنة الخادعة فإنها لا تلقى أذنا واعية !

ولكن سعد زغلول لم يعجبه أن مصطفى كتب في مجلته الصغيرة ذات النسخة الواحدة أنه كان لا يخطب وإنما كان يغنى . ولعله كان يحكم العصر الذي يعيش فيه يعتبر الخطابة أعظم كثيرا من الغناء ، ولم يعيش العصر التالي عندما أصبح المطربون أقوى تأثيرا من أخطب الخطباء ، وإن الناس تحفظ أغانيهم الوطنية ولا تحفظ خطب الزعماء !

وشهدت صافية بعض أعداد مجلة الحقوق وأعجبت بها . لكن أهمها لم تعجب بالمجلة ، وطلبت من التوأمين أن يستغلا وقتها في مراجعة دروسهما بدلا من إضاعته في كتابة مجلات بالقلم الرصاص . وشكا الولدان إلى صافية وسعد موقف أهمها العدائي من مشروعهما الصحفى الوطنى العظيم . وفوجئا بصافية تؤيد أهمها وتقول أنه يكفى ما أصدره من أعداد ، ويجب التفرغ لدروسهما !

وأحس التوأمين بخيبة أمل مريرة . لقد فقدت مجلتهما جميع القراء في وقت واحد ! وبدأ التوأمين يفكران في قراء جدد ! وهما تفكيرهما إلى أن يستبدلا بقراء بيت الأمة زملاءهما من تلاميذ مدرسة المنيرة الابتدائية .. كان قراءهما في بيت الأمة هم جدهما وستهما وأباهما وخالهما ! خمسة قراء فقط .. ومع ذلك لا يشجعون هذا المجد الصحفى المكتوب بالقلم الرصاص ..

فإذا خسرا هؤلاء القراء الخمسة .. فإن لديهما ٣٠٠ تلميذ هم تلاميذ مدرسة المنيرة ! ولكن هذه المغامرة الجديدة تقتضى أن يتجها إلى العمل السرى ! أن تنزل المجلة تحت الأرض بعد أن كانت تصدر فوق الأرض ، فالمفروض ألا تعرف أسرتهما أنهما خالفا الأمر الصادر بوقف المجلة والالتفاف إلى دروسهما . وليس من المعقول أن يقرأ ثلثمائة تلميذ نسخة واحدة بالقله الرصاص .

وتذكر التوأمين أنهما استفادا من مشاهدة طبع المنشورات في بيت الأمة أن مجلتهما هي منشور سرى . فلماذا لا يطبعانها على البالوظة كما يطبع الثوار المنشورات ؟

إن طريقة البالوظة كانت هي الطريقة المتبعة للطبع قبل انتشار ماكينات الاستنسل التى لم تكن معروفة في تلك الأيام ..

ووجد التوأمين مطبعة بالوظة قديمة في البدروم فسطا عليها ونقلها إلى السطح لتكون مطبعة المجلة .. ولم يجدوا ورقا أبيض ليسرقاه .. وكما يحدث لأصحاب الصحف فقد كانت المشكلة الأولى هي مشكلة الورق ! وفكرا في أن يجمعا من كل تلميذ سن ريشة لم يستعمل ثمنا للنسخة الواحدة ، وجمعا

السنون وباعاها لمكتبة الوفد في شارع الفلكي وأخذوا بدلا منها ورقا أبيض وهكذا صدر العدد الأول من مجلتهما !

وكان عدد المطبوع من المجلة ٣٠ نسخة .. وعدد النسخ المباعة ١٨ والمراجع ١٢ نسخة !

وبدأت حالتها المالية ترتبك ! لم يكف مصروفهما لتغطية الخسارة ، ولم يعد ممكنا صدور المجلة مرة كل اسبوع كما وعدا القراء ، فظهرت مرة كل شهر ، وأحيانا مرة كل شهرين عندما يضطران لشراء شوكولاتة من كاتين المدرسة فيضيع رأسمال المجلة !

ان البطون في بعض الأحيان يعلو صوتها على صوت الأفكار ، وقد كان نداء الشوكولاتة مارة « نسلة » يضعف مقاومة الصحفيين الصغيرين فتتهاوى إرادتهما أمام غلافها الأحمر المذهب ! وكانت شركة نسلة تتفنن في جذب الصغار الى شوكولاتتها فتضع في كل قطعة رسما له رقم ، وكانت تعلن بأن من يجمع جميع الأرقام ينال عشرة جنيهات . وكان الرقم النادر هو صورة « عش » للعصافير .

واقنع الصغيران نفسيهما بأن أكلهما الشوكولاتة هو جزء من مغامراتهما الصحفية . فلعلمها يقعان على صورة العش فيكسبا الجنيهات العشرة وبذلك يضمنان رأسمال مستمرا لمجلتهما الفلسفة !

ولكن العش لم يجيء قط ، واستمرت إزمتها المالية الطاحنة ، واستمرت مجلتهما الصغيرة في عدم انتظامها في الصدور .

ولم يكن المال وحده أكبر مشاكلهما ، فقد كانت المشكلة الكبرى هي مشكلة « الأمن » . كيف يستطيعان طبع المجلة في غفلة من أمهما وأبيهما وكيف يستطيعان توزيعها على التلاميذ في غفلة من قريبيهما ناظر المدرسة ! وقد تعلمتا في مركز قيادة الثورة كيف يكون العمل السري كيف تطبع المنشورات في غفلة من الرقباء وكيف يتم توزيعها في غفلة من رجال البوليس . وكيف يمكن تخبئة آلة الطباعة من هول التفتيش .

وأمكنهما أن يطبقا كل ما تعلماه ! انهما عاشا في بيت خارج على السلطة . وهما بهذا العمل يخرجان على سلطة أمهما . إن أسرتهما تتفنن في الخروج على القانون ، وهما يتقنن في الخروج على قانون الأسرة الذي يلزمهما بالطاعة العمياء . ولعل الأسرة لم يخطر ببالها أن المبادئ التي تنادى بها لمقاومة الانجليز سوف يرثها التوأمين ليقاوما بها إرادة الأسرة التي ترى أن اشتغال تلاميذ صغار بإصدار مجلات هو كلام فارغ ومضيعة للوقت وإهمال للدروس وسقوط مؤكد في الامتحانات .

كانت أمهما تتابعهما باستمرار . عيناها تقتفیان أثرهما . تحاول أن تعرف دائماً ماذا يفعلان . وكانت قدرتها العجيبة على كشف جرائمهما الصغيرة تثير ضيقتهما . وكانا يسميان أمهما « شارلوك هولمز » وهو بطل القصص البوليسية المتخصص في كشف الجرائم الغامضة ، وكانا يسميان أباهما « الدكتور واطسن » وهو مساعد شارلوك هولمز في هذه القصص ! وبالرغم من عبقرية شارلوك هولمز وكفاية الدكتور واطسن استطاع التوأمين الصغيران أن يضللا أمهما وإباهما مدة طويلة ، فيصعد على إلى غرفة الغسيل في السطح ويتولى طبع مجلة الحقوق ، بينما يقف مصطفى على رأس سلم السطح يراقب الطريق ، فإذا سمع وقع أقدام أمهما صفر بفمه ، فيسرع على بإخفاء آلة الطباعة تحت اكوام الغسيل ، وتصعد أمهما فترى الولدين يلعبان عسكر وحرامية !

ونجت المجلة من كل عمليات الضبط والمصادرة . كان الولدان يتفننان في إخفاء آلة الطباعة فهما لا يخفيان في مكان واحد مرتين وقد برعا في أخفائها حتى بلغت بهما الجراة أنهما أخفياها ذات مرة تحت سرير صفيّة زغول ، ولم يخطر ببال أحد أنه من الممكن أن يخفى الطفلان إناء البالوطة في هذا المكان المقدس !

ولكن ذات يوم وقعت كارثة لم يتوقعها التوأمين الحريصان ، فقد وقع أحد أعداد المجلة في يد ناظر المدرسة ! وأحس التوأمين أن القيامة قامت . إنها نهاية العالم فعلا . ان أمهما ستفعل بهما ما يفعله الإنجليز بالنوار . ستعلق لهما المشانق ستضعهما في السجن مكبلين بالسلاسل والأغلال ستحرمهما من المصروف . وحاولا عبثا اقناع ناظر المدرسة بأن يتولى تأديبهما ويخفي الخبر عن أمهما ولكن ناظر المدرسة أصر على أن يذهب ويقابل أمهما ويضع بين يديها جسم الجريمة ! وكانت المجلة مكتوبة هذه المرة بخط مصطفى ، وأراد مصطفى أن يتحمل المسؤولية وحده ، ولكن على أبى إلا أن يشاركه في المسؤولية ، ويتحمل نصيبه من العقاب ، وكان العقاب قاسيا لا يخطر لهما على بال ، فقد غلت الأم بيضة ساخنة ووضعتها في الكف اليمنى لكل منهما . ولسعت النار الكفين الصغيرتين وحرقتهما . وكان الألم مروعا . ودهش الولدان من هذا العقاب الوحشي ، من الأم الحنون التي كان قلبها كله يفيض بالرقّة والحب والحنان ، ولكن الأم اعتذرت عن قسوتها بأنها أرادت أن تحرق الأيدي التي كتبت هذا الكلام الفارغ . أنها أرادت بهذه الطريقة الغريبة أن تشفيهما من لعنة الصحافة ! ولم يستطع الكى بالنار أن ينتزع من أصابع الولدين المحترقة حب

الصحافة . ان عملية الحرق لم تقتل هوايتها بل حفرتها فيها كالوشم ! بقيت أصابعها طوال عمرها تاكلهما لتقبض على القلم وتكتب . يمكن للنار ان تزيل ما رسم على السطح ، اما ما تحت السطح فإنها لا تصل اليه ولا يمكن محو اثره . كان التعذيب مؤلما شعر كل واحد منهما بأنه يشم رائحة لحمه وهو يشوى ويتصاعد منه الدخان . بقيت الآلام المبرحة في كليهما زمنا . ومع ذلك تواصلت هوايتهما للصحافة تحولت الهواية الى هوى ، وأصبح الحب غراما مبرحا . احس الولدان أنهما أصبحا بطلين صغيرين . كانا قد قرأ قصة جان دارك التي أحرقتها لتتخلل عن عقيدتها ففضلت الموت مع الايمان ، على الحياة مع التناكس لمبادئها . شعر كل واحد منهما أنه أصبح « جان دارك » صغيرا ، وتولد فيهما عناد وصمود وإصرار على الاستمرار في هذا الهوى الذى أحرقا ايديهما من أجله . ولم يشعر التوأمين بحقد على أمهما من أجل هذه القسوة الغربية . فهما يدركان تماما أنها تحبهما حبا يقرب من العبادة . وإنها فعلت ما فعلت لكي تشفيهما من مرض تعتقد أنه عضال !

كانت تتصور أنهما كلما هما بالكتابة في مجلة وتناولوا القلم تذكرنا ألم أصابعهما المحترقة فاليا بالقلم ، كان شعورها الداخلى ضد اشتغالهما بالصحافة كانت تعتبرها مهنة ملعونة . مهنة الشقاء والعذاب مهنة السجن والاضطهاد كانت تعلم أن الصحفيين يعيشون حياتهم مشردين مطردين . إما أن يموتوا من الجوع أو يموتوا في السجن . وكانت تريد أن تبعد ولديها عن هذا الشقاء لا تريد لهما هذا المصير . تغزغ من هول هذه المهنة على أحب مخلوقين الى قلبها . ومن أجل هذا تقسو هذه القسوة العجيبة على الطفلين الصغيرين . متوهمة أنها تنتزع بالنار هذه الهواية التى سيدفعان فى المستقبل حياتهما وحريتهما وعمرهما وكل ما يملكان على مذبج هواها ! كان من الغريب أن تكره الأم هذه المهنة كل هذه الكراهية ، وتخاف منها كل هذا الخوف ، وقد كان خالها سعد صخفيا وكان أصدقاء زوجها من الصحفيين وكان والد زوجها صاحب مجلة « نور الاسلام » وكان الحديث دائما على مائدة خالها عن الصحفيين وكثيرا ما أحاطهم بهالة من البطولة فكيف عرفت الأم ما يكابده الصحفيون وهى لم تعرف الصحفيين ، ولم تختلط بهم . كيف تصورت أن مهنتهم هى مهنة الخطر ولم تواجه الصحافة يؤمئذ الأخطار التى واجهتها بعد ذلك . كان أقسى حكم على الصحفى يؤمئذ ستة شهور سجن ، لم يكن قد حكم بعد على صحفى بالسجن المؤبد ، ولا على كاتب بالاعدام . لم يكن الصحفى المصرى قد ذاق بعد عنف الطغاة ولا طبعات المستبدين لم تتعرض الصحف يوما لالقاء القنابل عليها ولا نسفت دورها بالديناميت . كيف تنبات الأم بكل هذا . أياكون قلب الأم دليلها ؟ إن قلب الأم هو قلب نبى . ترى الخطر

على ولدها قبل سنوات من وقوعه . ولكن عنفها في مقاومة هذا الخطر هو الذى جعل التوايمن يقبلان عليه . ويتشبثان به . كل ما كانت تردده الام عن مساوئ الصحافة كانت أدلة جديدة تثبت إيمانها بهذه المهنة التى ملأت عليهما تفكيرهما وإحلامهما ..

لقد عاش الولدان في جو التمرد جو الثورة . جو الرفض . رايابا كبار الاسرة يتمردون على السلطة الانجليزية . على السلطان . على الدولة . رايامثلهم يثورون على الانظمة القائمة . يرفضون الاوامر . يتحدون التعليمات . راياكل من حولهما يرفضون الخضوع لتحذيرات قيادة الجيش البريطانى . يتحدون منشورات نائب الملك . يرحبون بالخطر . يستعذبون الموت . هذا الجو نفسه هو الذى جعلهما يتمردان على اوامر امهما بترك الصحافة . يثوران عليها . يرفضانها ويتحديانها .

ولكن الفرق بين امهما وقيادة الاحتلال ان الشعب كان يكره المحتلين . وكانا يحبان امهما . ولهذا اراد ان يريحها من عذابها وقلقها والامها فظاهرا بانهما شغيا من داء الصحافة الوبيل .

ولم تطمئن الى هذا التاكيد . وتصورت ككل ام ان ولديها ضحية عصابة شقية من زملائهما في مدرسة المنيرة . وان هؤلاء الاولاد الاشقياء غير المؤدبين الوقحين هم الذين يحرضون ولديها على إصدار المجلات . ورات ان الحل ان تذهب بولديها من بيت فتح الله بركات باشا . وتغادر الى دمياط . حيث تدخل الولدين المدرسة الابتدائية هناك بعيدين عن جو مدرسة المنيرة الموبوءة بهواة الصحافة من التلاميذ !

وشعر الولدان بان امهما تنفيهما من القاهرة كما نفت السلطات الإنجليزية جدهما الى مالطة وسيشيل وجبل طارق . وصور لهما خيالهما الطفل انها تضحية يقدمانها من اجل صاحبة الجلالة الصحافة !

وكانا في قرارة نفسيهما سعيدين بهذا النفي ! ففي هذا المنفى السحيق سلتقيان من جديد بجارتيهما الحبيبتين حسنية وسعاد ! اذا كان قد خسرا قراءهما في مدرسة المنيرة فقد ربحا حبيبتيهما في دمياط ! سوف يطويان مشروع المجلة . وينشران الحب ! سوف يختبئان في السطح من امهما لا م اجل القيام بطبع المجلة . يل من اجل استئناف حفلات الزفاف !

وما كادا يصلان الى دمياط ويدخلان مدرستهما ويجتمعان بالحبيبتين القديمتين حتى قررا ان يستأنفا المشروعين معا .. الحب والصحافة ! كانت ستهما ام ابيهما هي المخبا السرى كانت تقيم في طابق وحدها في نفس البيت بدمياط . وكانت تعطيهما نقودا من وراء امهما لشراء حلوى الهريسة والديدة والمشبك . وعندما علمت ان الحلوى الحقيقية بالنسبة إليهما هي

إصدار مجلة بالبالوطة ، قبلت أن تخفى عندها المطبعة وأن تتولى حراستها في أثناء طبع المجلة الممنوعة . وكانت فخورا بأن زوجها المرحوم الشيخ أمين يوسف كان يصدر مجلة نور الاسلام ، فماذا يمنع من أن يرث حفيده هذه الهواية . كانت مجلة جدهما تخسر باستمرار ولكنه كان سعيدا لأن الشيخ محمد عبده يكتب فيها باستمرار . فماذا يمنع من أن تخسر مجلة التوأمين المطبوعة بالبالوطة ؟ ! وعندما علمت ستهما بأن أمهما كوت أيديهما حتى يكفا عن إصدار مجلة أخرى غضبت أشد الغضب ، وتحمست لأن تشترك معهما في المؤامرة ، وتتستر عليهما حتى لا تحرق أمهما أيديهما مرة أخرى !

وعادت مجلة الحقوق الى الظهور بانتظام وراحا يوزعان المجلة على تلاميذ مدرسة دمياط الابتدائية ولم يكتفيا بمجلة واحدة ، فاستقل مصطفى بمجلة الحقوق . وأصدر على مجلة منافسة باسم « البيان » . وكان اختيار اسم البيان للسبب نفسه الذى اختارا من أجله اسم مجلة الحقوق ، فقد كان والدهما يحتفظ بمجموعات من مجلة البيان التى كان يصدرها الكاتب الشيخ عبدالرحمن البرقوقي ، وكان اسم البيان مكتوبا بالخط النسخ الجميل . وكانت تقيم مع ستهما احسان ابنة عمتهما . وكانت تكبرهما ببضع سنوات وكانت أمهما تطلب من احسان أن تصحبهما للقرية في شارع البحر بدمياط . كان هذا الكورنيش الصغير على النيل هو المكان الوحيد الذى يتزوره فيه الناس في تلك المدينة . وكانت احسان صديقة للأخت الكبرى لحسنية وسعاد . ومكنت هذه الصداقة للولدين من لقاء الحبيبتين الصغيرتين كل يوم عدة مرات . مرة في السطح ومرة في شارع البحر ومرات من نوافذ ستهما المطلة على بيت حسنية وسعاد . وكانت هذه الأيام أسعد أيام التوأمين الصغيرين ، يصدران مجلتيهما ، ويقابلان حبيبتيهما فإذا رأت أمهما انهما ارتكبا ذنبا يستحقان عليه العقاب أسرعوا الى الطابق الذى تقيم فيه ستهما ، فحمتها من كل ضرب أو عقاب !

وتقدم مهندس شاب اسمه عبدالعظيم طنطاوى وخطب احسان ابنة عمتهما ، وعقد قرانه عليها . وكانت التقاليد العجيبة يومها تمنع الزوج أن ينفرد بزوجته إلا بعد الزفاف . وكانت الفترة بين عقد القران والزفاف تتراوح بين عام وعامين ! واختارت الأسرة التوأمين الصغيرين ليحرسا ابنة عمتهما من زوجها ! فكانت لا تستقبله في المنزل إلا في وجودهما ، وكانت لا تخرج معه الى شارع البحر إلا بصحبتيهما !

وكان عبدالعظيم شابا متفتحا ، أقام في ألمانيا ، ونال منها بكالوريوس الهندسة في الكهرباء . وكان عجيبا أن يتحمل شاب عاش في أوروبا هذه التقاليد العتيقة ، ولكنه تحمل بصبر عجيب هذا الحصار . وكان عبدالعظيم

اول من حدث التوأمين عن أوروبا وما فيها ، عن ذلك العالم الغريب الذى يجهلان كل شيء عنه . وكان مفتونا بقائد ألماني هو الماريشال هندنبرج ، حتى انه كان يصير على أن يسمى ولده الأول « هندنبرج » . وعندما تمسكت الأسرة بأن يكون اسمه محمد بإسم والد التوأمين اكتفى الأب بأن يطلق على ولده اسم هندنبرج على سبيل التدليل !

وتأثر الولدان بما سمعاه عن أوروبا من عبدالعظيم . وبدأ نوع جديد من المقالات يدخل في مجلتهما المملوءة بأخبار مصر ، فهناك مقالة عن الحياة في أوروبا ، والتعليم في ألمانيا ، والمرأة الأوروبية وكيف أنها تختار زوجها بنفسها ، وتخرج مع الرجل الى الشارع بدون حراس ! وحدثهما عبدالعظيم عن الصحف الألمانية ، وجاد عليهما ببعض المجلات الألمانية ، وفيها صور لممثلات ألمانيا .. ولأول مرة ظهرت مجلة البيان وعلى غلافها صورة امرأة مقصوصة من المجلات الألمانية .. ومع ان قراء « البيان » لا يتجاوزون التاسعة من عمرهم ، فإن الاقبال على هذا العدد كان أضعاف الاقبال على كل أعداد مجلات الحقوق والبيان !

النجاح الصحفى والحب السعيد والحياة في حماية ستهما من عقاب أمهما ومطاردتها جعلهما يعيشان في حلم . كان التوأمان يعيشان في نشوة انتصار واستقرار وهناء لم يشعرا به في يوم من الأيام . كان الدنيا بدأت تنقسم لهما بعد طول عيوسها وتجهمها . الوطن نفسه أصبح في عيد ، بعد أن أفرج الإنجليز عن سعد زغلول تحت ضغط الثوار وحوادث اغتيال الإنجليز .. أفرج الإنجليز عن الزعماء المنفيين وعادوا الى بلادهم . أفرجوا عن أعضاء الوفد المحكوم عليهم بالاعدام ، وكانوا معتقلين في معسكر المظلة . أفرجوا عن زعماء الوفديين المعتقلين في معتقل المحاريق في الصحراء . أفرجوا عن أعضاء الوفد المعتقلين في قشلاق قصر النيل . ألوف من المعتقلين خرجوا من السجون والمعتقلات . تلقى والد التوأمين خطابا من السلطة العسكرية تطلب منا الحضور لاستلام بيت الأمة الذى كان مغلقا بالضربة والمفتاح . أفرج في كل مكان . الثورة انتصرت على أعدائها . كان خصوم الثورة يؤكدون انه لن يفرج عن مسجون واحد . كانت الصحف البريطانية الاستعمارية تؤكد أن سعد زغلول سيبقى الى آخر يوم في حياته مسجوناً في قلعة جبل طارق . عاش التوأمان الصغيران في ليل ليس له آخر . كانت الأنباء قبل ذلك تبعث على اليأس . مرت بمصر في تلك الفترة أيام بدت فيها هادئة ساكنة كانها رضية بمصيرها واستسلمت لقضائها ، رضية بالهوان الذى فرضه عليها الأقوياء . وكان حسنى أفندى مدرس اللغة الانجليزية في مدرسة دمياط يقول للتلاميذ :

— احفظوا الدرس الانجليزي يا اولاد ! يظهر أن الانجليز سيحكمونا الى الأبد ! سيكون القرآن باللغة الانجليزية !
ولعل حسنى افندى كان يريد بهذه الطريقة الاستفزازية أن يحمس التلاميذ ويضاعف من حقدهم على أعدائهم . ولكن الولدين الصغيرين كانا يكرهان حسنى افندى . كان يبدو في عيونهما كغراب الشؤم يحمل إليهما نأى الهزيمة . وكان الولدان يعودان الى امهما باكيين منتحبين يشكون ما يقوله حسنى افندى !

وكانت امهما تقول لهما : عودا وقولا له إن مصر سوف تنتصر وتهزم الانجليز .. ويعود الولدان ويكرران كلمات امهما كالبيغاوات ، ويسخر حسنى افندى ويقول :

— خذوا فالكم من عيالكم ! .. في المشمش إن شاء الله : احفظوا دروس اللغة الانجليزية وإلا فستموتون من الجوع !
وخطر ببال الولدين أن الماريشال هندنبرج ، الذى حدثهما عنه عبدالعظيم طنطاوى قد يصنع المعجزة " قد يعلن الحرب على بريطانيا وتستقل مصر ! وحمل الولدان هذه الفكرة الى حسنى افندى وقالوا له انهما سمعا من اوثق المصادر أن الماريشال هندنبرج سيقود جيشا ألمانيا ويهزم الانجليز في مصر ! وسخر حسنى افندى من جهل الصبيين ، وقال أن الماريشال هندنبرج هزمه الانجليز من عامين وإن ألمانيا استسلمت لبريطانيا !

ولام الولدان زوج ابنة عمتهما لأنه جعلهما يضعان آمالهما في قائد مهزوم ! وفي يوم آخر اذيعت أنباء انتصارات مصطفى كمال أتاتورك على جيوش الانجليز واليونانيين ، وتحمس الشعب لمصطفى كمال .. وتصور أنه بعد أن ينتهى من هزيمة الانجليز في تركيا ، سيخف بجيوشه لنجدة مصر ويخرج الانجليز منها . وبدأ الناس يعلقون صور مصطفى كمال على الجدران ! ولكن مصطفى كمال أتاتورك ما لبث أن خيب أمل المصريين ، وأعلن أن كل ما يهيمه هو استقلال تركيا ! ونزع المصريون صور مصطفى كمال أتاتورك من الجدران ، وادركوا أن على المصريين وحدهم أن يحرروا بلدهم !! واعتقد المصريون فعلا على انفسهم ! آمنوا بأن ثورتهم العرجاء خير من حمار مصطفى كمال . وانقلب اليأس الى أمل . وخرج شبان مجهولون يقتلون كل انجليزي يلتقون به في الطريق . قتلوا الجنود والضباط وكبار الموظفين . واصيب الانجليز بهلع . لم يعد يستطيع جندى انجليزي أن يخرج من معسكره بعد غروب الشمس . أصبح الموظفون من الانجليز لا ينتقلون إلا في حماية المدافع الرشاشة فشلت محاولات القبض على هؤلاء الشبان القذائين المجهولين .

فشلت كل محاولات الدولة لحماية أرواح الانجليز . وذهب توفيق نسيم رئيس الوزراء الى المندوب السامي لورد اللنبى وأبلغه أنه لا يضمن حياة الانجليز في مصر اذا ظل سعد زغلول منفيا في الخارج وزعماء الوفد في المنافي والمعتقلات . وقال له :

— إذا أفرجتم عنهم استطعت أن أضمن لكم حياة أى بريطانى من الاعتداء اما إذا أصرتم على بقائهم في السجون ، فإننى لا أضمن حياة أى فرد .. ولا حياة اللورد اللنبى نفسه !

سمع كبار الموظفين الانجليز بما قاله رئيس الوزراء المصرى للمندوب السامى البريطانى فانزعجوا . وإذا بزوجاتهم يقابلن اللورد اللنبى ويقلن له ان حياة أزواجهن في خطر وأنهن عرفن ان المصريين مصممون على قتل كل انجليزى الى ان يتم الافراج عن سعد والمنفيين والمعتقلين . وتشجع الموظفون الانجليز وقدموا مذكرة بهذا الشأن الى وزير الخارجية البريطانية . وقام مستر رامزى ماكدونالد زعيم حزب العمال البريطانى بحركة في البرلمان ، وقابل رئيس الوزراء وطالبه بالافراج عن سعد زغلول حفاظا على حياة الرعيل الانجليز في مصر .

واضطرت الحكومة البريطانية ان تعدل عن تعسفها وسياستها الخرقاء وتوافق رغم انقها على الافراج عن سعد زغلول وعن عدد كبير من المعتقلين . ان شبانا مصريين هم الذين صنعوا هذه المعجزة بمسدساتهم بقنابلهم بفدائيتهم لم يعد المصريون في حاجة الى المارشال هندنيرج الالماني ، ولا للغازى مصطفى كمال التركى ! ولم يعد حسنى أفندى مدرس اللغة الانجليزية يكرر على سمع التوامين أنه سيجىء يوم يقرأ التلاميذ فيه القرآن باللغة الانجليزية !

وعندما جاءت الأنباء الى دمياط تحمل بشرى الافراج عن سعد خرجت المدينة على بكرة إبنيها ترقص في الشوارع . قامت مظاهرة من مسجد البحر تضم تلاميذ المعهد الدينى ، وانضمت اليها كل فئات الشعب ، ولأول مرة في تاريخ مدينة دمياط المحافظة خرجت النساء الى الشوارع واشتركن في المظاهرة ! ولم تذهل ضخامة المظاهرة التوامين وإنما الذى أذهلها أنهما رايا حسنى أفندى مدرس اللغة الانجليزية في مقدمة المظاهرة ، وكان هو دوا سواه الذى يقودها .. وكان يهتف هتافات ثورية حماسية .. وفي بعض الاحيان كانت تشدد به الحماسة فيهتف بسقوط الانجليز .. باللغة الانجليزية ! لم يتصور التوامان أن يكون في مقدور رجل واحد ان يهتف بحياة الانجليز وسقوطهم في آن واحد ان يحمل علم الاحتلال وعلم الاستقلال في يد واحدة ! ان يكون بقلبين ولسانين وبمبدئين في وقت واحد ! ولكن حسنى أفندى

كان يمثل مدرسة المنافقين ، وهى مدرسة تولد فى عصور الاستبداد . تلاميذها هم العبيد . واساتذتها هم الطغاة ، وهى تنبت فى جو الخوف والارهاب . تحاول أن ترقص على الحبلين ، وتأكل على المائدتين ، وتبكي فى كل ماتم وترقص فى كل فرح . تعبد القوة . فهى أشبه بعباد الشمس يتجه الى حيث تشرق الشمس ، تتجه الى القادم وتدير ظهرها الى المذبر . السوط هو إلهها . لا يهتمها من يمسك به فهى تنتقل معه من يد إلى يد . هى مع السلطان لأنها تخشاه . ومادام السلطان ممسكاً بالسوط فإن الحق معه ! الحق هو ظل السوط . أما الحق الأعزل فهو مهبط الجناح يضر ولا ينفع يفر ولا يغنى . ولهذا يرى المنافق أن مكانه الطبيعى فى معسكر الأقوياء . وكلما اشتد الطغيان ازداد عدد المنافقين . فهم تماثيل الظلم فى كل مكان . فإذا رايت عدد المنافقين زادوا فى مدينة فاعلم أن الظلم زاد فيها . أما بلاد الأحرار فلا مكان فيها للمنافقين . فالخفافيش لا تعيش إلا فى الظلام . وعندما يضاء النور تفقد القدرة على الابصار .

ومن حسن الحظ أن أمثال حسنى أفندى كانوا قلائل جداً فى تلك الأيام . إن الثورة الحقيقية تخرج من الناس أحسن ما فيهم . فالثورة المختصرة أشبه بالعبد . نرتدى فيه أحسن ملابسنا . ومن هنا فإن ثورة ١٩١٩ لم تر إلا أحسن ما فىنا . كثير من عيوبنا وأمراضنا ونقط ضعفنا زالت أو تضاءلت أو اختفت . ولو أننا هزمنا فى هذه الثورة لأطلت منا كل عيوبنا ، واختفت فضائلنا . إن الأمم كالنساء يضعن الطلاء على وجوههن فى الأعياد ، ويظهرن بوجوههن الملطخة فى الماتم ! أمثلة البطولة والفداء التى أظهرها الرجال والنساء فى هذه الثورة كنست أمامها الجبناء والمتريدين . ضاعت همساتهم فى زئير أسودها . داستهم مواكب الثورة الهادرة . إن الجماهير ترقص عادة على النغمة العالية . وكلما كان صوت الشعب قويا تزايد عدد المتضمنين الى معسكره . وتضاءل عدد المنفضين عن صفوفه . وكان حرص الثورة على الاجماع هو سبب قوتها ، وسبب انكشاف الذين خرجوا عليها . ومن أجل هذا كان الشعب كله فرحاً بنجاح ثورته ، وبإطلاق سراح زعمائه ، وبأنه فرض إرادته على أقوى دولة فى العالم .

وكان التويمان فرحين لأسباب عامة ولأسباب خاصة ! أما الأسباب العامة فهي انهما من أفراد هذا الشعب المنتصر . أما الأسباب الخاصة فلأن زعيم الأمة الذى أفرج عنه الانجليز هو جد هما ! وأن زعماء الوفد الذين أعيدوا من المنفى هم أقاربهما وأصدقاء أسرتهما . وبيت الأمة الذى سلمه الانجليز هو بيتهما !

وكانت هناك أسباب أخرى شخصية . ان امهما اعلنت حدادا وطنيا على نفي سعد وزملائه ! إذا أراد التوأمين الذهاب الى السينما قالت امهما كيف تذهبان الى السينما وزعيم الامة مسجون ؟ إذا ارادا زيادة مصروفهما قالت امهما كيف ازيد مصروفكما واموال زعماء الامة مصادرة ؟ إذا ارادا ان يشتريا ملابس جديدة قالت امهما كيف ترتديان ملابس جديدة بينما صفوة رجال البلد يرتدون ثياب السجن ؟ إذا هفت نفسيهما الى الشوكلاتة قالت لهما : الا تشعران بالخجل من اكل الشوكلاتة وهناك الفوف في المعتقلات لا يجدون لقمة عيش ! وكان الولدان يسلمان امرهما الى الله ويقنعان نفسيهما بأنه مادام البلد في ثورة فلا يجوز أن ياكلا شوكلاتة او يذهبا الى السينما او يشتريا بذلة جديدة او حذاء جديدا !

اما الآن .. وقد تم الافراج عن سعد وزملائه فقد عادت اليهما حريتهما المسلوقة ، حرية الذهاب الى السينما ، وحرية شراء بذلة جديدة ، وحرية اكل الشوكلاتة ، وحرية المطالبة بزيادة المصروف ! وأسرع الولدان الى امهما يطالبانها بالوفاء بوعدها فتفرج عن الحريات الأربع التي سلبت منهما بسبب الثورة .. ووعدتهم امهما بإجابة كل طلباتهما .. وإن كانت قد أجلت شراء الملابس الجديدة الى يوم عودة سعد من أوروبا ، حتى يقابلاه وقد ارتديا ملابس جديدة !

وطار الولدان من الفرح وانتظرا وصول الزعيم بفارغ الصبر ! وكان سعد زغلول قد سافر الى إحدى مدن المياه المعدنية في فرنسا للاستشفاء قبل أن يعود الى مصر . وأرسل سعد يستدعي ابن أخته سعيد زغلول الى فرنسا ليقيم معه على صورة كاملة للموقف في البلاد قبل عودته اليها . وذات يوم كان الولدان جالسين مع امهما في بيتهما بدمياط وفجأة دخلت ابنة أخت طاهر اللوزي بك جاءت على غير موعد ، وبعد مقدمة طويلة قالت لرتيبة انه وصل نبا من فرنسا بأن شقيقها سعيد زغلول مريض وصرخت رتيبة وقالت : كلا ! انه مات !

وذهلت السيدة وقالت لها : أبدا .. انه مريض .. وبدأت رتيبة تصرخ وتولول وتقول ان قلبي يحدثني بأنه مات ! أختي الوحيد مات ! مات دون أن أراه .. وأقبلت السيدات اللاتي اجتمعن في بيت طاهر اللوزي بك ثلاث ساعات يبحثن كيف يبلغن رتيبة نبا الكارثة بالتدريج .. وفوجئن برتيبة تصيح وتصرخ : سعيد مات .. سعيد مات .. سعيد مات ! وتصورت السيدات ان رسولتهن الاولى ابلفت الحقيقة الى رتيبة - ولكنها

قالت إنها لم تقل سوى أنه مريض .. ولكنها في دهشة كيف عرفت رتيبة على الفور أن شقيقها مات !

وحاولت السيدات أن يؤكدن لرتيبة أن النبا غير صحيح ، ويقسمن على أنه مريض فقط ولكنها أصرت على أنه مات ..

واضطرت السيدات الى الاعتراف بالحقيقة المؤلمة امام تصميمها الغريب ! هزت الفاجعة رتيبة . كان سعيد في الثلاثين من عمره . وهو يصغرهما

بعامين . كانت تعتبر نفسها اما له لانهما فقدا والديهما في طفولتهما المبكرة . كانا يتكاتبان باستمرار . كان قطعة منها . في لحظات انهارت هذه المرأة التي

كان يضرب بها المثل في الصمود . كبرت عشرين سنة في يوم واحد . انطلقا لمعان عينيها . تحولت الى طفل بلا إرادة . حياتها دمة لا تكف ولا تنتهي .

وسافرت رتيبة مع التوامين الى القاهرة لاستقبال جثمان شقيقها . كان الانجليز قد وافقوا على فتح بيت الأمة وسلموه الى محمد أمين يوسف

والد التوامين .

لقد تحول البيت الى ماتم كبير . أشرفت هدية بركات على طبع البيت بلون الحداد . كانت تقاليد الحزن في تلك الأيام مقبضة . السجاجيد والأبسطه قلبت

على ظهرها . الصور المعلقة على الجدران غطيت بأقمشة سوداء . الثريات الكهربائية وضعت في أكياس سوداء . المقاعد والأرائك غطيت بأقمشة صبغت

باللون الأسود . حتى التاموسيات البيضاء صبغت باللون الأسود . كل شيء أسود . قاتم . غامق . مقبض . الأنوار تضاء في النهار فتزيد البيت كابة فوق

كابته . السواد والحزن والكابة لغت كل شيء وغمرت كل شيء . النساء يملابس سوداء وفوق رؤوسهن طرحة سوداء . القهوة سادة ليس

فيها ذرة من السكر . الرجال ببذلات سوداء وكرافتات سوداء . طوابير لا تنتهي من المعزين والمعزيات . كان الناس كلها حبست دموعها طوال هذه

السنين المريرة ووجدت هذه فرصتها لتفرج عن دموعها المحبوسة . واعتبر الشعب وفاة سعيد زغلول وفاة لابن سعد . قرأوا أن يشاركوا

زعيمهم في حزنه . وأقيمت لسعيد جنازة شعبية ضخمة في الإسكندرية ، وحملوا جثته في قطار خاص إلى القاهرة حيث أقيمت جنازة شعبية من أكبر

الجنازات التي شهدتها البلاد . وورثاه حافظ ابراهيم . ووجه الى الشعب نداء

قال فيه : سبحانك ربى . ما أبلغ حكمك . وأوسع رحمتك . تدبر الدواع قبل الداء . وتلهم الصبر عند القضاء . فلك الشكر في الضراء . كما في السراء .

أصبتنى في مكان الحب في قلبي . وموضع الرجاء من نفسى . ولكك أفضت أجمل العزاء . »

« قضى وحيدنا في غربته . وامتنع علينا السير في جنازته . فجزعنا وابتأسنا . واشتد بنا الكرب . ولكن الله تعالت قدرته ، أدركنا بواسع رحمته ، فعوض العزيز عن والديه شيعا برمته . نعاها فحنا عليها وحف بنعشه . وشييعه بزفراته الصاعدة ودعواته الصالحة . »
« خففت هذه الرعاية من أحزاننا . ولطفت من آلامنا . بل زادت فقوت انتسابي لهذا الشعب الكريم . وأكدت تعهدي بالفناء في محبته ، وتضحية كل عاطفة دون خدمته .

« كيف يمكن بدون هذه التضحية وذاك الفناء أن أفي بواجب شكره ، وهو يزيد في وزنه عند كل شدة ورخاء . وفي كل فرصة بين عزاء وهناء . بما يسدل عليّ من المكارم الجليلة والتعطفات السامية . »
« أيها المصريون ! أنتم عزائي . أنتم فخري ومقصد رجائي . بكم سلوتي . ومنكم حسرتي . ولكم حبي وقلبي . ولكم الحياة الباقية .

« سعد زغلول »
وكانت رتيبة قد اشترت لكل من ولديها التوأمن البذلة الجديدة التي مكثت سنوات تعدهما بها . ولكنها كانت بذلة سوداء . ليرتديها في جنازة خالهما ! وحرص التوأمان على أن يشتركا في جنازة خالهما سعيد زغلول . صحبهما والدهما الى الاسكندرية . ذهبا الى الميناء لاستقبال الجنان . ركباً. لنشامع فتح الله بركات وعاطف بركات وسينوت حنا ومكرم عبيد والشيخ مصطفى القاياتي أعضاء الوفد . صعدا الى الباخرة « سفنكس » التي جمعت الجنان . كانت الباخرة الفرنسية قد رفعت العلم المصري منكسا على سارياتها مشاركة للشعب في حداده . قابلا على الشمسى عضو الوفد الذى اختاره سعد ليصحب الجنان من أوروبا . كان على الشمسى يبكى وينتحب ويقول ان وفاة سعيد كانت أكبر ضربة أصيب بها سعد . لا النفي ولا التشريد ولا المرض فعل به . فعلة وفاة الشاب الذى كان يعتبره ابنه . كان سعد مشهورا بأنه يتماسك الشدائد ويصمد أمام المصائب . ولكنه في هذه المرة تهاوى وقال انه يشعر بأجزاء كبيرا منه قد مات !

وإقتربت الباخرة من رصيف الميناء .. واحتشدت ألوف مؤلفة . صامتة ساكتة . كأنها تسمع خطابا لسعد زغلول ! ثم تحرك الموكب . فرق الكشافة بموسيقاهارواعلامها . هذه فرقة الكشافة المصرية ، ثم فرقة كشافة الناصرية ، ثم فرقة كشافة نهضة مصر ، ثم فرقة الكشافة السعدية ثم فرقة كشافة المرشديات . ثم فرقة كشافة وادى النيل للبنات ثم فرقة الكشافة اللبنانية ، ثم فرقة الكشافة السورية .

كانت الثورة قد اهتمت بحركة الكشافة في مصر ، وساعدت على انشاء فرق

الكشافة و فرق المرشدات في كل مكان .. ولعبت فرق الكشافة دورا مهما في الثورة ، كانت تحافظ على النظام في المواكب ، وتقوم بإسعاف الجرحى وتحمل جثث القتلى ، وكانت تدرب الطلبة على المقاومة . وكان انضمام فرقة الكشافة السورية والكشافة اللبنانية الى المواكب الوطنية اول علامة على وحدة الشعور الوطنى . فقد كان اللبنانيون والسوريون قبل ثورة ١٩١٩ بعيدين كل البعد عن الحركات الوطنية المصرية ، ولطالما شكوا مصطفى كامل من موقفهم كل الشكوى ، ولطالما هاجم السوريين بعنف في مقالاته وخطاباته الخاصة . حتى أنه بعث بخطاب في يوم ١٦ يونيو سنة ١٨٩٥ من باريس الى صديقه فؤاد سليم الحجازى وصف فيه السوريين بأنهم « أقبح ما خلق الله وادنى العباد » ! ولكن الأغلبية العظمى من السوريين واللبنانيين أيدت ثورة سعد زغلول . وكانت صورة سعد معلقة في كل بيت في سوريا وفي لبنان .

واشترك في جنازة الاسكندرية كل طلبتها وطالباتها . سارت مدرسة محمد على الصناعية ثم مدرسة الأقباط المرقسية ثم مدرسة العباسية ثم المدرسة الكاملية ثم مدرسة النهضة الحديثة ثم مدرسة فحرم بك ثم مدرسة رأس التين ، ثم طلبة المعهد السكندري يرتدون العمم والقفاطين . ثم خلفهم طالبات مدارس البنات . ويبدو ان لجنة تنظيم الجنازة حرصت على أن تفضل بين الطلبة المراهقين والطالبات المراهقات فوضعت بينهم طلبة المعهد الدينى ! وطلب فتح الله بركات من التوامين أن يسيرا في الصف الاول باعتبارهما من أسرة الفقيد وسار التوامان الصغيران بجوار الأمير عمر طوسون والأمير جميل طوسون ومحمد سعيد باشا رئيس الوزراء السابق وحسين رشدى باشا رئيس الوزراء السابق .. وذهل التوامان حين وجدا أن بين كبار المشيعين عددا من خصوم سعد الألداء ! وسمعا حسين رشدى باشا يقول بصوت عال : اننى لا أشارك في هذه الجنازة من أجل سعد .. إنما أشارك من أجل سعيد . لو أن سعد زغلول هو الذى مات لما مشيت خطوة واحدة في جنازته !

وسمع الطلبة ما قاله رشدى باشا فكادوا يفتكون به ، ولكن فتح الله بركات اصدر أمرا حازما بالمحافظة على حياة رشدى باشا وكل خصوم الوفد ، فصعد الطلبة بالأمس ..

وسمع التوامان من خصوم سعد أشياء لم يعرفهما عن خالهما سعيد زغلول . انه في اشد ايام الصراع بين خالهما وخصومه لم يقل مرة واحدة كلمة سوء ضد خصوم الرجل الذى تبناه وأقام في بيته . كان مؤمنا بسعد زغلول ولكنه في الوقت نفسه كان مؤمنا بحرية الراى . كان يرى أن الشتائم والاتهامات هى أسلحة الضعفاء وكان هذا الموقف يبدو غريبا في عصر اشتدت فيه الحرب وتخاصم الأصدقاء ، وتقاتل الأصدقاء ، وتمزقت الأسر ، وطلقت زوجات من أزواجهن لأنهم خرجوا على سعد زغلول .

ومن الغريب أن سعيد اتخذ لنفسه هذا الموقف وهو عضو بارز في الجهاز السرى للثورة ولكنه كان دائما يفرق بين العلاقات الشخصية والخصومة السياسية . وكان يرفض أن يلقى خصومه بالطين .
ويبدو أن الذين يؤمنون في أثناء الحركات الوطنية بالمسدس والقنبلة يابون أن يلوثوا الأصابع التي تمسك بالمسدس والقنبلة بالطين والتراب !
وقد وصفت جريدة الأهرام جنازة الاسكندرية بأنها كانت يوما كبيرا مشهودا ، وإن الاحتفال كان شعبيا مهيبا محركا لعواطف الحزن والوطنية في الجمهور ، وأن الموكب كان من أجل المواكب وافخمها واشدها وقعا في النفوس ، وأن أول الجنازة كان في محطة الاسكندرية وأخرها في شارع شريف .

واستقل التوامان القطار مع الجثمان . وكان القطار يقف في المحطات على الطريق ، وقد احتشدت الوف الجماهير تحيي الجثمان ، وكان يصعد الى القطار في كل محطة وفود من كل اقليم ومدينة وقرية وكان الخطباء يلقون المراثي الوطنية ويتولى فتح الله بركات الرد عليهم باسم سعد زغلول .
وكانت جنازة مدينة القاهرة أضخم كثيرا من جنازة الاسكندرية . اصر العمال على أن يحملوا النعش . اشتركت في الموكب عشرات من فرق الموسيقى تعزف الحاناً حزينة . اشترك كل ضباط الجيش المصري في الجنازة برغم معارضة السردار البريطاني . اضربت كل مدارس القاهرة واشتركت في الجنازة اضراب عمال النسيج وعمال الصنائع اليدوية ، وسائقو السيارات وموظفو الحكومة ، وموظفو البريد ، وموظفو وزارة الحربية ، وموظفو السكة الحديد ، كما اضراب موظفو المطبعة الأميرية واحتشدوا في الموكب . تحولت الجنازة الى مظاهرة وطنية كبرى . مظاهرة صامتة . كان الأمة حولت القاهرة الى ماتم كبير . كأنها أرادت أن تقول لسعد : لا تحزن لأنك حرمت من تشييع جنازة ولدك فتولينها عك أنه ولد كل واحد منا . أنه شقيق كل واحد منا . أنه قطعة من كل واحد منا .

وتطلع التوامان الى الألوف المؤلفة . هذه العيون الدامعة . هذه الرؤوس المنكسة . هذه الزفرات الحارة . ان الكثيرين منهم لم يروا سعيدا ، ولم يعرفوه ، وربما لم يسمعوا باسمه قبل أن يموت . ولكنهم يشعرون كان الفقيد فقيدهم ، والكارثة كارثتهم ، والماتم ماتهم .

بدأت الجنازة والتوامان يسيران في الصف الاول مع أسرة الفقيد . ولكن ما لبثت الجماهير الزاحفة المحتشدة أن دفعتها الى الوراء . إن كل واحد من هؤلاء يشعر بأنه عضو في أسرة الفقيد . ان من حقهم أن يحتلوا الصفوف الاولى . ان الرابطة التي بينهم وبين زعيمهم لا تقل عن الرابطة التي تربط

التوأمين به . ألم يموتوا وهم يهتفون بإسمه . ألم يدخلوا السجون من أجل مبادئه . ألم يقفوا على المشائق ينادون بحياته . انهم جميعا أقاربه . كلهم أولاده وأحفاده . في تلك اللحظات أحس التوأمين أن أسرتهما كبرت . انها لم تعد الأسرة الصغيرة التي كانت تجتمع على مائدة الافطار في بيت الأمة . انها أصبحت أمة بأكملها . أمة لها أب واحد هو سعد ، وأم واحدة هي صفية . ان هذه اللحظات أثرت في تفكير التوأمين الصغيزين على الرغم من أن عمرهما كان يومئذ تسع سنوات وخمسة شهور . وجوه الناس قالت لهم أشياء كثيرة . دموعهم شرحت معاني عديدة . صمتهم كان يتحدث ببلاغة عجيبة . ان هذا الشعب اذا أحب عرف كيف يحب . فيه من النبيل والعاطفة الصادقة ما لو وزع على الدنيا لحول كل الأدميين الى نبلاء صادقين . ان كل تضحية من أجل هذا الشعب تهون . كل ما بذله جدهم الشيخ له لا يساوى هذه العاطفة الحلوة . ما أرخص الثمن الذى دفعه من نفى وتشريد وعذاب من أجل دمة يدرفها الملايين في لحظة واحدة !

ولكن كل هذا الحنان الذى غمر به الشعب خالهما لم يطفىء النار المشتعلة في قلب أمهما انه على العكس ضاعف الحريق في قلبها . دموعها لا تجف . حزنها لا ينتهى . يقولون ان الزمن هو خير طبيب للأحزان . ومع ذلك فإن كل يوم يجيء كان يضاعف لوعتها ويزيد شقاءها .

وكان التوأمين يتعذبان لدموع أمهما . كانت أشبه بالخنساء وهى ترضى شقيقها . كل شيء يحدث يذكرها به . وكل شيء لا يحدث يذكرها به أيضا . الحديث عنه يبكيها وعدم الحديث عنه يشقيها ! كانت تبكى ماضيه وكانت تبكى مستقبله . وكانت تذهب كل يوم الى قبره وتحبسه وتناجيه وكأنه لا يزال حيا ! وخشى الولدان وأبوهما أن تفقد الأم عقلها . حاولوا أن يسلوها فكانت كلمات السلوى أشبه بالخناجر في قلبها . كانوا يحاولون أن يضحكوها فتناهى البسمة أن تطل من شفيتها . وكان السواد الذى يحيط بالجو في بيت الأمة يجعل الحياة فيه أشبه بالحياة في قبر مظلم ! ما أتعس البيوت التى لا تشرق عليها بسمة ولا تضيئها ضحكة !

وولم ان هذا الجو الكئيب يسمح للتوأمين بأن يطالبا بزيادة مصروفهما ولا بالذهاب الى السيما ، ولا بالخروج من البيت !

وقال والد التوأمين لترتية ان خالها سعد زغلول وضع تقليدا عند وفاة أمة ألا تزيد مدة الماتم على ثلاثة أيام .. فلماذا تخرج على أوامره ويدوم ماتم أخيها عدة شهور !

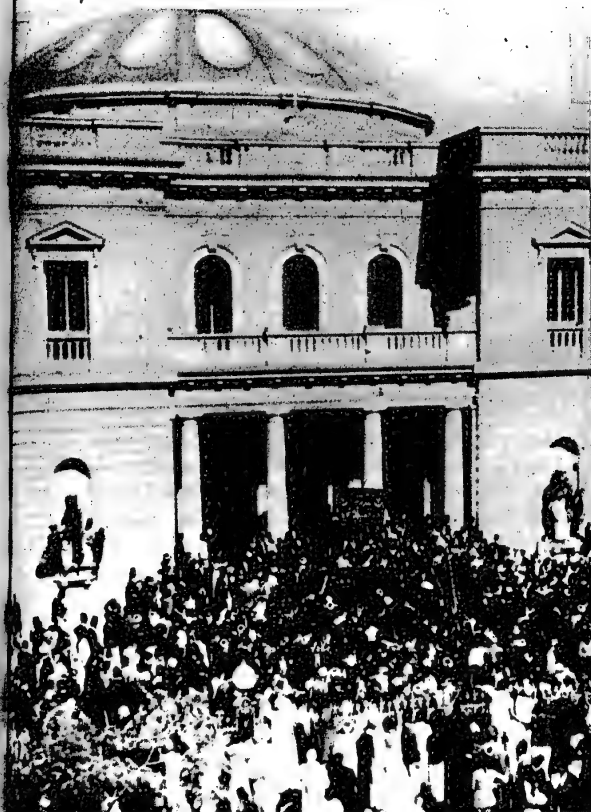
وقالت رتيبة ان ماتمها على أخيها سيدوم طوال الحياة ! انها كانت قررت ان تعيش الى جوار قبره الى أن تلحق به ، ولكنها رأت أن تضحي بشعورها هذا من أجل ولديها . وهذا هو أقصى ما تستطيع أن تفعله !

وأعلن عن موعد عودة سعد زغلول الى القاهرة .
وقال والد التوأمين لأمهما انه يجب أن يعاد بيت الأمة الى حالته الأولى
فتعود السجاجيد الى ما كانت عليه ، وتزرع الاغصية السوداء من المقاعد ،
وترفع الاكياس السوداء من الثريات ..
وابت رتيبة أن تفعل شيئاً من هذا وقالت ان سعد أرسل يقول لها انها حرة
تفعل في البيت ما تشاء !
والح الأب والولدان على أمهما حتى قبلت أن تستأجر شقة تنقل اليها اثاث
بيتها من دمياط ، وتقيم فيها مظاهر الحزن كما تشاء ، وتترك بيت الأمة في
حالتها الطبيعية . وقبلت رتيبة هذا ..
وانتقل الماتم الدائم من بيت الأمة الى شقة في شارع الدواوين - شارع نوبار
الآن !

واذا بسعد يرسل كتابا الى الوفد في القاهرة يقول فيه انه حزين على وفاة
ابنة سعيد . ولهذا لا يريد مواكب ولا استقبالات ، ولا موسيقى ،
ولا حفلات .

واجتمع الوفد وبحث هذا الطلب الغريب ..
ان الشعب يريد ان يحتفل باستقبال زعيمه بعد عودته من منفاه الطويل في
سويسل وجبل طارق . ان كل مدينة وقرية تريد ان تقيم مهرجانا لمناسبة النصر
الذى حققه الشعب عندما أرغموا الانجليز على اطلاق سراح زعيمهم ..
كيف نمنع الشعب من حقه في الاحتفال بهذا اليوم المشهود ..
ثم ان الوفد لم يبلغ هذه الاحتفالات عند عودة سعد من منفاه في مالطة
وكان قد سقط في الثورة الوف الشهداء ، تيتم اطفال ، ثكلت أمهات ، فجح آباء
فكيف يلغى الوفد افراح الشعب بواحد من انتصاراته بسبب مصاب شخص ،
حتى لو كان هذا الشخص هو زعيم الثورة نفسها . ان سعد زغلول لم يعد
رجلا عاديا من حقه ان يحزن كما يشاء ويفرح كما يشاء ، انه اصبح مؤسسة
وطنية ، ولا يملك وحده ان يصدر امرا بوقف افراح الشعب في يوم انتصاره !
وكان ان قرر الوفد بالاجماع رفض طلب سعد زغلول ، وقرر إقامة
الاحتفالات والمهرجانات والمواكب والزينات واقواس النصر احتفالا بعودة
الزعيم ، وطلب الوفد الى سينوت حنا بك عضو الوفد ان يكتب الى سعد يبلغه
الدوافع التى حدث بالوفد الى رفض قرار الزعيم .

وكتب سعد من فرنسا خطابا مؤثرا الى سينوت حنا بك يقول فيه : اننى
ارضخ لقرار الوفد واننى أسف اننى تصرفت هذا التصرف كآب وإنسان ، فقد
نسيت في غمرة حزنى وفى الم فجيعتى اننى زعيم هذه الأمة . وواجبى نحو
هذه الأمة يجب ان يعلو على عاطفتى كآب ثكل فى ولده الوحيد ...



●● طلاب المدارس في مجلس النواب ..

● الفصل السابع عشر ●

خرج الشعب يرقص في الشوارع . مواكب الجماهير
تنشد الأناشيد . فرق الموسيقى تعزف الألحان .
الأعلام فوق البيوت . بيت الأمة مزين بالوف للتمبات
الكهربائية . الأطفال يرتدون ملابس العيد . النساء
يزغردن . الأمة كأنها في فرح كبير . وسعد هو
العريس !

زحفت الأقاليم إلى القاهرة . ليس في فنادق القاهرة فراش خال . ليس في
القهواى مقعد غير محجوز ، إذا اطللت من نافذة وجدت الطرق كلها مفروشة
بأجساد متلاصقة . ورؤوس متقاربة ، ضاقت العاصمة الواسعة بالوافدين من
الأقاليم . بعض الناس جاءوا في القطار . وبعضهم في السيارات . وأكثرهم
زحفوا مشيا على الأقدام . نساء ورجالا وأطفالا . شبيا وشبابا . فقراء
وأغنياء . محبت اللقاب . زالت الفروق . انتهت الطبقات . الباشا يمشى
بجوار الكناس . الشيخ يعانق القسيس . الخواجات يرقصون مع أولاد
البلد . مصر كلها خرجت تستقبل زعيمها بعد عودته من منفاه في جزيرة
سيشيل وجبل طارق . صدرت الأوامر إلى الجنود الانجليز بأن يلزموا
ثكناتهم . لم يظهر واحد منهم في الطريق العام . بدت مصر لأول مرة وكأنها
عادت إلى أصحابها . الفرجة في كل وجه . البسمة على كل الشفاه . في عيون
المصريون وميض الانتصار . كل واحد منهم يشعر بأن له نصيبا في هذا
النصر . هم الذين حطموا قيود زعيمهم . هم الذين كسروا أغلاله . هم الذين
انتزعوه من سجنه . هم الذين ذهبوا إلى المشانق وكانهم يذهبون إلى حفلات
زفافهم . هذه الأرض التي سيمر عليها الزعيم من محطة القاهرة إلى بيته كم
فرشوها بجماجمهم . كم رشوها بدمائهم . كم زلزلت سماؤها بهتافهم . هنا
كانت معاركهم . وفوق هذه الأرض سقط شهداؤهم . هنا تحدوا المدافع ،
وواجهوا الرصاص واستقبلوا الموت وهم يهتفون بحياة زعيمهم . أن من
حقهم أن يقيموا الأفراح والليالي الملاح . من حقهم أن يرقصوا بقدر ما شقوا ،
وأن يضحكوا بقدر ما بكوا ، وأن يزغردوا بقدر ما نغثت قلوبهم من أنين ! أنهم
يعلمون أن الصراع لم ينته . يعلمون أن بلادهم لا تزال محتلة . يعلمون أن
استقلالهم لم يكتمل . ولكنهم يعلمون أنهم كسبوا معركة كبرى عندما أرغموا
أكبر امبراطورية في العالم على فتح سجونها ومنافئها وإطلاق سراح زعماء
الثورة ، بعد أن كانت تعلن وتؤكد أنهم سيموتون حيث هم في منافئهم
وسجونهم !

كان الشعب يشعر لأول مرة من سنوات طويلة بأنه يملك الشوارع التي
يمشى عليها ! يملك الألسنة التي يتكلم بها . تمشى مواكبه في الشوارع
ولا يطلق عليها الرصاص . يهتف بحياة سعد فلا ترد عليه المدافع . لم يعد
التهافت بحياة سعد جريمة تستحق السجن . لم تعد الهتافات بحياة الاستقلال
تخرس بطلقة من مدفع رشاش !

تفنن الشعب في استقبال سعد وتكريمه والاحتفال به يوم وصوله الى
القاهرة ، الشعراء نظموا أروع قصائدهم ، والمطربون ترنموا بأحلى أغانيهم ،
والكتاب سطوروا أبلى مقالاتهم . والفنانون رسموا أجمل لوحاتهم .
والموسيقيون عزفوا أعذب الحانهم . البيوت كانت توزع الشربات على المارين
في الشوارع . محل حسن الحاتي رفض أن يتقاضى ثمن ما يأكله الناس في
مطاعمه في ذلك اليوم . دور السينما والمسارح فتحت أبوابها مجاناً للشعب .
محلات حامد المواردى وكثير من المحلات الوطنية وزعت الوفا من أثواب
الأقمشة على الفقراء . الشعب حاول أن يحمل سيارة سعد على كتفيه وتوسل
سعد اليهم أن يتركوا السيارة تسير على عجلاتها ! وكانت السيارة التي يقف
فيها سعد هي سيارة الأمير عزيز حسن . وكان هذا الأمير قد نفاه الانجليز في
أثناء الحرب العالمية الأولى وأفرج عنه مع المفرج عنهم . وعندما وصل الموكب
الى بيت الأمة احتشدت مئات الألوف امام البيت تطلب كلمة من سعد !
ولكن الأمير عزيز قال لسعد : أنا أريد أن أقول خطبة !

ولم يكن سعد يعرف مقدار بلاغة الأمير عزيز حسن في اللغة العربية فوقف
وأشار الى الجماهير أن تسكت ثم قال :

— الأمير الجليل عزيز حسن سيلقى خطاباً وطنياً .

وسكتت الجماهير لتسمع الأمير الجليل ..

وإذا بالأمير الجليل يقف ويقول :

— اسمع يا راجل أنت وهو ! .. البلد دى فيها راجل واحد دى !

وقال كلمة « دى » بصوت ضخم وداس على حرف الياء فأصبحت

دى دى دى دى !

وكان يشير بأصبعه الى سعد زغلول ..

وسكت الأمير الجليل قليلاً ثم استطرد :

— والباقي .. كلهم أولاد كلب !

ثم جلس الأمير الجليل !

وأخرج سعد ! فقد أراد الأمير « الجليل » أن يمدح زعيم مصر فشتم جميع
المصريين ! ولكن ظهر فيما بعد أن الأمير لم يقصد هذا ، وإن بلاغته خانته

فقد كان يقصد أن يقول أن الملك فؤاد وجميع رؤساء الوزارات من خصوم سعد
هم أولاد الكلب !

واضطر سعد أن يلقي كلمة أزال بها سقطة الأمير ، وكانت هذه هي المرة
الأولى والأخيرة التى سمح فيها سعد لأحد الأمراء أن يلقي خطابا فى اجتماع
وطنى ! وكان أغلب أمراء أسرة محمد على يجهلون التحدث باللغة العربية !
وكان هؤلاء الأمراء والأميرات يحدثون صداعا مستمرا فى رأس سعد . كلما
اختلف واحد منهم مع الملك فؤاد أعلن تأييده لسعد . فسارع الملك الى
استرضائه . وكان بينهم المجنون والمعتوه والشاذ والأفاق . وكان كل واحد
منهم يحلم بأن يخلع سعد الملك فؤاد وينصبه على العرش بدلا منه ، ولم
يخطر ببال واحد منهم أن رأى سعد فيهم جميعا كان رأيا واحدا وهو أنهم
غريباء عن هذا البلد بجنسيتهم ولغتهم وتفكيرهم وشعورهم . وأن مصر
لا يجوز أن يحكمها إلا مصرى لحما ودما !

وكانت الأميرة شيوكار تطارد سعد باستمرار ! كانت فى شبابها امرأة فاتنة .
فى عينيها سحر ، وفى شفيتها داع يدعو « جى على القبلات ! » . تخصصت فى
اغراء الرجال واشتهرت بمغامراتها فى ميادين الهوى والغرام ..
وكانت تتردد على بيت الامة وتطلب مقابلة سعد زغول . وكانت صفة
تعتذر من عدم تدبير المقابلة بأنه مشغول . ولكنها كانت لا تياس فتعود تطلب
مقابلته من جديد .

وكانت صفة تكرهها ، وكانت تتصور أن الانجليز يريدون أن يدسوها على
الزعيم لتشويه سمعته بين الجماهير . فكانت تستقبلها بأدب وتعتذر من عدم
استقبال سعد لها بأعذار مختلفة ، وتنتهز الفرصة لتفهمها بلباقة بأن سعد
سعيد فى زواجه ، وأن قلبه مشغول بحب مصر وليس فيه أى مكان لامرأة
أخرى !

وكانت صفة معذورة فى توجسها من الأميرة شيوكار . فقد كانت تعرف أن
أميرة أخرى حاولت أن تنتزع منها سعد وتمنع زواجها منه !
ويذكر التوامان ذات يوم أنهما كانا جالسين مع صفة وكانت تقرأ مقالا
كتبته عنها إحدى الصحف المصرية . وجاء فى المقال : « أن الفضل فى زواج
سعد وصفية يعود الى الأميرة نازلى حليم ، فهى التى توسطت فى هذا الزواج
وشجعتة وباركتة وأقنعت مصطفى فهمى باشا رئيس وزراء مصر أن يزوج
صغرى بناته للقاضى الشاب الفلاح سعد زغول ! »

وثارت صفة زغول على هذا المقال وقالت :
— أنهم يزيفون التاريخ ونحن على قيد الحياة إن الأميرة نازلى حليم وقفت
عقبة ضد زواجى . لقد لجأت إلى اللورد كرومر طالبة أن يتدخل لمنع

الزواج . وذهبت إلى الخديو لنفس الغرض . وذهبت إلى أبى وقالت له إن سعد زغلول متزوج من سيدة أخرى يخفيها في بلدته في إبياته . وأرسلت إحدى كلفواتها - أى جواربها - لتبلغ أمى أن العريس فلاح لا يعرف كيف يأكل بالشوكة والسكين !

وعندما فشلت في كل محاولاتها هددت بالانتحار إذا تم هذا الزواج . كل هذا لأنها أرادت أن تتزوج هى من سعد . فكيف يقال اليوم أنها هى التى شجعت وباركت زواجى من سعد ؟

ودخل سعد إلى الغرفة في أثناء صباحها ، وسألها عما حدث . فروت له ما كتبه الجريدة فابتسم ولم يقل شيئاً ! وكأنه أحس أن زوجته لا تزال تغار عليه من قصة حب جرت منذ أكثر من خمس وثلاثين سنة ! ولهذا لم يكن غريباً أن تخشى صفة على زوجها الذى تحبه من أميرة أخرى قد تنجح فيما فشلت فيه الأميرة نازلى حليم !

وكانت شهرة الأميرة شيوكار كافية لآثارة هذه المخاوف ، إذ كانت متزوجة من الأميرة أحمد فؤاد قبل أن يصبح ملكاً ، وضبطها الأمير مع أحد عشاقها ، فطردها من البيت وشتمها ولعن أباه . وذهبت الأميرة إلى شقيقها الأمير سيف الدين وأخبرته بأن زوجها لعن أباه ، وغضب الأمير سيف الدين وذهب إلى نادى محمد على ويحث عن الأمير أحمد فؤاد ولعن أباه ، ثم أخرج مسدسه ، وأطلق عليه عدة رصاصات أصابته ، وأخرج الأطباء كل الرصاصات ما عدا واحدة ، بقيت في عنق الأمير فؤاد . وعندما أصبح فؤاد ملكاً كانت الرصاصة تجعله يسعل بطريقة مضحكة تشبه نباح الكلب . وكان هذا النباح يؤدي إلى مواقف حرجية . ففي بعض الاحتفالات التى كان يحضرها جلالته يحدث أن تتقدم إليه تلميذة تحمل باقة من الزهور تحية لجلالته وإذا بجلالة الملك ينبج فجأة . فتلقى الطفلة الزهور من يدها ، وتجرى صارخة خائفة مولولة ! ولهذا كان رجال القصر يحرسون على أن ينبهوا على تلاميذ المدارس التى يزورها الملك ألا يضحكوا إذا نبج جلالته فجأة !

وطلق الأمير أحمد فؤاد الأميرة شيوكار ، وأحبب الأمير سيف الله يسرى باشا ، وكان من أجمل شباب الطبقة الأرستقراطية وكان بطلاً من أبطال المبارزة بالسيف .

ولكن الحب لم يستمر طويلاً ، فقد أحببت شيوكار ضابطاً إنجليزياً شاباً من ضباط جيش الاحتلال ! وكان هذا الضابط هو ابن خالة مستر ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطانى فيما بعد ، ووزير البحرية في تلك الايام ، وكان الضابط « نورمان » يبلغ من العمر ٢١ سنة واصغر من شيوكار بعدة سنوات . وقد أدى هذا الغرام إلى مشكلة دولية ! ففي كتاب « جينى »

وهو قصة حياة لادى راندولف تشرشل ام تشرشل تروى المؤلفة انيتا ليسل
حفيدة عمه تشرشل تفاصيل هذه الفضيحة الدولية !

فهي تروى كيف وقع الملازم نورمان فى هوى زوجة سيف الله يسرى باشا
الغائنة ، وكيف أن سيف الله باشا ضبط الرسائل الغرامية التى كان يتبادلها
الضابط الانجليزى مع الزوجة اللعوب . وطلب سيف الله باشا من الضابط
الشباب أن يحدد موعدا للمبارزة ، لأن الشرف الرقيق لا يسلم من الأذى إلا اذا
أريق على جوانبه الدم !

واسقط فى يد الضابط الانجليزى الشاب ، وكان عليه أن يختار بين أمر من
الذين ، أن يقبل المبارزة مخالفا تعليمات الجيش البريطانى ، أو يرفض
المبارزة وبذلك يهين شرف الجيش البريطانى بأن تبدو أحد ضباطه جباناً يابى
قبول التحدى والتقاط القفاز .

ورأى قائد الجيش البريطانى أن يبعد الضابط العاشق عن القاهرة حقنا
للدماء ! ولكن سيف الله يسرى باشا بقى مصمما على مبارزة الضابط الذى لوث
شرفه فى أى مكان فى العالم !

وعقدت اجتماعات سرية فى منزل خالة تشرشل حضرها صاحب السمو
الملكى الدوق كنوت ولود كرومر . والمالى المشهور سير أرنست كاسل ولورد
شارل بيرفورد . لبحث ما يمكن عمله لمواجهة هذه المشكلة الخطيرة ! ووصل
المجتمعون الى قرار سرى ، وهو أن الضابط العاشق يجب أن يقبل مبارزة
سيف الله يسرى باشا . ولكن على أن يتم هذا بصفة سرية ، لأن الأمير زوج
الامبراطورة فيكتوريا أصدر أوامر مشددة بمنع المبارزة !

وكان الضابط نورمان لاعبا ممتازا للبولو مثل سيف الله باشا ، ولكنه لم
يكن يعرف المبارزة بالسيف ، وكان سيف الله باشا بطلا فيها .

وبدأوا فى تعليم الضابط العاشق المبارزة بالسيف ، وكان يتلقى سرا هذه
الدروس يوميا . ولكن استاذ السيف وصل إلى أن الطريقة الوحيدة لانتقاذ
حياة الضابط الشاب أن يكتفى بأن يتعلم الدفاع فقط ! لأنه لو حاول أن يهاجم
اللاعب الممتاز سيف الله باشا فإن النهاية المؤكدة لهذا أن يقتله الباشا بسيفه !
وحرصا على أن تتم هذه العملية بسرية تامة ، تقرر أن يتخذ المشتركون
فيها والأماكن التى ستجرى فيها المبارزة أسماء وهمية فاطلقوا على سيف الله
يسرى باشا اسم مستر جونسون وعلى مدينة باريس حيث تجرى المبارزة اسم
« بريتون »

وتتمت المبارزة فى باريس وامكن للضابط العاشق أن يتخذ موقف الدفاع
ساعة كاملة يتلقى فيها ضربات سيف الله الزوج المخدوع !

وأخيرا أصاب سيف الله يسرى باشا الضابط الشاب بجروح في قلبه ، ولكن
الجرح كان سطحيًا ..
ومع ذلك اعتبر سيف الله باشا أن الدم الذي أريق ، غسل الشرف المملوخ .
وبعد ذلك طلق شيوكار !
كانت هذه المغامرة وغيرها سببا في شهرة الأميرة شيوكار باعتبارها خاطفة
الرجال . وكان هذا من الأسباب التي دعت صفية إلى أن تعتذر للأميرة من عدم
استطاعة سعد مقابلتها !
ولم يعرف سعد مطلقا أن الأميرة شيوكار طلبت مقابلته أكثر من مائة مرة ،
وأنه رفض مقابلتها !
فالمرأة هي المرأة ، بقلقلها ، ومخاوفها ، وغيرتها ، حتى ولو كانت هذه المرأة
هي أم المصريين !

* * *

استقبلت رتيبة خالها عند وصوله إلى القاهرة بملابسها السوداء .
وطرحتها السوداء ، ووجهها الحزين . ودموعها التي لا تنتهي حزنا على
شقيقها سعيد زغلول .
وفوجئت رتيبة بسعد يقول لها : إنني اتشائم من الملابس السوداء !
وحارت رتيبة ماذا تفعل لترضى خالها . إنها لا تستطيع أن تخلع ملابس
الحداد ، ولا تستطيع أن تنقطع عن رؤيته . وخطر ببالها حل غريب أن تضع
في إحدى الغرف ثوبا غامقا . فإذا دخلت بيت الأمة خلعت الملابس السوداء .
وارتدت الثوب الملون . وفهم سعد الحيلة التي لجأت إليها رتيبة ولم يعلق
عليها .

وكان سعد في تلك الأيام يبدو للجماهير في صورة القائد المنتصر ، والزعيم
الذي دانت له الرقاب ، ومعبود الملايين الذي ربح كل المعارك ، وانتصر على
خصومه ، وأرغم أعداءه الإنجليز على أن يفرجوا عنه ويسمحوا بعودته إلى
بلاده ، ولكنه كان يبدو في عيون التوأمين ، وهو في داخل بيته ، رجلا حزينا ،
مهموما ، مقطب الجبين ، قلق النظرة ، متجهم الوجه . كأنه وحده الذي يعلن
أنه لم ينتصر في المعركة !

وكان في ذلك الوقت مشغولا بالترشيحات لانتخاب أول برلمان مصري بعد
الاحتلال البريطاني . وكان الخلاف على أشده بين أعضاء الوفد ، هل يتقدم
الوفد بقائمة للترشيحات ، أم يترك لكل مصري الحق في أن يتقدم للانتخابات
على مبدأ الوفد ، مادام أن الوفد ليس حزبا ، وإنما هو الأمة مجتمعة . فليس
من حق أحد أن يفرز المرشحين ، وإنما يترك للشعب أن يختار ممثليه بغير
توجيه من الوفد .

وكان سعد في أول الأمر يميل إلى هذا الرأي . ولكنه لم يلبث أن عدل عنه . فقد شعر أنه بهذه الطريقة يظلم الثوار الحقيقيين . أولئك الذين اقتضت واجباتهم البقاء والعمل تحت الأرض ، والتعرض لكل المخاطر ، والموت أو الأعدام يتهددهم في كل لحظة بينما الإعضاء الظاهرون للشعب أثناء الثورة هم الذين كانوا يتولون لقاء الخطب وقيادة المظاهرات .. لهذا عرفتهم الجماهير . ثم انه خشى ان يندس بين المرشحين عدد من خصوم الوفد الذين حاربوا الثورة في الخفاء . وقاوموها في السر ، وهذه الطريقة تعطيتهم فرصة أن يتكروا فيضعوا على وجوههم قناع الثورة بعد نجاحها ، فإذا فازوا بعضوية البرلمان انقلبوا على الثورة ، وانقضوا عليها من الخلف !

ثم إنه خشى أخيرا أن يسقط عدد من الوفديين الإقباط في دوائر كل الناخبين فيها من المسلمين ، وبذلك يقضى على اعظم نجاح له وهو توحيد عنصرى الأمة ، ويعطى حجة لخصوم الثورة الذين كانوا يطالبون بتخصيص نسبة في البرلمان للإقباط تساوى نسبتهم من عدد السكان ، وبذلك نرقص على الموسيقى التى يعزفها الاستعمار البريطانى باستمرار وهى انه يحتل مصر للمحافظة على الأقليات وفى مقدمتهم الإقباط من تعصب المسلمين !

ومن هنا قرر سعد أن يتولى الوفد اختيار مرشح معين يتقدم باسمه في الانتخابات ولا باس أن يكون للوفد مرشحان أو ثلاثة مرشحين في دائرة واحدة .

وأحدث هذا القرار صداعا خادا لسعد ، إذ اكتشف بعد قليل أن أغلب الناخبين يريدون أن يكونوا اعضاء في البرلمان !

ووضع سعد قواعد بأن تكون الاسبقية في الترشيح للذين قاموا بأدوار هامة في الثورة ، بشرط أن توافق لجان الوفد في كل دائرة انتخابية على هذا الترشيح ، بمعنى انه إذا اختار سعد مرشحا ، ولم توافق عليه لجنة الوفد ، فإنه يعدل عنه ، وينزل على ارادة لجنة الوفد .

واختلفت لجان الوفد فيما بينها ، واختلفت اللجان القروية مع لجان المديريات ، واختلفت لجان المديريات مع الوفد نفسه ! واقتضى التوفيق بين هؤلاء جميعا جهدا كبيرا من سعد . ثم حدثت أزمة في الوفد ..

تقدم عدد من الكفائيات من المستقلين يطلبون الترشيح على مبدأ الوفد . وكان من بينهم محمد سعيد باشا رئيس الوزراء السابق ، وتوفيق نسيم باشا رئيس الوزراء السابق وأحمد مظلوم باشا رئيس الجمعية التشريعية السابق .

وعارض هذه الفكرة الشبان الثوار ، وفي مقدمتهم الدكتور أحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي وعلى الشمسي . وكانت وجهة نظرهم ان هؤلاء وقفوا ضد الوفد في أيام المحنة ، واقبلوا في أيام الرخاء ، وان الواجب عزلهم عن برلمان يمثل الشعب .

وجمعهم سعد وقال انه يقتدى برسول الله محمد ﷺ عندما قال : من دخل الكعبة فهو آمن ومن دخل بيت ابى سفيان فهو آمن .. وأنه يرى المصلحة في ان يفتح الوفد ابوابه للجميع ، وان الثورة لم تنفثه ، وانها في حاجة إلى كل كفاية .

واستمرت المناقشة عدة ساعات ، واقتنعوا على مضض .. وقالوا لسعد :
— سوف ترى انهم سوف يتخلون عنك في أول عاصفة !

وكان هؤلاء الشبان اصدق نظرا في هذه القضية بالذات من زعيمهم المجرب العجوز ، فقد اثبتت الأيام بعد ذلك ان اغلبهم كان اشبه بفقران السفينة تهرب حين توشك على الغرق !

وفي الوقت نفسه دبت خلافات في شان الترشيحات الأخرى .. فقد تقدم عدد كبير من اصحاب الاقطاعات يطلب الترشيح على مبدأ الوفد .

وكان هؤلاء قد رفضوا ان يتبرعوا للثورة في اثناء اشتغالها . وكانوا يهربون من رسل الوفد ، ويختفون خلال المعارك .

وكان من رأى بعض اعضاء الوفد ترشيحهم لانهم اقوياء في دوائرهم الانتخابية ، ومن المستحيل ان يفوز عليهم أى مرشح للوفد في دوائر يملكون كل شيئا من أرضها ..

ولكن سعدا رفض هذا الرأي وقال إنه يعتقد انه يكفي ان يحمل أى صعلوك علم الوفد ليكتسح مالك الالف فدان !
ووقع حادث طريف في الترشيحات ..

فقد أراد حسن ياسين زعيم الطلبة ان يرشح نفسه في بلده بمديرية بنى سويف .. وتقدم عميد الأسرة وطالب بان يرشحه الوفد لهذا المقعد ، وكان حسن ياسين مجهولا في دائرته الانتخابية بالنسبة الى الثرى الكبير الذى يترزعم الأسرة ..

واصر سعد على ترشيح حسن ياسين !
واعترض اعضاء الوفد وقالوا كيف يرشح الوفد لعضوية مجلس النواب تلميذا في مدرسة الحقوق رسب عشر سنوات في الليسانس . ولا يزال تلميذا في هذه المدرسة !

وقال سعد إن الطلبة قاموا بجهد ضخم في الثورة ، ومن حقهم ان يكون لهم نائب في مجلس النواب . وكان يستطيع ان يفهم هذا الاعتراض لو ان كل

المرشحين كانوا من حملة الشهادات العالية . بينما هنالك كثيرون منهم لا يحملون شهادة البكالوريا التي يحملها حسن ياسين . ولا يضير حسن أن يمتحن في الليسانس وهو عضو في مجلس النواب . فإنه هو - اى سعد زغلول - امتحن في الليسانس وهو مستشار في محكمة الاستئناف ! واكتسح حسن ياسين الانتخابات فعلا واصبح عضوا في مجلس النواب .. بل عضوا في لجنة المعارف !

ولكنه انقطع بعد ذلك عن الذهاب الى مدرسة الحقوق ، ولم يدخل امتحاناتها وان كان سعد اعتاد كلما قابله في مجلس النواب ان يقول له وهو يضحك : اياك ان تهمل في دروسك !

وقد كان لحسن ياسين دور بارز في الحركة الوطنية . وفي ثورة ١٩١٩ ، وفي قيادة الاضرابات وتوزيع المنشورات الثورية واعتقل عشرات المرات في اثناء الثورة .

ويومها فرح التوامان الصغيران ، لأن تلميذا مثلهما رشحه الوفد لعضوية البرلمان ! وكان سعد يسمى الطلبة « اولاد سعد » ولكن ترشيحه تلميذا جعل التلميذين الصغيرين يشعران بفخر عبرا عنه لجدتهما ! وضحك سعد وقال : اننا لم نرشح حسن ياسين لأنه سقط في الامتحان ، ولكن لأنه قام بدور في الثورة !

وكان الصبيان يسألان سعد عن كل ما يسمعانه في بيت الأمة . يسألانه عن كل ما يقرآن في الصحف . وعن كل ما يثير انتباههما من احداث . وكان سعد يشجعهما على هذه الاسئلة ، ويحاول ان يشرح لهما كل شيء ، ويسمى الاشياء باسمائهما . وكان يتلقى الاسئلة الساذجة بشيء غير قليل من الصبر ، ويبسط لهما المشاكل . ويوضح ما يبدو للولدين انه اشبه بالمعميات والالغاز .

كان اول ما اثار دهشتهم ، انهما رأيا في تلك الايام وجوها جديدة لم يرياها في اثناء الثورة ، لم يرياها في المعارك الدامية التي كانت تجري امام بيت الأمة . لم يرياها في الجو العابس المكفهر ، عندما كانت حراب الانجليز تغمد في صدور الوطنيين ، عندما كانت قتالهم تحول اجساد الشباب الى اشلاء . لم يسمعا اسماءهم في قوائم المنفيين والمسجونين والمحكوم عليهم بالأعدام ! إن صور الاباطال الذين تبيينوها في ظلال الليل البهيم انطبعت في رؤوسهم ، السحب الثقيلة من الالام التي كانت تجثم على صدورهم لم تخف ملامح هذه الوجوه الشابة التي كانت تشبه الضياء المجهول في هذا الظلام الطويل . من اين جاءت هذه الوجوه الجديدة ؟ هل كفرت في ايام النعمة وامنت في ايام النعمة ؟ هل هربت من ميادين الموت ، ثم اقبلت مع مواكب الحياة ؟

هل اعماهما ظلام الطفيان ، ولم تبصر الا مع شعاع الحرية ؟ إن هذه الوجوه الجديدة تتصرف في بيت الامة وكأنها صاحبة الفرح ! حماسها اقوى من حماس المجاهدين . وصوتها اقوى من اصواتهم واعذب من نبراتهم ، انهم اشبه بالمتفرجين الذين رفضوا التطوع في الجيش المقاتل ، واثروا السلامة ، وتركوا غيرهم يحارب ويقاوم ويموت ، وعندما جاءت ساعة النصر تقدموا موكب المنتصرين ورصعوا صدورهم بالالوسمة والنياشين !

وسمع سعد ملاحظة الولدين وهو يبتسم في دهشة ، ويتفرد في الوجهين الصغيرين في جنان ، ويصيح سمعه اليهما وهما يتحدثان هذا الحديث الغريب ، وقال لهما سعد : اننى سعيد جدا بقوة ملاحظتكما ! إن ما تقولان هو مشكلتي الكبرى ان اعلى الاصوات التي تطالب الآن بالغنيمة هي اصوات الذين لم يشتركوا في المعركة . إن هتاف الجماهير شيء يسكر . وواجبى الان ان احاول التفريق بين الذين يهتفون بالسنتهم وبين الذين يهتفون بقلوبهم بين الذين خاضوا المعركة فعلا والذين تفرجوا عليها . بين الذين لم يبخلوا باية تضحية اثناء الثورة حين كانت التضحية بلا ثمن ، وبين الذين خرجوا من جحورهم يطالبون بمن انتصار لم يشاركوا في صنعه . وهذه مهمة ثقيلة مضنية . ولقد اضطررت ان اعيد النظر في جميع الترشيحات التي اقراها الوفد في اثناء وجودى في اوربا ، ومع ذلك فابتنى غير مطمئن إلى النتائج التي وصلت إليها . إنهم يقولون إن الاقوياء في وطنيتهم . ضعفاء في دوائرهم الانتخابية ! يقولون إن الشعب يفضل الذين يعدونه بالمنافع على الذين يعدونه بالموت فداء للوطن ، ولكنى لا اصدق هذا الزعم ، ولا اتصور ان الشعب الذى عرفته جيدا تغير في اثناء غيبتي الطويلة في منفاه في سيشيل وجبل طارق ، لقد اقترح البعض الا ارشح الا في الدوائر المضمونة ، لأنه لا يجوز ان يسقط مرشح لسعد .. ولكنى رفضت هذا الرأى وسارشح في كل دائرة . طلبوا منى الا ارشح وفديا في دائرة منيا القمح لان رئيس الوزراء يحيى باشا ابراهيم رشح نفسه في هذه الدائرة . وهو اغنى رجل فيها واسرته صاحبة اكبر نفوذ فيها ايضا ، وهو الذى سيجرى الانتخابات ، واقل ما نفعله هو ان نترك له هذه الدائرة مجاملة ! قللت لهم ! إنه لا مجاملات في مصلحة الوطن . وقررت ان ارشح ضده الاستاذ كامل مرتجى المحامى بالرقازيق .. إنه غير معروف في الدائرة بعصبيته . ولكنه معروف في المديرية كلها بوطنيته . إننا الآن في اول امتحان للشعب في الديمقراطية . وانا اؤمن بان الشعب الذى نجح خلال الثورة في امتحان البطولة والفداء . قادر على ان ينجح في امتحان اختيار النواب :

وكانت الانتخابات تجري على درجتين . ينتخب كل ثلاثين من الناخبين مندوبا عنهم . ثم ينتخب المندوب الثلاثيني عضو مجلس النواب . وكان سعد معترضا على هذا النظام ، وكانت حجته أن الجماهير لا يمكن التأثير فيها ولكن عندما يقل عدد الناخبين تستطيع الحكومة أن تؤثر فيهم ، كما أن خصوم الوفد هم من كبار الاغنياء والاقطاعيين واصحاب النفوذ . وهؤلاء يستطيعون شراء المندوبين الثلاثين . في حين أن من الصعب شراء ملايين الناخبين . ثم إن اغلب الذين رشحهم سعد من الفقراء الذين لا يملكون الا لقب مرشح الوفد . والذين ليس لهم جاه الا ماضيهم الوطني في اثناء الثورة . ومع ذلك فقد اصررت الحكومة واصر الملك واصر الانجليز على أن تجري الانتخابات على درجتين . وكان من رأى بعض انصار الوفد أن يمتنع سعد عن دخول الانتخابات احتجاجا على هذا القانون الذي قصد به أن تتحكم الحكومة في ارادة الناخبين . ولكن سعد قبل التحدى ، وقرر دخول الانتخابات رغم اعتراضه على هذا القانون .

وقرر عدلى يكن باشا أن يرشح نفسه في دائرة عابدين . واختار هذه الدائرة بالذات لأنها الدائرة التي يقع فيها قصر الملك . وفيها أكثر دوائر الأمراء .. وفيها بيوت اغلب موظفي القصر والخاصة الملكية . وفيها قصور أسرة يكن وانصارها . وبيوت الذوات . وهى دائرة مضمونة . لأنه ليس فيها من كان يسميهم خصوم سعد « بالرعاع » لم يكن فيها وقتئذ مصانع . ولا عيش ولا اكواخ . إن كل سكانها ذوات من جيران الملك ، وفيها عدد من الوزارات والمصالح ، إن كل هذا يضمن لعدلى يكن ان يكتسح مرشح سعد زغلول . وكان القانون يقضى بان ينتخب المرشح مندوبا ثلاثينيا أولا ، حتى يسمح له بان يتقدم للترشيح لعضوية البرلمان .

وجرت الانتخابات الثلاثينية .

وتقدم عدلى يكن باشا ليكون مندوبا ثلاثينيا . وفوجيء بان الوفد رشح طباطخ عدلى باشا ليكون مندوبا ثلاثينيا منافسا صاحب الدولة عدلى يكن باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، ورئيس الوزراء السابق وصهر الاسرة المالكة !

وظن الناس انها نكتة ان يرشح سعد الطباطخ عدلى لينافسه ! ولكن سعدا قال انها ليست نكتة ، وإنما هو مظهر للديمقراطية الجديدة التى ينادى بها . إن من حق الطباطخ ان ينافس صاحب الدولة ! وظهرت النتيجة وإذا بطباطخ عدلى يكن ينجح ويصبح مندوبا ثلاثينيا ، وإذا بعدلى يكن باشا يسقط ، ويصبح عاجزا عن ترشيح نفسه لعضوية مجلس النواب .

وغضب عدلى يكن باشا على هذا الشعب « قليل الأدب » واستقال من رئاسة حزب الاحرار الدستوريين ، وأعلن اعتزاله السياسة !

ثم جرت الانتخابات لعضوية مجلس النواب ..

وكان الملك والانجليز والحكومة على ثقة بأن سعد زغلول لن ينال الأغلبية . إن المديرين الذين يشرفون على الانتخابات من خصوم الوفد ، إن مرشحي الادارة جميعا من انصار الاحرار الدستوريين واصدقائهم . إن مرشحي الاحرار هم الباشوات واصحاب الاقطاعيات الضخمة ، وعمداء الاسر الكبيرة . وكبار الاعيان ، وأما الذين رشحهم سعد فإن اغليبتهم الكبرى من المحامين والاطباء الشبان ، والاسماء غير المعروفة ، ليس لهم عصبية يعترفون بها ، ولا ثروة يعتدنون عليها ، ولا القاب ترهب الجماهير .

وكان سعد مؤمنا بأنه سينال الأغلبية . ولكنه كان يقدر أنها ستكون أغلبية بسيطة ، فكثير من أنصاره احترقوا بنار الثورة ، والاعنياء منهم فقدوا ثرواتهم ، والموظفون طردوا من مناصبهم ، بيوتهم خربت ، اسرهم تشتتت اعمالهم تعطلت مصالحهم ضاعت . وكان يقدر ايضا ان المال والسلطان والنفوذ والعصبية والروابط العائلية قد تؤدي الى خسران حوالى مائة مقعد من مقاعد مجلس النواب التى يبلغ عددها ٢١٤ مقعدا .

وجرت الانتخابات لعضوية مجلس النواب.

وإذا بسعد يفوز بحوالى مائتى مقعد ..

وإذا بخصومه جميعا يسقطون في دوائرهم الانتخابية التى تصوروها أنها قلاعهم التى لا يمكن أن تقتحم .

شبان مجهولون يكتسحون كبار الاعيان فقراء معدومون ينتصرون على اصحاب الملايين .. غرياء عن الدائرة تحتضنهم الدائرة وتلفظ اصحاب الاقطاعيات الضخمة فيها . موظفون كبار يكتسحهم عدد من صغار الموظفين يحيى باشا ابراهيم رئيس الوزراء الذى ادار الانتخابات يسقط في بلده مقر عزوته واسرته وارضيه . في مواجهة المحامى الشاب كامل مرتجى ! الوزير الخطير اسماعيل صدقى باشا سقط في دائرته الانتخابية امام المحامى الشاب نجيب الغرابي .

وعندما رأى سعد هذه النتائج المذهلة قال :

— انها الثورة الجديدة !

كان سعد مبهتجا بهذه النتيجة الهائلة التى لم يتوقعها لأنها اثبتت انه كان على حق في ايمانه بهذا الشعب هذا الايمان الذى لم يترزعزع امام الخطوب والاهوال . وكان يقول :

— ان الذين لم يخافوا من الانجليز لا يمكن ان يخافوا من الباشوات !

الفقراء الذين لم تستطع ان تشتريهم اغنى أمة في العالم عجزت عن شرائهم
ثروات اصحاب الملايين !

واذهلت النتيجة خصوم الوفد لم يتوقعوا مطلقا أن خدمهم سيصوتون
ضدهم . أن عبيدهم سيثورون عليهم أن مئات الألوف من الفلاحين الذين
يعملون في أراضيهم سيصغون لصوت ضمائرهم لا صوت بطونهم !
لقد أنفق كثير من خصوم الوفد عشرات الألوف من الجنيهات في معركة
الانتخابات وسقطوا ! باع أحد أعيان الصعيد ثلثمائة فدان من أجدو الأطنان
وأنفق ثمنها في الانتخابات وفشل أمام مرشح الوفد الذي لم يكن يملك فداناً
واحداً ! أنفق الدكتور أحمد ماهر أربعة جنيهات وأصبح نائبا للدرب الأحمر !
صرف محمود قهمل النقراشى جنيهين ونصف جنيه وأصبح نائبا للجمرك
صرف إسماعيل صدقى باشا خمسة عشر ألف جنيه في دائرة فرسيس
بالغربية . كان يملك فيها هو وأخوته ألف فدان . وكانت أسرة زوجته تملك
فيها سبعة آلاف فدان . وأنفق مرشح الوفد محمد نجيب الغرابي عشرة
جنيهات وكان الغرابي يدخل هذه الدائرة لأول مرة في حياته . ولا يملك فيها
قيراطا واحدا ليس له فيها اقارب ولا اصهار وسقط اسماعيل صدقى باشا
ونجح محمد نجيب الغرابي أفندى !

وكان سعد على حق عندما قال إن نتيجة هذه الانتخابات ثورة حقيقية . لم
يحدث قبل ذلك في تاريخ العالم أن سقط رئيس وزراء الدولة في دائرته
الانتخابية ضد مرشح مجهول . في تلك الايام هوت عروش الاقطاع سقطت
دولة الباشوات اهتزت التقاليد الموروثة دبست مئات الألوف من الجنيهات
بالأقدام خلع الملوك غير المتوجين في الريف تحطمت الطبقة الارستقراطية التي
تتوهم انها ورثت مصر ومن عليها أصوات الملايين من الفقراء والمعدمين
والمحرومين والمنبوذين فعلت في حصون هذه الطبقة ما تصنعه المدافع في
القلاع هذه ثورة شعبية عجيبة . لم ترق فيها نقطة دم واحدة . لم يسقط فيها
قتيل واحد . ومع ذلك فإنها استطاعت ان تحقق في يوم واحد ما فعلته ثورات
غيرها في عشرات السنين . وبئس باهظ من المذابح الجماعية وحمامات الدم .
والمشائق والسجون والمعتقلات .

أصبح صندوق الانتخاب هو النعش الذي دفن فيه الشعب خصوما
ومستغليه ومستفديه وكانت أوراق الانتخاب هي الكفن الذي لف به الشعب
هؤلاء الخصوم !

وغضب الملك فؤاد من نتيجة الانتخابات التي لم يتوقعها وكان أكثر غضبه
على مديري المديرية ومحافظي المحافظات الذين كانوا يؤكدون للقصر
باستمرار أن سعد لن ينال اغلبيه في الانتخابات . وإنما ستتوازن القوى

فيه . بحيث يستطيع الملك أن يتحكم في البرلمان ، بدلا من أن يتحكم البرلمان فيه .. فلما جاءت النتيجة المذهلة شعر الملك بأنه لا يستطيع أن يواجه سعد بهذه الاغلبية الساحقة ، ورأى أن يكسب المعركة بالدهاء والصبر والظعن من الخلف !

وكان الملك فؤاد قد استقبل سعد بعد ظهور نتيجة الانتخابات الثلاثينية . وجرى حديث حول من يؤلف الوزارة وهل يكون هو سعد اذا نال الاغلبية ؟ وقال سعد إنه لا يميل إلى تأليف الوزارة . وأنه يرى أن مركزه كرئيس للوفد اكبر من منصب رئيس الوزراء .

واطمأن الملك إلى أن سعدا لن يتولى رئاسة الوزارة . وكان سعد يميل إلى البقاء خارج الحكم ، ولكنه فوجيء بعد ذلك بأن الملك هو الذى لا يريده . وبأن لورد اللنبي المندوب السامى قال إنه لا يطمئن إلى أن يتولى سعد الحكم واعترض الثوار على قرار سعد وقالوا له إن رفضه تولى الوزارة معناه أنه ينفذ إرادة القصر والانجليز . ومعناه أنه برغم الثورة التى أعلنها النخبون لا يزال الانجليز والقصر هم أصحاب الحق في تعيين رؤساء الوزارات !

وقال سعد إنه يفكر في أن يتولى رئاسة الوزارة أحد حلفائه أمثال محمد سعيد باشا أو توفيق نسيم باشا أو احمد مظلوم باشا . وثار أعضاء الوفد الشبان على هذا وقالوا إنهم لن يدخلوا وزارة لا يرأسها سعد .

واذا بالأمير عمر طوسون يدلى بتصريح للصحف يقول فيه أن من رايه ألا يتولى سعد رئاسة الحكومة ، لأنه بذلك يعترف بتصريح ٢٨ فبراير الذى نص على استقلال ناقص . ولم يعترف به سعد ..

وقرأ سعد تصريح الأمير عمر على مائدة الافطار وقال : — إن الأمير عمر لا يريد أن يكون فلاح مصرى رئيسا لوزارة مصر ! إنه اعترض قبل ثورة ١٩١٩ على أن أراس الوفد ، وكان يريد أن يرأس الوفد ، لولا أن الانجليز طلبوا من السلطان فؤاد وقتئذ أن يأمره بالابتعاد عن حركة الوفد ، فابتعد عنها ، ورفض أن يدفع لها مليما واحدا ! إن الأمير عمر وأمثاله يريدون أن يهدروا ارادة الأمة التى أعلنتها في الانتخابات .. ومادام الأمر كذلك فسوف اتمسك بحقى الدستورى في أن اكون رئيس الوزراء بصفتى صاحب الاغلبية الساحقة .

وادلى سعد بتصريح طالب به رئيس الوزراء أن يستقيل أمام حقيقتين كبيرتين ، الاولى : أن البلاد اوضحت رايها بشكل لا يقبل الشك فيه ، والثانية : أن رئيس الوزراء قد هزم في الانتخابات ..

وقدم رئيس الوزراء استقالته ولكن الملك فؤاد لم يقبل الاستقالة ، وإجل
الخطر فيها حتى يعود من زيارة يقوم بها لمدينة السويس !
وقال سعد باشا لاسرته أن هذه الحجة غير حقيقية وأنه علم أن الملك أرسل
إلى لندن يقترح عليها أن يحل مجلس النواب .. الذى لم يجتمع بعد !
ويظهر أن الانجليز لو يوافقوا على هذا الرأى ، لأن الملك قبل استقالة
الوزارة بعد عشرة أيام من تقديمها ، واستدعى سعد وعرض عليه تأليف
الوزارة فقبل سعد تأليفها !
ومنذ اللحظة الأولى التى ألف فيها سعد الوزارة لاح فى الأفق شبح أزمات
ضخمة !

ففى اليوم الأول حدثت أزمة بين الملك ورئيس وزرائه ، وكانت الأزمة بسبب
الكتاب الذى أرسله الى الملك بقبول تأليف الوزارة فإن سعدا كتب يقول فى
كتابه ان الرعاية السامية التى قابلت بها جلالتم ثقة الأمة ونوابها بشخصى
الضعيف توجب على ، والبلاد داخلة فى نظام نيابى يقضى باحترام ارادتها ،
وارتكان حكومتها على ثقة وكلائها الا انتحى عن مسئولية الحكم التى طامأ
تهيبتها فى ظروف أخرى ، وان اشكل الوزارة التى شاء جلالتم تكليفى
بتشكيلها من غير أن يعتبر قبولى لتحمل اعبائها اعترافا بآية حالة أو حق
استنكره الوفد المصرى الذى لا ازال متشرفا برؤاسته ،
وجاء توفيق نسيم باشا إلى بيت الأمة فى ساعة الغداء وطلب الاجتماع
بسعد لأنه مكلف برسالة مستعجلة من الملك .
وتأخر سعد عن العودة إلى غرفة المائدة ثم راه التوأمين يدخل وهو يبتسم
ويقول :

يظهر انه لن يكون لنا شهر عسل ! إن الخناقة بدأت فى يوم الزفاف ! إن
توفيق نسيم باشا جاء يقول لى إن الملك يرجو أن أحذف هذه الفقرة من خطاب
تأليف الوزارة لأننى جعلت الأصل فى الولاية ثقة الناحيين . لا إرادة الملك .
ورفضت أن أبدل حرفا واحدا من هذه الفقرة . وقلت لتوفيق نسيم !
— قل للملك إن سعدا ليس متافقا ، ولو حاول أن يناقك لما عرف كيف
يناقك ! كيف أقول إنه هو الذى اختارنى وأنا اعرف جيدا انه لولا ثقة
الناحيين لما قبل أن يعيننى فراشا فى مجلس الوزراء لا رئيسا لمجلس الوزراء .
إن الذى أقرره هنا هو الواقع .
ونزل الملك على إرادة سعد وقبل بقاء هذه الفقرة بلا تعديل ولا تغيير !
وانتهت الأزمة .. لتبدأ الأزمة الثانية ..

فقد جاء إلى بيت سعد امين انيس باشا مدير الادارة العربية فى القصر ،
يقول إن هناك غلطة بروتوكولية فى مشروع الكتاب الذى قدمه سعد إلى

الملك فقد اعتاد رؤساء الوزراء المصريون أن يوقعوا خطابات قبولهم تشكيل الوزارة بجملة « عبيدكم الخاضع وخادمكم المطيع » .
ولكن سعد لم يكتب هذه الجملة وكتب بدلا منها « شاكر نعمتكم وخادم سدتكم » وان هذه مخالفة للتقاليد التي جرى العرف عليها مع كل رؤساء الوزارات !

وغضب سعد وقال لمدير الإدارة العربية :
— قل للملك ان سعدا رفض طول حياته أن يكون عبدا ولا يمكن أن يقبل اليوم أن يصبح عبدا . ليكون رئيسا للوزراء !
قال أمين انيس باشا :

— إن هذا تعبير بروتوكولى متبع في قصور العالم !
قال سعد :

— للأسف أنا فلاح ، ولا افهم في بروتوكولات القصور . وبلادى اعطتنى هذه الاغلبية لانتى فلاح مثل ملايين الفلاحين . واحب أن تقول لجلالة الملك انه لا يشرفه أن يكون رئيس وزراءه عبدا من العبيد .. بل يشرفه أن يكون حرا من الاحرار !

وقبل الملك فؤاد مضطرا هذه المخالفة البروتوكولية !
وانتهت الازمة .

* * *

وفي تلك الأيام رأى التوأمين الصغيران على مكتب سعد في الدور العلوى « بلكنوت » صغيرا كتب فيه سعد بخط يده :

« سعد : الرئاسة والداخلية : واصف غالى : الخارجية . على الشمسى : المالية . احمد ماهر الحربية . صادق حنين : الزراعة . عاطف بركات : المعارف . الشيخ مصطفى القاياتى : الأوقاف . محمود فايد : الاشغال . مصطفى النحاس : المواصلات . محمد صدقى : للحقانية »

وتصور الولدان الصغيران انهما حصلا على نصر صحفى . انها عرفا إسماء وزارة سعد قبل أن يعرفها أحد . الناس جميعا حائرون حول الذين وقع عليهم اختيار سعد ليكونوا وزراء في وزارته . كانوا يتخبطون في الأسماء وخطر ببال الولدين أن يسبقا بهذا النصر الصحفى صف العالم ، وينشروا في مجلتهم المطبوعة بالبالوطة ، والتي يقرأها زملأهما تلاميذ مدرسة المنيرة !

ولكن لم يلبث الولدان أن خافا من نتائج هذه المغامرة ، أنها سوف تثير ضجة . وسوف يتصل خبر الضجة بأمهما ، وتحرق أيديهما بالبيض المغلى كما فعلت قبل ذلك .. وفضلا أن يضحيا بهذا النصر الصحفى العالمى !

ولو أن الجراة وانتتهما لنشر هذا السبق الصحفي لكأنت أعظم خيبة
صحفية في تاريخهما الصحفي !
فعندما أعلنت مراسيم تأليف الوزارة وجدها التوامان مخالفة للأسماء التي
كتبها سعد في « البلكنوت » !
لم يدخل الوزارة إلا ثلاثة وزراء فقط من العشرة الذين كتب سعد أسماءهم
في « البلكنوت » !

لم يصبح على الشمسى وزيرا للمالية . وإنما توفيق نسيم باشا ، وأحمد
ماهر لم يصبح وزيرا للحربية وإنما حسن حسيب باشا الذى عين وزيرا
للحربية والبحرية ! وصادق حنين لم يكن وزيرا للزراعة ، بل فتح الله بركات
باشا ، وكذلك عاطف بركات لم يعين وزيرا للمعارف . وإنما محمد سعيد باشا
الذى وقع عليه اختيار سعد ليكون وزيرا لها ، وكذلك الشيخ القايتى لم
يصبح وزيرا للأوقاف ، وإنما أحمد مظلوم باشا الذى تولى وزارة الأوقاف !
ومحمود فايد لم يتول وزارة الأشغال ، وإنما اختار سعد مرقص حنا بك وزيرا
لها ، ومحمد صدقي باشا استبعده سعد من القائمة ليكون وزيرا للحقانية
وإنما حل محله نجيب الغرابي الذى ليصبح وزيرا لها .
ماذا حدث للوزراء الذين اختارهم سعد زغلول ، بل ماذا كان سيحدث
للتوامين لو أنهما نشرتا هذا النصر الصحفي الكبير ، ثم تبين بعد ذلك أنه
أكذوبة صحفية كبرى ؟

ومن ثم تعلم الولدان في تلك الأيام درسا في الصحافة لم ينسيها طوال
حياتهما ، وهو أنه ليس معنى أن تحصل على خبر من أكبر مصدر في الدولة أن
يكون هذا الخبر صحيحا ! قد يكون اليوم وبعد ساعة نصف صحيح ، وبعد
٢٤ ساعة لا أسس له من الصحة !

تبين التوامان من أحاديث سعد بعد ذلك أن الأسماء التي دونها في
« البلكنوت » هي أول الأسماء التي فكر في تعيينها في وزارته ثم حدثت بعد
ذلك مفاجآت لم تخطر على باله !

فقد استدعى المهندس محمود فايد وعرض عليه منصب وزير الأشغال وكان
محمود فايد شابا عنقريا حصل على شهادة الهندسة من مدرسة السنترال في
باريس ، وقد كانت أعظم مدارس الهندسة في العالم في تلك الأيام وأعجب به
سعد عندما أرسل إليه عبد الرحمن فهمي أثناء وجوده في باريس بحثا وضعه
محمود فايد هاجم فيه مشروعات الانجليز للرى التي أرادوا بها فصل مصر عن
السودان .

وفوجيء سعد بمحمود فايد يرفض أن يكون وزيرا ويقول إنه يريد أن
يعيش حرا ، وأن الحرية أعظم من مقعد الوزارة ! ولم يتول محمود فايد

طوال حياته أى منصب ، وفى اواخر حياته رشحه الدكتور أحمد ماهر نائبا فى مجلس نواب عام ١٩٤٥ !
ورأى سعد الا يستبد برأيه فى اختيار الوزراء ، وأن يستشير أعضاء الوفد . إنهم قادة ثورة ومن حقهم أن يبدوا رأيهم فى الوزراء الذين اختارهم .
وعندما تلا سعد عليهم الاسماء التى رشحها قوبلت من الاعضاء بالصمت !
وفهم سعد أن الاعضاء لم يعجبهم هذا الاختيار ، وخشية أن يجرهم بان يبدوا آراءهم فى مواجهة زملائهم رأى أن يجتمع بكل عضو على انفراد ليسمع وجهة نظره !

وإذا بالأغلبية تعترض على اقتراح الوزراء الجدد بان معظمهم لاخبرة له بالوزارة . وأن الواجب أن يكون نصف الوزراء من الوزراء السابقين ، إلى أن يتدرب النصف الآخر على أسلوب الحكم ، ثم بعد ذلك يفتح المجال امامهم لوضعهم موضع التجربة فى الحكم .
ومن بين الذين اعترض عليه عدد منهم الدكتور أحمد ماهر لانه صغير السن !

وقال آخرون إن محمد صدقى باشا المستشار السابق الذى رشحه سعد وزيرا للمعدل رفض أن يكون عضوا فى الوفد أيام كانت عضوية الوفد تعنى المشاق والمخاطر ولم يكن سعد على علم بهذه الواقعة التى تمت اثناء نفيه .
واعترض أعضاء الطبقة الخامسة من الوفد على اختيار الشيخ القابانى احد أعضاء هذه الطبقة ولا يختار حسن حسيب باشا الذى كان رئيسا للوفد .
وتكلم مرقص حنا بك نقيب المحامين بعنف وحدة واحتج على اختيار صادق حنين بك الذى قبل الانذار البريطانى واعتزل فى بيته ، بينما حكم عليه هو بالاعدام ولم يهرب من الميدان !

واضطر سعد إلى أن يعيد تشكيل الوزارة من جديد . واحتج بعض الثوار أن يخضع سعد لهذه الاعتراضات ، وقال سعد إن حكومته ديمقراطية وأن أول شرط للديمقراطية هو الشورى ..

ورأى سعد أخيرا أن تؤلف الوزارة من خمسة وزراء تولوا الوزارة من قبل وجعل نفسه وزيرا للداخلية ، وجعل محمد سعيد باشا وزيرا للحقانية وتوفيق نسيم باشا رئيس الوزارة السابق وزيرا للمالية واحمد مظلوم باشا الوزير السابق ورئيس الجمعية التشريعية وزيرا للاوقاف وحسن حسيب باشا الوزير السابق وزيرا للبحرية .

واختار خمسة وزراء من الذين لم يسبق لهم تولي الوزارة وهم مصطفى النحاس بك وزيرا للمواصلات ومحمد عاطف بركات بك وزيرا للمعارف ومرقس حنا بك وزيرا للأشغال وعلى الشمسي افندى وزيرا للزراعة .

وضحك فتح الله بركات باشا في مرارة عندما سمع اسماء الوزارة الجديدة .
وقال : — يظهر أننا خرجنا من المولد بلا جنف !
وتضايق الشبان من أسرة سعد من اختيار سعد لعاطف بك بركات وزيراً
للمعارف وأغفال فتح الله بركات باشا . كان عاطف بك مشهوراً في الأسرة
بالشدة والحزم ، وكان فتح الله مشهوراً بالبرقة والحنان ، وذهبت رتيبة وقالت
لسعد :

— إن شبان الأسرة يقولون أنهم إذا كانوا لا يطيقون عمى عاطف فكيف
يطيقه الطلبة والتلاميذ ! هل تكافؤ الطلبة الذين قاموا بدور عظيم في الثورة
بأن تأتيهم بوزير معارف شديد عنيف .
فقال لها سعد : إن عاطف مرب كفاء وقد نجح نجاحاً عظيماً كناظر لمدرسة
القضاء الشرعي ، وتلاميذه لعبوا دوراً بارزاً في الثورة .
قالت رتيبة : ولكن هذه وزارة الشعب ، ويجب أن تتألف من شخصيات
محبوبة من الشعب !

ولم يقل لها سعد إنه اقتنع برأيها ، ولكن عندما ظهر المرسوم الملكي بتأليف
الوزارة اختفى منه اسم عاطف بركات ، واكتفى سعد بتعيينه وكيلاً لوزارة
المعارف !

ثم حدثت مفاجأة جديدة ، فقد اعترض الملك فؤاد على اسم علي الشمسي ،
وقال إن لديه معلومات بأنه أحد رجال الخديو السابق !
وقال سعد إن هذا غير صحيح ، وإن علي الشمسي هو ابن أمين الشمسي
باشا الذي كان من رجال الثورة العراقية وحكم عليه بأن يكتس شوارع
الزقازيق . فكيف يكون علي الشمسي أحد رجال ابن الخديو توفيق الذي أهانه
هذه الإهانة البالغة !

قال الملك فؤاد : مادام أبوه اشترك في الثورة العراقية فيجب ألا يكون
وزيراً !

قال سعد : وهذا ينطبق على أيضاً ! فأننا أحد رجال الثورة العراقية
وسجنت بسببها .. ولهذا لا أضلح رئيساً للوزارة !
وانتهى الأمر بأن طلب الملك تاجيل اسم علي الشمسي بضعة شهور حتى
يتحرى عن حقيقة الاتهام الموجه إليه !
وقبل سعد هذا الحل .. وكانت غلطة من غلطات سعد .. وأجرى تغييراً في
الوزارة فعين محمد نجيب الغرابي أفندي وزيراً للحقانية وعين محمد سعيد
باشا وزيراً للمعارف ..

ثم تازم الموقف مرة أخرى فقد أمسك الملك بقائمة الوزراء وراح يعد الاسماء
بأصابعه ثم قال :

— توجد غلطة في الوزارة : إن عدد الوزراء عشرة وفيتهم وزيران قبطيان

مع ان التقاليد المتبعة ان يكون في الوزارة قبطى واحد في مقابل تسعة وزراء مسلمين !

قال سعد : هذه ليست وزارة تقاليد ، وإنما هى وزارة ثورة . وعندما كان الانجليز يطلقون الرصاص على الشعب لم يلاحظوا نسبة واحد على عشرة بين الاقباط والمسلمين ، وعندما نفونا إلى سيشيل لم يراعوا النسبة أيضا فكنا أربعة مسلمين واثنين من الاقباط ، وعندما حكم الانجليز على أعضاء الوفد بالاعدام لم يراعوا النسبة كذلك فكانوا ثلاثة من المسلمين وأربعة من الاقباط . فكيف نراعى نحن الآن هذه النسبة !

وهو الملك فؤاد راسه ووافق مضطرا .

ثم عاد يقرأ ويقول :

— إن في الوزارة اثنين من الأفندية هما واصف غالى وزير الخارجية ومحمد نجيب الغرابلى أفندى وزير الحقانية . ولم تجر التقاليد على أن يصبح الأفندية وزراء .. ولهذا فإننى أرى أن أنعم عليهما برتبة الباشوية ويصدر المرسوم باسماء الوزارة جميعا باسوات !

قال سعد : هذا تكريم عظيم . ولكننى أريد أن يصدر المرسوم وفيه أفندية يتولون الوزارة .. وبعد أن يصدر المرسوم يمكن لجلالتكم أن تتعموا عليهما برتبة الباشوية !

وخضع الملك فؤاد وامسك قلمه ووقع المرسوم وهو يقول :

— طيب مبروك !

وصدر المرسوم الملكى على الوجه التالى :

سعد زغلول باشا رئيسا للوزراء ووزيرا للداخلية . محمد سعيد باشا وزيرا للمعارف العمومية . محمد توفيق نسيم باشا وزيرا للمالية . أحمد مظلوم باشا وزيرا للأوقاف . حسن حسيب باشا وزيرا للحربية والبحرية . محمد فتح الله بركات باشا وزيرا للزراعة . مصطفى النحاس بك وزيرا للمواصلات . مرقص حنا وزيرا للأشغال . واصف بطرس غالى أفندى وزيرا للخارجية . محمد نجيب الغرابلى أفندى وزيرا للحقانية . وفرح الشعب لأن اثنين من الأفندية اصبحا وزيرين لأول مرة في تاريخ مصر !

ولم يعرف الشعب أن المشروع الاصلى لتأليف الوزارة كان عدد الأفندية فيه خمسة !!

وشعر التوامان الصغيران ، كما شعر كل المصريين ، بأن حدثا هائلا وقع في البلد . إنها ليست وزارة جديدة تقوم مقام وزارة قديمة . إنه شيء هز مصر من أعماقها . إن دولة جديدة ولدت ، ودولة قديمة سقطت . عالم جديد مختلف عن عالم مضى . تقاليد موروثة اندثرت وافكار جديدة ظهرت . إن دخول

الأفندية إلى الوزارة كان أشبه بتيار جارف يكتسح القصور القديمة والقلاع القديمة والوجوه القديمة . رفض سعد أن يسمى وزارته الوزارة السعدية واطلق عليها اسم وزارة الشعب .

منع الوزراء أن يشتركوا في نادى محمد علي كما جرت التقاليد بأن يصبح الوزير أوتوماتيكيا عضوا في النادى الاستقراطى . قال لوزرائه في أول اجتماع لمجلس الوزراء إن مكانكم في الشارع . إن الشارع هو الذى جعلكم وزراء . وإذا كان لديكم وقت فراغ فامضوه في الشارع مع الناس ، لأن نادى محمد علي مع الذوات والوجهاء

واعطى سعد المثل ولم تطأ قدمه نادى محمد علي !
وأدلى سعد للصحفيين الأجانب بتصريح قال فيه : إننى زعيم الفلاحين - زعيم ذوى الجلابيب الزرقاء . إن أغلب أقاربي حفاة يحملون الفأس ويزرعون الأرض ويرتدون الجلابيب الزرقاء . وأنا أتشرف بأننى زعيم هؤلاء الفقراء !
وفي يوم وليلة أصبحت بجلاية الفلاح المصرى الزرقاء علما ، بعد أن كانت عارا ، وأصبحت كلمة فلاح شرفا بعد أن كانت سببا . وبعثت هذه الكلمة في الفلاحين المصريين شعور الفخر والاعتزاز . انقظت فيهم روحا حاول الغزاة الفاتحون من بونانيين ورومان وفرس وإتراك وإنجليز وفرنسيين أن يطاوها بأقدامهم ، وجاء هذا الفلاح المصرى وبعث هذه الروح من جديد . وأعجب الشعب بخطابه إلى الملك الذى قبل فيه تأليف الوزارة الذى قال فيه :
« لقد ليثت الأمة زمنا طويلا ، وهى تنتظر إلى الحكومة نظرة الطير للمصائد لا الجيش للقائد ، وترى فيها خصما قديرا يدبر الكيد لها ، لا وكيلا أميننا يسعى لخيرها ، وتولد من هذا الشعور سوء تفاهم اثر تأثيرا سيئا في إدارة البلاد ، وعاق كثيرا من تقدمها . فكان على الوزارة الجديدة أن تعمل على استبدال سوء هذا الظن بحسن الثقة في الحكومة . وعلى إقناع الكافة بأنها ليست إلا قسما من الأمة تخصص لقيادتها والدفاع عنها . وتدير شئونها بحسب ما يقتضيه صالحها العام . »

وقال سعد في خطابه للملك : إن مهمة حكومته : « أن تثبت الروح الدستورية في جميع المصالح وتعود الكل على احترام الدستور والخضوع لأحكامه »

وفهم الشعب أن سعدا يقصد بكلمة « الكل » الملك نفسه !!
وفهم الملك ما يقصد سعد بقوله في خطابه بأن حكومته لن تسمح « لأى كان » بالاستخفاف بالروح الدستورية . والاخلال بما تقتضيه .
وكان الملك فؤاد يكره الدستور ويمقت الروح الدستورية ولايطبق كلمة « البرلمان » !

كان ملكا مستتبدا بمعنى الكلمة ، وقد وقع الدستور برغم أنفه . وحاول أن يقصص مواده ، ويضعف حقوق البرلمان ويسلب الأمة سلطانها ، ولكنه اضطر إلى التسليم في نهاية الأمر أمام أجماع الشعب بمختلف هيئاته وفئاته وأحزانه .

ورأى أن يعتمد على دهائه . وعلى تعاليم المدرسة التركية الخبيثة بالدسائس ، وعلى الاصطدام المتوقع بين سعد والانجليز . وبدأ يستقبل أعضاء مجلس النواب المنتخبين واحدا واحدا ، لعله يستطيع أن يطوهم ، ويتزعمهم من سعد وفشل في محاولاته ..

ثم بدأ يستقبل الوزراء فرادى ، ويغمرهم بعطفه ، ويفيض عليهم من عنايته ، ويغمرهم بالمديح والترتب والنياشين ! وفشل في محاولاته !

وكان قبل ذلك قد حاول أن يكسب سعدا ، ويقلم أظافره في الوقت نفسه فكان يبدى اهتماما غريبا بصحته ، ويصر على أن يتولى طبيبه الخاص علاجه ، ويرسل إليه أدوية يقول أنها جاءت خصيصا من أوروبا . ويدعوه إلى الغداء في قصره ، ولا يقدم على المائدة إلا الاطعمة الصحية التي يتناولها سعد ، ويشاركه في أكلها ! ثم يستشير في مسأله الخاصة وفي خلافاته مع الملكة نازلي ، وفوجيء الملك بأنه لم يستطع أن يقلم أظافر سعد .. بل اكتشف أن هذه الأظافر تحولت إلى أنياب !

وتضايق الملك من أنه يجد صدى لعطفه السامى .. فقرر أن « ينكد » على سعد !

سمع أن سعدا اعتاد أن ينام يوميا بعد الغداء ، فإذا لم يتم ساعة كاملة ، أصبح عصبيا !

وتعمد الملك أن يجعل مواعيد لقاؤه معه في الساعة الثالثة ظهرا ! وذهب سعد في الموعد الأول متضررا .. وذهب إلى الموعد الثاني غاضبا .. وقد فهم ما قصد الملك من إصراره على تحديد هذه الساعة بالذات .. وفي المرة الثالثة اتصل سعد ذو الفقار باشا كبير الأمناء بسعد وقال له إن جلالة الملك حدد للقاءه الساعة الثالثة بعد الظهر .

فقال سعد لكبير الأمناء بجفاء : قل لجلالة الملك إن هذه هي الساعة التي ينام فيها سعد .. ولو جئت لمقابلته دون أن أنام فسوف انتحار معي ، وأنا لا أريد هذا الشجار .. أما إذا كان جلالته يريدني فهذا أمر آخر ! وعاد كبير الأمناء واتصل بسعد وقال له :

— إن جلالة الملك يطلب منك أن تحدد الساعة التي تريدها ..

قال سعد : إننى لا أحد موعدا . إن جلالتة هو الذى يحدد الساعة فى أى وقت ما عدا الساعات التى أنام فيها . أنا أنام يوميا من الثالثة إلى الرابعة بعد الظهر ، وأنام من منتصف الليل إلى الساعة الرابعة صباحا . وأنا تحت أمر جلالتة فى أى ساعة من الأربع والعشرين ساعة غير هذه الساعات !
وذهب كبير الامناء وعاد يقول لسعد فى تليفونه :
— إن جلالة الملك يحدد لكم الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر . وضحك سعد وقال :

— اشكر جلالة الملك لأنه ترك لى فرصة اغسل فيها وجهى وارقدى ملابى !
ولم تكن الجماهير تعرف شيئا عن هذه الأزمات المتوالية بين الملك ورئيس وزرائه .. وكانت المظاهرات تهتف بحياة الملك لأول مرة فى حياته .. ولكن كان الهتاف هو : « يعيش الملك ويحيا سعد » ..
وكان المفهوم أن الملك فؤاد سعيد بأن تهتف المظاهرات بحياته فقد سمع منها طوال أيام الثورة الهتاف بسقوطه .. ثم علم سعد من توفيق نسيم باشا وزير المالية الذى كان على صلة بالملك أن الملك غاضب لهذا الهتاف وقال لنسيم باشا :

— معنى ذلك ألا تهتف بحياتى الا مقرونا باسم سعد .. وبغير اسم سعد لا استحق الهتاف باسمى !
وسخر سعد من عقلية الملك ، وانتهاز فرصة سماعه هذا الهتاف فقال للجماهير : لا تهتفوا يعيش الملك ويحيا سعد ، وإنما اهتفوا لتحيا مصر وليحيا الملك .

واعتقد سعد بأنه أرضى عقلية الملك بهذه الدعوة ، ولكنه عجب عندما علم أن هذا الهتاف أيضا لم يعجبه !
وضرب سعد كفا بكف ، وقال لصفيه وهو يضحك :
احترت يا صاحب الجلالة أبو سك منين ؟

وكان سعد بذلك يشير إلى المثل الشعبى الذى يقول « احترت يا بخرة أبوسك منين » أى احترت يا صاحبة الفم ذى الرائحة الكريهة أين أقبلك !
ولكن حيرة سعد لم تستمر طويلا ..
فقد أوعز القصر إلى بعض الأزهريين من رجاله أن يقوموا بمظاهرة . وخرجت مظاهرة الأزهريين تهتف :

— يعيش الملك فقط .. يعيش الملك فحسب !
وعندئذ عرف سعد لأول مرة ما كان يحاول أن يعرفه ! عرف أن الملك فؤاد لا يريد أن يقرن باسمه أى اسم آخر ، ولا مصر كلها ، وإنما الملك فقط ..
والملك فحسب !!



● ● الهلال والصليب الشعار الذى نجحت به ثورة ١٩١٩

● الفصل الثامن عشر ●

أضرب جميع الحوذية في القاهرة . توقفت جميع عربات الحانطور . مشى الحوذية في الشوارع يحملون كرابيجهم . كانوا يلوجون بها . ويطرُقونها ، في اثناء سيرهم في المظاهرة . فيحدث صوتها فرقة غريبة كطلقات المدفع الرشاش . اتجهوا الى بيت الأمة يهتفون هتافات صاحبة . كانوا متممرين غاضبين ساخطين . الشرر يتطاير من أعينهم . الغضب يملأ وجوههم . كانوا يهزون سياطهم في أيديهم وكانهم يهددون بأن يلهبوا بها ظهر زعيم الأمة ورئيس الوزراء !

وطلبوا أن يخرج لهم سعد . لم يتقدموا بهذا الطلب كرجاء . وإنما توجهوا به كامر يستوجب التنفيذ .

وقال لهم عم آدم البواب أن سعد يتناول افطاره . وصاحوا في وجهه : إنما جئنا دون أن نذوق لقمة . كيف يأكل سعد افطاره ونحن سنموت من الجوع ! وفي عهود سابقة كانت مثل هذه المظاهرة لا تستطيع أن تصل الى بيت رئيس الوزراء . كان البوليس يحاصرها ويقبض على زعمائها . كان يسكت الهتافات بالهراوات الثقيلة تنهال على رؤوس الهاتفين . ولكننا الآن في عهد وزارة الشعب . والبيت الذى يقصدون هو بيتهم .. بيت الأمة .. ورئيس الوزراء الذى يقصدون هو الرجل الذى رفعوه الى هذا المقعد ، ومن حقهم أن ينتزعوه من هذا المقعد الكبير . ثم إن سعدا أباح للشعب حق التظاهر . أنه حق مقدس كحق الكلام وكحق الانتخاب .

وترك سعد مائدة الافطار دون أن يتم طعامه ، وخرج الى شرفة السلاملك يستقبل الحوذية الثائرين .

قال العريجية . انهم يطلبون من سعد رئيس الوزراء وزعيم الأمة أن يصدر قانونا يمنع السيارات من السير في شوارع العاصمة ! أن سيارات التاكسي بدأت تنتشر في القاهرة . الناس أصبحوا يفضلون ركوب السيارات على ركوب العربات . أن السيارات تهددهم في أرزاقهم وتنتزع القوت من أفواههم . انها تهددهم بالبطالة والموت جوعا . الحانطور صناعة مصرية والسيارة صناعة أجنبية . الشعور الذى تاكله الخيل يزرعه الفلاح المصرى . وبتزين السيارات يستورد من عدوتنا انجلترا . ثم أن السيارة إذا صدمت مصريا قتلته ، بينما العربة الحانطور لا تقتل أحدا . ان واجب وزارة الشعب ان تصدر هذا

القانون لتحمي الصناعة المصرية ، لتحمي الفلاح المصرى ، لتحمى حياة المصريين من حوادث اصطدام السيارات .
ووقف سعد يستمع فى اهتمام الى خطباء الحوزية المتحمسين ، حتى إذا انتهوا من كلماتهم النارية قال لهم فى هدوء :
— ان السيارات دخلت الى القاهرة قبل تولى وزارتي بعدة سنوات ، فلماذا لم تتقدموا بهذا الطلب من قبل الى الحكومات الأخرى !
فصاح الحوزية : لأن الحكومات الأخرى عينها الانجليز لتعمل لمصلحة الانجليز . أما حكومتك فنحن الذين انتخبناها لتعمل لمصلحتنا .
وتطلع سعد الى عيون العرجية فقرا فيها التحدى والعنف والاصرار الذى لا يقبل التراجع أو التاجيل . ثم ابتسم ، وكأنه أراد بهذه الابتسامة أن يحتضنهم جميعا !
ثم قال :

— اننى عرجى مثلكم ! مهمتى ان اقود العربية كما تقودونها . ان حكومة الشعب هى العربية الحانطور . ومصر هى الزبون الوحيد الذى يركب هذه العربية . وواجبى ان أوصل هذا الزبون الى الجهة التى يريد الذهاب اليها ، وهى الاستقلال التام لمصر والسودان . الفرق الوحيد بينى وبينكم انكم تحملون الكرياج وأنا لا أحمل الكرياج !
وضحك العرجية الثائرون . اخفقى الشر من عيونهم . أحسوا بسعادة غامرة ان زعيم الأمة ورئيس وزرائها يؤكد لهم انه عرجى مثلهم ، ويشبه عمل زعيم الأمة ورئيس وزرائها بعمل العرجية !
وعندما شعر سعد انه كسب قلوبهم ، قال لهم :

— والآن سأحدث إليكم كعرجى يتحدث مع زملائه العرجية ! ان الزبون يريد أن يصل الى الجهة التى يريد بها بسرعة . تماما كما تريد مصر أن تحقق لها الاستقلال بسرعة . وكل إبطاء أو تأخير ليس فى مصلحة الزبون . ونحن الآن فى عصر السرعة . السيارة هى علامة التقدم . انها تحل فى العالم كله محل العربات الحانطور . ولا أستطيع كزعيم هذه الأمة ان أسمح لها ان تتخلف . ان تمشى ببطء فى عصر السرعة . غير معقول ان أرى الطائرة تحل محل السيارة فى بلاد أخرى ، والزّم بلدى بأن تركب عربية حانطور . ستكون نتيجة ذلك ان تسبقنا الأمم الأخرى . اتقبلون ان تتقدم الأمم الأخرى وتناخر نحن ؟ اننى واثق من أن وطنيتكم لن تسمح بذلك . اننى واثق من انكم تفضلون ان تسير بلادنا بسرعة السيارة وبسرعة الطائرة . افهم ان تفكروا فى مستقبلكم فهذا حقكم . والذى لا يعمل من أجل المستقبل لا يستحق حاضره ولا ماضيه . افهم بدلا من ان تطلبوا منع السيارات . ان تلتزموا الحكومة

بان تنشئ مدرسة لتعليم قيادة السيارات . أن تساعدكم على الالتحاق بها في وقت فراغكم . أن تمكنكم من التدريب على الآلات الحديثة . وذلك يتضاعف دخلكم ويتم من مستقبلكم . ان واجيكم أن تطالبوني بإدخال الأجهزة الحديثة الى بلادنا . ان الانجليز يسعدكم أن نتخلف . أن نتأخر . أن تسبقنا دول العالم . أن نركب العربات الحانطور ويركبوا هم الطائرات . ولن تقبلوا أن يقول التاريخ . ان حوذية مصر نادوا بان تتأخر مصر عن بلاد العالم ، خاصة وأنا أعلم مقدار وطنيتكم وغيرتكم على بلادكم . أعلم انكم اشركتم في الثورة . وأعلم انكم ضحيتم بقوتكم في احلك الأيام من أجل مصر وحريتها . وأعلم انكم في استعداد أن تكرروا هذه التضحية من أجل تقدمها . فلا حرية مع التأخر ، ولا استقلال مع التخلف . ماذا كنتم تقولون لو ان اصحاب العربات الكارو طلبوا منع العربات الحانطور ، واصبحنا الشعب الوحيد في العالم الذي لا ينتقل إلا فوق عربات كارو ؟ وأنا لا أكلعكم كرئيس وزراء . ولا كزعيم أمة ، ولكني أتكلم كواحد منكم . يهمنى مستقبلكم . لأن مستقبلكم هو مستقبلى . سوف أفعل ما تريدون . إذا كنتم تريدون أن تتقدم مصر بسرعة العربية الحانطور فسأخضع لرايكم .. وإذا أردتم أن نتقدم بسرعة السيارة وبسرعة الطائرة فسوف أفعل ما تأمرون به !

وصاح الحوذية : بسرعة الطائرة !

قال سعد : إذن اتفقنا !

وهتف الحوذية : يعيش سعد باشا

وضحك سعد وقال : لا بل قولوا : يعيش الأسطى سعد

وهتف الحوذية وهم ينصرفون : يعيش الأسطى سعد !

وعاد سعد سعيدا الى مائدة الطعام ، يستأنف تناول افطاره . انه لم يعط الحوذية شيئا ، وأعطاهم في الوقت نفسه كل شيء . لم يستجب لمطالبهم بمنع السيارات . ولكنه أعطاهم أضعاف هذه المطالب ، أعطاهم الشعور بالكرامة ، الشعور بالأهمية ، أمن لهم مستقبلهم . نزل اليهم ورفعهم اليه . منحهم احساسا جديدا بالاحترام . حتى ذلك اليوم كانت كلمة « عرجي » هي احدى كلمات السباب المتداولة . وكان إذا أراد مصرى أن يصف كلاما بالحقارة والتفاهة والوقاحة قال انه « كلام عرجية » ولكنه لم يهزا من طلبهم الساذج ، ولم يسخر به ، ولم يحط من شأنه ، وإنما رفع شأن هؤلاء العرجية الثائرين . جعلهم في مقام المسئولية . جعلهم يتصورون انه يترك لهم أن يختاروا بين مصلحتهم الشخصية ومصلحة الوطن ، ولم يترك لهم خيارا غير أن يختاروا ما اراده لهم . وفي الوقت نفسه فتح امامهم آفاق المستقبل . بين لهم أن الطريق لرفع أجر العامل ليس هو منع المنافسة .

وإنما هو في التدريب على الآلة الحديثة ، هو في الاشتراك في سباق التقدم بأسلحة التقدم .

كان التوأمان يسمعان جدهما وهو يتحدث الى الحوذية مبهورين مفتونين . كانا في سن العاشرة ولم يكن في استطاعتهما أن يفهما كل ما في كلماته من بلاغة ، وكل ما في عباراته من فصاحة . لكنهما لمسا هذه البلاغة في عيون الحوذية . كان حديثه موجات من الكهرباء تنعكس على ملامح الحوذية الغاضبين الساخطين . كانت هذه الموجات كحرارة أشعة الشمس تضئ الملامح المظلمة ، كأنها رذاذ منعش لذيق يغسل الوجوه الكالحة . كان الكلمات تحولت الى اصابع تدغدغهم فيضحكون . ثم تحولت الى أيد تمسح على رؤوسهم فيحسون بحنان حرما منه طوال السنين ، ثم تتجول الكلمات الى أذرع تعانقهم ، ثم أخيرا تتحول الى شفاه تقبلهم .

كان الولدان يشعران بأن قلوبهما يخفقان بشدة وهما يشهدان سحر جدهما ، وكيف استطاع أن يحول العاصفة الى نسيم . كيف تحكم في التيار الغاضب وجعله هواء منعشا لذيقا . كيف حول الساخطين الى راضين . كان صوته أشبه بانغام الناي . انغام ساذجة ولكنها تهوى الى قاع قلوبهم وتستقر فيها . ولو أن جدهم عزف لهؤلاء الحوذية لحنا من الحان الأوركستر لردته أذانهم ، ولرفضته أرواحهم . ولكن السر الخفي كان في أن جدهم يتكلم مع الحوذية بلغتهم ، ولهذا استطاع أن يفتنهم ويسحرهم . فالصدق في التعبير فيه من البلاغة أكثر مما في كتب البلاغة . ورب نغمة صادقة على ناي ساذج فيها من الفن أكثر مما في كتب السيمفونيات جميعا . أن الطبيعة هي الفن . الرسامون العباقرة يحاولون أن يقلدوها . الشعراء الفحول يتفننون في نقلها . الموسيقيون الموهوبون يكدحون لتصويرها . ولكن تبقى الطبيعة بعد كل هذا أجمل من رسومهم وقصائدهم والحنان !

وقال مصطفى لسعد : ألم يخطر ببالك يا جدى ماذا كنت تفعل لو أن الحوذية اختاروا العربية الحانطور عندما جعلتهم حكما في بقاء السيارة أو الغائها !

قال سعد وهو يضحك ويغلق عينيه من شدة الضحك :
— لا .. لم يخطر ببال هذا مطلقا !

قال علي : هل معنى ذلك أنك كنت واثقا من بلاغتك ؟

قال سعد : لا .. بل كنت واثقا من قوة هذا الشعب . من استعداده الدائم للتضحية من أجل الوطن . المهم أن تمنحه ثقتك ، وأن تشرح له القضية . وعندئذ ستكسب القضية . أن شعبنا ذكي جدا وطيب جدا في الوقت نفسه . وطيبته تجعل البعض يتصور أنه من الممكن خداعه ، فيذهلون عندما يجدون

ان هذا الشعب الطيب فيه دهاء علمته له الأهوال التي مرت به . الشعوب التي تحملت الضغط والظلم والاستبداد ، تكون عادة أكثر ذكاء وحرصا من الشعوب التي لم تذوق طعم الطغيان . ان الضعيف يحتاج الى دهاء ليعيش مع الطاغية ، لأنه يغلبه بدهائه أكثر مما يغلبه بقوته . وكان بعض الأوروبيين يعتقدون ان صبر شعبنا هو خضوع وذلة واستسلام . وكنت دائما على ثقة من ان هذا الصبر هو ذكاء ودهاء . هو انتظار للفرصة الملائمة للانقضاض . وما حدث في ثورة ١٩١٩ اكبر دليل على صدق نظريتي .

كان سعد يهتم دائما بأن يشرح لحفيديه الصغيرين كل شيء . كان يشجعهما على أن يسالا ويستوضحا ويستفسرا . ولم يكن يخصصهما وحدهما بهذا الاهتمام ، فإن طبيعة المعلم فيه كانت أقوى صفاته وأبرز ميزاته . وكان مستعدا دائما لأن يكرر ليوضح ، وأن يوجه الأسئلة لمحتن السامع فيما سمعه . وكان غريبا أن يجد الزعيم المشغول بأمور الدولة وقتا للولدين الصغيرين . ولكنه كان يراول لذته الكبرى في اللقاء دروسه بغير أن يفهم التلميذ انه تلميذ ، وبغير أن يشعره بأنه الأستاذ . كانت بساطته في الشرح تحول المسائل العويصة كأنها « حدوة » فيها طلاوتها وطارقتها واثارتها وجدتها ! كان يختار لهما دائما الكلمات البسيطة ، والمعاني الواضحة ، ويلجأ الى تشبيهات قريبة الى أفهامهما ، وكان قلبه العجوز يشرق إذا احس انه نقل الى الأذهان الصغيرة ما في رأسه الكبير . وكأنه يشعر بأنه زرع قمحا في أرض جدياء ، وبدأ يرى سنابل القمح فوق أعوادها الصغيرة .

وكان الولدان سعيدين بهذه المدرسة الجديدة . مدرسة فيها تلميذان اثنان ومعلم واحد . دروسها ممتعة . وخصصها متفرقة ، مدرسة بغير كتب ولا كراريس ، فيجلسان في مقعديهما ملتصقين بهما ، مبهورين بحديث المدرس ، متتبعين لشرحه ، كأنهما يشهدان قصة سينمائية مثيرة ، هو بطلها ، فيلم مسلسل ، حلقاته لا تنتهي . كل حلقة فيها مغامرة جديدة . لقد شاهدا في تلك الأيام في السينما فيلم أحمد لص بغداد . كان يقوم به الممثل دوجلاس فيربانكس . وقد رأيا فيه كيف يلقي دوجلاس التراب فيتحول الى جنود يهاجمون قصر الخليفة ! ان جدهما يفعل يوميا ما يفعله دوجلاس فيربانكس . ان كلماته أشبه بالتراب الذي يلقيه لص بغداد . فتنشق الأرض ويخرج منها مئات الألوف يسرون خلف هذا الزعيم لتحقيق أهدافه في انتزاع الحرية لبلادهم من مخالب الاقوياء والمحتلين !

وفي اليوم الأول من تأليف الوزارة سمعا من شفثيه كلمة استقالة الوزارة ! في يوم مولد الوزارة كان يتوقع موتها !

وكان تهديده بالاستقالة بسبب المسجونين السياسيين . ان الانجليز

أفرجوا عن أغلب المسجونين السياسيين ، ورفضوا الافراج عن عبدالرحمن فهمى وزملائه في قضية المؤامرة الكبرى ، وعن عدد آخر من المسجونين . وكانت هذه المشكلة هي شاغله الأكبر ومشكلته الجائفة فوق صدره . كان الانجليز يعارضون بشدة في هذا الافراج . والعقلاء منهم يرون تركها للمفاوضات بين مصر وبريطانيا ، لتكون « كارت » يساومون به سعد في أثناء المفاوضات . وكان سعد يحرص في كل مناسبة على أن يثير موضوع الافراج عن المسجونين السياسيين .

عندما أفرج الانجليز عنه من جبل طارق ، وانتقل بالباخرة الى ميناء طولون بفرنسا خرج مئات الطلبة المصريين والعرب الذين يتعلمون في جامعات أوروبا ، خرجوا يستقبلونه في عرض البحر ، ويذكرون بطولته ويشيدون بالجد الذي صنع لبلاده وإذا به يخطب فيهم راجيا أن ينسوه في تلك اللحظة « وليفكروا في الذين لا يزالون يرسفون في قيود السجن والاعتقال » وعندما ألف وزارته أصر على أن يكتب في خطاب تأليف الوزارة الى الملك ان الشعب يريد العفو عن المسجونين السياسيين . وهو بذلك قد أعرب عن مطلب الأمة .. وهو مطلب واجب التنفيذ .

وكان سعد يقول لأسرته في ضيق :

— اننى لا أشعر بأى سعادة في هذا الكرسي ! كيف اجلس على مقعد الرئاسة وانصارى يرسفون في قيودهم في الزنازين . كيف ارتدى بدلة التشريف الموشاة بالقصب وأولادى يرتدون ملابس السجن الزرقاء ! كيف احضر الاحتفالات الكبرى التي تقام لي ، وجنود الثورة وابطالها يشربون الماء في جرادل وياكلون الطعام الذي تعافه الكلاب !

ان أزمة الافراج عن المسجونين السياسيين لم تستمر سوى بضعة أيام . وكانت تبدو في عين سعد كأنها أجيال وأجيال . كان يقول ان الانجليز يتعمدون إذلاله وتحقيره أمام انصاره كلما تأخروا ساعة في الافراج عن المسجونين السياسيين . كان يقول ان تعطيل الافراج عنهم معناه ان البلد ليس فيه حرية ولا فيه دستور . معناه ان مصر كلها لا تزال في اغلال . ان وجود مسجون سياسى واحد في السجن يعنى ان الأمة كلها مقيدة . فليس في البلاد الحرة جريمة سياسية !

واضطر الانجليز أن يدعنوا أمام تصميمه وعندما خرج المسجونون من سجونهم لم يذهبوا الى بيوتهم . وإنما ذهبوا الى بيت الأمة . وعندما رآهم سعد دمعت عيناه وقال :

وقد يجمع الله الشيتتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا !

ثم التفت الى الوزراء الموجودين وقال :

— اننى الآن فقط أشعر باننى أصبحت رئيسا للوزراء !

ولم يكتف سعد بالإفراج عن المسجونين السياسيين . راح يبحث عن ظروفهم وأحوالهم . انه يعرف ان المسجون السياسى لا يفقد حريته فقط . بل انه يفقد أيضا حياته . يخرب بيته . تباع أمه سوارها الذهبى لتنفق عليه . تباع زوجته الحلل النحاس لتشتري له الطعام الذى تحمله اليه في زيارة السجن . يفقد وظيفته إذا كان موظفا . يطرد من عمله إذا كان عاملا . يفصل من مدرسته إذا كان طالبا . يخرج من السجن مشردا . ضائعا . لا يجد مأوى يلجأ اليه . لا يجد مالا يعيش عليه . ان سعدا ذاق هذا التشرد عندما خرج من السجن بعد الثورة العراقية . كان يبحث عن أصدقاء فلا يجدهم . يبحث عن عمل فتغللق في وجهه الأبواب . يجب ان يكون هناك فارق بين الثورة المنتصرة والثورة المهزومة . لا تستطيع الثورة الناجحة ان تتخل عن ابنائها الذين أحرقوا أنفسهم لينثروا لها الطريق .

وأمر سعد بأن يسند الى جميع أعضاء الجهاز السرى وظائف في الحكومة . ولكنه اصطدم بالقانون المالى الذى يضع اشتراطات للتعيين لا تتوافر في الذين أمضوا أحل أيام شبابهم في الزنزانات مقيدين بالسلاسل والأغلال . ووجد سعد حلا لهذه المشكلة . ان قانون انشاء سكرتارية البرلمان أعفى موظفيه من قواعد القانون المالى . ولهذا قرر ان يعين أعضاء الجهاز السرى في كل وظائف سكرتارية البرلمان . وتولى أحمد ماهر والنقراشى وضع كشف باسمائهم وصدر قرار تعيينهم في الحال .

وقامت قيامة صحف المعارضة . كيف يعين من لا يحمل الليسانس بمرتب حامل الليسانس . كيف يعين راسب الكفاءة في وظيفة حملة البكالوريا . وثار الموظفون على هذه التعيينات . ان المرتبات تزيد جنبيين أو ثلاثة جنبيين على زملائهم . ولكن هذه المبالغ التافهة أسخطت الموظفين ، وخاصة من أيد منهم كل وزارة ووقف يتفرج على الثورة ولم يكنو بنارها .

ورأى سعد ان من مصلحة الثورة الاتدافع عن نفسها . انها قد تحتاج الى كل هؤلاء الأبطال المجهولين في أى وقت ، فليس من الحكمة ان تكشف عن أوراقيها ، وتذيع أسرارها لتدافع عن تصرف لها ! كانت الصحف تقول مثلا كيف يعين توفيق تادرس بمرتب عشرة جنبيات وهو راسب في دبلوم مدرسة الفنون والصنائع . وكان يمكن الرد على ذلك بأن توفيق تادرس كان من أنشط أعضاء جهاز المنشورات الذى كان يهز العرش تحت مقعد السلطان !

كانت صحف المعارضة ترد كيف يعين وكيل مكتب مرقص حنا بعشرين جنبيات . وكان يمكن اقحام هؤلاء بأن هذا الذى يسفونه « محسوباً » كان

ابرز أعضاء جمعية الشعلة الفدائية التي كانت تقتل الجنود الانجليز في الثورة . وكان القائد البريطاني قد وعد بمكافأة خمسة الاف جنيه لمن يجيى برأسه .

وعاش هؤلاء الأبطال في محنة . يهاجمهم خصوم سعد وهم ممنوعون من الرد . يتهمون بانهم محاسيب ودلائل وهم الفدائيون الحقيقيون الذين وضعوا رؤوسهم على أكفهم ، ولم يهابوا الموت ، ولم يحرصوا على الحياة . وكانوا يضيّقون بهذه الاتهامات وكان كثيرون منهم يذهبون الى سعد ويقولون انهم يفضلون ان يتركوا هذه الوظائف التافهة ويموتوا جوعا على ان يتحملوا هذا السباب اليومي ، فكان سعد يقول لهم ان هذه تضحية جديدة يجب ان يضيّفوها الى سلسلة تضحياتهم . وانه يعتقد ان الغرض من الحملة ليس القروش البسيطة التي يقبضونها وإنما محاولة احراجهم للكشف عن الجهاز السرى الذى يعمل تحت الأرض ، لنتمكنوا من ضربه في الوقت المناسب . ولم يكن خصوم سعد هم الساخطين وحدهم . بعض الموظفين الذين تألوا هذه الترفيقات بدأوا يسخطون ايضا . النفس البشرية تصور لكل انسان انه يستحق اكثر مما اخذ . الذين ضحوا بحياتهم بشر ايضا . ان قصة الثورة الكاملة لم تكن معروفة حتى لبعض ابطالها . كان العمل تحت الأرض يقتضى الكتمان . لم يكن الفدائيون يعرفون زملاءهم في الجهاز . الذين يتصورون انهم يعرفون كل القصة لا يعرفون في الواقع إلا الجانب الضئيل منها . بعض الفدائيين وجدوا أسماء غريبة دست عليهم . خيل لهم انهم فضوليون تسلقوا على أكتافهم . انهم يجنون ثمار أرض لم يروا زرعها بدمائهم . وكانت الحقيقة غير ما يتصورون .

واضطر سعد أن يقابل بعضهم ليوضح له ان مخاوفه لا أساس لها . وانه شخصيا لم يعرف كل أسماء أبطال الثورة . واستعان بعدد ممن يثق بهم من زعماء الجهاز السرى لمعرفة الأسماء . ولكن لا يزال هناك أبطال مجهولون لا يعرف أسمائهم . رجال قاموا بخدمات جليلة ولم يظهروا . بينهم ضباط البوليس الشاب الذى اكتشف المتشورات الخطيرة في بيت الأمة وتستر عليها . انه حتى الآن يبحث عنه في كل مكان ولا يجده . ولكن بعض هؤلاء لم يقتنعوا بهذا الرأي . وقد وقعت أحداث جسام نتيجة عدم الاقتناع .. لعل ابرزها خروج احدى الخلايا السرية على قيادة الجهاز السرى وقتلها سير في سترك سردار الجيش المصرى وحاكم السودان . وهو الحدث الذى اعتبره سعد موجهاً ضده شخصيا .

وحدث في هذه الفترة أن عين سعد محمود فهمى النقراشي وكيلًا لمحافظة القاهرة .

ودهش أعضاء الجهاز السرى كيف يقبل أحد زعمائهم وواحد من أبرز أعضاء الوفد هذا المنصب الضئيل .

والذى حدث أن سعد استدعى النقراشى وقال له : اننى أريد أن أعينك وزيرا للداخلية ولكننى أرى أن تبدأ من أول السلم لتدرس هذه الوزارة المليئة بالثعابين . اننى سأعينك فى أقل منصب وهو منصب وكيل محافظة القاهرة . وبعد شهور سأعينك وكيلًا لوزارة الداخلية ، وبعد عام ستصبح وزير الداخلية .

وقبل النقراشى هذا المنصب على الفور ، وفى الوقت نفسه استدعى الدكتور أحمد ماهر وقال له : لقد كنت أريد أن أعينك وزيرا . ولكن قيل أنك ما زلت صغير السن . سأجعلك سكرتيرا برلمانيا . ثم سكرتيرا للمهينة البرلمانية الوفدية وهو أهم منصب فى البرلمان فى رأى ، وبعد أن تصبح فيه مرموقا ستصبح وزيرا .

ولم تمض بضعة شهور حتى كان أحمد ماهر وزيرا للمعارف والنقراشى وكيلًا لوزارة الداخلية .

ولكن هذه المهام لم تكن كل أسباب الصدام فى رأس سعد . فقد كانت الأزمات تلاحق وزارته بالليل والنهار !

ففى الأسبوع الأول للوزارة وقعت أزمة حادة بين الملك فؤاد ورئيس وزرائه . كان دستور سنة ١٩٢٣ ينص على تعيين الخمسين من أعضاء مجلس الشيوخ ، أما ثلاثة أخماس المجلس فتتم بالانتخاب .

وأراد الملك أن يعين الخمسين من أعضاء الشيوخ كما يقضى الدستور . وقال سعد : أن هذا ليس من حقه . أنه من حق الحكومة !

قال الملك : ولكن الدستور ينص على أن الملك هو الذى يختار أعضاء الشيوخ المعينين .

قال سعد : أن الدستور ينص على أن الملك يملك ولا يحكم . بمعنى أن الحكومة هى التى تقترح الأسماء وجلالتكم توقعون على المرسوم .

واستشاط الملك غضبا وقال :

— يعنى وظيفتى يصمى أبصم ما تقرره انت ، أنا لا أقبل أن أكون طرطورا .

قال سعد : أن الحق الذى تريد أن تأخذه جلالتك هو حق الشعب ، ولا أملك أن أنزل عنه . أن الدستور صريح فى أن هذا هو حق الحكومة التى

اختارها الشعب فى الانتخابات .

وعاد الملك وقال غاضبا :

— انك تتعبد ان تهيننى بهذا الموقف .
قال سعد : معاذ الله ان اتعبد اهانة جلالكم .. وإذا اختلفنا فيمكن أن نحكم الى البرلمان .. وهو الذى يحكم بيننا !
قال الملك : البرلمان ؟! البرلمان كله معك . والمقصود بهذا أن تفضحنى أمام الشعب وتصورننى بصورة الملك الذى يعتدى على حقوق الشعب .
قال : ممكن أن نعرض الخلاف فى جلسة سرية !
واشتدت ثورة الملك ، وبقي سعد هادئ الأعصاب ، لا يتزعزع عن الموقف الذى قرره .

وبعد مناقشات طويلة ومقابلات عديدة ، تم الوصول الى حل وهو تقرير مبدا أن حق الوزارة ثابت بحكم الدستور فى انها هى وحدها التى تعين أعضاء مجلس الشيوخ ، وفى الوقت نفسه يجامل سعد الملك فىوافق على عدد من الأعضاء الذين يختارهم .

وتقدم الملك بقائمة فيها أسماء عدلى يكن باشا ويحيى ابراهيم باشا من رؤساء الوزراء السابقين واسماعيل صدقى باشا من الوزراء .
ورفض سعد الموافقة عليهم . وقال ان الشعب اسقط عدلى يكن فى الانتخابات الثلاثينية ، والشعب اسقط يحيى ابراهيم باشا واسماعيل صدقى باشا فى انتخابات مجلس النواب ، فتعيينهم فى البرلمان يعد سقوطهم معناه تحدى ارادة الشعب . معناه ان الملك يفرض على الشعب رجلا رفض أن يكونوا أعضاء فى البرلمان .

ونزل الملك على ارادة سعد ، وشطب الأسماء الثلاثة .
وجامل رئيس الوزراء الملك فعين والد محمد نجيب باشا ناظر الخاصة الملكية عضواً فى مجلس الشيوخ ! وجامله فى تسعة أشخاص آخرين !
اما باقى أعضاء مجلس الشيوخ المعينين فقد اختارهم مجلس الوزراء وحده !
ووقع الملك المرسوم وهو يبكى !

وعاد سعد الى بيته فى دهشة من بكاء الملك ، انه لم يوجه اليه أى اهانة .
انه حرص على الا يوجه اليه كلمة خارجة . ثم ابتسم وقال :
— إذا كان الملك يبكى لأننى أرفض أن اسلم له فى حق من حقوق الشعب ، فإنه سيبكى كثيراً !

وكان الملك فؤاد ممثلاً كبيراً . دموعه هى دموع التماسيح . كان يتظاهر أمام رئيس وزرائه بالضعف والاستكانة وقبول الهزيمة ، بينما كان فى الظلام يدبر المؤامرات ، ويحكى المكائد ، ويضع الألغام الناسفة فى طريق وزارته .
كان يتظاهر بأنه يؤيد رئيس وزرائه فى مواقفه ضد الانجليز ، وفى الوقت

نفسه يؤلبهم ضده ، ويؤكد للورد اللنبي المندوب السامي البريطاني أن سعد يريد أن يقوى نفوذه داخلها ، ليقوم بالانقضاض على الإنجليز ، وإن الثورة القادمة أخطر من ثورة سنة ١٩١٩ ، فإن الحكومة سوف تكون في يد الثوار بدلا من أن تكون في يد الإنجليز !

وفي تلك الاثناء حدثت أزمة طريفة ..

اتصل الملك فؤاد تليفونيا بسعد وقال له انه يرغب في أن يراه في قصر عابدين لأمر هام .

وقال سعد : أسف اننى لا أستطيع الحضور . ان ساقى متعبة ولا أستطيع الصعود على السلالم الى مكتب جلالكم في الطابق الثانى في قصر عابدين .

وأخرج الملك . وقال : سوف أستقبلكم في الطابق الاول في مكتب سعيد ذو الفقار باشا كبير الامناء .

وقال سعد : إذن ساحضر لجلالكم .

وأصبح الملك يضطر الى الهبوط الى الطابق الأرضى فى القصر ، فى كل مرة يستقبل فيها رئيس وزرائه .

وتصور الملك أن سعد يعتمد امانته برفضه الصعود الى الطابق الثانى ، وبانه يحاول أن يظهره امام حاشيته وخدمه بانه يضطر الى أن يغادر الطابق الثانى فى كل مرة يستقبل فيها رئيس وزرائه .

والواقع أن سعد فى تلك الايام بدأ يشكو من ساقيه ، حتى ان صفية أعدت له مقعدا كبيرا يجلس عليه ، ويحمله خادمان ويصعدان به من الطابق الاول الى غرفة نومه فى الطابق الثانى فى بيت الامة .

وأمر الملك ببناء مصعد لأول مرة فى قصر عابدين . وجرى العمل فى بناء المصعد ليلا ونهارا حتى لا يضطر الملك الى النزول من الطابق الثانى ليستقبل رئيس وزرائه فى الطابق الأرضى .

وأطلق موظفو القصر على هذا المصعد اسم « اسانسير سعد باشا » وبقي هذا هو اسم المصعد الى آخر أيام الملك فاروق !

وتنتهى أزمة المصعد لتبدأ أزمة جديدة .

وجد سعد أن فى ميزانية الدولة مبلغا ضخما تدفعه الحكومة المصرية سنويا للحكومة البريطانية هو نفقات جيش الاحتلال !

وقال سعد : انه لا يفهم أن يدفع المستعبدون ثمن السياط التى يجلدون بها ! ان دفعنا هذا المبلغ معناه اننا راضون بالاحتلال .. وما دمنا نرفض القيد فيجب ان نرفض دفع مصاريف صيانة السلاسل والاغلال !

وعارض المستشار المالى فى وزارة المالية ، وهو انجليزى ، هذا الالغاء . وقال انه التزم لا تستطيع أن تتحلل منه مصر بغير موافقة انجلترا . قال سعد : إننى لا أجد معاهدة وقعتها مصر تلزمها بهذا الدفع . فقال المستشار المالى : أن حكومة مصر تدفع هذا المبلغ لبريطانيا منذ العام الأول للاحتلال ، واستمرارها على الدفع هو التزم يرتفع الى مرتبة العقد . قال سعد : هذه الحكومات التى تدفع لكم هى الحكومات التى عينتموها ، وما ارتبطت به لا يلزم حكومتى . لنفرض أن وكيل دفع لمستاجر بيتى أجرا بدل أن يحصل منه ايجارا فهل يلزمنى هذا الخطأ . فما بالك والجيش البريطانى لم يستاجر بيتى وإنما اغتصبه !

فقال المستشار المالى : من الوجهة القانونية يجب أن تستمر فى الدفع ! قال سعد محتدا : أريد أن أعرف هل أنت مستشار الحكومة المصرية أم مستشار الحكومة البريطانية .

فقال المستشار المالى : أنا مستشار الحكومة المصرية .

قال سعد : ولكك متحمس للدفاع عن وجهة نظر بريطانيا ! وقد كان من الواجب أن تدفع الحكومة البريطانية مرتبك بدلا من أن ادفعه أنا ! وحذف سعد نفقات جيش الاحتلال البريطانى من ميزانية الدولة المصرية وأمر بعدم تجديد عقد المستشار المالى الذى كان سينتهى فى خلال شهور . وقامت دار المندوب السامى البريطانى ولم تقعد . وقامت قيامة الحكومة البريطانية .

وأصر سعد على موقفه ..

والقارئ فى الستينيات أو السبعينيات قد يرى فى هذا الموقف الذى وقفه رئيس وزراء مصر أمرا عاديا . ليس فيه بطولة غير عادية . ولكن لكى نحكم على هذا الموقف يجب أن نذكر كيف كانت مصر فى تلك الأيام . فقد كان الجيش البريطانى يحتل أراضيها . وكان حكام دارو البوليس فى المحافظات من الانجليز . وقائد الجيش المصرى من الانجليز ، وقواد الأسلحة من الانجليز . بل أن محافظ سيناء كان انجليزيا ! وكان البوليس السرى بقيادة انجليزى ، وعدد من كبار الموظفين فى المناصب الحساسة من الانجليز .

ثم كان ملك مصر نفسه معينا بقرار من وزير خارجية بريطانيا ! ولم يكن فى تلك الأيام أمم متحدة ، ولا ميثاق للأمم المتحدة ، ولا مجلس أمن ، ولا راي عام دولى . وكانت هناك عصبة أمم لم تكن مصر عضوا فيها . وكانت بريطانيا يَوْمَئِذٍ أقوى دولة فى العالم وسيدة البحار ، والامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس .

فقيمة موقف رئيس الوزراء المصرى ومدى شجاعته يقدران بمقاييس تلك الأيام ، لا بمقاييس هذه الأيام . وبمكاته بريطانيا يومئذ لا بمكاتها اليوم . وبيان دول العالم الكبرى فى تلك الأيام كانت خاضعة لبريطانيا ، ولم تكن هناك دولة واحدة تنازعها على الزعامة أو تقاسمها النفوذ . ثم بدأت أزمة أخرى .

قبل تولى سعد رئاسة الوزارة التجا عشرة من زعماء ليبيا الى مصر ، وقبض عليهم مدير الحدود الانجليزى ووضعهم وزارة يحيى ابراهيم باشا فى السجن .

وما كاد سعد يتولى الوزارة حتى كتب السنيور موسولينى رئيس وزراء إيطاليا خطابا الى سعد زغلول يطلب فيه تسليم إيطاليا هؤلاء الزعماء العشرة لتحاكمهم !

ورفض سعد طلب السنيور موسولينى ! وكتب السنيور موسولينى خطابا الى رئيس وزراء بريطانيا يطلب اليه ان يضغط على سعد زغلول ليسلم له الزعماء العشرة . وطلب رئيس وزراء بريطانيا من سعد ان يسلم الزعماء الليبيين العشرة الى موسولينى ، لأن الحكومة البريطانية حريصة على علاقاتها الودية الطيبة مع حليفها إيطاليا وخاصة لأن السنيور موسولينى مصر على محاكمتهم لأنهم مجرمون سياسيون .

قال سعد : وأنا أيضا كنت مجرما سياسيا فى نظركم وربما ما زلتم تعتبروننى الى اليوم مجرما سياسيا ! ان تهمتهم هى نفس التهمة التى أنا متهم بها واتشرف بها وهى تهمة المطالبة بالاستقلال . وجريمتهم هى نفس جريمتى ، وهى الدفاع عن حرية بلادهم ! الا يكفيكم انهم القوا سلاحهم . انهم هربوا من بلادهم . لماذا هذه المطاردة . هل يرضى القتل وليس يرضى القاتل !

واصر موسولينى على ضرورة تسليم الزعماء الليبيين العشرة ووعدهم بمحاكمتهم محاكمة عادلة !

وضحك سعد وقال : انا خير من يعرف هذه المحاكمات العادلة ! نفس المحاكم التى حكمت على أعضاء الوفد بالإعدام لأنهم طالبوا بحرية بلادهم ! وهدد موسولينى وتوعد .

وهددت بريطانيا وتوعدت . وقرر سعد ان يطلق سراح الزعماء العشرة على أن يبرحوا مصر الى حيث يشاءون .

ولم يعجب هذا القرار الثوار المصريين ، وكان عبدالرحمن عزام يتناول الغداء مع سعد زغلول في وجود التوامين .

وقال عزام : كان واجبك أن تفرج عنهم وتبقيهم في مصر متحديا بريطانيا وإيطاليا معا .

قال سعد : لو كنت أضمن أن حكومتى باقية في الحكم ٢٤ ساعة لفعلت ذلك . ولكننى أعرف أن بقائى في الحكم مؤقت . وأن الانجليز يتآمرون للخلاص منى .. فلو خرجت من الحكم غدا فستجىء حكومة بعدى وتسلمهم الى موسولينى ليشنقهم . إننى فضلت هذا الحل .

قال عزام : كان اشرف لنا أن يشنقهم موسولينى . من أن تفرج عنهم ونطلب منهم أن يبرحوا القطر الى حيث يشاءون .

قال سعد : ان البلد المحتل لا يستطيع أن يتصرف كالبلد المستقل . اننى أردت أن أحل المسألة هذا الحل الكريم خشية أن تتمسك بريطانيا بتصرف ٢٨ فبراير الذى تدعى فيه بريطانيا مسئوليتها عن حماية الأجانب وعلاقات مصر الخارجية عندما يقع خلاف يؤذن بتعريض مصر لاعتداء أو تهديد من إحدى الدول القوية . أردت إذا أراد الانجليز أن يتدخلوا بهذه الحجة أن أجيبهم : ليس عندي زعماء معتقلون لأنهم فعلا خارج البلاد . وهذا ما وقع فعلا .

قال عبدالرحمن عزام : ومع ذلك فإننى غير مقتنع بهذا الحل .

قال سعد : لو كنت مكانك لقلت هذا .. ولكن لو كنت أنت مكانى لفعلت ما فعلته الآن !

ثم جئت أزمة أخرى أيضا .

علم سعد أن مستر هولدن مدير مصلحة الأملاك يعتبر أملاك الدولة أملاكه الخاصة ، يستغل نفوذه ، ويخالف القوانين ، ويوزع أرض الدولة على من يشاء وكيف يشاء .

وأمر سعد بإحالة مستر هولدن الى التحقيق .

ونثار لورد اللنبى السامى البريطانى ، واعتبر التحقيق مع الموظف الانجليزى الكبير امانة للامبراطورية البريطانية وطلب وقف التحقيق مع مستر هولدن وتقديم الاعتذار له !

وأمر سعد باستمرار التحقيق .

وقابل لورد اللنبى رئيس الوزراء مقابلة عاجلة وقال له ان الحكومة البريطانية تتنظر بقلق لهذا التصرف . وانها تعتبره عملا عدائيا . فلم يسبق أن جرى تحقيق قضائى مع موظف بريطانى في مصر .

قال له سعد : لأنه لم يسبق أن قامت في مصر حكومة لم يعينها الانجليز !
قال اللورد اللنبى : ولكننا نعتبر التحقيق معه تحقيقا مع بريطانيا .
قال سعد : الا تحقّقون في بريطانيا مع الموظفين الذين يجرمون !
قال لورد اللنبى : نعم ..

قال سعد : هل تريد أن تقول أن الجريمة تعتبر جريمة إذا وقعت في بلادكم .. ولا تعتبر جريمة إذا وقعت في بلاد أخرى !
قال لورد اللنبى : اننا نعتقد أن مستر هولدن يحقق معه لأنه انجليزى .
قال سعد : أن في مصر مئات الموظفين الانجليز .. فلماذا لم نحقق معهم ..
أخشى أن يعتقد المصريون أن الجيش البريطانى موجود في مصر لحماية الجريمة والمجرمين .. وكل الذى أعدك به أن أقرأ بنفسى التحقيق مع مستر هولدن لا باعتبارى سعد زغلول رئيس الوزراء ولكن باعتبارى سعد زغلول القاضى .

وقرا سعد التحقيق ، وأمر بإحالة مستر هولدن الى مجلس تاديب ، على الرغم من احتجاج المندوب السامى البريطانى !
ثم بدأت أزمة جديدة .

حدث أن اكتشف مستر كارتر مقبرة توت عنخ آمون ، وكان هذا الاكتشاف حدثا عالميا في تلك الايام ، كانه الوصول الى القمر ، وكانت صحف العالم تحدث عن مستر كارتر هذا كانه ارمسترونج أول من لمس قدميه سطح القمر .
وانتهز مستر كارتر هذه الفرصة ، وأراد أن يعتبر مقبرة توت عنخ آمون ملكا خالصا لبريطانيا ، وكان توت عنخ آمون تجنس بالجنسية البريطانية بعد أن اكتشفه مستر كارتر ! فكان يستبد بفتح المقبرة كما يشاء ، ويمنع موظفى مصلحة الآثار المصرية من الدخول ، ولا يبالي بما تقرره المصلحة المصرية من تعليمات .

ولما نبهته الحكومة المصرية الى مخالفته للترخيص المعطى له بالتنقيب أبرق الى سعد ينذره بأن يغلق مقبرة توت عنخ آمون ومقاضاة الحكومة المصرية !

وتصور مستر كارتر أن سعدا سيفزع من هذا التهديد فأبرق سعد اليه يقول :

« لكم الحرية في أن تقاضوا الحكومة . ولكن الحكومة تريد أن تكون مواعيد الزيارات مصونة ومحترمة . وأما ما يتعلق بإغلاق المدافن كما تقولون ، فإنه يشق على أن أضطر الى تذكيركم بأن المدفن ليس ملكا لكم . وأن العلم الذى تدعونه بحق لا يمكن أن يسلم بأقدامكم مع زملائكم - من أجل أمر خاص بزيارة أفراد تريدون أن تميزوهم - على ترك التنقيبات العلمية ، التى

لا تهتم بها مصر وحدها اعظم اهتمام ، بل يهتم بها العالم كله أيضا .
وقامت الصحف البريطانية بحملة عنيفة على سعد فلم يهتز ، وغضب
المنذوب السامى البريطانى فلم يهتم ، وأصر على موقفه وقال للورد اللنبى :
— بائى حق بياح للانجليز وحدهم زيارة توت عنخ آمون ! انه ملك مصرى
وليس ملكا لبريطانيا ؛ ومع ذلك فإننا لا نتعصب فى هذا الشأن ، اننا نطالب
بالمساواة بين جميع الأمم فى زيارة هذا الكشف العلمى ، لأن العلم لا يجوز أن
تحتكره أمة واحدة ، حتى ولو كانت مصر صاحبة المقبرة أن تصريح
٢٨ فبراير الذى لا أعترف به ، وتتمسكون به ، يقول انكم تحمون الأجانب .
ومعلوماتى التاريخية تؤكد أن توت عنخ آمون كان مصرياً ولم يكن أجنبياً !
واذعن الانجليز مرة أخرى !

ثم قامت أزمة جديدة ..

علم سعد أن السودان سيمثل رسمياً فى معرض « ويمبل » مع المستعمرات
البريطانية وكتب سعد الى حاكم السودان يقول له : « على أى قاعدة دعى
السودان للمشاركة فى هذا المعرض الخاص بالمستعمرات ! وكيف قبلتم
الاشتراك فيه من غير إذن الحكومة المصرية ؟ »

ولم يرد حاكم السودان على سعد ..

بل أرسل المنذوب السامى البريطانى الى سعد مذكرة يقول فيها أن حاكم
السودان أبلغه نيا تلك البرقية ، وأنه كتب الى حكومة لندن يستفسر عن هذه
المسألة ، وسيكتب الى الحكومة المصرية بجواب لندن .

ورفض سعد أن يتلقى رد حاكم السودان عن طريق المنذوب السامى
البريطانى . فأبرق الى حاكم السودان يسأله ما سبب تأخير رده . ويقول له :
« إن المسائل التى كلفتك بها هى من شأنك دون سواك ، لأنها تتعلق بأعمال من
اختصاص منصبك ، وإنى ما زلت فى انتظار الرد منكم ، وأرجو ألا يتأخر الرد
زيادة عما مضى »

ثم أبرق سعد الى عزيز عزت باشا وزير مصر المفوض فى لندن يطلب منه
إبلاغ الحكومة البريطانية احتجاج مصر على تمثيل السودان بين المستعمرات
البريطانية . وأن السودان ليست مستعمرة بريطانية . وأن مصر والسودان
دولة واحدة . وأن تصرف الحكومة البريطانية فيه اعتداء على حقوق مصر
وعمل غير ودى موجه للحكومة المصرية .

ويهرول الحاكم العام ويكتب الى سعد معتذراً من التأخير لأنه أبلغ
المعلومات المطلوبة الى المنذوب السامى فى القاهرة ، الذى هو الطريق المعتاد
للمخاطبة بين الحكومة المصرية وحكومة السودان فى جميع العهود السابقة .
ويرد سعد بأن حاكم السودان موظف يعينه ملك مصر ويستمد سلطته

من هذا التعيين وإن الطريق الطبيعي الوحيد للتخاطب بين الحكومة المصرية وحاكم السودان العام إنما هو الطريق المباشر .

وترسل الحكومة البريطانية مذكرة لسعد فحواها أن الحكومة البريطانية لم يخطر ببالها أن تطلب أخذ رأيها إذا وجهت الحكومة المصرية دعوة لحكومة السودان لتتشارك في معرض تجارى شبيه بهذا المعرض . وأن معرض ويمبلي ليس وقفا على الامبراطورية البريطانية بل ان فيه أشياء متنوعة مثل صورة لمسجد فارسي في ايران ، ونماذج لشلالات نياجرا في الولايات المتحدة الأمريكية ومعرض من التبت .

وأصر سعد على أن هذا التصرف عمل يمس حقوق مصر وأن واجبه يقضى بالاحتجاج عليه .

وهكذا كان سعد ينتهز كل فرصة ليدافع عن حقوق مصر ، ويحافظ على استقلالها ، وكان يحرص على أن يعلم الشعب بتفاصيل كل أزمة تقع بينه وبين الانجليز . وكان الانجليز يغضبون لأن هذه الأسرار الدبلوماسية تخرج الى الشارع .

وكان سعد يقول ان الفرق بين الحكومة الديمقراطية والحكومة الدكتاتورية ، ان الحكومة الدكتاتورية تتألف من عشرة وزراء هم وحدهم الذين يعرفون السياسة العليا ، وأحيانا يجهل الوزراء الأسرار ويحتفظ بها الدكتاتور وحده ! أما الحكومة الديمقراطية فهي مؤلفة من ١٤ مليوناً من المصريين هم سكان مصر جميعا ، وأن واجبه ان يطلع كل مصرى على حقيقة الموقف السياسى ، وكأنه وزير معه في الوزارة !

وكان سعد يرفض أن تعتبر هذه المواقف مواقف الفردية ، بل كان يصر على انها مواقف البلد كله ، ويقول ان التاريخ لا يصنعه فرد واحد ، انه لا يزعم انه وحده هو صاحب كل فكرة ، وهو وحده محرك الجماهير ، وهو وحده محقق الانتصارات . كلا ان الذى يصنع كل هذا هو تجاوب الشعب معه ، هو تأييده له . ولولا هذا التأييد لما قوى على الوقوف أمام أكبر امبراطورية في الغالم .

وحدث في تلك الأيام ان استقبلت الملكة نازلى صفية زغلول فقالت لها الملكة :

— ان الملك يقول ان الشعب كله ينسبر وراء سعد باشا .

قالت صفية :

— هذا غير صحيح . الصحيح ان سعد هو الذى ينسبر وراء الشعب .

وروت صفية لسعد ما جرى بينها وبين الملكة فقال سعد :

— لقد حاولت أن أفهم الملك بكل طريقة هذه الحقيقة . ولكنه لا يريد أن

يفهم ! هؤلاء الناس يتصورون ان الشعوب هي قطعان من الماشية يسوقها الزعماء امامهم كما يفعل الرعاة . ان الشعوب ، وخاصة الشعب المصرى ليست غنما . فيجب ان تفهمها لتفهمك . ويجب ان تحبها ، لتحبك . ويجب ان تثق بها ، لتثق بك . لقد قال لى الملك فؤاد مرة اثناء خلاف بيننا :
— انك تقول ان الشعب لا يمكن ان يرضى بهذا الحل . بينما انا واثق ان الشعب سيرضى باى حل ترضاه ، وسيصفق لى راي تقوله .
فقلت للملك :

— انا اسف انك لا تفهم هذا الشعب الذى تحكمه . ان الشعب يصفق لى لانه يعلم اننى اطالب بحقوقه ، ويوم افرد فى هذه الحقوق سيكون هذا الشعب اول من يلعننى .
قال لى الملك :

— انا واثق من انك لو قلت لهم ان الشمس تشرق من الغرب وتغرب من الشرق فسوف يصدقوك . ان الشعب اعطاك شيكا على بياض . قلت له :

— الشعب المصرى لا يعطى احدا شيكا على بياض . انه اعطانى توكيلا ولكنه يراقبنى : لا يفلق عينيه عنى . ويوم اخرج على هذا التفويض يعزلى من وكالى . واؤكد لك ان هذا الشعب لا يسهل خداعه . ان نابليون بونابرت ارتدى العمامة والجبّة والقفطان وقال للشعب انه يؤمن بأن لا اله الا الله وان محمد رسول الله . فلم يصدق الشعب دعواه وثارت عليه القاهرة . وامكنه ان يخدع بعض شعوب أوروبا ويوهمها انه المخلص والمحرر ولكن الشعب المصرى كشف الاعبيه وعرف خداعه . هذا الشعب طيب ولكنه ليس عبيطا . ومن الاسف ان الملك فؤاد لم يعرف المصريين على الرغم من انه ملك مصر ، ان كل اصدقائه من الاجانب ، وكل خلائئه من غير المصريين . وهو ملك ذكى ومتعلم . ولكنه لا يفهم الشعب الذى يحكمه .

ومن سخرية القدر ان ملك مصر يستطيع ان يتفاهم مع المندوب السامى البريطانى بسهولة ، ولا يستطيع ان يتفاهم مع رئيس وزراء مصر بسهولة !



وكان التوامان الصغيران يتابعان سعد وهو يروى هذه القصص والاسرار والاحداث فى انتباه غريب . كانت لذهما ان يتفحصاه وهو يتكلم . كانت عيناه وحاجباه واصابعه ويديه تقول احيانا اشياء لا يقولها لسانه . وكانت قسمت وجهه تعبر عن الاحداث قبل ان ينطق بها . فاذا استطل فكه الاسفل قليلا فوق عنقه فهو متالم . واذا لمعت عيناه ، فهو منتصر . واذا ضايق حاجباه فهو يفكر . واذا تجمدت قسمت وجهه فهو يدبر امرا . بل انهما كانا

يحكمان على الموقف السياسي من خطواته ، فإذا ثقلت الخطوات وتباطأت كان مهينوما وكأنه يجر أثقالا وسلاسل في قدميه ، وإذا خفّت الخطوات وأسّرت فهو سعيد . وكان التوأمين يراهما ستهما صفية وأمهما على صدق فراستهما . يصغيان بسمعهما الى خطوات جدّهما وهو يصعد درجات السلم قادما من مجلس الوزراء . ثم يسرعان الى ستهما ويقولان فرحين مغتبطين :

— الأزمة انتهت !

وتسألها صفية : كيف عرفتما ؟

فيقولان أن حذاء جدّهما هو الذي يتكلم !

وتضحك صفية ، ويدخل سعد ، فتروى له صفية ما ادعاه الولدان فيقيقه ويقول :

— انها حقيقة فعلا !

وكان سعد يردد كثيرا :

— أنا سياسي فاشل ! المفروض في السياسي أن يتكتم وجهه ما في قلبه . ولكني عيبي أن ما في قلبي على لساني ، وما على لساني في قلبي ! وفي بعض الأحيان أبذل جهدا عنيفا لأكتم حقيقة مشاعري في مقابلتي للملك ، ولكنني أجد نفسي في نهاية المقابلة « أفرقع » فجأة وأقول له بصراحة كل ما في قلبي ! فانا لا أعرف كيف أكذب . واعتقد أن الصمت هو نوع من أنواع الكذب ! كما اعتقد أن الضعيف هو الذي يكذب ، وأن الإنسان الذي يؤمن بقوته لا يستطيع أن يكذب ، ولو فعل ذلك فإنه يحقر نفسه .

وعلى الرغم من أن سعدا كان يؤكد في كل مناسبة أنه سياسي فاشل ، فإن الولدين وجدا نفسيهما في مدرسة للسياسة والأخبار ! والطفل إذا ولد في ورشة نجار ، وشب يسمع صوت المنشار ودقة القادم لايد أن يكون نجارا . وإذا ولد في بيت عازف على الكمان فإن صوت أوتارها المشدودة تتحول في أذنه الى صلاة مقدسة . أن أصابعه تدق الأرض مع أنغامها ، وقدماه تتحركان وتهتزّان مع الحانها ، فإذا انقطع وتر فيها أحس كان شريانا في قلبه قد انفجر . وإذا رقص القوس فوق أوتارها أحس أن هذا القوس يعزف على أوتار روحه . فالوراثة هنا لا تفعل ما تفعله البيئة . فإذا اجتمعت الوراثة والبيئة معا تحول القادم الى معبود ، وتحولت الكمان الى معشوقة !

وكان سعد في نظر الولدين مزيجا من النجار وعازف الكمان في وقت واحد . فهو يحاول أن يشكل من الخشب أثاثا ، بشقه ويثبته ويجفقه في الشمس ، ويعرضه للهواء . ثم يحاول أن يجعل من هذا الخشب كمانا يغنى ! وهو لا يريد أن يجعل هذا الكمان يصدر الأنغام الشجية فقط ، بل يريد أن يكون جسرا يعبر عليه شعب بأسره الى عالم جديد !

وفي بعض الأحيان يجد الخشب المتين ، ولكنه يجد أنه لا يغنى !

أو يجد الخشب الذى يصلح كمانا ، ولكنه يجده أضعف من أن يحتمل أقدام شعب يريد أن يعبر نهر الزمن الى المستقبل الجديد !

وهكذا كان الولدان يعيشان بين صوت القادوم ولحن الكمان ! كانت أيامهما صاخبة مضطربة ، ومنغمة شجية . فيها مزيج من صناعة البناء وصناعة النغم . فيها الدم والعواطف . والحقائق والإحلام . الشمس الضاحكة والضباب المخيف . كل هذا كان يدخل فى رأسيهما الصغيرين فى شكل صور وأحداث ، كل يوم حدث جديد وشئ مختلف . التاريخ يكتب أمامهما ولا يقرانه فى الكتب . ما الذى أن تسمع التاريخ من أفواه أبطاله وتعيش معه فى بيت واحد . ولكن هذه الحياة ليست لذيدة دائما انها أحيانا شاقة مرهقة . أن تعاقب الأحداث والأخطار والمفاجآت تحرم الولد من أمتع أيام عمره . عمر بلا مسئولية . ولا هموم ولا متاعب ولا أزمات . ولكن القدر وهو يعطيها متعة الحياة مع التاريخ حرهما متعة اللامسئولية !

والحياة فى ظل المارد أو العملاق تلغى فى بعض الأحيان شخصية الطفل . وقد حرصت أمهما دائما على أن تحارب فى الولدين رغبتهما فى التعلق بالعملاق ، وتقاوم شهوتهما فى المباهاة بأنهما حفيدا زعيم الأمة وأنهما يقيمان فى بيت الأمة . وكانت تؤكد لهما دائما أن نسبتهما الى سعد زغلول لا ترفع من قدرهما ، وإنما الذى يرفع من قدرهما هو عملهما وحده .

وكانت تنبه عليهما ألا يتحدثا زملائهما فى المدرسة بأنهما أقارب سعد رئيس الوزراء وزعيم الأمة ، وأنهما يقيمان فى بيت سعد ، وكانت تبذل جهدا مستمرا لاعادتهما من السماء الى الأرض ، وتؤكد انهما « لا شئ » وأنه يجب أن يعتمدا على مجهودهما الخاص ليشقا لنفسيهما طريق الحياة .. وكان لحديث أمهما هذا صدى عميق فى نفسيهما ، وكانا مقتنعين بأن قرابتهما لسعد لا تفيدهما .. بل انها إساءة اليهما عندما كان المدرسون يمتحنونهما فى كل حصة دون سائر التلاميذ !

ولكن قربهما الى سعد جعلهما يعتبرانه « المتر » الذى يقيسان به كل رجل سواء . وبدأ الرجال أمامهما كالأقزام ! كل رجل يطبقان عليه هذا المقياس يبدو قصيرا جدا أو يبدو تافها فارغا . وقد عذبهما هذا الشعور فى حياتهما المستقبلية كثيرا .

وقد يكون صغر سنهما هو الذى جعلهما يريان سعد أكبر مما هو وقد تكون قلة تجربتهما هى التى صورته لهما فى صورة الأسطورة . وقد يكون اتصالهما الوثيق به هو الذى مكنتهما من أن يريا كل جوانب الرجل . وقد يكون أخيرا حبه لهما واهتمامه بهما سببا من أسباب « الانبهار » بهذه الشخصية . قد يكون كل هذا . ولكن تبقى الحقيقة الواقعة وهى انهما كانا أشبه بالعاشق الذى يحب فتاة حبه الأول ، ويحاول طول حياته أن يبحث عن نساء

أخريات يشبهن فتاته الأولى ، أو فيهن كل صفاتها !
وليس معنى هذا أن الولدين لم يجدا عيبا في الرجل الذي اعتبراه جدهما ،
واعتبرهما حفيديه ، وتزوج أبوهما وأمهما في بيته . وولدا في بيته وشبا
معه .

كانا أحيانا ينتقدانه . لقد تعلمنا منه النقد . كان يشجعهما على المعارضة .
وكان الولدان إذا اجتمعا معا ناقشا آراءه . وقد كان زملاؤهما في المدرسة
الابتدائية ماهر توفيق دوس ابن توفيق دوس باشا الذي كان خصما عنيفا
لسعد وحسن إبراهيم وعلى إبراهيم ابني الدكتور على إبراهيم الذي كان
عضوا في مجلس إدارة حزب الأحرار الدستوريين وكان الأولاد متحمسين لآراء
آبائهم وكثيرا ما دارت في المدرسة مناقشات عنيفة . كانت الأغلبية العظمى من
التلاميذ من أنصار سعد وكان هؤلاء الثلاثة وحدهم خصوم سعد بين الثلاثمائة
تلميذا ! وكان التلاميذ يقاطعونهم ويرفضون التحدث اليهم أو مناقشتهم .
ولكن على ومصطفى كانا على علاقة طيبة بخصوم جدهما . وكانا قد تعلمنا كيف
يستمعان للرأى الآخر . ويقتنعان ببعض حجج هؤلاء الخصوم الصغار إذا
رأيا أنها على صواب فكانا يحملان هذه المعارضة إلى سعد فلا يبدى امتعاضا
من أن يناقش رأى أطفال صغار . فيعود الولدان في اليوم التالي ومعهما حجج
جديدة تدفع حجج الخصوم !

و ذات يوم قال سعد على مائدة الإفطار :

— اننى والحمد لله نمت اليوم نوما عميقا ، نمت ساعتين !
وتبادل الولدان النظرات فيما بينهما ولم يقولوا شيئا ! وبعد أن خرج سعد
قالا :

— ان جدى يقول انه لا يكذب أبدا ! .. وأنه لا يعرف كيف يكذب .. ولكننا
ضبطناه اليوم يكذب ! انه يقول انه لم يمت سوى ساعتين ليلة أمس . مع أننا
رأيناه يدخل غرفة النوم الساعة العاشرة مساء ، ويخرج منها اليوم الساعة
الثامنة صباحا . معنى ذلك انه نام عشر ساعات فكيف يقول انه لا يكذب !
كان الولدان يعتقدان ان الانسان إذا دخل غرفة النوم واستلقى على السرير
نام على الفور ، فإذا استيقظ غادر غرفة النوم ! وبعد ذلك بسنوات عديدة عرفا
أن سعدا لم يكذب . عرفا شيئا لم يكونا يعرفانه اسمه « الأرق » ! عرفا انه
من الممكن أن يرقد الانسان في فراشه عشر ساعات دون أن يغضض له جفن .
عرفا أن الأطفال والأولاد وحدهم هم الذين يستسلمون للنوم إذا أووا إلى
الفراش ، وأننا كلما كبرنا قلت ساعات نومنا ، وزادت ساعات أرقنا ، وقلقنا !
وعرفا أكثر من ذلك أن الذين عملهم حراسة الشعوب لا يستطيعون أن
يغمضوا عيونهم طويلا !



●●● السهم يشير للأخوين على ومصطفى أمين في صورة تذكارية مع زملائهما
بمدرسة المنيرة الأميرية عام ١٩٣٤ .

● الفصل التاسع عشر ●

وصل الى سعد زغلول في بيته مظروف اصفر كبير ،
مختوم بعدد من الأختام بالشمع الأحمر ، مكتوب عليه
« سرى للغاية » و « مستعجل جداً » . و « يسلم
باليد لصاحب الدولة رئيس الوزراء » !
وكان سعد جالساً مع أفراد أسرته ، بعد أن انتهى
من تناول العشاء . وفض سعد المظروف ، ووضع
نظارة القراءة فوق عينيه ، وامسك ورقة وراح يقرأها باهتمام . ثم انفجر
يضحك بصوت عال !

واهتمت الأسرة أن تسمع هذه البكته التي وصلت الى سعد في مظروف
مكتوب عليه سرى للغاية ومستعجل جداً !
وقال سعد إن وزارة الداخلية أرسلت إليه منشورا ضده كان يوزع في
الجامع الأزهر ، وأن المنشور بعنوان عدو الاسلام ، ويقول ان سعد لم يكتف
بالاعتداء على الاسلام عندما عين وزيرين قبطيين في وزارته ، لأول مرة في دولة
دينها الاسلام . بل انه مضى في عدوانه على الشريعة السمحاء والدين الحنيف
وأمر بإقامة مسابقة بين العاهرات في مضى ، يتبارين وأيهن أكثر فجوراً .
وأشدهن فحشاً ، وكلف وزيره القبطي مرقص حنا باشا بأن يوزع جوائز مالية
على هؤلاء المومسات ، وهى أموال مقطوعة من أموال المسلمين . وبدلاً من أن
ينفقها عدو الاسلام على إنشاء بيوت الله ، ينفقها على تشجيع بيوت الدعارة .
وبدلاً من أن يرفع بها مرتبات رجال الدين . يكافئ المومسات اللاتي يرتكبن
الفحشاء في الطريق العام !

وامسك سعد التليفون وهو يضحك واتصل بمرقص حنا باشا وزير الأشغال
وسأله - متظاهراً بالجدية - هل صحيح أنك أقيمت مسابقة بين المومسات ؟
ودهش مرقص حنا باشا لهذا السؤال الغريب .
فقال له سعد إن بعض العلماء في الأزهر وزعوا منشوراً يقولون فيه هذا ..
وقرا سعد نص المنشور على وزير الأشغال .
وغضب مرقص باشا وقال إن هذه اكذوبة حقيرة لا أساس لها من الصحة .
قال سعد وهو لا يزال يضحك :

- الأزهريون لا يكذبون . وأنا ازهرى قديم أعرف دائماً ماذا يقصدون بكل
كلمة يقولونها ! إنهم يقصدون المباراة المسرحية التي أقامتها وزارة الأشغال
للممثلين والممثلات ، وتوليت أنت توزيع الجوائز فيها!!

وكانت حكومة سعد أول حكومة في مصر تقيم مباراة للتمثيل المسرحي ، تشجيعاً للفن ، كما تفعل دول العالم المتقدمة ، وأقيمت حفلة في دار الأوبرا ، وكانت الفنون في تلك الأيام تابعة لوزارة الأشغال بصفتها المشرفة على دار الأوبرا . وتالفت لجنة اختارت أبرز الممثلين والممثلات في فنون الدراما والكوميدي والمطربين ، وأبرز المطربات والمطربين في المسرح الغنائي ، ومنحت المتفوقين منهم جوائز مالية كبيرة .

واعتبر بعض الأزهريين المتعصبين الممثلات والمطربات مومسات وعاهرات ! واعتبروا دور المسارح دور دعارة ، وتشجيع المسرح المصري تشجيعاً للفسق والفجور ، وارتاب الفحشاء في الطريق العام ! ثم اكتشف سعد بعد ذلك أن بعض رجال القصر الملكي هم الذين حرضوا هؤلاء الأزهريين على طبع هذا المنشور ، وأنهم دفعوا لهم نفقات الطبع ! وكان من رأى مرقص حنا باشا ضرورة القبض على موزعي المنشور ، وتقديمهم إلى المحاكمة .

ورفض سعد هذا الرأى وقال :

- نحن في عهد ديمقراطي .. وهذا يعتبر حرية رأى ! أن من رأينا أن تشجيع المسرح هو عمل ثقافي . وهم يعتبرونه إثماً وفجوراً . وبدلاً من أن نقبض عليهم نناقشهم . أن واجب وزير الأشغال أن يعمل على إقامة حفلات مخفضة في المسارح ، ويدعو إليها طلبة الأزهر . ليرى بأعينهم أن التمثيل المسرحي ليس إثماً وفجوراً . وإن من الممكن أن يقوم المسرح بما تقوم به المدرسة من تعليم وتثقيف . كما يمكن أن تقوم مسرحية ممتازة بالدعوة إلى الدين خير مما تقوم به هيئة كبار العلماء !

وهكذا كان سعد يحرص دائماً على ألا يستعمل الكرياج ! كان يقول أن الحكم بالأسوط لا يحتاج إلى عبقرية ، فمن السهل أن تتحكم في العبيد . ولكن حكم الشورى يحتاج إلى جهد وصبر وذكاء وعمل متواصل . لأن من الصعب أن تحكم الأحرار ، في مقدور أى غبي أن يضع الأقفال على جميع الشفاه . ويتكلم وحده فيصبح أقصص البغاء . ولكن الفصاحة الحقيقية لا تكون إلا إذا ابحت للآخرين أن يتكلموا كما تتكلم ، ثم استطعت بعد ذلك أن تختصر عليهم بفكرك ورأيك وأسانيتك وحججك . أن الكرياج لن يقنع الأزهرين بأن القصر ضلّهم عندما أفهمهم أن دور المسارح هي دور للدعارة . الكرياج قد يسكت أصواتهم . ولكنه سيثبت عقيدتهم . أن صوته قد يرتفع فوق أصواتهم . ولكن همساتهم ستوجع الحاكم أكثر مما أوجعتهم ضربات السياط ! وليكفى أن يكون الحاكم مقتنعاً برأيه ليفرضه على الآخرين . الرأى المفروض يفقد كل قيمته وكل أسانيده . والفرق بين الطاغية المستبد والحاكم

الديمقراطى . ان المستبد يتصور انه اعلم الناس فى شعبه ، واعرفهم بمصلحتهم ، فيرغمهم على ان يذعنوا لارادته ، وان ينحنوا لمشيئته . وان تذوب كل إرادتهم فى إرادته ، وتنمحي كل آرائهم فى رأيه . بينما الزعيم الديمقراطى يحاول ان يقنع الشعب برأيه ، ان يتفاهم معه ، ان يبصره بالحقائق ، ان يشرح له كل الأمور ويترك له حق الاختيار . وما الشعب الا اسرة ، وحاكمه هو رب الأسرة .

وقد كان الآباء فى الماضى يضربون أبناءهم ليؤدبهم ، ثم اثبتت التربية الحديثة ان الضرب لا يؤدب ، وإنما يحول الأبناء الى جبناء لاشخصية لهم . يتظاهرون بالطاعة ويؤمنون بالعصيان ، ينحنون لإبائهم فى مواجهتهم ثم يلعنونهم اذا اداروا ظهورهم . ان العنف قد يلد النظام . ولكنه يلد مع النظام الضعف والتخاذل والجبن والهزيمة . ولهذا تصح علماء علم النفس الحديث بتغيير الطريقة القديمة فى التربية . ومن الغريب ان الاسر الحديثة اقتنعت بها ولكن الحكام لم يقتنعوا بها . لان الكرياج اشبه بالآفيون . ما أن يشعر الحاكم بنشوته فى المرة الأولى حتى يدمن عليه . ويمضى حياته والكرياج فى يده . يضرب به بمناسبة وبغير مناسبة ، بسبب وبغير سبب ، حتى يجيء يوم ينتزع فيه الشعب الكرياج من يد الطاغية وينهال به على رأسه ! وعندما يتربع الحاكم الديمقراطى فى مقعده ، يواجه ضغطاً متزايداً من انصار استعمال الكرياج . ان بعض انصاره يعتبر الدعوة لاستعمال الكرياج نوعاً من الولاء ، وتعبيراً . عن الاخلاص والذين يدعون لاستعمال الكرياج هم دائماً الجدد فى الدعوة ، الذين لم يستعملوا خناجرهم فى المعركة ، وجاعوا بعد المعركة يستعملون خناجرهم ! المتحمسون للعنف هم دائماً اضعف انصار الدعوة . إنهم يعوضون ضعف إيمانهم بالالاحاق فى استعمال القوة . وإذا ضعف الحاكم الديمقراطى امام ضغط هؤلاء المؤمنين الجدد فقد نفسه ، واصبح سجين المنافقين ، يضربون باسمه خصوم زعيمهم وهم فى حقيقة الامر يضربون زعيمهم !

وشاهد التوامان الصغيران سعد وهو يتعرض لهذا الضغط الغريب وهو رئيس للوزراء ، فقد شئت عليه صحف المعارضة هجوماً عنيفاً لم يتعرض لمثله حاكم او زعيم فى تاريخ البلاد ، كتبت هذه الصحف تقول ان سعد افاق ونصاب ودجال ومشعوذ . وخائن . ويسلم البضاعة للانجليز ، ومضلل وصعلوك وخقير وشيطان رجيم وكافر وزنديق وبهلولان وعميل للانجليز ولص ومحتال . واهبل وعبيط وكفى ما فى قاموس اللغة العربية من الفاظ الشتائم والسباب !

ولم تكتف هذه الصحف بالقذف فيه ، والحط من شأنه ، وإنما مضت تسب أسرته وتهاجم أهله وقالت إحداهما أنه لم يكن تلميذاً من تلاميذ الشيخ محمد عبده ، وإنما كان خادماً عنده . وكان يمشى حافياً في الطرقات ، يحمل فانوساً في حوارى الحسين ، ليضئ الطريق للشيخ محمد عبده ، وقالت صحيفة أخرى إنه صعلوك من بيت صعلالك ، وأنه عار على مصر أن يحكمها رجل لا أصل له ، وفيها الباشوات أبناء الباشوات وإحفاد الباشوات !! وكان الأستاذ أحمد فؤاد صاحب مجلة الصاعقة الأسبوعية استأذاً في القذف والسب والهجاء فكان كل أسبوع يؤلف القصص والروايات عن وضاعة سعد وحقارة شأنه وقذارة منبته . وبلغ به الأمر أن هاجمه في رجولته فكتب يقول إنه عندما كان سعد تلميذاً في الأزهر ، كان ينام في صحن الأزهر ، لأنه ليس له البيت الذى يؤويه ، وجاء تلميذ آخر ، وأزاح ملابسه ، واعتدى عليه اعتداء جنسياً . فقال سعد :

- من أنت ؟

قال الأزهرى : مادمت رضىت عن الفعل فلا تسال عن الفاعل ! وكانت هذه المطاعين القدرة تثير نائرة سعد ، فإن المعارضين انتهزوا حرية الصحافة الواسعة التى منحها سعد للشعب . فراحوا يستغلونها لليل من الرجل الذى اعطى صحافة مصر حرية لم تشهد في أى عهد من العهود . وكان سعد يقرأ كل هذه الصحف التى تهاجمه وتشتمه ، مهما صغر شأنها . وضعف توزيعها ، وقل انتشارها ، وكان يرى أن هذا ثمن بسيط يجب أن يؤديه من أجل الحرية ، وكان يقول دائماً أن الشعب يعاقب هذه الصحف والمجلات بما فيه الكفاية ، أنه يضرب عن قراءتها . أن توزيعها في هبوط مستمر . أن هذه الصحف والمجلات أشبه بسفهاء يشتمونه في مجالسهم الخاصة ، وليس من حقه أن يقطع الألسنة التى تسبه في المجتمعات الخاصة !

وكان من عادته أن يقرأ الصحف والمجلات في دورة المياه . فكان يقضى في كل يوم ساعة في هذا المكان يقرأ كل ما يكتب عنه . وكان يضع بجوار التواليت رفأ من الخشب تتكدس فوقه الصحف والمجلات ، ولا يخرج من التواليت الا بعد أن يكون انتهى من قراءة كل ما يكتب ضده من شتائم وسباب ! ولم يكن اختيار سعد لهذا المكان بالذات بسبب قذارة ما تكتبه الصحف عنه بل لأنه اعتاد أن يقرأ في التواليت الصحف المؤيدة والمعارضة على حد سواء !

ولكن هذه الأعصاب القوية في مواجهة الشتائم والسباب كانت تثير نائرة

انصاره . وكان بعضهم يلج عليه في ان تتقدم حكومة الشعب بقانون جديد للصحافة . وكانت حجتهم ان هذه المطاعن لا توجه لسعد بصفته الشخصية . وإنما توجه اليه بصفته زعيم الشعب وقائد ثورته . انها خناجر توجه اليه في ظهره وهو في معارك مستمرة مع الملك ومع الانجليز . ان المقصود منها إضعاف ثقة الشعب بقائد المعركة . ان لسعد أغلبية ساحقة في البرلمان وهي مستعدة للموافقة على مثل هذا القانون ، لأن الغرض منه في الواقع هو حماية الثورة لا حماية الزعيم . وكان سعد يرفض ان يصدر مثل هذا القانون وكان يقول :

كنت وزيراً في سنة ١٩٠٨ ووافقت على قانون للصحافة وبعد ذلك فوجئت بأن هذا القانون يستعمل ضد الشعب . أصبح خنجراً في ظهري ، وقد كنت أريده سيفاً في يدي . ولا أريد أن أكرر هذه الغلطة مرة أخرى ! ان الثورة لا تحميها القوانين ، وإنما يحميها الشعب ، ويوم تصبح في حاجة الى قوانين لحمايتها فهذا اعتراف مني بأن الشعب تخلى عن حمايتها والدفاع عنها ، ووضع محمد سعيد باشا وزير الحقانية (العدل) مشروع قانون للصحافة . ورفض سعد الموافقة عليه .

وجاء اليه أحمد زيور باشا رئيس مجلس الشيوخ متحمساً مطالباً بإصدار هذا القانون ، وقال له ان أعضاء مجلس الشيوخ مصممون على ضرورة إصدار قانون للصحافة . لأنها أصبحت فوضى ، وأن الشيوخ لم يعودوا قادرين على ضبط أعصابهم وهم يرون زعيمهم يشتم يومياً ويوصف بأحط النعوت والأوصاف .

ورفض سعد ان يخضع للحاح زيور باشا الذي بكى وهو يكرر الألفاظ التي وصفت بها الصحف الزعيم !

ومن سخرية القدر ان الذين كانوا يلحون على سعد في تقييد الصحافة ، وكان صوتهم أعلى الأصوات حماساً في الغضب ضد الطين الذي كان يلقي يومياً على الزعيم كانوا من أول من خرج عليه ! فعندما استقالت وزارة سعد ، تقو في زيور باشا رئاسة الوزارة التي خلفته ، وأعلنت الحرب عليه ، اما محمد سعيد باشا فاكثف باعتزال السياسة !

وليس معنى هذا ان هؤلاء المتحمسين كانوا يريدون ان يورطوا سعد في تقييد الصحافة ، ولكن معناه ان أكثر الذين يتفانون في الولاء للحاكم ، يكونون عادة أقل المخلصين له ! وعذر سعيد باشا وزيور باشا انهما كانا من المدرسة التركية القديمة التي لم تكن تؤمن بحرية الصحافة ، وترى ان الحرية هي ترجمة دقيقة لكلمة الفوضى !

ومضت الصحف والمجلات المعارضة تمنع في مهاجمة سعد .. وتوجيه

التهم اليه واشتد الضغط . على سعد بسبب سكوته على هذه الحملات ، وقيل له ان سكوته اصبح يعرض الثورة نفسها للخطر ، وبدأ بيت سعد يشهد يوماً هجوماً عنيفاً عليه لأنه يتحمل ما لا يستطيع انصاره ان يحتملوه ! وبعد الحاح قبل سعد ان يستعمل حقه كفرء عادى من الشعب ، وان يبلغ النيابة ضد جريدة السياسة لسان حال حزب الأحرار الدستوريين . ورفض ان يشكو باقى الصحف والمجلات التى افحشت فى التهجم عليه ، وكانت حجته انها صحف لا يقرؤها أحد ، وبهذا لا يتوافر فيها « ركن العلنية » بالتعبير القانونى !

وقدمت النيابة الدكتور محمد حسين هيكىل بك رئيس تحرير السياسة الى محكمة الجنايات .

وعقدت جلسة المحاكمة برئاسة أحمد طلعت باشا رئيس محكمة الاستئناف .

وحشد حزب الأحرار اعظم محاميه للدفاع عن هيكىل .. وكان من بينهم توفيق دوس باشا وتصادف ان توفى شقيق توفيق دوس باشا فى اسبوط فى يوم انعقاد الجلسة .

وبدا توفيق دوس باشا مرافعته بقوله : تركت ماتم اخى .. لاحضر ماتم الحرية !

إن الأحرار الدستوريين الذين عطلوا بعد ذلك مئات الصحف وصادروها بغير محاكمة اعتبروا تقديم صحيفة الى محكمة الجنايات هو ماتم للحرية ! بينما كان رئيس التحرير المتهم بإهانة رئيس الوزراء مطلق السراح ! وحكمت محكمة الجنايات ببراءة الدكتور محمد حسين هيكىل وقالت فى اسباب حكم البراءة : إنه ما دام سعد زغلول يشتغل بالمسائل العامة ، فواجبه ان يتحمل هذه الشتائم والاهانات .

وكان التوأمين الصغيران يتابعان باهتمام هذه القضية ، ومع حبهما لسعد فقد فرحا ببراءة هيكىل الذى شتم جد هما ! كان يتنازعهما عاملان فى تلك الايام عامل قرابتهما لسعد . وحبهما له ، وعامل هوايتهما للصحافة . وعبادتهما لها !

وتغلبت العبادة على الحب ! إنهما عاشا طفولتهما يسمعان احاديث عن حرية الصحافة وحرية القلم ، وان لا سلطان لأحد عليه ، وان حرية الصحفى هى أساس الحكم الديمقراطى ، ولاشك ان تكميم الأمة يبدأ بتكميم صحافتها ، ومهما قيل فى مطاعن جريدة السياسة فى جد هما فلم يشعرا بانها أحدثت أثراً ! فهما لم يسمعا شتائم السياسة فى سعد الا من فم سعد وحده ، لم يسمعاها

من زملائهما تلاميذ المدرسة ، حتى خصوم سعد الثلاثة من زملائهما في مدرسة المنيرة لم يكونوا يقرأون جريدة السياسة ! فكيف نزل سعد على رأى اغلبية النواب وشكا الجريدة التي لم تبلغ شتائمها مبلغ الشتائم الأخرى التي تحملها الانسبة واحد في المائة ؟ ان ما جرى في محكمة الجنائيات لم يكن محاكمة لجريدة السياسة وإنما محاكمة لسعد نفسه . فواجب الحاكم ان يتحمل النقد . الرجل الذى تهافت الملايين بحياته ليس من حقه ان يغضب إذا هتف رجل واحد بسقوطه ! وما كان الطوب الذى يلقي على الزعماء ليقتلهم الا أشبه بطلقات المدافع في مواكب الفاتحين ان الطوب كان يعلن دائماً عن قدوم مواكب الأنبياء !

وعندما صدر العدد الجديد من مجلة الطالب التي كان يصدرها التوامان لتلاميذ السنة الثالثة فصل ثالث بمدرسة المنيرة الابتدائية نشر فيها خبر بعنوان « مبروك » قال فيه « نهىء زميلتنا جريدة السياسة الغراء بالحكم الذى صدر ببراعتها ! »

وقد لا يكون الغرض الذى نشر من اجله التوامان هذا الخبر الغريب هو انهما ارادا ان يقولوا ان جريدة الطالب هي زميلة لجريدة السياسة .. ولكنهما احسا بان لهما شخصية مستقلة عندما كتبوا هذا الخبر الصغير عن الجريدة التي شتمت جدهما !

وحمد الله على ان هذا العدد من مجلتهما لم يقع في يد امهما ولا في يد سعد ، وكانا يتساءلان ماذا سيحدث لهما لو ان جدهما قرأ مجلة الطالب واطلع على تهنتهما لزميلتهما جريدة السياسة الغراء .

هل كان سيغضب لهذه التهنئة التي وجهها الى الجريدة التي شتمته أم انه كان سيبتسم لان جريدة معارضة تصدر في بيت رئيس الوزراء ؟ ولكنهما كانا سعيدين باستقلالهما ! كان سعد يربى فيهما هذا الاستقلال ويشجعه . وهما يزاوولانه لأول مرة وعلى حسابه !

انهما لم يعرفا ان هناك جريدة اسمها السياسة الا من سعد ، لقد كانا ينتهزان فرصة خروج جدهما من دورة المياه فيسرعان إليها . وياخذان منها الصحف والمجلات وكانا يجدان في جريدة السياسة شيئاً جديداً ليس في الصحف الأخرى التي تؤيد جدهما . وكثيراً ما شكا جدهما من تخلف الصحف التي تؤيده من الناحية الصحفية ، فكان يردد ان الصحافة في جريدة السياسة افضل منها في البلاغ وكوكب الشرق والنظام وباقي الصحف التي كانت تشيد به ونهاجم خصومه .

بل ان الولدين وهما يقلبان في مذكرات خالهما المرحوم سعيد زغلول وجدوا انه يشيد بجريدة « السياسة » التي تهاجم خاله والرجل الذى سماه « وحيدة » .

قال سعيد في مذكراته « مهما كنت لا أرى في الشؤون العامة رأى « جريدة السياسة » وأصحابها ، ومهما كنت أحس بانها وأصحابها عاملون على انتقاص خصوصهم بالحق وبالباطل ، وأنهم لا يثبتون على رأى . ولا يدافعون عن فكرة . اعتقاداً منهم بانها محض خير ، فإن هذا لا يمنعنى من أن أقر لهم بأن صحيفتهم « السياسة محض » هى الصحافة المصرية الوحيدة التى يخدمها أصحابها على قواعد الفن الصحفى . وأما كتابها الذين يشتغلون فيها بأجر ويوالونها بالكتابة مجاناً ، فهم فى رأى ممن حازوا قصب السبق فى مضمار الآداب وحسب القارئ منهم طه حسين ، وما يخطه براعه على صفحاتها اليوم بعد اليوم يجب فى نظرى أن يعترف الكل لهذا الكاتب بجليل القدر وعظم المكانة .

فإذا كان خالهما سعيد زغلول . الذى عاش فى بيت سعد ، وتولى سعد تربيته ، يعترف بهذه الشهادة لجريدة السياسة التى تهاجم خاله بعنف ، ولطه حسين الذى يطعنه بقلم من نار .. ليس من حقهما أن يتحمسا لبراءة جريدة السياسة .

ولكن الجماهير لم تشارك الولدين التوامين فى هذا الانصاف نحو الجريدة المعارضة ، فقد خرج طلبة المدارس فجأة على جريدة السياسة ومجلة الكشكول ورجموا الجريدتين بالطوب . وهاجموا المحررين وحاولوا إشعال النار فى الجريدتين ولم تستطع قوات البوليس الضخمة أن تصد هذه الجماهير الغاضبة الساخطة إلا بإعجوبة ..

وغضب سعد أشد الغضب على الهجوم على الصحف التى تشتمه .. وقال ان واجب الحكومة ان تحمى خصوصها قبل ان تحمى نفسها . ولم تكن هذه هى اول مرة خرج فيها الشعب على أوامر زعيمه ، وأبى أن يطيعه !

فقد حدث قبل ذلك أن رشح الوفد برياسة سعد زغلول وكيلين لأول مجلس نواب .

وكان الوكيل الأول هو حمد الباسل باشا وكيل الوفد المصرى . وكان الوكيل الثانى هو الأستاذ ويصا واصف عضو الوفد ونقيب المحامين أمام المحاكم المختلفة ..

وكان الانتخاب سيجرى فى أول جلسة يعقدها مجلس النواب بعد افتتاحه .

ورشح الوفد أحمد مظلوم باشا وزير الأوقاف فى وزارة سعد ورئيس الجمعية التشريعية السابق رئيساً لمجلس النواب الجديد .

وكان لسعد الاغلبية الساحقة في مجلس النواب .
وتصور سعد ان النواب الوفديين سينزلون على قرار الوفد .
واجتمع مجلس النواب وانتخب احمد مظلوم باشا رئيسا للمجلس باغلبية
ساحقة طبقاً لقرار الوفد .

وفوجيء سعد مفاجأة لم تخطر له على بال في انتخابات الوكيل !
انتخب النواب احمد محمد خشبة بك نائب اسيوط وكيلا اول للمجلس بدلا
من حمد الباسل باشا وكيل الوفد !
وانتخبوا حمد الباسل باشا وكيلا ثانياً واسقطوا ويصا واصف عضو
الوفد !

وعرف سعد ان النواب الوفديين رفضوا ان يلتزموا بقرار الوفد ، فإن نواب
الوجه القبلي اثاروا العصبية الاقليمية وقالوا ان سعد زغلول رئيس الوزراء
من نواب الوجه البحرى واحمد مظلوم باشا من نواب الوجه البحرى فيجب
ان يكون وكيلا المجلس من نواب الوجه القبلي !
وفي الوقت نفسه عز على بعض النواب ان يكون في الوزارة وزياران من
الاقباط وان يكون وكيل المجلس من الاقباط أيضاً .
وكان احمد خشبة بك هو الذى يتزعم هذه الحملة ، فانتخبوه وكيلا اول ،
وانتخبوا وكيل الوفد وكيلا ثانياً !

واستدعى سعد زغلول احمد خشبة وقال له :
- اننى لا استطيع ان الومك .. لاننى انا نفسى فعلت ما فعلت انت في اول
جلسة للجمعية التشريعية . فقد اسقطنا مرشح الحكومة للوكالة وانتخبنا
انا وكيلا .. وما دمت ابحت لنفسى ان افعل هذا فليس من حقى ان احرمك من
هذا الحق !

* * *

وفي حفلة افتتاح البرلمان حدثت وقائع طويلة ..
فقد دعت الملكة نازلى زوجات الوزراء لحضور حفلة افتتاح البرلمان ، وجاء
في الدعوة ان تحضر السيدات وقد ارتدين « اليشمك » .
وكان اغلب زوجات وزراء سعد من الفلاحات او من بنات الشعب اللاتي
لا يعرفن ماهو هذا اليشمك المكتوب في الدعوة الملكية !
وغرفن ان اليشمك هو عبارة عن قطعة قماش ابيض تلفه السيدة حول
راسها كالعمامة ويسقط على وجهها فلا تظهر منه الا العينان ! ويثبت بعدد من
الدبابيس بطريقة تخفيها عن العيون ، وهو يحل محل البرقع الابيض الذى
اعتادت النساء التتريقات ان يضعنه فوق وجوههن ..

وأسقط في يد زوجات الوزراء الفلاحات وبنات الشعب .. وأرسلت صفة زغلول السيدة هدية بركات زوجة الدكتور بهي الدين بركات لتعليم زوجات الوزراء الطريقة العويصة لارتداء اليشمك ! فقد كان والد هدية في وقت من الأوقات ناظر الخاصة الملكية وكان شقيقها عطا عفيفي بك تشريفاتي السلطان ، وهكذا اكتسبت خبرة في طريقة ربط اليشمك !

ورفضت زوجة فتح الله بركات باشا وزير الزراعة أن تتعلم كيف تربط اليشمك . وقالت انها سيدة فلاح . تريد أن تعيش فلاحاً وتموت فلاحاً .. رفضت أن تحضر افتتاح البرلمان حتى لا تضع على وجهها هذه « المسخرة » . ! وامضت السيدة هدية عدة أيام في تعليم زوجات الوزراء طريقة ارتداء اليشمك ..

وكانت أصعب التلميذات هي السيدة حرم نجيب الغرابلي باشا وزير الأوقاف ، فانها عبثاً حاولت أن تتعلم طريقة ربط اليشمك ! وأخيراً طلبت من هدية أن تربط لها اليشمك في اليوم السابق لافتتاح البرلمان وبقيت طول اليوم ساهرة وعلى رأسها اليشمك الى أن جاء موعد الاحتفال فذهبت باليشمك المربوط !

ولم تكن حيرة وزراء الشعب أقل من حيرة زوجاتهم ! فقد اقتضت التقاليد أن يرتدوا في افتتاح البرلمان ثوب التشريفة الكبرى . وهى عبارة عن بدلات سوداء موشاة بالقصب ، وتتدلى منها سيوف نحاسية . وأن يضعوا فوق البذلات الأوسمة والنياشين التى منحها لهم الملك .

وكان الخياط الإيطالى ديليه هو المتخصص في صنع الملابس التشريفية .. وتولى الخياط ديليه تعليم وزراء الشعب كيف يرتدون الملابس الموشاة بالقصب . وأفهمهم أن السيوف يجب أن تتدلى من الجانب الأيمن وأن الوشاح يعلق في الكتف اليسرى ويتجه الى تحت الأبط ، وشرح لهم المكان الذى يعلق فيه الوسام !

وعندما جاء صباح يوم افتتاح البرلمان كان وزراء الشعب قد نسوا تعليمات مسيو ديليه الخياط !

وارتدى أحد الوزراء الوشاح بالمقلوب ، وعلق وزير آخر السيف الى يساره بدلا من يمينه ، ووضع وزير ثالث الوسام تحت عنقه بدلا من أن يعلقه على صدره وذعر الوزراء القدامى عندما رأوا زملاءهم الوزراء الجدد ، وصحبوهم الى غرفة جانبية في مجلس النواب ، وبدأوا يرتبون قيافتهم واناقتهم لتناسب آداب السلوك في حضرة الملوك .

وعندما أقبل موكب الملك ومعه رئيس وزرائه كان وزراء الشعب في استقباله

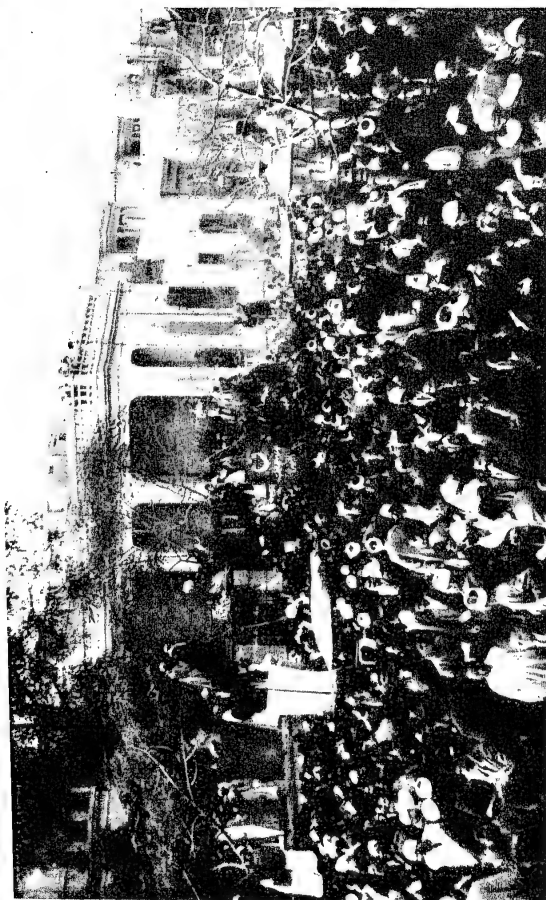
وقد ارتدوا ملابس التشريفة كما أرادها مسيو ديلية الخياط ! ثم حدثت أزمة !
فقد لاحظ الملك أن محمد سعيد باشا وزير الحقانية وتوفيق نسيم باشا
وزير المالية وأحمد مظلوم باشا وزير الأوقاف قبلوا يد جلالتهم ! .. أما باقي
الوزراء الوفديين فاكثفوا بالانحناء وصافحوا الملك !
وتجهم وجه الملك واعتقد أن سعد هو الذى أمر الوزراء من أعضاء الوفد
أن يقبلوا يد جلالتهم .

واستدعى الملك توفيق نسيم باشا وقال له :

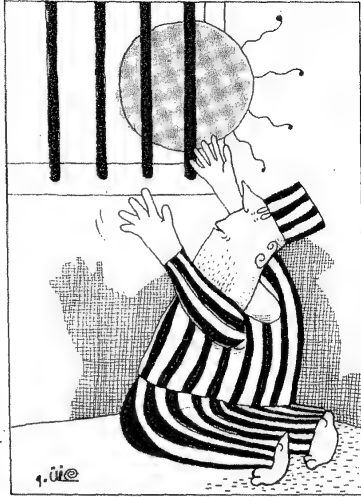
- اننى سكت لأن سعد باشا لا يقبل يدى لأنه أكبر منى سناً ، ولأنه يتصور
إنه فوق البشر ، ولكننى لا أسكت على أن يرفض الوزراء الهلايت تقبيل
يدى ! إن جميع رؤساء مصر ووزرائها كانوا يقبلون يدى منذ جلست على عرش
مصر . إن هؤلاء الوزراء الذين أظهروا قلة الأدب هذه هم الوزراء الذين كانوا
أفندية وبكوات وجعلتهم باشوات فهل هذا جزائى لانى جعلتهم باشوات رغم
اعتراض سعد باشا .

وذهب توفيق نسيم باشا وأبلغ سعد الغضب السامى .. وقال سعد ! إننى
لم أصبر للوزراء أمراً بعدم تقبيل يد الملك ، ولو كنت أصدرت مثل هذا الأمر
لكنت أصدرته لك أنت ومحمد سعيد باشا ومظلوم باشا الخديو ولكن
لو سألنى الوزراء : هل يقبلون يد الملك أم لا يقبلونها ؟ لقلت لهم إننى عندما
كنت وزيراً فى عهد الخديو عباس لم أقبل يده . وعندما كنت وكيلًا للجمعية
التشريعية فى عهد السلطان حسين لم أقبل يده ، ولتركتهم أحراراً فى أن يقبلوا
يد الملك أو لا يقبلوها فإننى لا أفرض الكرامة على أحد . أما إذا كان الملك يريد
أن يشتري الوزراء بالقابهم فإننى لا أمانع فى أن يجردهم من هذه الألقاب وأنا
مستعد لأن أقترح تقليداً دستورياً بأن يكون الوزراء بلا القاب ما داموا
أعضاء فى البرلمان . قل لجلالة الملك أن تقبيل الأيدى ليس دليل الإخلاص .
فقال توفيق نسيم باشا إن جلالة الملك يقول إن التقاليد فى إنجلترا أن يقبل
رئيس الوزراء والوزراء يد الملك .

○ ○ ○



● جموع الشعب حول بيت الأمة



• الفصل العشرون •

عاش الولدان الصغيران مع الاسطورة ! امضيا
 بقربها الاعوام العشرة الاولى من عمرهما ينامان مع
 الاسطورة في بيت واحد . ياكلان معها على مائدة
 واحدة ، ضحكات الاسطورة تنير قلبيهما ، دموعها
 تسقط فوق خديهما ، كان حديث سعد معهما اشبه
 بالارجوحة التي يلهو عليها الأطفال ، كان يهبط الى
 حداثتهما ، ثم يرفعهما الى شيخوخته ، وكانت في لعبة هبوطه إليهما ورفعهما
 إليه نشوة ، كأنهما يتأرجحان بين الطفولة والشباب ، وبين صباهما بما فيه
 من احلام ، وكهولته بما فيها من حاضر مجيد ، كان احيانا يجلسهما فوق
 ركبتيه ويلاعبهما ، و احيانا يحدثهما حديث الرجال ، فيتظاهرن بأنه

يستشيرهما ، وهو يقصد أن يشرح لهما ما خفى عليهما من أمور ، كان يتوكل عليهما إذا انتقل من غرفة الى غرفة ، وكانا يشاركان الخدم في حمله فوق مقعده الكبير على اكتافهما ، ويصعدان به من الطابق الاول الى الطابق الثاني ، وكان يبدو أحيانا كأنه سيموت بين أيديهما ، فإذا وقف على المنبر انتصبت قامته ، واشتد عوده وانطلق لسانه ، كانت الجماهير هي أكسير الحياة الذى يمنحه القوة والقوة والشباب ، وعندما يكون حديثه في الغرفة المغلقة أقرب إلى الوشوشة والهمس ، يصبح صوته في مواجهة مئات الألوف أقرب إلى الهدير والزئير !

ولقد قيل ان الذى يقترب من اللوحة الفنية الخالدة لا يستطيع أن يرى كل ما فيها من روعة وجمال ، بل إنه لا يكاد يراها إذا التصق بها ، وعليه أن يبتعد عنها ليستوعب كل ما فيها من إبداع ، ولكن الأمر اختلف مع هذه الأسطورة ، فإن الولدين كلما اقتربا منها رأيا في دقائقها وتفصيلها من روعة الجمال ما لا يستطيع البعيد عن الصورة أن يحيط بكل ما فيها من ألوان وازواء وظلال .

كان الرجل حيناً أشبه بالمكتبة الخاصة بالكتب ، وحيناً أشبه بمنظر الريف المصرى فيه سواق تدندن ، وفيه أشجار تتمايل وكأنها ترقص ، وفيه شمس ضاحكة تطل على البيوت الصغيرة ، وفيه فلاح شباب يغنى مواويل قروية على أنغام ندى حزين ، وحينما يبدو الرجل كحديقة ملاء فيها كل ما يشوق الأولاد ويسلهم ، وحينما يبدو كتيار عارم تتولد من سقوط مياهه قوة الكهرباء !

وكثيراً ما كان الرجل أشبه بالنافذة الضخمة يطل منها الولدان على الماضى والحاضر والمستقبل ، كان يتحدث عن الماضى كمؤرخ ، ويتكلم عن الحاضر كمصور فوتوغرافى ، ويرى المستقبل كنبى !

ومن خلال هذه النافذة العجيبة أطل الولدان على عوالم مجهولة مسحورة ، وما كان في قدرتهما أن يشهدا تفاصيلها ومعالمها لولا صعودهما الى قمة هذا الجبل الذى أصبح نافذتها ! وكان في مكانهما هذا يتصوران أنهما أعلى من الجبل ، بل لعلهما فوق القمر ، كان الرجل يبدو للملايين كأنه قر في سماء الوطنية ، كان ثورة يضيء لهم جميعاً ، كان يلهم الشعراء فيهم بأجمل قصائدهم ، والكتاب منهم بأبلغ مقالاتهم ، وكان الولدان يشعران بأنهما من القلائل الذين هبطوا فوق القمر الذى يراه الملايين من بعيد .

وكان حب سعد لهما ولأمهما هو المركبة القمرية التى أتاحت لهما هذه المغامرة ، وتركت فيها أثراً غامضاً ميهما ، أضمرت في قلوبهما عواطف غريبة ، أحسا أنهما أكبر من عمرهما ، وكان هذا الشعور كفيلاً بأن يسعد الولدين

في هذه السن ، ولكن هذا الشعور اتعبهما ، شعرا كان صورة الناس قد تغيرت ، ضايقهما انهما اصبحا بريان الناس الذين يعرفونهم اقصر قامه مما هم في الحقيقة ، لم يعد هناك من يملأ عيونهما الصغيرة ، إن مصيبة الذين يعيشون طويلا بجوار العباقرة هي أنهم يقسون في احكامهم ، يتوقعون أن تكون قامه جميع الرجال بطول الجبال التي اقتربوا من قممها ، وهم يرون في مكانهم على هذا العلو الشاهق الأشياء الكبيرة في السفح وقد تضاعلت ، فثبذوا السيارة الكبيرة صغيرة في حجم علبه الثقاب ، وتظهر العمارة الشامخة في مساحة الكتاب الصغير !

اصبح الولدان يعجبهما شيء ، ولايرضيهما شيء ، لاتعجبهما أوامر أمهما ، ولا آراء والدهما ، ولاتقنعهما أفكار اساتذتهما في المدرسة ، ولاتبهرحما حكم ومواعظ اقاربهما ! الذين يعيشون في دنيا العمالة يتصورون أن الناس العاديين اقزام ، ويغيب عن ذكائهم أن ينظروا الى المرأة ليروا أنهم اقصر كثيرا ممن يعتبرونهم اقزاما !

اصيب الولدان بحمى الرفض ! اصبحا يرفضان ما قبلاه في الماضي صاغرين ، اصبحا يناقشان مالم يكن يقبل المناقشة ، اصبحا يعارضان تعليمات أمهما التي كانت في نظرهما قرارات الهية جاءت من السماء ! وكانت أمهما تقاوم بعنف هذا الشعور الطارئ على الولدين ، لم تتصور أن الولدين بلغا سن المراهقة في العاشرة من عمرهما ، ثم ان للمراهقة مظاهر ليس فيها رفض كل شيء ، والسخط على كل شيء ، ونقد كل شيء . واعتقدت الأم الولدين الصغيرين اصيبا بجنون الغرور ، ولايوجد في الامراض العقلية مرض اسمه جنون الغرور ، ولكن الأم اعتقدت أن تدليل سعد للولدين وتقريبه لهما هو الذي جعلهما يصابان بهذا الغرور الأحق الذي سوف يقتلهما ويقضى عليهما .

ولكن الولدين لم يصابا بالغرور ، كانا يشعران بضالة شأنهما ، وبقة تعليمهما ، ويعجزهما عن أن يكونا صورة من الأسطورة التي اقتربا منهما ولكنهما كانا يشعران بالتمرد ، بالرفض ، بالرغبة في أن يقولوا كلمة « لا » كانت في كلمة « لا » موسيقى لايجدائها في كلمة « نعم » ، كانت « لا » نظرها تعنى أن لهما شخصية ، أن لهما حرية ، أن لهما ارادة ، أنه اصبر لهما حق جديد هو حق الرفض !

لقد تعلمنا أن يناقشا كل شيء ، ألا يقبل الأمور المسلم بها ، طالما سمعا يناقش أشياء يتوهم الناس أنها لاتقبل المناقشة ، كان يجادل أمامهما قالت لهما أمهما أنها لاتقبل الجدل ، سمعاه ينتقد الملك في الوقت الذ:

فيه الجماهير تهتف يعيش الملك ويحيا سعد ، سمعاه ينتقد أنصاره ، بل كثيراً ما سمعاه ينتقد نفسه ، بينما كانت الملايين تعتبره معصوماً من الخطأ كالأنبياء ، وطالما جلس على المائدة يعدد أخطاء ارتكبها ، ويأسف عليها ، وكأنه مذنّب أمام كرسى الاعتراف ، وكانت هذا النقد الذاتي يثير حماس الولدين ، ويجعلهما يشعران بأنه لا يوجد إنسان فوق النقد ، أن من حقهما أيضاً أن ينقدا تصرفات أمهما وإبيهما وجدهما وستهما بل وكل الناس ! وكانت أمهما تصاب بالهلع عندما تسمع هذا الكلام ، وكانت تؤمن بأن انتقاد الصغير هو ذنب يلى مباشرة الشرك بالله .. خصوصاً إذا كان الكبير هو خالها سعد زغلول !

ولكنهما سمعا من جدهما أن حق النقد هو حق مقدس لكل إنسان ، كحقه في أن يتنفس ، وحقه في أن يتكلم ، وحقه في أن يفكر ، وحقه في أن ينتقل الى أى مكان ،

وكان يقول إنه لا يتصور أن يعيش في بلد السنة الشعب فيه مقطوعة ، والفرق بين الإنسان والحيوان هو اللسان ، فإذا قطع الحاكم السنة الشعب أصبحوا حيوانات ! وليس صحيحاً أن الإنسان هو حيوان ناطق ، فإن كثيراً من الحيوانات تنطق ، ونحن نعرف من أصواتها ما تريد ، فهي إذن تعبر عما تريد ، وهذا هو الطلق ، ولكن الإنسان وحده هو الذى ينتقد ، وهو ينتقد لانه يفكر ، والحيوانات لا تنتقد لأنها لا تفكر !

كان يقول أن من حق كل فرد أن ينتقد حاكمه ، أن يقول له في مواجهته قف ! أنت مخطئ ! .. وهذا النقد هو المصباح التى يرى الحاكم الطريق في ضوئها ، فإذا أطفئت هذه المصابيح ضل طريقه أو تعثرت خطاه . إننا يجب أن ندخل الديمقراطية في كل مكان . ويتمسك الولدان بما قاله جدهما . ويقولان أن أسرتهما الصغيرة هي دولة ، الأم فيها هي الملكة ، والاب رئيس الوزراء ، ومصطفى وعلى هما الشعب ! ولا يجوز للأسرة أن تنادى بالديموقراطية في خارج البيت وتحرمها داخل البيت !

وتذهب الأم سلخطة غاضبة الى خالها ، وتروى له أنباء تمرد الولدين الصغيرين عليها . وتطلب اليه أن يساعدها في إفهام الولدين أن هناك فرقا كبيرا بين نظام الحكم في الأسرة ونظام الحكم في الدولة ! ويضحك سعد لهذه الازمة الدستورية في بيت ابنته المتبناة ! ويقول لرتيبة انه يؤيد الولدين كل التأييد في ثورتهم على التربية بالطريقة الدكتاتورية ، وأنه يؤمن بأن البيت يجب أن يدار بطريقة الاقتناع والتفاهم ، لا بطريقة الارغام والاجبار وتقول رتيبة : ولكن الأولاد صغار لا تفهم مصلحتها !

ويقول سعد : هذه دائماً حجة الطغاة ! انهم يستبدون بالشعوب بحجة انها لا تفهم مصالحها ! ان ممارسة الحرية هى الطريقة الوحيدة ليفهم الانسان مصالحته .

وتضطر الأم ويضطر الأب الى قبول نظرية سعد فى التربية ويعلنان النظام الديموقراطى داخل الأسرة !

وهكذا اصبح للأسرة برلمانها الصغير ! وكان هذا البرلمان يعقد على مائدة الإفطار ومائدة العشاء ! وكان يناقش كل شئون الأسرة ومتاعبها ، اصبح الأب يستشير ولديه فى كل أمور الأسرة ، أصبحت الأم تعرض على البرلمان الصغير مشاكل البيت .

ووضع الأب نظاماً للتصويت ، فإى قرار يجب للموافقة عليه ، ان ينال ثلاثة أصوات على الأقل ، فإذا تساوت الأصوات اعتبر القرار مرفوضاً ! وكانت تعرض على البرلمان الصغير مسائل طريفة ، منها : ماذا ياكلون اليوم ، وأى فيلم يشهدهونه هذا الأسبوع ، وهل تضى الأسرة الصيف فى القاهرة أو الاسكندرية أو فى مسجد وصيف ، وكانت الأم تعرض على البرلمان ميزانية البيت الشهرية فيعرفون المبلغ المخصص للطعام ، والمبلغ المخصص لمصاريف البيت ، والمبلغ المخصص للترفيه ، وبذلك لا يطالب الولدان بشراء ما لا تسمح بشرائه ميزانية البيت .

وكانت الأم تضيق أحياناً عندما ترى الولدين الصغيرين على رأى واحد ، لا يختلفان أبداً ، ما يكاد يسمع واحد منهما رأى أخيه حتى ينضم إليه ويؤيده ويتحمس له ، وكانت الأم تقول لهما انه يجب ان يكون لكل منهما شخصية مستقلة خاصة به ، لها كيائها ، ولها إرادتها ، ولكن الولدين فشلا فى ان يتحولا الى شخصيتين مستقلتين ، كان حيهما المتبادل بينهما قد جعلهما يندمجان معاً . كانا أشبه بشخصية واحدة باسمين مختلفتين ، وكثيراً ما كانت الأم تلجأ الى سؤال كل واحد منهما على انفراد عن رأيه فى مسألة معينة ، فإذا بها تفاجأ بان الاثنين لهما إجابة واحدة بغير ان يجتمعا وبغير ان يتشاورا ! وكانت الأم تضحك وتسميهما حزب المعارضة فى الأسرة ! واستطاعت هذه الطريقة الجديدة فى التربية ان توفق العلاقة بين الولدين وأمهما وأبيهما ، ان إشراكهما فى إدارة البيت لم يؤد الى الفوضى ، بل على العكس حقق النظام ، اشعرهما بأنهما شريكان فى الأسرة لا تابعان لها ، قضت على تمردهما ، اختفت كلمة « لا » أو قل عدد المرات التى تستعمل فيها ، التفاهم حطم عناد الرفض ، قرب المسافة بين الأبناء والآباء ، كلما أعطتهما أمهما حرية التعبير ، أعطاهما الولدان حبا ، ان عاطفة الحب أقوى بين الأحرار

منها بين العبيد ، كان الولدان يخافان الوالدين ثم اصبحا يحترمانهما ، فرق بين أن يحترم الابن والده وأن يخافه ، أن الاحترام المصحوب بالحب أكثر جلالاً من الاحترام المصحوب بالرهبة . لم تعد أمهما تلجأ الى ضربيهما ، قلت ذنوبهما عندما زادت حريتهما ، فعل الاقتناع فيهما اضعاف ما فعل العقاب ، ولم يكن الطريق مفروشاً بالورد أمام البرلمان الصغير ، فقد كانت تعنف فيه المناقشات أحياناً وتشتد الخلافات ، ثم تنتهي بانتهاء التصويت ! وكان من اعنف المناقشات التي دارت في هذا البرلمان الصغير ، تلك التي دارت حول « الجلاية » !

كان الولدان يريان زملاءهما التلاميذ لا يكادون يعودون الى بيوتهم حتى يخلعوا بذلاتهم ويرتدوا الجلابيب ، وينزلوا الى الشارع وقد ارتدوا الجلاية يلعبون كرة القدم وكانت أمهما تصر على ألا يغادر الولدان البيت الا وقد ارتديا الجاكته والبنطلون والطربوش !

وكان الولدان يشعران بأن الجلاية فيها من الحرية ما ليس في البنطلون وكانا يشعران بمنظرها الشاذ ، وهما وحدهما يرتديان الجاكته والبنطلون بين زملاء يرتدون الجلابيب ، واصبحت أمنية الولدين في الحياة أن يلبسا الجلابيب وينزلا الى الشارع ، وعارضت الأم في هذا وقرر الولدان أن يعرضا الأمر على البرلمان الصغير . وشرحا وجهة نظرهما ، وانهما لا يفهمان أن يكونا وحدهما دون بقية الاولاد اللذين يرتديان الجاكته والبنطلون أثناء لعب الكرة .

وابدى والدهما عطفاً على وجهة نظرهما .. فاسرعاً يطالبان بأن تعرض هذه المسألة الخطيرة للتصويت ، وإذا بهما يفاجآن بوالدهما ينضم الى أمهما في التصويت وتصبح النتيجة هي صوتين ضد صوتين وبذلك سقط الاقتراح ! وعاتب الولدان والدهما : أن يعطف على وجهة نظرهما ثم يصوت ضدهما .. وقال لهما أبوهما : ان هناك فرقاً بين العطف على وجهة النظر وبين الاقتناع بها ! فالقاضي مثلاً قد يعطف على متهم ومع ذلك يحكم عليه بالإعدام ! وفهم الولدان من هذا ان الجلاية قد حكم عليها بالإعدام ! وعاش الولدان طول حياتهما دون أن يحققا حلمهما الجميل ، بأن ينزلا الى الشارع بالجلاية !

وكانت جلسات هذا البرلمان فرصة للولدين يعبران فيها عن آرائهما ، تلقيا من خلالها كيف يستمعان الى الرأي الآخر ، وكيف أن لكل رأى عيوبه ومزاياه .. وعليهما ألا يتعصبا لرأى دون دراسة ، وقد حلت هذه المناقشات

كثيرا من عقد الولدين وأوهامهما ، واصبحا لايترددان في التعبير من خلال هذا البرلمان عن كل ما يفكران فيه .

ولكن شيئا واحدا لم يتمكن الولدان من عرضه على برلمانها الصغير ، وقد كان اهم شيء في حياتهما ، وهو هوايتهما للصحافة ! كان هذا الموضوع وحده هو الموضوع غير القابل للمناقشة أو البحث أثناء انعقاد هذا البرلمان الصغير !

وهكذا بقى للولدين سرهما الكبير !

وساعد على اشتعال هوى الصحافة في قلبي الولدين أن قيام وزارة الشعب وصدر الدستور ، ووجود البرلمان المصرى والحرية الواسعة ، كل ذلك ادى الى نشاط كبير في الصحافة المصرية ، جرائد يومية جديدة ظهرت ، في كل يوم كانت تصدر مجلة اسبوعية جديدة ، الكتب الطويل الذى عاناه الشعب من الاحكام العرفية جعله يلتهم الصحف التهاماً ويقبل على قراءتها ، جرائد باللغة العربية وباللغات الأجنبية ، مجلات سياسية ومجالات رياضية ومجلات ادبية .. ثم ان نهضة المسرح المصرى ولدت مجلات مسرحية مختلفة الاشكال والاحجام .

وكان الولدان يجدان يوميا كنزا من الصحف والمجلات في بيت سعد ، كانت كل جريدة عربية اومجلة ترسل نسخة مجانا الى سعد وقرأ الولدان صحفاً يومية عربية تصدر في نيويورك وفي بوشن ايرس وفي ريو دجانيرو وفي شيل ، ومئات المجلات العربية ، التى كان يصدرها المهاجرون السوريون واللبنانيون في امريكا الشمالية وامريكا الجنوبية واستراليا .

وكانت المجلة التى استهوتها بصفة خاصة هى مجلة عربية يصدرها المهاجرون العرب في امريكا الجنوبية . وكانت المجلة شيئا جديداً بالنسبة الى المجلات المصرية ، كان ورقها ثقيلاً لامعاً ، وكانت صورها متقنة ، وطبعها انيقاً ، واحس الولدان لأول مرة أن طباعة بلادهما متخلفة عن الطباعة الحديثة .

وفي مجلة السائح قرأ الولدان لأول مرة مقالات وشعرا لجبران خليل جبران ، واستهواهما أسلوبه وخياله ، ووقعت في ايديهما صحف يومية ومجلات اسبوعية تصدر في بغداد والموصل ودمشق وحلب وبيروت .. وكان اغربها جريدة يومية تصدر في الحجاز اسمها « القبلة » وكان اغرب ما فيها غير اسلوبها المعقد أن رئيس تحريرها هو صاحب الجلالة الملك حسين ملك الحجاز في ذلك الحين ، وكانت هذه اول مرة في التاريخ يرأس فيها ملك تحرير جريدة في العالم ! واحس الولدان بفخر وهما يريان أن مهنة الصحافة

التي يهويانها مهنة محترمة ، وأن لهما زميلا يحمل لقب حضرة صاحب
الجلالة الملك !

وهذا الإطلاع الواسع على هذا العدد الضخم من الصحف والمجلات ، جعل
الولدين بيدلان وبغيران ويجددان في المجلة التي يصدرانها لتلاميذ مدرسة
المنيرة ، فقد اكتشف التوأمين بين زملائهما في فصل سنة ثالثة تلميذا حسن
الخط ، استعانا به في مغامرتهما ، وكان أول ما فعلاه أن ألغيا اسمي
« الحقوق » و « البيان » اللذين كانت تحملهما مجلاتهما ، وبفضل التلميذ
الخطاط أصبح لهما مطلق الحرية في اختيار الاسم الذي يعبر عن صفة
المجلة ، فأصبح اسمها « سنة ثالثة ثالث » ثم أصبح بعد زيادة قرائها بين
تلاميذ كل الفصول مجلة « الطالب » وقد كتب تحت اسم المجلة أنها « مجلة
اسبوعية تصدر كل يوم سبت » ! ولم يعرفا لماذا اختارا يوم السبت ليكون
موعدا الأسبوعي لم يعرفا يومها أن يوم السبت هو أهم أيام حياتهما ، فقد
ولدا في يوم السبت ، وماتت أمهما يوم السبت ، وصدرت أخبار اليوم يوم
السبت ، وحكم على أحدهما « مصطفى » بالسجن المؤبد يوم السبت أيضاً !
وفي عدد مجلة الطالب الصادر في ١٩ يوليو سنة ١٩٢٤ يكتب الولدان ،
وهما في سن العاشرة ، تحقيقاً صحفياً عن إطلاق الرصاص على سعد زغلول ،
والتحقيق مختلف عما نشرته الصحف الكبرى عن الحادث ، فالتوأمين كتاباه
وهما يعيشان في الغرفة التي رقد فيها سعد زغلول في مستشفى الدكتور على
ابراهيم رامز بالروضة ، انهما بحكم وجودهما فيه عرفا معلومات دقيقة لم
تصل الى الصحف ، إنهما يصفان الحادث كما رواه سعد ، ان عنوان التحقيق
هو « أين المسدس ؟ » . ويقول التحقيق ان المسدس الذي أطلقه الجاني
محمد عبدالخالق على سعد زغلول في محطة مكرم اختفى ، وأن معنى ذلك أن
الجاني له شركاء ، ان شريكا مجهولاً انتهز فرصة الفوضى بعد إصابة سعد
بالرصاص ونزف الدم منه فأخذ المسدس من الجاني واختفى ، حتى لا يعرف
أحد مصدر المسدس الذي ارتكبت به الجريمة .

وفي التحقيق أشياء دقيقة عن حياة سعد ، منها أن صفية قالت لزوجها
سعد ، صباح الحادث : « عيني بترف » ، فنصحها سعد أن تضع قطرة ا
ووضعت القطرة في عينيها ، واستمرت عيناها « ترف » الى أن جاء إليها سعد
والدم ينزف منه !

وفي التحقيق جراحة غريبة من الولدين ، فهما يقولان فيه ان الحادث وقع
يوم التشريفات الملكية ، وذهب سعيد ذو الفقار باشا كبير الأمناء يبلغ الملك
فؤاد نبأ إطلاق الرصاص على رئيس وزرائه ، فقال الملك :

- اذا كانت الاصابة قاتلة تستمر التشريعات ، واذا كانت الاصابة غير مميتة تلغى التشريعات ..

وظهر أن الاصابة غير قاتلة ، وعلى ذلك أمر الملك بالغاء التشريعات واثنى بتصريح قال فيه ان صحة سعد هي أغلى شيء في الدولة !
وقالت مجلة الطالب كذلك إنه لوحظ أن حسن نشأت باشا وكيل وزارة الأوقاف والمقرب من الملك ، حرص على حضور كل التحقيقات ، مع أنه من المعروف أن النيابة ليست تابعة لوزارة الأوقاف !

ولو أن هذا العدد من مجلة الطالب وصل الى أحد من رجال قصر الملك لقامت الدنيا وقعدت ، ففي هذا التحقيق عيب صريح في الذات الملكية ، وفيه اتهام صريح للملك فؤاد بأنه كان المحرض على قتل زعيم الأمة ، أو على الأقل كان يتمنى أن تكون إصابته قاتلة ، وإن أقرب المقربين للملك يتدخل في التحقيق ليمنع الوصول الى شركاء الجاني !

والذين قرأوا هذا العدد من المجلة قرأوه باعتباره منشورا سريا أكثر مما قرأوه على أنه مجلة مدرسية !

ومن حسن حظ الولدين أنهما لم يتماديا في الكتابة السياسية ، لأنهما لو استمرا في الكتابة بهذه الجراءة أو على الأصح بهذه الحماسة لدخلا السجن قبل الموعد الذي قرره القدر لدخولهما !

وكان السبب في ذلك أن أميل وشكري زيدان اصدرا في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٢٤ مجلة المصور وكان أول مجلة تطبع بالروتوغرافور في مصر وكانت مجلة حافلة بالصور .

وتصادف أن سعد زغلول وصفيه عادا من رحلتها في أوروبا في يوم ٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٤ ، وأحضرت صفية لعلي ومصطفى هديتين من إنجلترا ، هما عبارة عن ألتى تصوير وكمية من الأقلام .

هنا حدث تطور ضخم في مجلة الطالب ! فقد تغير اسمها وأصبح « الطالب المصور » وأمتلا بصور رديئة جدا من تصوير الولدين ، منها صورة غير واضحة لافتتاح الدورة الثانية للبرلمان المصري في شهر نوفمبر سنة ١٩٢٤ . وصورة غير واضحة لسعد يوم استقالته في الوزارة ، وصور لمباريات الكرة لا تستطيع أن تتبين منها أين هي الكرة وأين هي رؤوس اللاعبين ! وكل هذه الصور من تصوير الولدين اللذين لم ينتظرا حتى يجيدا التصوير ، ويتعلما أصوله قبل أن ينشرا الصور المهزوزة على القراء المساكين !

ولم تستمر سعادة الولدين بمجلتهما « الطالب المصور » طويلا ! فبعد استقالة وزارة سعد بأيام دخل حجاج افندي ضابط مدرسة المنيرة

فصل سنة ثالثة ثالث واتجه الى مقعدى على ومصطفى ، وفتش الدرجين اللذين يضعان فيهما الكتب واستولى على نسخ مجلة الطالب ، والطالب المصور ..

وكان الولدان يحتفظان بنسخ المجلات فى المدرسة خشية أن تكشفها أهمها إذا أبقياها فى البيت ! ثم فتش حجاج أفندى بعد ذلك جميع ادراج التلاميذ وصادر منها كل نسخ مجلات الطالب القديمة والحديثة ! وغضب الولدان ، انها أول مرة فى حياتهما تصادر لهما مجلة ! ما اتعس الصحفى عندما يرى أفكاره تصادر ! انه يشعر كما يشعر الأب الذى يرى اولاده يحكم عليهم بالخنق امام عينيه ! ثم تضاعفت المصيبة عندما رأى الولدان حجاج أفندى يذهب الى دورة المياه حاملا النسخ المصادرة ، ويخرج عددا من الثقاب ، ويشعله ، وتلتهم النار كل المجلات !

انفجر الولدان بالبكاء ! ان قطعة منهما تحرق أمامهما ! ان هذا الرماد هو كل مابقى من أفكارهما وجهدهما وعرقهما ، بدا لهما هذا العقاب اشد هولاً من عقاب أهمها لهما عندما أحرقت أصابعهما حتى لا يكتب صحفا ومجلات ! ان هذا الورق المحترق هو لحمهما ودمهما ، هو حياتهما ، هو أحلامهما .. وتأثر حجاج أفندى عندما رأى دموع الولدين فقال لهما :
- إننى فعلت هذا لمصلحتكما ! لقد وقع فى يدى نسخة من المجلة التى شتمتم فيها الملك ، لو وقعت هذه النسخة فى يد الوزارة الجديدة فسيقضى على مستقبلكما ، وسيقضى على مستقبل بصفتى ضابط هذه المدرسة ، وعلى مستقبل الناظر والمدرسين ، وسيؤدى الأمر الى طرد والدكما من وظيفته والاساءة الى سعد باشا نفسه لأن الوزارة ستتهمه بأنه هو الذى أملاكما هذا الكلام ضد الملك .

وكان حجاج أفندى يتحدث بعاطفة صادقة ، وقد كان شابا وطنيا من شباب الثورة ولكن هذه العاطفة لم تقنع الولدين ، انهما أحسا أن مجلة كل منهما المكتوبة بالرصاص والمطبوعة بالكربون وبالبلوطة أهم من مستقبلهما ، وأهم من مستقبل جميع المدرسين ، وأهم من مستقبل إليهما ، وأهم من مستقبل سعد باشا نفسه ! إنهما لم يقدرا يومئذ خطورة ماكتبته مجلة الطالب عن الملك فؤاد ..

ولكن ما الذى جعل الولدين يتناولان الملك فؤاد بهذا العنف ؟ إنهما طالما سمعا فى بيت سعد قصصا عن طغيان الملك وجبروته وكرامته لسعد ، ولكن كل هذه القصص لم تؤثر فيهما كما أثرت فيهما قصة معينة وقعت أحداثها

عندما كان سعد رئيساً للوزراء ، وروى أمامهما أنه كان يزور الملك في قصر القبة ، ودعاه الملك فؤاد للتفرج على حديقة القصر ، وبينما كانا يمشيان معا بين الزهور ، اقترب منهما الأمير فاروق ولى العهد وكان عمره خمس سنوات وهتف بصوت عال : يعيش الملك ويحيا سعد .

ثم أخذ يعدو الى الناحية الأخرى .
وناداه الملك فؤاد وقال له مبتسما : من الذى علمك هذا التهاف ؟
قال الأمير فاروق :

— لم يعلمه لى أحد .. إن الناس كلها تهتف أمام القصر يعيش الملك ويحيا سعد !

واحتضن سعد الأمير الصغير وقبله في جبينه ..

وكان سعد مسرورا وهو يروى القصة من أن التهاف بحياة زعيم الشعب فرض نفسه حتى على ابن الملك .. خصم الشعب !
ولكن صغيفة قالت انها تشك في انها تمثيلية دبرها الملك لايهام سعد أن القصر بدأ يحبه بدليل أن ابن الملك يقول يحيا سعد !

وقال سعد : انه من غير المعقول أن طفلا عمره خمس سنوات يشترك في مثل هذه التمثيلية ، فقد كان الأمير الصغير يهتف ببراءة وبحماس غير مصطنع ، ولو كان الملك فؤاد هو الذى كان يهتف لما صدقته فانا أعلم انه ممثل قدير !
وبعد أيام قالت صغيفة لسعد على مائدة الغداء :

— لقد كنت على حق ياسعد عندما قلت من ثلاثة أيام أن الأمير فاروق كان يهتف لك هتافاً غير مصطنع ..

قال سعد وقد سر أن فراسته في الأمير الطفل كانت صادقة :

— وكيف تأكدت من ذلك ؟

قالت صغيفة :

— كانت عندى الأميرة أمينة زوجة الأمير عادل طوسون ، وقالت لى انها منذ يومين كانت تزور شقيقاتها الملكة نازلى فوجدتها تبكى بكاء حارا . فسألته ماذا حدث . فقالت لها انه في اليوم السابق رأى الأمير فاروق الملك وسعد باشا يتمشيان في حديقة القصر . فهتف : « يعيش الملك ويحيا سعد » .
وتظاهر الملك أمام سعد باشا بالسروز ، ولكن بعد انصرافه ، أمر مربيته الانجليزية بأن تجلد الأمير الصغير عشر جلدات ، بالسوط على ظهره ، لأن الملوك لا يجوز أن يهتفوا بحياة رعاياهم !

وقد نزف الدم من ظهر الأمير الصغير ، ومازالت آثاره على ظهره !
وما كاد سعد يسمع هذه القصة حتى رأى الولدان وجهه متوقدا كالجمر .
أغمض عينيه من الألم وكأنه ذاق لسعات السياط العشرة على ظهره هو . ثم
شحب وجهه ، كأنه الثلج بياضا . ثم قطب حاجبيه ، وكأنه يتحاشى أن
يبسطهما ويرى منظر الطفل الصغير وهو يجلد أمام عينيه بسوط المربية
الانجليزية . وبدأ وجهه يتشنج كأنه أصيب بحمى عصبية ، أو بذبحة
صدرية .

ولاحظت صفية الاضطراب المفاجيء الذى عرا وجه سعد . وقد امتزج فيه
الغضب بالألم .

لم ير الولدان سعد من قبل مرور الملامح ، متقبض القسما ، شقيا ،
تعبسا ، حزينا يتوقد وجهه لحظة كالجمر ، ثم يتحول اللون النارى الى بياض
كقناع الشمع ، ثم يعود مصفرا من جديد ..

ونظرت صفية بهلع اليه وقالت :

— ماذا جرى لك يا سعد .. ؟! ألم تتصور أن الملك فؤاد يفعل هذا ؟
قال سعد والكلمات تخرج من شفثيه كالتمتمة : لا .. إننى أعرف أنه قادر
على أن يفعل أكثر من هذا ؟

قالت صفية : هل أنت حزين كل هذا الحزن من أجل الأمير فاروق ؟
قال سعد : إذا كان الملك فؤاد يفعل هذا فى ابنه الوحيد لأنه قال يحيا
سعد ، فماذا سيفعل فى هذا الشعب الذى يقول يحيا سعد ! اننى تصورت هذا
السوط وهو ينهال على كل رجل وامرأة وطفل من الأربعة عشر مليوناً من
المصريين ..

ولم يستطع الولدان أن ينسيا صورة سعد الحزين ، صورته وهو يبكى
بغير دموع . وينزف بغير دم . ويصرخ بغير صوت .. فلما أطلق الرصاص على
سعد ، لم يترددا فى أن ينتشرا فى مجلتيهما كل ما سمعاه عن دور الملك فى
محاولة اغتيال رئيس وزرائه !

انطبعت فى رأسى الصغيرين نظرات جدهما الهالعة الحزينة وهو يستمع
لصفية تروى قصة ضرب الأمير الصغير بالكرباج . رأيا فى هذه النظرات عدة
صور طالما سمعاها من شفثى جدهما على مر السنين ، صورة الفارس التركى
وهو ينهال على والد سعد بالكرباج ، ووالد سعد وهو ينتزع الفارس من فوق
الحصان . صورة السياط وهى تنهال على ظهور مئات الألوف من الفلاحين فى
عهود الطغيان والاستبداد . صورة المربية الانجليزية وهى تظهر تلهب الأمير
الصغير بالكرباج . نبوءة سعد بأن الملك فؤاد سيلهب ظهور الملايين

بالكرباج لأنهم يهتفون يحيا سعد ! لابد أن جدهما كان يفكر في كل هذا عندما أنقلبت صورة وجهه وبدا تارة كالحمامة الجريح وكالأسد الجريح تارة أخرى . عندما انقطر قلبه لوعة وأسئ وحسرة . عندما شاهدها يتعذب فوق مقعده عذاب المضروب بالسياط !

كان سعد يكره الكرباج . كان يعبر بهذه الكلمة وحدها عن كل ما في الدنيا من ظلم وطغيان واستبداد وجبروت وإرهاب . وفي تلك الأيام بالذات كان حكم موسوليني قد توطد في إيطاليا ، وحكم مصطفى كمال قد تأكد في تركيا ، وكان قيام هذين الحكيمين هو أول ظهور للدكتاتورية بعد الحرب العالمية الأولى . وكان لهذه الدكتاتورية بريق يعنى بعض العيون : أن من عادة الطغاة أن يعتمدوا على الطبول والاستعراضات والمظاهر البراقة التي تبهر السذج وتثير إعجابهم وتحرك حماسهم . وكان بعض هؤلاء السذج يسألون سعدا لماذا لا يقلد مصطفى كمال وموسوليني ! أن شعبه يؤيده أكثر مما تؤيد مصطفى كمال وموسوليني شعوبهما . لماذا لا يفعل مثلهما ويلغى جميع الأحزاب في مصر ، ويجعل الوفد هو الحزب الواحد ، كحزب الشعب في تركيا وحزب الفاشيست في إيطاليا . لماذا يسمح بالمعارضة في البرلمان المصرى . أن موسوليني قتل النائب الإيطالى ماتيو تى الذى عارضه في البرلمان الإيطالى . ومصطفى كمال شنق في يوم واحد تسعة رجال عارضوه في قراره بإلغاء الطربوش . كيف يسمح للمصحف أن تهاجمه كل يوم . وتتهمه في وطنيته ، وتوجه إليه المطاعن والسباب . أن الدكتاتورية تستطيع أن تبني في شهر ما تبنيه الديموقراطية في عام .

أن مصر في حاجة إلى المستبد العادل الذى يجمع كل القوى في يديه ، ويسيطر على كل شيء ولا يسمح لصوت أن يرتفع ضده بالمعارضة والانتقاد . وكان سعد يثور على هذه المراهقة السياسية . فقد كان مؤمنا بالحكم الديموقراطى ، كان يقول أن الثورة التي قادتها تهدف إلى أن أنتزع الكرباج من أيدي المحتلين والمستبدين ، وأحطم الكرباج ، لا أن أنتزع الكرباج لاستعمله بدلا من المحتلين والمستبدين . فليست ثورتنا ضد الاستبداد الأجنبى فقط ، إنما هى ضد كل استبداد وطغيان . ولهذا أقاوم الملك فؤاد كما أقاوم الإنجليز لأنه مستبد مثلهم . وأقاوم كل مستبد مصرى بنفس العنف الذى أقاوم به الاستبداد الأجنبى . لم يكن سعد مقتنعا بأنه من الممكن إصلاح أى شيء بالكرباج . أن الشعب الذى يتعلم بالكرباج ، ويتعلم النظام بالكرباج . ويطبع الحاكم بالكرباج يفقد حيويته ، ويتحول المواطنون فيه إلى أشباح . كأنهم ظلال لحاكم واحد . هذه الظلال تطول وتقصر طبقا لانعكاس أشعة

الشمس على جسم الحاكم . فإذا جاء الليل ، والشعوب قد تواجه بليل بين وقت وآخر ، اختفت هذه الظلال ، وبقي الحاكم وحده يقاوم في المعركة . ثم يستنظر :

— اننى لا أريد أن أحرر المصريين من حكم الانجليز لاستعبدهم . ان هذا اشبه بنقل المسجون من سجن الى سجن ، بل هو أشبه بتغيير اسم السجن وبقاء السجين في نفس الزنازة !

وكان سعد يسمع تفاصيل غريبة عن حكم موسوليني . منها مثلا أنه يستبدل وزراءه كما يستبدل أذيته . ويتساءل كيف ألغى شخصية معاونيه ، وأصبح وحده الحاكم بأمره ، كيف ملأ السجون بمعارضيه . كيف تخولت الدولة الى عصابة تحكم بغقية العصابات وبتقاليد العصابات . كيف صمت الايطاليون المشهورون بكثرة الكلام . كيف أصبحوا يمشون في طوابير كأنهم تحولوا جميعا الى جنود في ميدان قتال .. كيف اتخذ موسوليني لنفسه شارات الامبراطورية وبدأ يتكلم لغة الغزاة الفاتحين .. قد أحس سعد بخطر موسوليني وهو يقرأ الخطابات التي كان يطالب فيها بضم واحة جغوب الى ايطاليا ، او وهو يطالب بأن يتسلم الزعماء الليبيين الذين التجأوا الى مصر فرارا من الاحتلال الايطالي ..

كان سعد يؤمن بأن هذه الطريقة لا يمكن أن تخلق ايطاليا ، او تجعلها امبراطورية ، وكان يقول ان الطغاة هم ممثلون . وان أعمالهم هي مناظر مسرحية مصنوعة من الورق ، تعلق على المسرح ، وتسقط عليها الأنوار ، فتبدو في أعين السذج انها قلاع وقصور .. ولكن إذا هب الهواء عليها تطايرت المناظر الورقية في الهواء ! وكان يقول انه لا يتصور أن في إمكان موسوليني أن يصنع جيشا من العبيد الخائفين الراجفين .. أن سبب هزيمة روسيا في الحرب العالمية الأولى في رأيه : هو استبداد القيصر والطبقة الحاكمة وإذلالهم للشعب . الشعب الذى يفقد حريته أعجز من أن يدافع عن أرض بلاده ، لأن الضعفاء لا يستطيعون أن يكونوا مخلصين . وكان يهزأ من تهديد موسوليني باحتلال جغوب بالقوة ، ويقول انه يعتقد أن جيشه من الورق !

ولم يعش ليرى نبوءته تتحقق بعد ذلك بعشرين عاما عندما تحول الجيش الايطالي الى جردان تهرب في الصجراء في أثناء الحرب العالمية الثانية ! وكان سعد ينتقد حكم مصطفى كمال ، ويقول انه يعتقد انه من الممكن تنفيذ كل المشروعات التقدمية التي يتنادى بها بالمنطق والاقناع بدلا من الكرياح والمشائيق .

وانه اذا كان لديه مشروع إقامة ترعة يمكن بناؤه في شهر واحد بالكرباج ويمكن بناؤه في خمس سنوات بغير كرباج ، فإنه يفضل أن ينتظر خمس

سنوات ، لانه اذا استعمل الكرياج ، فسيجد الماء في التربة ، ولكنه لن يجد الرجال الذين يشربون منها ! لأن الكرياج سيفقدهم رجولتهم وأدميتهم ويجعلهم يتحولون إلى حيوانات !
وكان أغرب ما يستهوى الولدين في سعد أن افكاره كانت شابة في سن الستين ..

وقد خطب مرة فقال وهو في السادسة والستين :
« اتخيل كائنني عدت إلى الصبا ، وعادت إلى صدى حماسه ، فاستسهل كل صعب ، واستهين بكل خطب ، وأبى كل صوت يدعو إلى التقدم والارتقاء »
وكان الولدان يلاحظان في استغراب أن عقل سعد كان يتفاهم مع الشباب أسرع مما يتفاهم مع الشيوخ . يفهمهم ويفهمونه . يتجاوبون معه ويتجاوب معهم . وكانتهم من جيل واحد لا تفرق بينهم عشرات السنين !
وكان خصوم سعد يذهلهم كيف أن سعد يزداد تطرفا وثورة كلما تقدمت به السن . أن الزمن عادة هو الذي يبرد الحماسة . العمر يجعل من المندفِع حكيما ، ومن الثائر واقعيا ، ومن النارمادا ! ولكن هذه القاعدة شذ عنها هذا الرجل ، حتى أن جريدة التيمس البريطانية كتبت في مقال افتتاحي تقول :
« المعروف في الزعماء في الشرق أنهم يعتزلون العمل قبل زملائهم الغربيين . إلا سعد زغلول . أنه احتفظ بنشاطه الغزير إلى النهاية . وليس بين الثائرين المتطرفين في التاريخ ! إلا عدد قليل بقيت له عقيدته السياسية على شدتها وعنفوانها بعد الخمسين ، ولكنه هو بلغ أقوى ما بلغ من السلطان على الجماهير عندما ناهز الستين . وكانتما كان كلما تقدم في السن ، يزيد من حماسة الشباب ونزواته » .

وقد لاحظ الولدان أن افكار سعد كانت في بعض الأحيان تسبق عصره ، فإن الزعيم الحقيقي هو الذي يسبق الشعب بخطوة ، لا الذي يتخلف عنه بخطوات ، أو يسبقه بخطوات . فالزعيم الذي يسير خلف الجماهير يفقد طريقه ، والزعيم الذي يتقدم الجماهير بخطوات واسعة يفقد جماهيره ، فلا بد إلا تتسع المسافة بين موقف الزعيم وموقف شعبه فتتوه الجماهير من قائدها ، ولا تضيق هذه المسافة فيصبح الزعيم صدى لا صوتا ، وظلا لا حقيقة . وقد شهد الولدان مناقشات عنيفة بين سعد وبعض انصاره وخصومه بشأن سفور المرأة . أن بعض المتزمتين كان ينظر في تلك الأيام إلى سفور المرأة المضرة المسلمة كأنه دعوة للمرأة لكي تتجرد من كل ملابسها وتمشي عارية في الطريق العام . وأن هذا يجدد عهد « سدوم وغامورة » وما فيه من اثم وفجور ، وأن المجتمع المصري سينزلق إلى الإنحطاط ، وأنه سوف يكون من نتيجته

ان يضرب الرجال عن الزواج ، وأن أغلبية نساء مصر سيتحولن الى عاهرات ، فإن منظر المرأة السافرة يثير في الرجل أخط الغرائز الجنسية ، وأن الطبيعة الانسانية للمرأة مركبة بحيث لا تستطيع مقاومة هذا الإغراء ! كان هؤلاء يعتبرون سفور المرأة معناه إطلاق حرية الجنس !

وكان سعد يفند هذه الآراء ، ويؤكد ان سفور المرأة ليس هو الفساد ، وأن وجه المرأة ليس غورة ، وأن الناس لن يضربوا عن الزواج بعد أن خلعت المرأة حجابها ، بل سيتزوجون كما كانوا يتزوجون ، وستبقى العفة كما كانت ، فإن « البرقع » ليس هو حزام العفة الذى يمنع المرأة من السقوط ، وسفور المرأة عن وجهها ليس معناه انها خلعت ملابسها الداخلية في الطريق العام !

وكان سعد يقابل بصبر عجيب هذه الآراء الغريبة التى كان ينادى بها عدد من المتعلمين الذين لم يتصوروا علما فيه امرأة مسلمة بغير حجاب ! ولكن آراء أخرى جديدة كانت تصدمه ، ففي تلك الأيام نشرت الصحف ان الزعيم لينين اصدر أمرا بإلغاء الزواج ، وأراد نسف القاعدة العائلية للمجتمع ..

ولم يفهم سعد هذا الرأى . ولم يستسغه وقال ان من رايه ان الزواج هو من أحل الروابط الانسانية التى اكتشفها الانسان ، وأن إلغاء الزواج هو حرمان البشر من أجمل صور الحياة . وأنه يعتقد ان الانسان لن يقبل هذا القرار ، بل انه يتوقع ان الناس سيتزوجون سرا . أكثر مما يعشقون سرا . اذا منعهم الحاكم من الزواج .

وصدقت الأيام نبوءته ، فإن الاتحاد السوفيتى الذى خرج على الدين رسميا وقانونيا وفعليا ، ما لبث ان أعاد التشريعات الخاصة بالزواج ، واكتفى بتنظيم الزواج وتسهيله وتبسيطه أمام الراغبين فيه ! وكانت كل هذه المسائل تناقش بصراحة أمام الولدين . فلم يكن رب الأسرة يؤمن بأن هناك مسائل تقال أمام الكبار ، ولا تقال أمام الصغار ، وأن الأحاديث التى سمعها الوزراء لا يجوز أن يسمعها رجل الشارع . وأن هناك كلاما يقال أمام الرجال ولا يقال أمام النساء والأطفال . كان يؤمن بمجتمع مفتوح . بأن الذى لا يستطيع أن تقوله لكل الناس لا يجوز أن تهمس به فى أذن واحد من الناس . كل شيء واضح وصريح ومفتوح . لا سياسة عليا . ولا أحاجى وأسرار والغاز . ولا أقلية عليمة ببواطن الأمور ، وأغلبية جاهلة بكل ما يجرى فى بلادها .

ومن هنا كان من رايه ان الصحافة يجب أن تقول للشعب كل شيء . وقد كان هو أول وزير فى تاريخ مصر استقبل الصحفيين ، وأدى بأحاديث الى الصحف ،

وكان أغلب الذين يترددون عليه من الصحفيين والشعراء ورجال الأدب .
يتردد عليه باستمرار عبد القادر حمزة صاحب جريدة البلاغ وعباس محمود
العقاد كاتبها الأول ، وكان يطلق عليه اسم « الكاتب الجبار » وأحمد حافظ
عوض صاحب جريدة كوكب الشرق ، ومصطفى لطفي المنفلوطي وأحمد
شوقي أمير الشعراء وحافظ إبراهيم شاعر النيل ، وقبلهم كان أمين الرافعي
صاحب جريدة الأخبار ضيفا دائما على مائدة سعد قبل أن يدب الخلاف
بينهما ، وفي نهاية سنواته كان يستقبل كثيرا فكري أباطة ومنيرة ثابت أول
مصرية أصدرت صحيفة باللغة الفرنسية هي « الأسبوار » ومجلة عربية
اسبوعية هي « الأمل » والكاتبة المعروفة مي زيادة ومصطفى صادق
الرافعي .

ورأى الولدان كيف يضع زعيم الأمة كتابها ورجال الصحافة فيها في مقام
الوزراء ، بل أنه عندما كان يدعوهم لتناول الغداء على مائدته يقدم مكانهم على
المائدة عن المكان الذي يجلس فيه الوزراء ورؤساء الوزارات ! كان يناقش
الكاتب في مقالته ، والشاعر في آخر قصيدة له ، والصحفي في الخبر الذي
نشره . وكان ينصت لآرائهم ويهتم بسماع افكارهم . وكان مقدما في نظرتهم الى
الصحافة عن الصحفيين انفسهم .

طالما سمعه الولدان ينتقد الحروف التي تظهر في البلاغ بأنها تتعب عيون
القراء ، وأن الحروف مكسرة ، ويجب استبدالها بحروف مطبوعة واضحة ،
وأنه يجب التجديد في طريقة ابراز الخبر وشرحه ، ثم هو يطلب من أحمد
حافظ عوض صاحب كوكب الشرق أن يشتري مطبعة جديدة ، تطبع الصور ،
ويدفع اليه ببعض الصحف الأجنبية التي تلقاها في البريد وبها صور
الأحداث ، ويطلب من الصحف التي تؤيده ألا تتخلف عن التطور الصحفي ،
معتمدة على توزيعها الضخم بفضل تأييدها له وحماسها لسياسته .

وسمع الولدان سعد يتحدث عن أمنيته في أن تقوم في مصر جريدة كبيرة ،
مثل جرائد العالم الكبرى لها مراسلها في عواصم الدنيا ، وفيها صفحات
مخصصة وكتاب متخصصون ، وكان يحلم بأن يشتري أنصاره جريدة
الأهرام ويطوروها . وطلب جبرائيل تقلا صاحب الأهرام ثلاثين ألف جنيه لئلا
يجريده ، واستكثر الوفد المبلغ ، وبدأ سعد يفكر في إنشاء شركة كبيرة
لإنشاء جريدة كبرى ! وكان يكرر بأن تكميم الصحف يؤدي حتما الى انتشار
لجمعيات السرية ، وأنه يحكم على حرية كل بلد من صحافته ، فإذا وجد
صحافة بلد حرة عرف على الفور أن شعبها حرو إذا وجد الصحافة مكتمة عرف
نها تصدر في شعب مكتم الأفواه ، مقيد بالسلاسل والأغلال .

وكان هذا الحديث الدائم عن الصحافة يلهب خيال الولدين الصغيرين ،
ويضاعف من هوايتهما للصحافة ويحول هذا الحب الى عشق ملتهب وغرام
عنيف !

وكان إصدار الصحف في أول هوايتهما لعبة كما كانت هواية السياسة لعبة
أخرى مثل لعبة عسكر وحرامية . كانا في أول الأمر ينظران الى اشتغالهما
بالصحافة والسياسة كأنها زيارة مستمرة الى لونا بارك مصر الجديدة . وهو
اسم حديقة الملاهي في تلك الأيام !

انهما كانا يتتبعان تاليف الوزارات وسقوط الوزارات بنفس الشغف الذي
كانا يتابعان به لعبة « الصينية » في حديقة الملاهي ، عندما تدور الصينية
بالواقفين ببطء ثم بسرعة ثم تلقيهم على الأرض . كانا يتابعان السياسيين في
اهتزازهم فوق المسرح السياسي كما كانا يتابعان الشبان والشابات في لعبة
« الغرغال » الذي يلف بهم ويدور فيحولهم جميعا الى راقصين وراقصات .
كانا يشهدان مغامرات السياسيين بنفس اللذة التي كانا يشهدان بها القطار
الكهربائي الذي يصعد الهضاب ويسقط بركابه في الكهوف ، ويدور بهم في
الغابات الصناعية التي تخرج منها اصوات الوحوش ثم يخرج القطار الى
النور بين التهليل والتصفيق . وكانت الصحافة لعبة أيضا من ألعاب
لونا بارك . فيها بنادق تصوب على الذين تنتقدهم مجلتهم الصغيرة . فيها
المراي التي تغير ملامح الناظرين اليها ، فتطيل القصير ، وتحول القزم الى
عملاق ، وتجعل النحيف بدينا والسمين في شكل العضا أو النبوت !

ولكن كلما تقدم العمر بالولدين عرفا أكثر عن الصحافة والسياسة ، اختفت
اللعبة وتحول اللهو الى جد . أصبحت السياسة والصحافة في عيونهما مهمة
الخطر ! انهما أكثر خطورة من الطيران . ان الطيار العادي يطير مرتين
أو ثلاثا في الاسبوع ثم يستريح وفي سن معينة يعتزل الطيران . ويمشي على
الأرض من جديد . اما الصحفي والسياسي فكلهما يطير كل يوم . يخاطر كل
يوم . يواجه الموت كل يوم . الطيار العادي يلتقي بالعواصف في الشتاء .
والصحفي والسياسي يعيشان في العواصف طول الحياة ! الطيار اذا تحطمت
طائرته يستطيع أن يهبط بمظلة النجاة ويجد طائرة جديدة يطير بها . ولكن
الصحافة والسياسة ليس فيهما مظلة نجاة . ان كوارث الصحافة مثلا أكثر من
كوارث الطيران . ففي الطيران تفقد رأسك فقط ولكن في الصحافة تفقد
حريكك .. وهي أغلى من الحياة !

ولم تضعف هذه المخاطر من حماس الولدين الصغيرين للسياسة
أو الصحافة . بل تطورت هذه الحماسة وأصبحت هوى جارفا . ان سن
العاشرة هي السن التي يبدأ فيها الصبي يحب المغامرات ويعشق الاخطار !

كان سعد يقول لهما ان لديه نصيحة يوجهها اليهما : ان يعدا من واحد الى عشرة قبل ان يقوموا بعمل من الاعمال . اننا اذا عدنا من واحد الى عشرة قبل ان نقول الكلمة .. لا نخطيء ، واذا عدنا من واحد الى عشرة قبل ان نقوم بمغامرة .. نضمن الا نحطم رؤوسنا !

وعينا حاول الولدان ان يتقيدا بنصيحة جدهما . كانا دائما يتكلمان ثم يعدان من واحد الى عشرة ! ويغامران .. بعد ذلك يعدان من واحد الى عشرة ! وتصور الولدان عندما اتما العاشرة من عمرهما انهما عرفا كل تجارب الحياة ، الم يتعلما من زعيم الثورة . الم يشهدا معاركها . حضرا انتصارها . عانيا هزائمه . تصورا انهما لا يمكن ان تتيح لهما الحياة شهود مأس كالمسى التى رايناها . تصورا انهما شاهدا كل ما فى الحياة من احداث جسام . من احوال واخطار . لن يضحكا كما ضحكا . لن يبكيها كما بكيا . لن يتيح لهما القدر ان يعيشا انتصارات اخرى وهزائم اخرى . لن تتاح لهما فرصة يشهدان فيها التاريخ وهو يكتب فى حضورهما . لن تضحك الدنيا كما ضحكت . ولن تعبس لهما اكثر مما عبيت . لن يتكرر ما راياه من ظلم . وما كابدها من عذاب . وما شهداه من طغيان واستبداد .

وسمعهما القدر ، فضحك ساخرا من سذاجة الولدان الصغيرين ! الآن القدر كان يعرف ان « البقية تاتى » !
لان الحياة لا تتوقف ابدا .. إنما تتجدد دائما . كل شىء فيها يتغير ويتبدل .

البشر يولدون ويموتون . الابنية تشيد وتنهار . الزهور تفتتح وتذبل . الدول تقوم وتسقط ..

كل شىء يتغير .. كل شىء يتبدل .. إلا معانى بعض الكلمات ..
الحرية تبقى دائما حرية ..
الطغيان يبقى دائما طغيانا ..
العدل يبقى دائما عدلا ..
الظلم يبقى دائما ظلما ..

ويجىء العادلون والطغاة ويذهبون . ويظهر انصار الحرية واعوان الاستبداد ويختفون . وتشرق شمس الديمقراطية وتغيب . ويجثم ظلام حكم القرد ، ثم يطل نهار حكم الأمة ويعلق الاحرار فى المشاق ، ويجلس الظالمون فى مقاعد السلطان .

كل شىء يتغير . يولد ويموت . يكبر ثم يتضائل .
ولكن الشعب يبقى دائما .. ولا يموت !



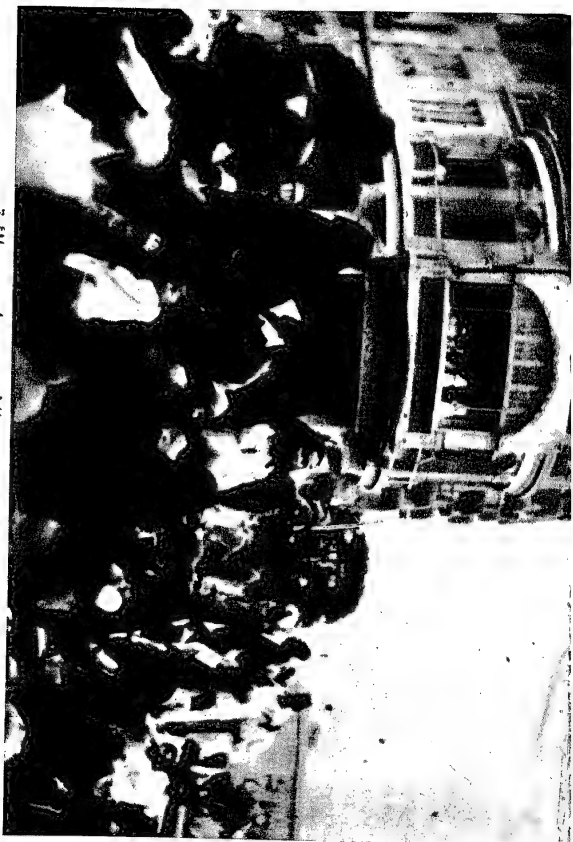
●● طالبات مدرسة السنية في ثورة ١٩١٩



●● شهيد مجهول من مئات الشهداء في ثورة ١٩١٩



●● طالبور الاحتلال لاره‌اب الشعب



●● جموع الشعب حول بيت الأمة

كتب للمؤلف

● أمريكا الضاحكة :

- حياة طالب مفلس في أمريكا .
الطبعة الأولى سنة ١٩٤٣ - « نفذت » .
- الطبعة الثانية سنة ١٩٤٣ - « نفذت » .
- الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٤ - « نفذت » .

● فاطمة :

- مثلتها للسينما أم كلثوم وأنور وجدى سنة ١٩٤٧ .

● عمالقة وأقزام :

- ساسة مصر قبل الثورة .
- سنة ١٩٥١ - « نفذت » .

● لىالى فاروق :

- قصة حياة الملك السابق
- الجزء الأول سنة ١٩٥٤ - « نفذت » .
- الجزء الثانى سنة ١٩٥٤ - « نفذت » .

● مبعودة الجماهير :

- الطبعة الأولى سنة ١٩٦١ - « نفذت » .
- مثلها للسينما عبدالحليم حافظ وشادية .

● صاحبة الجلالة فى الزنانة :

- قصة الصحافة المصرية فى الاغلال والصراع
- بين الصحافة والطغيان .
- الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ - « نفذت » .
- الطبعة الثانية لسنة ١٩٧٤ - « نفذت » .
- الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٥ .

● سنة أولى سجن :

- الطبعة الأولى سبتمبر ١٩٧٤ - « نفذت » .
- الطبعة الثانية ديسمبر ١٩٧٤ - « نفذت » .
- الطبعة الثالثة يناير ١٩٧٥ - « نفذت » .
- الطبعة الرابعة فبراير ١٩٧٥ - « نفذت » .
- الطبعة الخامسة مايو ١٩٧٥ - « نفذت » .
- الطبعة السادسة يناير ١٩٧٨ .
- الطبعة السابعة أبريل ١٩٨١ .

● الكتاب الممنوع :

- أسرار ثورة ١٩١٩ .
- الطبعة الأولى ١٩٧٤ - « نفذت » .
- الطبعة الثانية ١٩٧٥ .

● سنة أولى حب :

- يناير ١٩٧٥ .
- مثلها للمينما محمود ياسين ونجلاء فتحي .

● ست الحسن :

- الطبعة الأولى ١٩٧٦ - « نفذت » .
- الطبعة الثانية ١٩٨١ .

● من واحد الى عشرة :

- الطبعة الأولى ١٩٧٧ .
- الطبعة الثانية ١٩٨١ .

● سنة ثانية سجن :

- الطبعة الأولى ١٩٧٧ .

● سنة ثالثة سجن :

- الطبعة الأولى ١٩٧٨ .

● لا ..

الطبعة الأولى ١٩٧٧ .

● لكل مقال أزمة :

الطبعة الأولى ١٩٧٩ .

● الـ ٢٠٠ فكرة :

الطبعة الأولى ١٩٧٩ .

● تحيا الديمقراطية :

الطبعة الأولى ١٩٨٠ .

● من عشرة لعشرين :

الطبعة الأولى ١٩٨١ .

● ● ●

رقم الايداع بدار الكتب والاثائق القومية ٤٩١٤ / ١٩٩٠



من واحد إلى عشرة . كتاب تسمعه
وتقرأه . تصغي فيه إلى نبض التاريخ والزمن .
وترى أحداثه . من خلال الموقع الفريد الذي
عاش فيه مصطفى أمين . الهرم الأكبر للصحافة
العربية . عاش في بيت الأمة . في بيت سعد
ورأى حياته . وأحداث الثورة . المظاهرات
الوفود . النفي . الفلاحات الفقيرات اللواتي
جنن إلى سعد بمصاعهن . لم ينصف كاتب
المرأة المصرية كما انصفها مصطفى أمين في
هذا الكتاب . إنه شهادة حية على تاريخ شعب
عريق

٤ جنيهاً